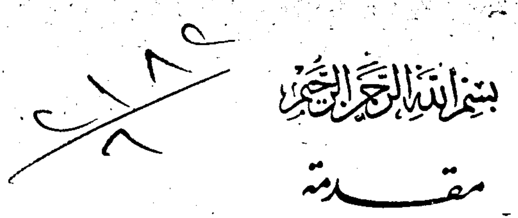
دكتور محمد كامل حسين
بكلية الآداب — جامعة فؤاد

في أدب مصر الفاطمية

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

فهرست الموضوعات



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الكتاب « فى أدب مصر الفاطمية » حلقة جديدة من سلسلة « أدب مصر الإسلامية » ، وكان من حقه أن يكون بين يدى الجمهور منذ خمسة عشر عاما ، ولكننا لم نشأ أن نخرجه للناس قبل أن نعطيهم صورة صحيحة لتلك النزعة الدينية التى تمايز بها عصر الفاطميين عن غيره من عصور مصر ، فقد خضعت مصر لهذا المذهب الدينى واتخذها أئمة هذا المذهب قاعدة ملكهم ، فأصبح هذا المذهب هو المحور الذى تدور عليه الحياة المصرية من اجتماعية وسياسية وفكرية وأدبية ، بحيث لا نستطيع أن نعرف حقيقة هذه الألوان المختلفة من الحياة المصرية فى عصر الفاطميين إلا على ضوء عقائد هذه الفرقة من فرق المسلمين . أدركنا هذه الحقيقة وقرأنا الكتب التى تحدثت عن الفاطميين وعقائدهم ، فرأينا هذه الكتب تعطينا صورا متناقضة أشد التناقض عن عقائد الفاطميين بحيث لا يستطيع أن يطمئن إليها باحث ، ففى الوقت الذى نرى فيه هذه الكتب تذهب إلى أن الفاطميين أقاموا دولتهم على أساس دينى إسلامى ، وأن الخلفاء الفاطميين اتخذوا سندهم من نسبتهم إلى الرسول الكريم صلى الله عليه ، وأن الفاطميين احتفلوا بالأعياد الدينية الإسلامية احتفالا لم يعهد من قبل ، وأنهم أسسوا المساجد لإقامة الصلوات ، وكانوا يخرجون لإمامة الناس والخطبة فى الأعياد إلى غير ذلك من المظاهر التى تشعر بأن الفاطميين كانوا من أشد الناس حرصا على الإسلام وتقاليد المسلمين ، فى الوقت نفسه نرى هذه الكتب أيضا تذهب إلى أن الفاطميين كانوا يقولون بالإباحة وتحليل ما حرمه الله تعالى ، ونبذوا الصلاة والصوم والحج ، بل عملوا على طرح الأديان ، ودانوا بالتناسخ والحلول والتلاشى وادعوا معرفة الغيب . . . إلى غير ذلك . قرأنا ذلك كله وعجبنا أشد العجب لهذا التناقض الذى وقع فيه القدماء والمحدثون ، فحرصنا على أن نرجع إلى كتب دعوة الفاطميين ، وراعنا أن القاهرة التى أنشأها الفاطميون وكانت قاعدة ملكهم الواسع لا تحتفظ بكتاب واحد من كتب الدعوة ، فسعينا إلى البحث فى غير مصر ، وكان السعى شاقا عسيراً كلفنا من الجهد والمال الشىء الكثير ، وما حيلتنا إذا كانت أكثر كتب الدعوة فى حوزة طاهر سيف الدين

الذي لقب نفسه بسلطان البهرة وزعم أنه الداعي المطلق لإمام مستور من نسل الأئمة الفاطميين ، وهو رجل شحيح بهذه الكتب على الباحثين بدعوى أنها كتب الدعوة السرية ، ولكن حجته هذه أوهن من بيت العنكبوت فإن الأئمة الفاطميين — الذين ورث دعوتهم — لم يستروا علومهم ، بل عملوا على نشرها وإذاعتها ، شجعوا العلم والعلماء ، وأنشأوا دار العلم وخزائن الكتب ليطلع عليها من يشاء متى يشاء ، وكانوا يطلبون من العلماء تأليف الكتب على النحو الذي سنراه في هذا الكتاب ، فطاهر سيف الدين الآن يعمل عكس ما عملة الأئمة ، ويأتي بآراء لم نعهدها في عصر الفاطميين ، ولعله يريد ان يظل أتباعه في جهل مطبق حتى يستطيع أن يخدعهم بهذه الآراء الرجعية التي لا سند لها من تقاليد الأئمة ونظمهم ، ومن يدري لعله يريد أن يستغل ما عليه أتباعه من جهل بحقيقة الدعوة الفاطمية كي يستولي على أموالهم باسم الدين ، شأنه في ذلك شأن كل دجال مشعوذ ، ومع ذلك كله في طائفة البهرة عدد من المثقفين المستنيرين الذين لا يعبأون بطاهر سيف الدين ولا يقيمون وزنا لضلالاته ، زودونا بالكتب التي حرصنا على تقديمها للجمهور قبل أن نقدم إليهم هذا الكتاب حتى يدركوا حقيقة الدعوة الفاطمية من كتب الدعاة أنفسهم ، فقد نشرنا ستة كتب فاطمية وسيتبعها كتب أخرى إن شاء الله .

والدعوة الفاطمية دعوة شيعية وقبل أن نتحدث عنها وعن أثرها في مصر نتساءل : إلى أي حد عرفت مصر التشيع قبل دخول الفاطميين بها ؟

كان المسلمون في مصر بعد الفتح العربي يجمعون على مذهب واحد ، ويخضعون لإمام واحد ، فلم نعرف انه كان بين العرب الوافدين من خالف في مسألة الإمامة ، أو تحدث عن تفضيل خليفة على آخر ، ولكن بدأ المسلمون في عهد عثمان بن عفان يتحدثون عن سياسته وتصرفاته ، فانتهز بعض المسلمين في مصر هذه الفرصة ودعوا لخلعه ، ويروي الطبري قصة عجيبة عن ثورة المصريين ضد عثمان ، وأن ذلك كان بتأثير عبد الله بن سبأ !!

يقول الطبري : « كان عبد الله بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، فأسلم زمان عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام ، فاخرجوه حتى أتى مصر ، فاعتمر فيهم ، فقال لهم فيما قال : لعجب من يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمدا يرجع ، وقد قال الله عز وجل : « إن الذي

فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » ، فمحمد أحق بالرجوع من عيسى ، فقبل ذلك عنه ، ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها ، ثم قال لهم بعد ذلك إنه كان ألف نبي ، ولكل نبي وصي وكان علي وصي النبي ، ثم قال محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء ... الخ (١) ، وهكذا ساق الطبري هذه الرواية بين روايات عديدة عن سبب قيام المصريين ضد عثمان ، ونحن نعجب لهذه الرواية إذ لم أجد في كتب التاريخ التي وضعها المصريون عن بلدهم وعن تراجم رجال مصر مثل كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم وكتب الكندي وابن الداية وابن زولاق ، أو في كتب المتأخرين الذين نقلوا عن هؤلاء المؤرخين القدماء ما يشير إلى وفود شخصية عبد الله بن سبأ على مصر ، أو أن أحدا من المصريين قال بمثل هذه المقالة التي زعم الطبري أن ابن سبأ علمها للمصريين ، فلو صحت رواية الطبري لرأينا شيئا من إنكار الصحابة الذين كانوا في مصر إذ ذاك لهذه الدعوة السبأية ، ومعارضتهم لها ، ولا سيما أن ابن عبد الحكم وغيره رووا بعض الأحاديث عن صحابة مصر وترجموا لهم ولم يرد ذكر ابن سبأ ولا آرائه . ولم يذكروا شيئا عن انكار هذه الآراء أو معارضتها ، فقصة ابن سبأ في مصر ، وأنه بث آراء التشيع بين المصريين هي أقرب إلى الخرافات منها إلى أي شيء آخر .

حقيقة ثار بعض المصريين على عثمان ، وقام محمد بن أبي حذيفة بانتزاع الإمارة في مصر ، وطرد عامل عثمان من الفسطاط سنة ٣٥ هـ وزج بعدد من شيعة عثمان في السجون ، ولكن ليس معنى ذلك أن ابن سبأ هو الذي أثر على الناس وألبهم على عثمان ، إنما كان ذلك بتدبير بعض أبناء الصحابة الذين كرهوا أن يكون أمير مصر هو عبدالله بن أبي سرح أخو عثمان في الرضاعة ، وكبر في نفوسهم أن يعزل عمرو بن العاص عن مصر ، فلم تكن ثورة المصريين ضد عثمان تمت بسبب إلى تشيع المصريين إلى علي بن أبي طالب أو المطالبة بإمامته ، وبالرغم من أن المصريين هم الذين بايعوا عليا بالخلافة بعد مقتل عثمان ، فإن ذلك لم يكن عن حب خالص له أو عن عقيدة بأنه أحق الناس بها ، فالمفاوضات التي كانت قبل مبايعته تدل على أنهم نظروا إلى علي بن أبي طالب نظرتهم إلى غيره من الصحابة ، أضف إلى ذلك إن المصريين بعد أن بايعوا عليا عادوا إلى الفسطاط وهم يرجزون :

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٩٨ (طبعة مصر) .

خذها إليك واحذرن أبا الحسن

إنا نمر الحرب إمرار الرسن

بالسيف لن تخمد نيران الفتن

ففي هذا الرجز تحذير للإمام الجديد علي بن أبي طالب ، فإن سار على نهج عثمان في سياسته فهي الحروب الدائمة والفتن المستمرة ، فهذا دليل على أن المصريين لم يذهبوا في علي بن أبي طالب ما رواه الطبري عن ابن سبأ ، وأن المصريين لم يقدسوا علياً أو يقولوا بوصايته ، ثم أننا نرى المسلمين في مصر انقسموا بعد مقتل عثمان إلى فريقين : فريق يطالب بدم المقتول ، وفريق يؤيد خلافة علي ، وكانت مصر من الولايات التي خضعت للأمراء الذين أرسلهم علي ، ولكن أنصار علي لم يكن لهم شأن كبير في الأحداث التي جرت ، ولم يقيموا وزناً للنزاع بين علي ومعاوية ، فقد سم الأشتر النخعي على حدود مصر ، وقتل الوالي محمد بن أبي بكر الصديق، وأدخلت جثته في إهاب حمار وأحرقت على مرأى من المصريين فلم يحرك شيعته ساكناً ، فلو كان التشيع في مصر قويا لأسهم الشيعة في النزاع بين علي ومعاوية ولناصروا علياً ، ونحن نتساءل أيضا ، أين كان شيعة مصر عند ما قتل علي وبعد مقتل الحسين ؟ وأين كان شيعة مصر إبان حركة المختار الثقفي ؟ هذه أسئلة لم يجب عنها المؤرخون ، فالمصادر التي بين أيدينا لم تذكر شيئا عن قيام الشيعة بمصر في المساهمة في الحركات الشيعية التي كانت في الأقطار الأخرى ، مما يجعلنا نذهب إلى أن الشيعة في مصر كانوا من الضعف لدرجة أنهم لم يؤثروا في الحياة السياسية والعقلية ، ولذلك نعجب لقول المؤرخين الذين يزعمون أنه بعد أن تم الأمر للأمويين أصبح الجند وأهل شوكة مصر عثمانية وكثير من أهلها علوية(1) . والمقصود بالعثمانية أهل الكف الذين قالوا كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل . وإذا كان هذا موقف الشيعة في مصر من علي وابنه الحسين فكيف نرى عدداً من المصريين يخرج لمناصرة عبد الله بن الزبير في ثورته سنة ٦٤ هـ ضد الأمويين ، بل نرى ابن الزبير يرسل والياً من قبله على مصر هو عبد الرحمن بن جحدم الفهري وهو من الخوارج ، وقد قدم مصر ومعه عدد كبير من الخوارج فأظهروا بمصر التحكيم ودعوا إليه(2) ثم عادت الشوكة والقوة للعثمانية بعد فشل الزبيريين وعودة مصر لسلطان

(1) المقريزي : الخطط ج ٤ ص ١٥١ (2) الكندي : الولاة والقضاء ص ٤١

الأمويين ، وكان الأمويون يظهرون في مصر سب علي بن أبي طالب دون خشية ثورة الشيعة وذلك لضعف شأن الشيعة في مصر ، ومع ذلك فقد روى المقريزي عن يزيد بن أبي حبيب المتوفى سنة ١٢٨ هـ أنه قاله : نشأت بمصر وهي علوية فقلبتها عثمانية (1) . فإن صح هذا القول عن يزيد فإنما يدل على أن بعض المصريين كانوا يتحدثون عن فضائل علي ، وأن يزيد استطاع أن يصرف الناس عن ذلك ويجعلهم يميلون إلى رأي أهل الكف والمسائل الفقهية ، ولا نستطيع أن نقول إن المصريين شغلوا بالآراء الشيعية التي شغلت شيعة العراق وفارس ، فإننا نستطيع أن نمر بالعصر الأموي في مصر دون أن نسمع شيئاً عن الشيعة بمصر ، ومن يدري لعله كان بمصر شيعة هواهم مع أبناء علي وقلوبهم مع أهل البيت ولكن سيوفهم كانت مع بني أمية ، وأغفلت كتب التاريخ الحديث عنهم فاصبحنا لاندري شيئا عن نشاط الشيعة في مصر في هذا العصر الأموي ولا عن العقائد التي دانوا بها إلا ماقيل عن قصة فرار مروان بن محمد إلى مصر من وجه المسودة ، فقد وجد الدعوة الجديدة سبقته إلى مصر ووجدت بين المصريين قبولا ، وقد ذكر الكندي أسماء زعماء هذه الحركة بمصر ، ففي الحوف الشرقي كان أول من لبس السواد شرحبيل بن مذيلفه الكلبي ، وفي الاسكندرية كان الأسود بن نافع ، وبالصعيد عبدالأعلى بن سعيد الجيشاني ، وبأسوان يحيى بن مسلم(2) ، ونحن نعلم أن دعوة المسودة في أول أمرها كانت للرضا من أهل البيت ، وتوهم الشيعة في جميع الأقطار الاسلامية أن الدعوة لهم فاستجابوا لها ونشطوا مع القائمين بها ، فلعل هؤلاء الذين دعوا للمسودة في مصر كانوا من الشيعة وتوهموا ما وهمه غيرهم ، فإن صح ذلك فتكون هذه أول حركة شيعية في مصر علمنا بها . ومهما يكن من شيء فإن مروان استطاع أن يقضي على هذه الحركة وأن يقتل زعماءها ، ولكن القدر لم يمهله كي يستمر في حكم مصر ، فقد دخلت جيوش العباسيين مصر سنة ١٣٣ هـ وقبض على مروان بن محمد ومن معه من الموالين للأمويين وخضعت مصر للعباسيين ، وكان العباسيون في مبدأ أمرهم يتحببون إلى الشيعة ، فمحي من مصر سب علي وآله ، وظن العلويون أن الأيام أقبلت عليهم ، وجاءت دولتهم التي طالما حلموا بها ، ولكنهم سرعان ما فطنوا إلى أن العباسيين نقمة حلت بهم ، ذلك أن العباسيين نكلوا بأهل البيت

(1) المقريزي : الخطط ج ٤ ص ١٤٦ (2) الكندي : الولاة والقضاة ص ٩٤

ومن لاذ بهم أو من عرف بولايتهم ، فلا غرابة إذا كنا نرى فى العصر العباسى سلسلة حركات شيعية تظهر من وقت إلى آخر ، وأمعن الشيعة فى التقية وأكثروا من الدعوات السرية المختلفة وكانت مصر من الميادين التى ظهرت فيها بعض حركات الشيعة فى العصر العباسى ، ففى خلافة أبى جعفر المنصور قدم مصر سنة ١٤٤ هـ على بن محمد بن عبد الله ودعا لأبيه النفس الزكية ، وانتشرت دعوته فى البلاد على يد الداعى خالد بن سعيد بن ربيعة الصدفى ولكن الوالى العباسى استطاع أن يقضى على هذه الحركة(١) . وفى عهد المتوكل العباسى أرسل إلى والى مصر بإخراج كل أهل البيت من مصر إلى العراق فأخرج الوالى اسحق بن يحيى سنة ٢٣٥ هـ بعض أهل البيت بعد أن فرق فيهم الأموال ليتحملوا بها فأعطى كل رجل ثلاثين ديناراً والمرأة خمسة عشر ديناراً(٢) ، فاضطر من كان بمصر من الشيعة إلى التقية خوفا من بطش العباسيين . ولا سيما بعد أن أصبح أكثر الولاة فى مصر من الأتراك الذين كانوا شديدى التعصب ضد الشيعة ، ولعل أكثر الولاة الأتراك اضطهادا للشيعة ومطاردة لهم هو الوالى يزيد بن عبد الله الذى ولى مصر سنة ٢٤٢ هـ وظل على مصر حتى سنة ٢٥٥ هـ وتذكر كتب التاريخ قصصا عديدة عما أتاه هذا الوالى من اضطهاد للشيعة ، من ذلك أنه ضرب رجلا من الجند فى شيء وجب عليه فأقسم الجندى عليه بحق الحسن والحسين إلا أعفاه فزاده الوالى ثلاثين درة ، ورفع صاحب البريد أمر هذا الجندى إلى الخليفة فى بغداد فأمر بضربه مائة سوط ثم حمل بعد ذلك إلى بغداد(٣) ، وفى أيامه دل على علوى هو محمد بن على بن الحسن بن على زين العابدين فذهب الوالى وأحرق الموضع الذى به العلوى بعد أن قبض عليه(٤) ، وفى أيامه أيضا أتاه من بغداد بأن لا يقبل علوى ضيعة ولا يركب فرسا ، ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها ، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد ، ومن كانت بينه وبين أحد العلويين خصومة قبل قول خصمه فيه ولم يطالب ببينة(٥) وفى سنة ٢٥٠ هـ أخرج هذا الوالى ستة رجال من الطالبيين إلى العراق ، وفى رجب من السنة التالية أخرج ثمانية منهم(٦) ، وكانت هذه السياسة التعسفية

(١) المقريزى : الخطط ج ٤ ص ١٥٣ (٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٩٨
(٣) المقريزى : الخطط ج ٤ ص ١٥٣ (٤) الكندى : الولاة والقضاء ص ٢٠٤
(٥) المقريزى : الخطط ج ٤ ص ١٥٤ (٦) الكندى : الولاة ص ٢٠٥

سيما فى أن ينضم أحد العلويين وهو عبد الله بن احمد بن محمد المعروف بابن الأرقط إلى ثورة جابر المدلجى سنة ٢٥٢ هـ وقوى الثائرون بانضمامه إليهم وزاد عددهم فهزموا جيش الوالى الذى استعان بالخليفة العباسى فأمده الجيش بقيادة مزاحم ابن خاقان فأخمدت الثورة واستأمن ابن الأرقط العلوى فأخرج من مصر(١) ، وفى سنة ٢٥٤ هـ ثار بغا الأكبر وهو أحمد بن ابراهيم بن عبد الله بن طباطبا ولكنه هزم وقتل ، وفى سنة ٢٥٥ هـ فى ولاية أحمد بن طولون خرج بغا الأصغر وهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا وانتشرت دعوته فى الإسكندرية وبرقة والصعيد ولكنه قتل ، وفى هذه السنة أيضا خرج بمصر ابن الصوفى وهو إبراهيم بن محمد بن يحيى من نسل عمر بن أبى طالب واستمر ثائرا يحارب ابن طولون أربع سنوات إلى أن هزم فاضطر إلى أن يهرب إلى مكة سنة ٢٥٩ هـ

وكانت المصائب التى صبها الجند من السودان على الشيعة بمصر أضعاف ما نال الشيعة من اضطهاد الولاة ، فقد كثر عدد السودان فى مصر واستفحل أمرهم ، فأصبحوا مصدر فتن بين أهل السنة والشيعة ، ففى سنة ٣٥٠ هـ خرج شيعة مصر إلى قبر كلثوم بنت القاسم بن محمد بن جعفر الصادق وأقاموا هناك مأتم الحسين ، فتدخل الجند واضطربت الأمور بين الجند والشيعة ، وقتل جماعة من الفريقين فلم يكتف الجند من السودان بذلك بل ساروا فى الطرقات يصيحون : معاوية خال على !! حتى أنهم كانوا يصيحون بنقيب الأشراف الحسنيين أبى جعفر مسلم ويهتفون بذلك فى وجهه(٢) ، ولما ورد الخبر بقيام بنى الحسن بمكة ومحاربتهم الحاج ، خرج خلق من المصريين ولقوا كافورا الأخشيدى بالميدان وصاحوا : معاوية خال على !! وسألوه أن يبعث جيشاً لمحاربة بنى الحسن(٣) .

وهكذا كان حال الشيعة فى مصر ، فقد أصابهم ما أصاب غيرهم فى الأقطار الإسلامية من اضطهاد العباسيين ونقمتهم ، وهذه الأمثلة التى أوردنا بعضها إن دلت على شيء فإنما تدل على أن التشيع بدأ يدخل مصر ، بل أخذ يقوى ويشتد أزره ، وأصبح الشيعة يؤثرون فى الحياة العامة بمصر ويقومون بثورات ضد الولاة . أضف إلى ذلك أن مصر فى هذا العصر شاهدت عددا من العلماء الذين كانوا يفضلون عليا على الشيخين ، ويخلصون فى حبهم لأهل البيت ولعل الشافعى

(١) نفس المصدر ص ٢٠٨ (٢) المقريزى : الخطط ج ٤ ص ١٥٥
(٣) شرحه

أصدق مثل لذلك ، فى شعره مايدل على عاطفة خالصة قوية لآل البيت فهو يقول :ـ

يا آل بيت رسول الله حبكم   فرض من الله فى القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم الفخر أنكم   من لم يصل عليكم لاصلاة له (١)

فهذا قول إمام من أئمة أهل السنة ، وصاحب مذهب فقهى من مذاهبهم ، فقد ذهب إلى أن حب أهل البيت فرض أنزله الله تعالى فى القرآن ، وان الله تعالى لا يقبل صلاة من لايصلى على أهل البيت ، وهذه آراء شيعية لا يقول بها إلا متعصب فى تشيعه ، ونحن نشك فى أن تصدر مثل هذه الآراء من الشافعى ونخشى أن تكون موضوعة ونسبت إليه ، ولكن الشافعى يظهر مرة أخرى أنه يحب عليا ولاينكر فضل الشيخين ، وهذا الرأى يخالف الرأى السابق فالشافعى يقول

إذا نحن فضلنا عليا فإننا   روافض بالتفضيل عند ذوى الجهل
وفضل أبى بكر إذا ماذكرته   رميت بنصب عند ذكرى للفضل
فلا زلت ذا رفض ونصب كلاهما   بحبيهما حتى أوسد فى الرمل

وهكذا كان الشافعى فى أحاديثه وأماليه وأشعاره يشيد بفضل على وحبه ، وأخذ المصريون عن الشافعى فيما أخذوه هذا الحب لأهل البيت . واتخذ المصريون عادة التبرك بأهل البيت أحياء وأمواتا ، فقد قيل إنه فى سنة ٢٠٨ هـ توفيت بمصر السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد فأراد زوجها اسحق بن جعفر الصادق أن يحملها ليدفنها بالمدينة ، ولكن أهل مصر سألوه أن يتركها فى مصر ليتبركوا بها(٢) فدفنت فى مصر وبنى قبرها الوالى عبيد الله بن السرى بن الحكم ، ولايزال قبرها إلى الآن مقصد المسلمين فى مصر يتبركون بها . ووضع النسائى المحدث المعروف كتابا فى فضائل على بن أبى طالب رواه عنه المصريون ومنهم القاضى الفقيه محمد بن احمد بن الحداد (٣) وكان هذا القاضى ممن يفضلون عليا ولكنه لم يستطع أن يصرح بذلك خوفا من السلطان ومن شغب العامة، وروى ابن زولاق أن ابن الحداد كان فى مجلس أبى القاسم بن الأخشيد مع جماعة، فلما نهض ابن الحداد أمسكه ابن الأخشيد وسأله : أيهما أفضل أبو بكر وعمر أم على ؟ فقال القاضى الاثنان حذاء واحد . فكرر عليه السؤال فقال ابن الحداد : إن كان عندك فعلى وإن كان برّه (فى الخارج) فابو بكر (٤) . وشبيه بهذا مايرويه ابن زولاق أيضاً

(١) الجوهر النفيس ص ٤٦   (٢) المقريزى : الخطط جـ ص ٣١٥
(٣) ابن حجر العسقلانى : رفع الإصر (نسخة خطية بدار الكتب المصرية) .
(٤) نفس المصدر

عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم فقيه مصر ورئيس مذهب مالك فى عصره أن رجلا سأله : أيهما أفضل أبو بكر وعمر أم على ؟ فاستعفاه ابن عبد الحكم فألح عليه الرجل ،فقال له ابن عبد الحكم : إن أخبرت أحدا عما أقول لك كلت أحمد بن طولون الأمير فضربك بالسياط ، على أفضل(١) . وقيل إن يموت بن المزرع كان فى حلقته يلقى دروسه الأدبية واللغوية على المصريين فتطرق الحديث عن أبى بكر وعمر وعلى فانقسم الناس إلى طائفتين طائفة تزيد فضائل على ، وطائفة تزيد فضائل أبى بكر وكانت هذه الطائفة الأخيرة أكبر (٢) فهذا كله يدل على أن المصريين أخذوا ينقسمون بين أبى بكر وعلى ، وأن الحديث قد كثر فى التفضيل بينهما ، ولكن الذين كانوا يفضلون عليا كانوا يتسترون خوفا من شغب العامة وبطش الولاة وجندهم من السودان .

على أن أمر الشيعة بمصر أخذ يقوى منذ استطاع دعاة عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية من بسط دعوتهم فى شمال افريقيا وتقويض أركان دولة بنى الأغلب ، وقد كان للمهدى دعاة وأنصار بمصر ، ويحدثنا القاضى النعمان فى كتابه افتتاح الدعوة ، أن المهدى نفسه دخل مصر مستترا فى زى التجار هربا من العباسيين ، فأتت الكتب من بغداد إلى والى مصر بصفة المهدى والأمر فى طلبه وكان بعض أهل خاصة ذلك الوالى وليا مؤمنا (بدعوة المهدى) فأسرع إلى المهدى بالخبر، ولطف فى أمره إلى أن خرج المهدى من مصر ومعه القائم وبعض عبيده(٣) . ويروى صاحب سيرة جعفر بن على الحاجب . وسرنا (أى المهدى ورجاله) من الرملة إلى مصر ، فاستقبلنا أبو على الداعى ، وكان مقيما يدعو بها وأكثر دعاة الإمام من قبله . وكان فيروز الذى رعاه ورباه وزوجه ابنته أم أبى الحسين ولده ، فتقدم إليه المهدى ع . م قبل دخولنا مصر بأن لاينزله عنده ولا عند من يشار إليه بشىء من أمرنا ، وأن ينزله عند من يثق به فأنزله عند ابن عياش(٤) . ويقول فى موضع آخر عن داعى المهدى بمصر ، ولما صح عند فيروز خروج المهدى إلى المغرب تغيرت نيته وعزم على النفاق ، وكان قد زوج ابنته كما ذكرنا أولا بأبى على الداعى بمصر ، ومحمد أبو الحسين بن أبى على الداعى ولده ، وقد بلغ محمد أبو الحسين هذا مع الأئمة المهدى بالله والقائم بأمر الله

(١) نفس المصدر   (٢) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣٩
(٣) النعمان بن محمد : افتتاح الدعوة (نسخة خطية بمكتبتى) .
(٤) سيرة جعفر : نسخة خطية بمكتبتى

والمنصور بالله والمعز لدين الله صلوات الله عليهم المحل الجليل العظيم وكان داعى الدعاة (١). ولما تم الأمر للمهدى بالمغرب سنة ٢٩٦ هـ راسله شيعته بمصر للنهوض إليها ، وفعلا حاول الفاطميون غزو مصر عدة مرات ، منها تلك الحملة التى كانت بقيادة حباسة بن يوسف الكتامى التى نجحت فى دخول الإسكندرية ولكن تكاثرت جيوش العباسيين فانهزم حباسة (٢) وشعر والى مصر أن بين المصريين من كاتب الفاطميين لغزو البلاد فتتبعهم الوالى وسجن منهم عددا كبيراً ، وعذب آخرين بقطع أيديهم وأرجلهم (٣) ، وفى ذلك قال الشاعر المصرى ابن مهران :

وقد وافى حباسة فى كتام ... بكل مهند وبكل خطى
وقد حشدوا لمصر ودون مصر ... له خرط القتاد وأى خرط
وأقبل جاهلا حتى تخطى ... وجاز بجهله حد التخطى
بكتب جماعة قد كاتبوه ... من اقباط بمصر وغير قبطى
وكل كاتبوه ونافقونا ... وكل فى البلاد له موطى
فقل لحباسة إن كنت عنا ... مضيت فإن قتلك ليس يبطى (٤)

كذلك نذكر الحملة التى كان يقودها القائم بأمر الله فى سنة ٣٠٧ هـ فقد فتح القائم بأمر الله الاسكندرية ثم سار إلى الفيوم وكاتب المصريين بالنثر تارة وبالشعر تارة أخرى ، فكان القائد مؤنس الخادم يصادر هذه المكاتبات ويرسلها إلى الخليفة العباسى المقتدر وظلت أحوال القائم بمصر مضطربة حتى اضطر إلى العودة إلى المغرب سنة ٣٠٩ هـ ، وقد حفظ عريب بن سعد القرطبى صورة مقطوعة من الشعر قيل إن القائم أرسلها إلى شيعته من المصريين يستنهض هممهم ، وذهب عريب إلى أن هذه المقطوعة أرسلت إلى بغداد وأن الخليفة أمر محمد بن يحيى الصولى بالرد عليها ؛ وهاك المقطوعة .

أيا أهل شرق الله زالت حلومكم ... أم اختدعت من قلة الفهم والأدب
صلاتكم مع من ؟ وحجكم بمن ؟ ... وغزوكم فيمن ؟ أجيبوا بلا كذب
صلاتكم والحج والغزو ويلكم ... بشراب خمر عاكفين على الريب
ألم ترنى بعت الرفاهة بالسرى ... وقمت بأمر الله حقا كما وجب
صبرت وفى الصبر النجاح وربما ... تعجل ذو رأى فأخطأ ولم يصب

(١) نفس المصدر
(٢) الكندى : الولاة ص ٢٧١
(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٨١
(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٧٢

إلى أن أراد الله إعزاز دينه ... فقمت بأمر الله قومة محتسب
وناديت أهل الغرب دعوة واثق ... برب كريم من تولاه لم يخب
فجاءوا سراعا نحو أصيد ماجد ... يبادونه بالطوع من جملة العرب
وسرت بخيل الله تلقاء أرضكم ... وقد لاح وجه الموت من خلل الحجب
وأردفتها خيلا عتاقا يقودها ... رجال كأمثال الليوث لها جنب
شعارهم جدى ودعوتهم أبى ... وقولهم قولى على النأى والقرب
فكان بحمد الله ما قد عرفتم ... وفزت بسهم الفلج والنصر والغلب
وذلك دأبى ما بقيت ودأبكم ... فدونكم حربا تضرم كاللهب (١)

وتتابعت غزوات الفاطميين لمصر فكانت ترد مهزومة مدحورة ، فاضطر شيعة المهدى إلى اتخاذ التقية وإلى الدعوة السرية حتى ولى كافور نيابة عن ابن سيده الحسن بن عبد الله بن طغج وكان ابن طغج ضعيفا فطمع فيه الجند وكرهوه ، واستغل ضعفه أحد دعاة الفاطميين وهو أبو جعفر بن نصر وحبب إليه دخول مذهبه ومكاتبة المعز لدين الله (٢) ويذكر ابن زولاق أنه كان بمصر داعية آخر يسمى بأبى عيسى عبد العزيز بن أحمد (٣) ، ويخيل إلى أن أبا جعفر بن نصر الداعى كان معروفا أكثر من صاحبه وأنه كان من جلساء كافور وبنى طغج ، وعرف عنه الدعوة للفاطميين فى مصر ولا أدرى سبب سكوت الأمير عنه ، ويذكر ابن زولاق أن هذا الداعى بنى دارا له بمصر فمر عليه سيبويه المصرى فقال : كافور الأسود غدا يؤخذ بأذنه ، إنما بنيت هذه الدار لصاحب المغرب تؤخذ فيها البيعة على كل تابع ومتبوع ، وذليل ومرفوع تغير فيها الأحوال وتحمل إليها الأموال (٤) معنى هذا كله أن الدعوة الفاطمية كانت أسبق إلى مصر من جيوش الفاطميين وأن الدعاة استطاعوا أن يبذروا بين بعض المصريين عقائد الفاطميين فاستجاب لهم من استجاب وكانوا عونا لجيش جوهر القائد فى دخول مصر سنة ٣٥٨ هـ إذن كان بمصر شيعة ، ولكننا لا ندرى إلى أى فرقة من فرق الشيعة كان المصريون ، ويغلب على ظنى أن المصريين لم يعتنقوا مذهبا من مذاهب التشيع

(١) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٤٢
(٢) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٤٠ ، وأبو المحاسن : النجوم ج ٤ ص ٧٣
(٣) نفس المصدر ص ٢٣
(٤) نفس المصدر ص ٤٠

كغيرهم من فرق الشيعة الأخرى ، ولم يتخذوا التشيع من ناحية العبادة العملية كما فعل غيرهم ، إنما كان هواهم مع على بن أبى طالب وأهل بيته ، ولكنهم لم يجاهدوا كما جاهد الشيعة فى الأقطار الأخرى ، ولم يفلسفوا عقيدتهم الدينية على النحو الذى نراه عند غيرهم ، بل اكتفوا بالقول بتفضيل على ، وحرصوا على حبهم وولائهم لأهل البيت ، يكرمون الأحياء ويتبركون بالأموات ، حتى دخل جوهر مصر ، ووجد المصريون أنفسهم أن لا طاقة لهم بقتاله وصده عن ديارهم ، فارسلوا إليه وفدا برياسة أحد العلويين بمصر كان نقيب الأشراف الحسنيين بها وهو أبو جعفر مسلم بن عبد الله الحسنى ، وطلبوا من جوهر الأمان والصلح ، فأجابهم ، وكتب لهم الأمان وفيه نص بتأمين المصريين على عقيدتهم فقد كان السواد الأعظم من المصريين حريصين أشد الحرص على أن لا يتحولوا عن مذهبهم الدينى الذى كانوا عليه وهو مذهب أهل الجماعة والسنة ، وان لا يتعرض الفاطميون لعقائدهم التى دانوا بها ، فألحوا فى أن يذكر جوهر ذلك فى كتاب أمانه لهم . فهل وفى الفاطميون فى مصر بذلك ؟ الواقع أن الفاطميين لم يحترموا الأمان الذى أعطاه جوهر للمصريين فقد عملوا على تشيع المصريين على النحو الذى سنراه فى هذا الكتاب ، فأصبحت مصر شيعية لها من الآراء ما تمايز به فى هذا العصر عن جميع عصورها التاريخية ، وأثرت هذه العقائد الفاطمية الجديدة على الحياة المصرية بل تعدت مصر إلى غيرها من البلدان الأخرى ولاسيما التى خضعت لنفوذ الفاطميين ، فأثرت فى الحياة العقلية الإسلامية تأثيراً كان له خطره فى جميع البلدان الاسلامية .

وهذا الكتاب هو محاولة الكشف عن الحياة العقلية والأدبية بمصر فى عصر الفاطميين ، وهو عصر غامض لنا أشد الغموض بالرغم مما كتب حوله ، وكان عصر الفاطميين عصرا زاهرا فى الأدب والعلم ولكن ما بقى لنا من آثار هذه الفنون والعلوم شىء قليل جدا متفرق فى كتب مختلفة ، وقد حاولنا بما بقى لنا أن نعطى صورة لما كانت عليه الحياة العقلية والأدبية ، ونرجو أن نكون قد وفقنا فى هذه المحاولة ؟

جزيرة الروضة فى ١٥ إبريل سنة ١٩٥٠
٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٩

محمد كامل حسين

الكتاب الأول

الحياة العقلية

الباب الأول

فى الدعوة الفاطمية

الفصل الأول

عقائد الفاطميين

جاء الفاطميون مصر يدعون إلى عقيدة تختلف عما كان عليه أكثر المسلمين ، فقد كان السواد الأعظم من مسلمى مصر ينقسمون بين مذهب مالك وبين مذهب الشافعى ، وقليل منهم من كان على مذهب أبى حنيفة . ومهما كانت الفروق بين هذه المذاهب فكلها من مذاهب أهل السنة والجماعة التى تخالف عقائد الفرق الشيعية وتباينها ؛ والفاطميون فرقة من فرق الشيعة عرفت بالإسماعيلية نسبة إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق . قال الفاطميون بنبوة محمد عليه السلام ، ووصاية على بن أبى طالب[1] ، وإمامة ابنه الحسن فالحسين ، فزين العابدين ، فمحمد الباقر ، فجعفر الصادق . فهم على هذا النحو يتفقون فى تسلسل الإمامة مع الشيعة الاثنى عشرية . وبعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ ﻫ انقسمت الشيعة الإمامية إلى الاسماعيلية (وهى الفرقة التى قالت بإمامة إسماعيل بن جعفر فابنه محمد بن إسماعيل فأئمة (دور الستر) وهم عبد الله بن محمد ، فأحمد بن عبد الله فالحسين بن أحمد[2]
ثم أئمة دور الظهور

(١) قال الفاطميون إن مرتبة الوصاية أسمى من مرتبة الامامة وأقل من مرتبة النبوة فعلى ابن أبى طالب فى مرتبة أقل من مرتبة محمد عليه السلام وأرفع من مرتبة أبنائه الأئمة ولذلك لايعدونه إماما من أئمتهم بل قالوا إنه وصى النبي ، أما الشيعة الإمامية فقالوا بأن عليا وصى وهو أول إمام من أئمتهم .

(٢) اختلف المؤرخون فى هؤلاء الأئمة المستورين ، فنهم من قال بأن عبد الله بن محمد هو عبد الله بن ميمون القداح الذى ينسب اليه بعض المؤرخين أصل الخلفاء الفاطميين ، ولعل السر الذى لم يعرف كنهه إلى الآن هو فى هؤلاء الأئمة المستورين ، فالحديث عنهم أقرب إلى الخرافات منه إلى الواقع ، فالإمام المستور عند الاسماعيلية لايعرف إلا لأقرب الناس إليه ، وإمعانا فى الستر=

ثم أئمة دور الظهور وأولهم عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية. وإذا قرأنا كتب دعاة الفاطميين استطعنا أن نطمئن إلى أن الفاطميين نظروا إلى أئمتهم على أنهم من البشر، يجرى عليهم ما يجرى على البشر من موت وحياة، فهم فى ذلك يخالفون الغلاة من الشيعة الذين ألهوا عليا والأئمة من ذريته، وقالوا إنهم أحياء يرزقون. ويخالفون الشيعة الاثنى عشرية الذين ذهبوا إلى غيبة الإمام محمد بن الحسن العسكرى وأنه سيظل حيا حتى يعود ليملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا. وقال الفاطميون إن الإمامة تنتقل من الآباء إلى الأبناء ولا تنتقل من أخ إلى أخ بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين ابنى على بن أبى طالب، فالأب ينص على ابنه فى حياته وهذه العقيدة أصل من أصول المذهب فى تسلسل الإمامة عند الفاطميين، وقد أولوا قول الله تعالى «وجعلها كلمة باقية فى عقبه» بأن الله سبحانه وتعالى لا يترك العالم خاليا من إمام ظاهر مكشوف أو باطن مستور تنتقل الإمامة إليه بعد أبيه الإمام من نسل على بن أبى طالب.

والإمام حجة الله على عباده وهاديهم إلى الطريق القويم. فوجب على كل مؤمن أن يتبع هذا الإمام. وجعلوا ولاية الإمام أحد أركان الدين ودعائمه، بل ذهبوا إلى أن الولاية أفضل دعائم الدين وأقواها ولا يستقيم الدين إلا بها. قال المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى فى مجالسه: «فلو أن رجلا عمل بفرائض الله تعالى وسننه التى جاء بها رسوله كلها، ثم لم يقترن بعمله اعتقاد ولاية الرسول عليه الصلاة والسلام الآتى بها لم يغن عنه ما عمل فتيلا، ولم يتبع غير أهل النار سبيلا. إذ ولاية الرسول كالمركز الذى تدور عليه دائرة الفرائض، فلا يصح وجودها إلا بوجوده، وإذا كانت هذه نصبة الرسول فى حياته كانت نصبة من يوليه أمر دينه مثلها، وكذلك نصبة من يليه ومن يلى من يليه ما انتقلت الولاية من واحد إلى واحد، وورثها ولد عن والد، إذ الولاية هى الأصل الذى يدور عليه موضوع الفرائض»[1] وبهذا الرأى يقول الشيعة الإمامية جميعا، وهو ما يمتازون به عن

= يلقبهم بلقبه ويسميهم باسمه ويكنيهم بكنيته. ومن هنا التبس أمر نسب الفاطميين على المؤرخين بحيث لم يقطعوا برأى فيه إلى الآن، وكل حديث عن هؤلاء المستورين يحتاج إلى أدلة لإثباته. ومن الصعب الحصول على هذه الأدلة، ولذلك تعمدنا إغفال الحديث عن نسب الفاطميين إلى أن نستطيع الحصول على نصوص يمكن الاعتماد عليها

(١) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٥ (نسخة خطية بمكتبتى الخاصة)

جمهور أهل السنة، وأيد الشيعة الإمامية ومنهم الإسماعيلية هذا الرأى بقصة تروى أن النبى بعد أن أدى حجة الوداع ونزل عند (غدير خم) فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة، هناك أنزل عليه قوله تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) فذهب الشيعة إلى أن النبى الكريم صدع بأمر ربه، وأمر بالصلاة حتى إذا انتهى منها أخذ بيد على بن أبى طالب فقال، ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم، قالوا: بلى. قال: ألستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه! قالوا: بلى، قال: من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيث دار، واعتبر الشيعة قول الرسول عليه السلام تبليغا لأمر الله تعالى، ونصا صريحا بوجوب اتباع على وولايته، ومن بعده من ذريته المنصوص عليهم، وقد أخرج أحمد بن حنبل فى مسنده الكبير من حديث البراء بن عازب هذه القصة وأتبعها بقوله: فلقيه (أى لقى عليا) عمر بن الخطاب، فقال: هنيئا لك يا بن أبى طالب أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة[1].

فالشيعة الإمامية على اتفاق مع الإسماعيلية فى وجوب ولاية الوصى على ابن أبى طالب، ويروون عن النبى أحاديث كثيرة فى شأن على مثل قولهم: «أنا مدينة العلم وعلى بابها» و«على منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى»، و«أنا المنذر وعلى الهادى من بعدى»، و«النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتى أمان لأهل الأرض»، و«من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»، و«أهل بيتى كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تركها غرق»، و«إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى»[2] واشترك الفاطميون فى رواية هذه الأحاديث وغيرها. واتخذ الفاطميون دليلا آخر أخذوه من تاريخ الأنبياء الذين سبقوا دور محمد عليه السلام فذهبوا إلى أن لكل نبى وصيا يكل إليه أمر المؤمنين، وأن الله تعالى هو الذى

(١) راجع الجزء الأول من مسند أحمد بن حنبل ص ٨٤، ١١٨، ١١٩، ١٥٢، ٣٣٠. والجزء الرابع ص ٢٨١، ٣٦٨، ٣٧٠ والجزء الخامس ص ٣٤٧، ٣٥٠، ٣٥٨، ٣٦١، فى هذه المواضع نجد هذا الحديث عن النبى عليه السلام. وفى سنن الترمذى (الكتاب السادس والأربعون الباب التاسع عشر) قول النبى لعلى بن أبى طالب (أنت ولى كل مؤمن بعدى)

(٢) راجع ذلك كله فى كتاب بحار الأنوار وفى المجالس المؤيدية فى مواضع متفرقة.

يوحى إلى نبيه باعلان من اختاره الله وصيا لنبيه ، وخليفة له ، فكان وصى آدم هابيل ووصى نوح ابنه سام ، ووصى إبرهيم ابنه إسماعيل ، وكان وصى موسى أخاه هرون ، ووصى عيسى بن مريم حواريه شمعون الصفا (سمعان بن يونا المعروف بالصفا)(١) ، فوجب أن يكون لمحمد وصى ، شأنه فى ذلك شأن غيره من الأنبياء السابقين ، وأن الله تعالى اختار على بن أبى طالب لمرتبة الوصاية ، ويخيل إلى أن الفاطميين أخذوا هذا الرأى مما جاء فى إنجيل يوحنا فى مواضع متعددة أن سمعان ابن يونا هو الذى سماه المسيح بطرس أو صفا ، وأمره المسيح أن يرعى بعده خرافه أى جماعة المؤمنين ، فصبغ الشيعة هذه العقيدة بالصبغة الإسلامية ، واتخذوا لها أدلة من القرآن والأحاديث ، على أن الإسماعيلية الذين جعلوا عليا وصيا للنبى جعلوا عليا من ناحية أخرى يشارك النبى فى كل صفاته وخصائصه وفضائله إلا فى مرتبة النبوة والرسالة اللتين خص بهما النبى وحده ، فكل الآيات القرآنية التى جاءت فى النبى كقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » و « إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » إلى غير ذلك من الآيات هى فى محمد وفى على أيضا ، بل جعلوها فى كل الأئمة المنصوص عليهم من نسل على ، ولم يكتف الإسماعيلية بذلك بل ذهبوا فى تأويل كثير من آيات القرآن إلى أن الله تعالى يشير فيها إلى على والأئمة من ذريته ، مثل قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » وقوله « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » وقوله : « وأولى الأمر منكم » وقوله : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » وغير ذلك . فقد أولت جميع هذه الآيات بأن الإشارة فيها إلى على ابن أبى طالب والأئمة من أهل بيته الذين اصطفاهم الله واختارهم دون غيرهم من البشر . فمحمد وعلى عندهم صنوان متشابهان فى كل الصفات إلا فى مرتبة النبوة التى أطلقوا عليها اسم (مرتبة الاستيداع) فقد اختص بها محمد عليه السلام ، على حين اختص على بمرتبة الوصاية والامامة التى أطلقوا عليها اسم (مرتبة الاستقرار) (٢) ، ولذلك يروون أن النبى قال : لم أزل أنا وأنت ياعلى من نور واحد نتنقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية ، كلما ضمنا صلب ورحم ظهر لنا قدرة وعلم حتى انتهينا

(١) الفترات والقرانات لجعفر بن منصور اليمن (ص ١٢ ب) نسخة خطية بمكتبتى الخاصة

(٢) راجع ما كتبناه عن هذا الموضوع فى كتاب « ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة »

إلى الجد الأفضل والأب الأكمل عبد المطلب فانقسم ذلك النور نصفين فى عبدالله وأبى طالب . فقال الله تعالى : كن يا هذا محمدا وياهذا كن عليا(١) ، ولهذه العقيدة التى تجعل من على شريكا وشبيها للنبى فى كل شىء قال الإسماعيلية بعصمة الأنبياء والأوصياء والأئمة ، بل لعل الفاطميين لم يدينوا بعصمة الأنبياء ولم يؤولوا قصص الأنبياء هذا التأويل الذى نراه فى كتبهم (٢) إلا لإثبات عصمة أئمتهم ، ولا ينفرد الإسماعيلية بالقول بهذه العصمة ، إنما هو رأى جميع فرق الشيعة ، وكان موضوع عصمة الأنبياء من موضوعات الجدال بين علماء الكلام .

ولعل المشاركة الكبرى التى جعلوها بين محمد وعلى هى عقيدتهم فى التأويل الباطن ، وهو العلم الذى خصوا أنفسهم به ، وسموا من أجله بالباطنية ، فقد جعلوا محمدا هو صاحب تنزيل القرآن ، وجعلوا عليا صاحب تأويله ، أى أن القرآن الكريم أنزل على محمد بلفظه ومعناه الظاهر للناس ، أما أسرار الدين وأسرار التأويل الباطن فقد أنزلت على محمد ولكنه خص بها عليا وأبناءه من بعده دون غيرهم من البشر ، وأن عليا وأبناءه من الأئمة هم الذين يدلون الناس على هذه الأسرار ، أخذ الاسماعيلية بعض آيات القرآن الكريم دليلا على عقيدتهم فى وجوب التأويل كقوله تعالى ، وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، وقوله : « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث » وقوله : « وسأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا » إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التى ذهبوا فى تفسيرها إلى أن الله تعالى جعل لدينه تأويلا خاصا يختلف عما يقول به جمهور أهل السنة والجماعة الذين أطلق الإسماعيلية عليهم لقب أهل الظاهر أو العامة واستدلوا بقول الله تعالى « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب » على أن الأنبياء والأوصياء

(١) المجالس المؤيدية فى مواضع متفرقة .

(٢) راجع كتاب أساس التأويل للقاضى النعمان نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن وكتاب اسرار النطقاء وكتاب سرائر النطقاء لجعفر بن منصور اليمن والمجالس المؤيدية . وكلها نسخ خطية بمكتبتى الخاصة .

والأئمة هم الراسخون فى العلم وهم الذين يعلمون تأويله ، وذهب علماؤهم إلى أن قوله تعالى (والراسخون فى العلم) نسق على الله ؛ وقوله (يقولون آمنا به) أخرجوه مخرج الحال بمعنى أنهم ليعلمونه ويقولون آمنا به ، إذ لو لم يكن الراسخون فى العلم يعلمونه لكان مستحيلا منهم أن يقولوا آمنا به لأن الإيمان معناه التصديق والتصديق بالشىء لا يثبت إلا بعد إحاطة العلم به ولا يجوز تصديق المرء بما لم يعلمه . ثم أنه ليس يخلو من أن يكون النبى علم بتأويل ما أتى به أو لم يعلم ، فإن كان علم به بطل الوقف بعد لفظ « الله » فى الآية السابقة ، ووجب دخول النبى فى شرط من من عليه ؛ وهو أول الراسخين فى العلم وأفضلهم وعنه أخذ من أخذ من الراسخين فى العلم ، وإن كان النبى لم يعلم فإرسال الله تعالى إياه بشىء إذا سئل عنه لا يعلمه خارج عن الحكمة والرسالة (١) . فالنبى كان يعلم تأويل القرآن ، ومن يقوم مقام النبى فى كل عصر يعلم هذا التأويل أيضا ، وضربوا مثلا بقصة موسى مع الرجل الصالح التى وردت فى القرآن الكريم بأن الله خص الرجل الصالح بأسرار لم يعرف كنهها نبى ناطق من الأنبياء وهو موسى ، فقصة موسى هذه دليل عندهم على أن العامة من المسلمين أضعف وأقصر من النهوض بأعباء تأويل القرآن الذى اختص به الوصى والأئمة . وفى ذلك يقول المؤيد فى الدين :

وإن أجزنا ظاهر الكلام   فى ذاك أسلمناه للخصام
ففى اختلافات القران كثره   من كل قول مع كل زمره
يا قوم سر الملكوت هذا   يجعل أصنامكم جذاذا
سر له صاحب موسى الخضرا   قال معى لن تستطيع صبرا
وقال موسى سوف ألفى صابرا   فلم يكن إذ ذاك إلا قاصرا
تدبروا القصة ماذا بما   من قصها إن لم تكونوا نوما
لعلكم أن تحسبوها سمرا   إذن أسأتم للنفوس النظرا
من كان ذا عقل وذا عينين   يبلغ حقا مجمع البحرين (١)

ولهم أدلة عقلية على وجوب التأويل أخذوها أيضا من القرآن الكريم كقوله تعالى: « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » وقوله : « وفى الأرض آيات للموقنين

(١) المجالس المؤيدية ج ٢ ص ٥١ .
(٢) (القصيدة الأولى) من ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة .

وفى أنفسكم أفلا تبصرون » فذهبوا إلى أن مثالة الدين تؤخذ من خلقة السموات والأرض وتركيب الأفلاك وجميع ما يتأمل مما خلقه الله تعالى ، فقد ركزت فى المخلوقات كل معانى الدين الذى حمله القرآن الكريم ، فآيات القرآن إذن فى حاجة إلى من يخرج كنوز هذه المعانى(١) ، وبناء على هذه الطريقة التى اتخذوها لأنفسهم للتأويل وهذه القاعدة التى بها يستدلون بما فى الطبيعة والمخلوقات على الدين جعلوا المخلوقات قسمين : قسم ظاهر للعيان وقسم باطن خفى ، وجعلوا الظاهر يدل على الباطن ، وسموا الباطن ممثولا والظاهر مثلا . ولذلك أستطيع أن أطلق على نظرية التأويل عندهم « نظرية المثل والممثول(٢) » وقد أخذت هذا الاسم مما كتبه دعاة الفاطميين ، فالمؤيد فى الدين يقول فى مجالسه « خلق الله أمثالا وممثولات ، فجسم الإنسان مثل ، ونفسه ممثول ، والدنيا مثل والآخرة ممثول ، وأن هذه الأعلام التى خلقها الله تعالى وجعل قوام الحياة بها من الشمس والقمر والنجوم لها ذوات قائمة يحل منها محل المثل ، وأن قواها الباطنة التى تؤثر فى المصنوعات هى ممثول تلك الأمثال»(٣) وقول صاحب المجالس المستنصرية : « ومعشر المؤمنين إن الله تعالى ضرب لكم الأمثال جملا وتفصيلا ، ولم يستحِ من صغر المثال إذا بين به ممثولا ، وجعل ظاهر القرآن على باطنه دليلا(٤)» ويقول المؤيد فى الدين :

اقصد حمى ممثوله دون المثل   ذا إبر النحل وهذا كالعسل(٥)

وإذن فالقاعدة فى التأويل عند الإسماعيلية هى تطبيق نظرية المثل والممثول ، فظاهر القرآن مثل وباطنه ممثولات . والظاهر هو هذه المعانى التى يعرفها العامة وينطق بها علماء أهل السنة ، والباطن هو هذه المعانى التى يستخلصها الوصى والأئمة من أهل البيت دون سواهم من سائر المسلمين . وبالرغم من أن الإسماعيلية أتوا بأدلة من القرآن الكريم على التأويل وعلى نظرية المثل والممثول . فإن هذه النظرية

(١) المجالس المؤيدية ج ٢ ص ٥٢
(٢) راجع نظرية المثل والممثول وأثرها فى شعر مصر الفاطمية — بحث قرئ فى مؤتمر المستشرقين الحادى والعشرين فى باريس يوم ٢٩ يولية سنة ١٩٤٨
(٣) المجالس المؤيدية : المجلس الثامن من المائة الثانية
(٤) المجالس المستنصرية ص ٩٨ — ٩٩ (طبع دار الفكر العربى)
(٥) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة.

وإن كانت قد صيغت بالصبغة الاسلامية فإنها هى نظرية المثل الأفلاطونية القديمة ، أدخلوها فى عقيدتهم بعد أن غيروا فيها بما يتفق مع تعاليمهم وعقائدهم الاسلامية . ويخيل إلى أن فكرة التأويل الباطن على هذا النحو الذى نراه عند الإسماعيلية لم يعرف لدى المسلمين قبل عصر الترجمة والحركة العلمية التى ظهرت فى عصر المأمون العباسى وبعده ، وبعد أن ترجمت الكتب الفلسفية اليونانية ، فالمعروف أن بعض فلاسفة الإسكندرية وعلى الأخص فيلون وتلاميذه حاولوا تأويل التوراة تأويلا باطنيا — إن صح هذا التعبير — وأن سانت أوغسطين هو أول من حاول تأويل الإنجيل تأويلا باطنيا كذلك . وجاء الإسماعيلية وأخذوا فكرة التأويل مما نقل إلى العرب من آثار هؤلاء الفلاسفة ، ولكنهم صبغوا تأويلهم بالصبغة الإسلامية كعادتهم دائما فى كل ما أخذوه عن العلوم والفلسفة الأجنبية . ومع ذلك كله لم يستطع الإسماعيلية ألا يتخلوا جملة عما أخذوه من العلوم والفلسفة الأجنبية فقد ظهرت فى تأويلاتهم آثار هذه العلوم والفلسفة كما ظهر تأثرهم بالعقائد والأديان القديمة التى غمرت العالم قبل الإسلام وبعده . ويخيل إلى كذلك أنهم لم يتخذوا هذا التأويل الباطن إلا إمعانا منهم فى زيادة شرف على بن أبى طالب والأئمة ، وخصهم بميزات تبعدهم بعض البعد من سائر البشر . فكأن الولاية هى المحور الذى تدور عليه جميع العقائد الفاطمية ، فتأويلاتهم وفلسفتهم فى الإبداع والخلق وكل عقيدة فى النفس والعقل كلها تنتهى إلى نتيجة واحدة هى الوصى والأئمة ، ففى التأويل الباطن أن « وجه الله » و « يد الله » و « جنب الله » هم الأئمة ، والشمس محمد والقمر على ~~والأئمة~~ ، والأهله هم الأئمة . بل ذهبوا كما ذهب بعض فلاسفة الإسكندرية إلى أن الله أبدع الكلمة (اللوجوس) فقالوا إن الكلمة هى « كن » من قوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » وكلمة « كن » حرفان كاف ونون : ولكنهما فى التأويل الباطن مثلان للحدود الروحانية المقربة إلى الله ، فالكاف رمز للعقل الأول أو (القلم) وهو أقرب الحدود إلى الله وهو الذى ورد فيه الحديث النبوى الذى رواه البخارى : « أول ما خلق الله القلم ، فقال له أقبل فأقبل ، فقال له أدبر فأدبر ، فقال : بعزتى وجلالى ما خلقت خلقا هو أعز على منك ، بك أثيب وبك أعاقب . الخ » والعقل الأول الذى ذكر فى ظاهر القرآن بالقلم ولأنه أقرب الحدود إلى الله تعالى وأسبقهم إلى معرفة الله وتوحيده سمى بالسابق . أما النون فهى رمز

للنفس الكلية وهى التى رمز إليها فى القرآن باللوح وسميت بالتالى ، وبناء على نظرية المثل والممثول يجب أن يكون فى العالم الأرضى عالم جسمانى ظاهر يماثل العالم الروحانى الباطن ، فالإمام هو مثل السابق ، وحجته مثل التالى ، وكل خصائص العقل الأول (السابق) جعلت للإمام ، فلا نرى الإسماعيلية ينزهون الله تعالى عن كل الصفات والأسماء ، وقالوا : إن أسماء الله الحسنى هى أسماء العقل الأول (السابق) وأن الله سبحانه يتعالى على أن يتصف بصفة وأنه ليس أيسا وليس ليسا ، إنما كل ما جاء فى القرآن الكريم من صفات الله فهى صفات العقل الأول (السابق) وإذن فهذه الصفات يوصف بها أيضا مثل العقل الأول فى العالم الجسمانى وهو الإمام ، وعلى ضوء هذه النظرية نستطيع فهم قول ابن هانىء الأندلسى فى مدح المعز لدين الله الفاطمى :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

فقد فهم القدماء من هذا البيت وأمثاله من شعر ابن هانىء أنه يؤله إمامه ، وحكموا بأن الأئمة الفاطميين ادعوا الألوهية بدليل هذا البيت وأمثاله ، ولو كان القدماء يعرفون حقيقة العقيدة الفاطمية ما وجدوا فى هذا القول تأليها ولا غلوا فى العقيدة ، وسنتحدث عن ذلك كله فى باب الشعر .

وإذن فالتأويل الباطن عندهم لسبب واحد هو إغداق صفات التمجيد والتفخيم لأئمتهم . على أن الإسماعيلية الذين قالوا بالباطن وضرورته قالوا أيضا بالظاهر معه فلا يقبل الظاهر دون الباطن ، ولا ينفع الباطن دون الظاهر ، « فإن الظاهر والباطن كالروح والجسد إذا اجتمعا انقدحت الفوائد وعرفت المقاصد »[1] ومن عبد الله تعالى بظاهر دون باطن أو بباطن دون ظاهر فهو ممن يعبده على حرف[2] والظاهر عندهم هو هذه العبادة العملية من طهارة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والجهاد فى سبيل الله ، فيجب على المؤمن أن يؤدى هذه الفرائض العملية الظاهرة كما ورد فى كتاب الله وما سنه رسول الله ، وفى الوقت نفسه يجب أن يؤمن بعلم الباطن الذى هو العبادة العلمية التى خص بها الوصى والأئمة ، فالفاطميون إذن لم يعملوا على طرح الأديان وإبطال العبادة كما وهم الكتاب والمؤرخون الذين

(١) المجالس المستنصرية ص ٢٧ .

(٢) المجالس المستنصرية أيضاً ص ٢٩ .

يحدثوا عن الفاطميين ، بل كانوا كما قال شاعرهم المؤيد فى الدين :

فإننا لأهل علم وعمل   لله دنا بهما عز وجل (١)

وشاركوا غيرهم من المسلمين فى هذه العبادة الظاهرة ، ودعوا إليها دعوتهم إلى عباداتهم الباطنة ، وإذا قرأنا كتب الفقه الإسماعيلى مثل كتاب دعائم الإسلام للقاضى النعمان بن محمد وكتاب المجالس المستنصرية ، للداعى ثقة الإمام علم الإسلام وجدنا أن الفقه الاسماعيلى لا يكاد يختلف عن فقه أهل السنة وفقه مالك على وجه خاص ، مع أن الإسماعيلية لا يأخذون فى أحكامهم الشرعية بالرأى ولا بالقياس إنما يأخذون بالأحكام التى يشرعها الإمام ، ومع ذلك لم يختلفوا عن مذهب أهل السنة إلا فى بعض مسائل فرعية ، لعل أهمها مسألة ابتداء شهر الصوم ، فقد كانت هذه المسألة من أهم المسائل التى أثارت سخط المسلمين على الفاطميين ، ذلك أن الفاطميين لا يبدءون صوم رمضان برؤية الهلال على ما يذهب إليه جمهور أهل السنة ، فقد وجد الفاطميون أن الهلال إذا غم فى بلد من البلاد بسبب سحاب أو غيره فقد يظهر فى بلد آخر قريب ، فلا يصوم أهل البلد الأول على حين يصوم أهل البلد الآخر ، وكثيرا ما يحدث اضطراب فى بدء الصيام فى البلد الواحد ، فيقع ما يسمى بيوم الشك ، وهو ما نشاهده كل عام إلى اليوم . ومن ثم التجأ الفاطميون إلى الفلك والحساب فعملوا تقويما قمريا يحسبون بمقتضاه سير القمر ويقدرون منازله حتى يعرفوا أن هلال رمضان قد أهل حقا ، فجعلوا الشهور العربية شهرا تاما والتالى له ناقصا دائما وبذلك أصبح شعبان ناقصا دائما ورمضان تاما دائما ، ومن هذا التقويم الدقيق عرفوا متى يبدأ رمضان ومتى ينتهى دون الرجوع الى رؤية الهلال رؤية نظر ، بل جعلوا قول النبى الكريم : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » أنها رؤية استبصار لا رؤية إبصار ، وهذا التقويم الفاطمى جعلهم يصومون قبل جمهور أهل السنة بيوم أو يومين ويبدءون عيد الفطر قبل جمهور أهل السنة بيوم أو يومين ، ومن هنا أساء المؤرخون والعلماء الذين تحدثوا عن الفاطميين فهمَ حقيقة دعوتهم ورموهم بالخروج عن الجماعة وعن الإسلام .

ومن الخلافات بين الفاطميين وجمهور أهل السنة بل بين الشيعة عامة وبين السنيين مسألة ميراث البنت ، فالشيعة يورثون البنت كل ما تركه الأب إذا لم يترك

(١) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة

ولدا ذكرا . ومن الخلافات أيضا مسألة مسح الرجلين فى الوضوء ، فقد ذهب الشيعة إلى وجوب المسح ، على حين قال أهل السنة بوجوب غسل الرجلين . ومن أهم الخلافات التى بين الشيعة الاثنى عشرية والإسماعيلية أن الفرقة الأولى تقول بأن إمامهم الثانى عشر حى يرزق منذ اختفى فى السرداب ، وانه سيظهر ليملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا ، على حين يذهب الإسماعيلية إلى أن الإمام من البشر يجرى عليه ما يجرى على البشر من حياة وموت ، فمن السخف أن يقال إن إماما يعيش طول هذه المدة ، ومن الخلاف أيضا قول الاثنى عشرية بتحليل زواج المتعة على حين يحرمه الإسماعيلية.

ولم يذهب الفاطميون بالقول بالرأى كالمعتزلة ولا بالقياس كأهل السنة بل رفضوا الأخذ بالرأى والقياس ، وقالوا بالرجوع إلى الإمام المعصوم وإلى علوم أهل البيت التى خصهم بها الله تعالى دون غيرهم من سائر البشر ، فعلم الباطن الذى خص به الأئمة دعاهم إلى القول بأن إعجاز القرآن من ناحية المعنى أقوى من إعجازه من ناحية اللفظ ، فالقرآن معجز بلفظه ومعناه ، ولكن اعجازه يظهر بما يحتويه من معانى وفى ذلك يقول المؤيد :

إن كان إعجاز القران لفظا   ولم ينل معناه منه حظا
صادفتم معقوده محلولا   من أجل أن أنكرتم تأويلا

وفكرة عصمة الإمام دعتهم كما دعت الشيعة عامة الى القول بعصمة الأنبياء . أما ما ورد فى القرآن الكريم عن معاصى الأنبياء فقد ذهبوا فى تأويلها إلى أوجه لم يعرفها المفسرون ، ولا أدرى من أين أتوا بها (راجع ما كتبناه عن تأويل الأنبياء فى كتاب « ديوان المؤيد فى الدين ») .

وهكذا نرى الفاطميين لا يكادون يختلفون فى عباداتهم العملية الظاهرة عن غيرهم من المسلمين ، فهم يحرمون ما حرمه الله تعالى ، ويتجنبون المآثم والمعاصى ، ويحللون ما أحله الله تعالى للمسلمين ، ولكن التأويل الباطنى للإسماعيلية هو الذى جعلهم يوسعون الهوة بينهم وبين غيرهم من المسلمين ، فقد أرادوا بتأويلهم الباطنى إسباغ الفضائل على الأئمة فجعلوا الأئمة يناسبون العقل الأول ، وصفات الله وأسماءه الحسنى المذكورة فى القرآن الكريم جعلوها للعقل الأول ، وتبعاً لذلك جعلوها للأئمة ، أما الله سبحانه وتعالى فقد نزهوه عن كل صفة ووحدوه التوحيد كله .

نوحد الله ولا نشبه   قد انتفت عنا بذاك الشبه (١)

(١) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة

فالإمام مثل سائر البشر مكون من جسم ونفس ، وبعد موته يتحلل كل قسم إلى ما يناسبه ، فالجسم الترابي يعود إلى التراب ، والنفس الشريفة تعود إلى ما يجانسها ويناسبها ، فتصبح نفس الإمام عقلا من العقول المدبرة للعالم ، فلا تتناسخ ولا تتلاشى ، لأن الفاطميين لا يدينون بالتناسخ ، وهي المنقصة التي رماهم بها خصومهم ، ولا يقولون بالتلاشي بل ناقشوا أصحاب هذه العقائد وسفهوا آراءهم ، كما كفروا الغلاة الذين ألهوا عليا والأئمة من أبنائه ، قال المؤيد في الدين داعي الدعاة :

فكيف شرع الأنبياء ندفع … وما لنا إلا النبي مرجع
بنوره في الدرجات نرتقي … وبالكرام الكاتبين نلتقي
يا رب فالعن جاحدي الشرائع … وارمهم بأفجع الفجائع
والعن إلهي من يرى الاباحه … بلعنة فاضحة مجتاحه
والعن إلهي غاليا وقاليا … ولا تذر في الأرض منهم باقيا
يا رب إنا منهم براء … هم واليهود عندنا سواء
فأخزهم وأخز من رمانا … بريبة ولقه الهوانا (١)

ويقول في الرد على القائلين بالتلاشي والتناسخ :

أيها المدعي التلاشي حمقا … ذا الذي تدعي عليك وكيل
أترى هذه الصنائع طرا … عبثا ما لصانع محصول
حركات الأجرام قل لي لماذا ؟ … ولماذا طلوعها والأفول ؟
ألها في مجالها الفعل أم لا ؟ … فبغير إذا يجوز تجول
إن تقل ذاك فعلها باختيار … أنكرت منك ما ادعيت العقول
إن فيما دنا من الماء والنار … على ما علا لنا التمثيل
وإن قلت : ذاك غير اختيار … قلت : كل مدبر محمول
فإذا كان هكذا ثبت الحامل … والفاعل اللطيف الجليل
فإذا كان فاعل متقن الفعل … وما دونه له مفعول
فالتلاشي لفعله مستحيل … جل عما به عليه تحيل
والذي قال إنه النسخ والفسخ … وما ذا بغير دنيا حلول
فهو عن جوهر النفوس البسيطا … ت ومن حيث بدؤها مسئول

(١) من القصيدة الأولى من ديوان المؤيد داعي الدعاة

فلئن كان يثبت الأصل منها … فكذا نحوه يكون القفول
ولئن كان نافيا قيل مهلا … فلهذي المشاهدات أصول
فثواب يكون بالأكل والشرب … فذاك العذاب والتنكيل (١)

ومع هذا كله نرى المؤرخين والكتاب يرمون الفاطميين بالإباحة المطلقة والقول بالتناسخ والحلول ، إلى غير ذلك من الاتهامات التي أظهر البحث الحديث أن الفاطميين براء منها . على أني لا ألوم هؤلاء الكتاب الذين أظهروا العقيدة الفاطمية على أنها مباينة للإسلام وتوحيد الله بقدر ما ألوم بعض الغلاة من الدعاة الذين غيروا المذهب الفاطمي وخرجوا به عن منهجه الصحيح ، حتى اضطر الأئمة إلى إعلان عصيان هؤلاء الدعاة وطردهم من الدعوة وتحذير الناس من ضلالاتهم . نذكر من هؤلاء الدعاة علي بن الفضل الذي كان من أسبق الدعاة في أواخر دور الستر الأول في إظهار الدعوة في اليمن ولكنه ضل طريق رشده ، فتبرأ منه الامام وطلب من الداعي الحسين بن حوشب المعروف بمنصور اليمن أن يحاربه ويمحو أتباعه (٢) ونذكر أحمد بن الكيال الذي كان داعيا للاسماعيلية فغير المذهب ودعا لنفسه (٣) والقرامطة الذين استباحوا المحرمات ونادوا بالإباحة فاضطر عبيد الله المهدي قبل ظهوره بالمغرب إلى عزلهم عن الدعوة فحاربوه وقتلوا بعض أهل البيت وسلبوا متاعهم . فاضطر المهدي إلى الفرار منهم إلى الرملة فمصر إلى أن رحل إلى شمال أفريقيا حيث أقام دولته (٤) واستمر العداء بين القرامطة والفاطميين ردحا طويلا من الزمان ، وقامت الحروب بين الفريقين على نحو ما ذكر في كتب التاريخ ، وكذلك نقول عن فرقة الدرزية التي ظهرت في عهد الحاكم بأمر الله ، فأمثال هؤلاء الدعاة كانوا أسلحة ماضية ضد المذهب ، حتى قال القاضي النعمان وذكر المعز لدين الله رجلا أصابه بلاء عظيم في نفسه ووصف ما صارت حاله إليه ، وكان هذا الرجل قد ألحد في أولياء الله وغلا في دينه ، وقد كان قلد شيئا منه وناله بسبب ذلك من سخط الأئمة ما نعوذ بالله منه ، فقال المعز لدين الله لما ذكر ما صار حال هذا الرجل إليه : ما ألحد

(١) القصيدة الخامسة من ديوان المؤيد داعي الدعاة .

(٢) راجع كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان (نسخة خطية بمكتبتي الخاصة) وكتاب كشف أسرار الباطنية لمحمد بن مالك اليماني ص ٢١ وما بعدها .

(٣) راجع الشهرستاني .

(٤) راجع افتتاح الدعوة واستتار الامام وسيرة جعفر الحاجب .

أحد فينا ولا أراد إدخال النقص على شىء من أمرنا إلا ابتلاه الله فى عاجل الدنيا بلاء يكون نكالا ، ولعذاب الآخرة أخزى وأشد وأبقى .

ثم ذكر من تجاوز هـذا الرجل وتعديه وما أدخل على الدين من الشبهة على ضعفاء المؤمنين مايطول ذكره . قال : وتقرر عند المنصور بالله أنه يقول : عندنا من حكمة الله وعلمه ماتزيل به الجبال ولنا من أوليائنا فى الدين من تزول السموات والأرض ولا يحول ولا يزول . فأعظم ذلك المنصور بالله من قوله وأحضر جماعة من الأولياء فذكر ذلك لهم عنه ولعنه . ثم قال المعز لدين الله : أعظم آيات موسى فلق البحر ، فهذا الشقى ادعى فوق ذلك لنفسه وهو ينسب إلينا ويدعى علمنا ومذهبنا وقولنا ، نحن نبرأ إلى الله من دعواه وقوله ، ومما ينسبه إلى نفسه ، أن ينسب إلينا وإلى من يتصل بنا . ثم قال : سمعت القائم بأمر الله يقول : إنما أراد الدعاة إلى النار الذين انتسبوا الينا بما ينحلونا إياه أنا نعلم الغيب وما تخفى الصدور ، وأشباه ذلك بما افتروه علينا ونسبوه إلينا أن يجعلوه عدة لنفاقهم ... الخ(١). وقال حميد الدين أحمد بن عبدالله الكرمانى : إن أعظم الفرق ضلالا فرقة الغلاة ، ضلت وأضلت غيرها ، فانسلخت عن جملة أهل الدين والديانة ، (٢) ويقول المؤيد فى الدين ، استعيذوا بالله من قوم يقولون بأفواههم أنهم شيعة ، وهم من طلائع الكفر والإلحاد شر طليعة ، يستوطئون مركب الإباحة ، ويميلون ميل الراحة ، ويحتجون بكون الصلاة إشارة إلى حد من حدود الدين ، فإذا عرف سقطت الصلاة ، وأن الزكاة إشارة إلى مثله فإذا عرفت بطلت الزكاة ، وأن الصوم هو السكوت عن إفشاء سرهم إلى غير أهله ، فإذا هم سكتوا لم تبق بهم حاجة إلى الصوم واحتمال كده ، وأن النهى عن شرب الخمر هو النهى عن موالاة بعض الأضداد ، فإذا هم كفوا كان شربها حلالا سهل القياد ، ولا يزالون كذلك حتى يحلوا من تكاليف الشريعة كل عقد ، ويردوا من مهاوى الردى فى تحليل المحرمات شر ورد ، وهؤلاء أضر بالدين وبالمؤمنين ممن شهر سيفه وشرع رمحه إلى أئمتهم بالبغضاء . ولم يزل من مضى من أمير المؤمنين على والأئمة من ذريته إلى إمام الزمان براء إلى الله تعالى ممن هذه سبيله سرا وجهرا ينشرون فى صحف الخزى على من دان دينهم . الخ(٣) فهؤلاء الدعاة الذين نسبوا أنفسهم إلى الدعوة

(١) المجالس والمسايرات ورقة ٨٦ م نسخة خطية بمكتبتى الخاصة
(٢) كتاب تنبيه الهادى والمستهدى نسخة خطية بمكتبتى
(٣) المجالس المؤيدية

الإسماعيلية كانوا سببا فى أن يذهب المؤرخون القدماء ومن تبعهم من المحدثين إلى فساد عقيدة الفاطميين ، ومن يتعمق فى دراسة العقيدة الفاطمية كما جاءت فى كتب دعاتهم وعلمائهم — وهى الكتب التى لا يقربها إلا من بلغ درجة رفيعة فى الدعوة — يرى الفاطميين براء من كثير مما نسب اليهم ، ولولا هذا التأويل الباطنى الذى جعلوه قوام عقيدتهم لتساووا مع غيرهم من المسلمين فى كل شىء ولما وجد خصومهم مطعنا فى عقيدتهم .

والذى ألاحظه على عقائد الفاطميين أنها مزيج من مجموعة المذاهب والديانات القديمة التى عرفت وانتشرت فى الأقطار الإسلامية منذ زمن بعيد بتأثير امتزاج المسلمين بغيرهم من الشعوب المختلفة ، واستطاع الفاطميون أن يخضعوا هذه المذاهب والآراء القديمة للآراء الإسلامية ويصبغوها بالصبغة الاسلامية ، فالباحث يستطيع أن يتعقب أكثر عقائد الفاطميين ويردها إلى أصولها القديمة ، فمثلا قال قدماء المصريين بأن روح الملوك تنتقل إلى العالم العلوى وتصبح من الآلهة ، فقال الفاطميون إن روح الإمام تصبح ملكا من الملائكة وعقلا من العقول الروحانية المدبرة لعالم الكون والفساد ، وذهب بعض فلاسفة اليونان إلى أن الانسان لا يستطيع أن يرى شيئا إلا بمساعدة ضوء الشمس أو القمر أو الشمعل ، فقال الفاطميون إن العقل البشرى فى تبصره لا يستطيع الوصول إلى معرفة شىء وإدراكه إلا بمساعدة خارجية تأتيه من الأئمة ؛ ومن أقوال فلاسفة اليونان أيضا أن النفس كانت صفحة بيضاء فإذا حلت فى جسم نقش عليها ما اكتسبه الإنسان إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، فقال الفاطميون بهذه المقالة . وأخذ الفاطميون عن العبرانيين والبابلية القديمة عقيدة الأدوار السبعة ، وعن الأفلاطونية الحديثة مذهب الإبداع وظهور النفس الكلية عن العقل الكلى وخلق العالم بواسطة الكلمة ؛ مع خلاف أن الأفلاطونية الحديثة جعلت الكلمة هى العقل الكلى على حين قال الاسماعيلية بأن الكلمة هى السابق والتالى أى القلم واللوح وأنها هى كلمة كن من قوله تعالى ، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، كما أخذ الإسماعيلية عن الأفلاطونية الحديثة الفيوضات ومراتبها بأن جعلها الإسماعيلية الحدود الروحانية والجسمانية ، وأخذوا عن أفلاطون نظرية المثل ، وعن الزرادشتية القديمة مذهب التخميس ، وعن الفيثاغوريين القدماء مذهبهم فى التوحيد ، وجعل الأعداد أصولا لعقائدهم ، بل كان نظام دعوتهم

هو النظم الفيثاغورية عينها ، وهكذا يستطيع الباحث أن يرد كثيرا من الآراء والعقائد الفاطمية إلى أصولها الأولى بالرغم من صبغ هذه الآراء والعقائد بالصبغة الإسلامية ، حتى ليتوهم الباحث فى كتبهم أن كل عقائدهم إسلامية لم يطرأ عليها أى علم أو رأى دخيل .

وخلاصة القول فى العقائد الفاطمية أن الولاية هى محور هذه العقائد ، وأن فلسفتهم كلها تدور حول الإمام وتمجيده أكثر من أى شيء آخر ، وهم يعتقدون بكل ما يعتقد به غيرهم من المسلمين من موت وحياة وبعث ونشر وثواب وعقاب ، ويقومون بفرائض الدين،ويحرمون ما حرمه الله،ولا يقولون بالتعطيل أو الإباحة، ولم يعتنقوا التناسخ أو الحلول أو التلاشى ، غير أنهم قالوا بأدوار الأنبياء ، فلكل نبى دوره ،ويأتى النبى الذى بعده ينسخ شرع النبى قبله . فلما جاء دور محمد وهو سادس الأنبياء جمع الله له كل أدوار الأنبياء قبله ، فمحمد هو آدم وهو نوح وهو إبراهيم وهو موسى وهو عيسى ، وأن ما حدث فى أدوار هؤلاء الأنبياء يحدث مثله فى دور محمد،وما حدث لأوصياء الأنبياء يحدث لوصى محمد والأئمة بعده وأولوا ذلك كله تأويلا يتفق مع عقيدتهم هذه،ونراه واضحا فى أشعار شعرائهم ورسائل كتابهم على النحو الذى نراه فى باب الشعر من هذا الكتاب.

الفصل الثانى

مراتب الدعوة الفاطمية ومراكزها

رتب الفاطميون لدعوتهم نظاماً دقيقاً محكما لا أكاد أجد له مثيلا فى تاريخ الدول والدعوات حتى فى عصرنا هذا الذى عرف فيه للدعاية قدرها ومكانتها ، ولعل الفاطميين هم أول من أقاموا للدعاية مناصب رسمية فى دولتهم ، ومن الحق علينا أن نذكر أنه كان للعباسيين نقباء يدعون لهم قبل أن يستولوا على الحكم ، ولكن هؤلاء النقباء لم يظهر لهم شأن بعد أن تم الأمر للعباسيين ، وكان للمعتزلة دعاة يدعون لآرائهم فى الأقطار الإسلامية ، ولكن المعتزلة لم يكن لهم كيان سياسى ولم تكن لهم دولة لها حكومتها . أما الفاطميون فكان لهم نظم لدعوتهم قبل ظهور دولتهم على مسرح السياسة وبعد ظهورها ، بل لاتزال هذه النظم قائمة إلى اليوم بين من ورث دعوتهم ، وهم المعروفون بالبهرة والمعروفون بالاسماعيلية الأغاخانية .

وكما أنهم فى تأويلهم الدينى يطبقون نظرية المثل والممثول التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق ، كذلك نراهم قد طبقوا هذه النظرية أيضا على نظم الدعوة أى أنهم أخذوا هذه النظم من المشاهدات المحسوسة أى من نظام دورة الفلك وتقسيم السنة إلى شهور وأيام وساعات ، فالسنة اثناعشر شهراً والشهر ثلاثون يوما واليوم أربع وعشرون ساعة منها اثنتا عشرة بالنهار واثنتا عشرة بالليل . فكذلك قسمت مراتب الدعوة : فالسنة التى تجمع الشهور والأيام تُمثَّل على النبى فى عصره أو الامام الذى يجمع جميع مراتب الدعوة ، والإثنا عشر شهرا مثل على رؤساء الدعوة فى الجزائر(١) ويسمون حجج الجزائر ، ولكل من هؤلاء الحجج ثلاثون داعيا أو

---

(١) قسم الفاطميون العالم إلى اثنى عشر جزءا ، سموا كل جزء بجزيرة أى إقليم . وحاولت أن أعرف هذه الجزائر دون فائدة ، ويذهب الأستاذ ايفانوف (هامش ١ ص ٢٠ من كتاب Rise of Fatimite) إلى أن هذه الجزائر هى : العرب . الترك . البربر . الزنج . الحبشة . خزر ، الصين . فارس . الروم . الهند . السند . الصقالبة . ولكنى وجدت أن حميد الدين الكرمانى كان يلقب بحجة العراقين . ولم أجد العراقين بين الجزائر التى ذكرها الأستاذ ايفانوف . وكلمة جزيرة مأخوذة من الأصل (جَزَرَ) بمعنى قسم .

نقيبا ، ولكل داع من هؤلاء الدعاة أربعة وعشرون داعياً مأذونا أو مكاسرا .

ولكل مرتبة من هذه المراتب عمل خاص به ، فالامام يختار من شيعته أقواهم لسانا وأصدقهم جنانا وألحنهم بالحجة وأغزرهم علما ، فيجعله فى مرتبة داعى الدعاة أو باب الأبواب ، وهذه المرتبة أعلى مراتب الدعوة ، لأنها تلى مرتبة الامام مباشرة من الناحية المذهبية فهو المالك لجماعة الحجج والدعاة ، وإليه الاشراف على الدعوة فى جميع الأقطار ، وقد وصف أحد علماء المذهب هذه المرتبة بقوله « وحد الباب هو من الحدود الصفوة واللباب ، فهو أفضل الحدود ، وهو حد العصمة ، ولا ينتهى إلى ذلك إلا الآحاد والأفراد (١) » وقال آخر : « هو باب صاحب الزمان الذى يؤتى منه اليه ، وحجته على الخلق ، وحامل علمه ، وصاحب دعوته » (٢) فنسبة الحجة إلى الإمام كنسبة الوصى إلى الناطق ، والحجة هو صاحب التأويل فى عصر الإمام فهو الذى يعقد مجالس الحكمة ، ويتلو على المستجيبين علوم أهل البيت أى علم الباطن .

ولكل إقليم أو جزيرة من الجزائر التى قسموا إليها العالم حجة هو كبير دعاة الإقليم والمشرف على الدعوة فيه ، وهو الذى ينوب عن باب الأبواب فى عقد مجالس الحكمة وتلاوة المجالس ، وهذا الحجة على صلة وثيقة بباب الأبواب الذى اختاره الإمام ، ولكى ندرك مكانة حجة الجزيرة هذا فى نفوس أتبـــاعه أنقل ما كتبه أحدهم وهو المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى فى سيرته وهو يحادث الوزير بشيراز : « معلوم ما بينى وبين الديلم من الأحوال الممهدة ، والأسباب المؤكدة ، وأن أحدهم إذا اختصم مع أهله ليلا فانه يبيا كرنى شاكيا إلى ، ومورداً جملة أمره وتفصيله على » (٣) فمكانة حجة الجزيرة فى جزيرته لا تقل عن مكانة الوالى أو القاضى ؛ ولكل حجة جزيرة ثلاثون داعيا نقيبا يقومون بهداية الناس وبث الدعوة فى نفوس المستجيبين ، وهم الذين يفاتحون الذين دخلوا فى الدعوة بالعلم بعد أن يأخذوا عليهم العهد والميثاق ، وهم الذين يجمعون النجوى منهم ويكون أمرهم لحجة الجزيرة ، ولكل نقيب من هؤلاء النقباء أربعة وعشرون داعيا مأذونا مكاسرا ، وهو الداعى الذى يشكك المسلمين فى عقائدهم المذهبية ويوقع الوهم فى نفوس المتدينين أنهم على

(١) رسالة البيان لما وجب من معرفة الصلاة فى نصف رجب (مخطوط رقم ٢٥٧٤٠ بمدرسة اللغات الشرقية بلندن) .

(٢) هامش جامع الحقائق ج ٢ ص ١٥٣ (مخطوط بمكتبتى الخاصة)

(٣) السيرة المؤيدية من مطبوعات دار الكاتب المصرى .

ضلال ، ولا يزال بهم حتى يطلبوا إليـــه أن يدلهم على الصواب المبين ، ولكنه يحاورهم ويداورهم حتى إذا وثق من اقتناعهم بأنهم على ضلال أحالهم على الداعى أو النقيب الذى يبدأ فى مفاتحتهم بأسرار الدين شيئا فشيئا بعد أن يأخذ عليهم العهود والمواثيق ، وهكذا يصبح المستجيب أو الطالب فى زمرة الدعوة ، ومن ذلك يتبين أن الداعى المأذون هو الذى يكاسر الناس بأن يطرحهم بأسئلة لا يستطيعون الإجابة عنها ، ولذلك يشترط فى من يتولى هذه المرتبة أن يكون على علم وافر بمذاهب الفرق الإسلامية جميعها ، وموضع الضعف فى كل مذهب من المذاهب ، وأن يكون متمكنا من أصول مذهبه ، وأن يكون لسنا مجادلا ، وقد حدد الفاطميون الصفات التى يجب أن تتوافر فى الداعى ، نلخصها فى سعة العلم والثقافة وشدة التقوى والورع والعمل بأحكام الشريعة الإسلامية ، وأن يكون حسن السياسة مع من يتصل بهم ولا سيما أتباعه ، وهذه المرتبة هى أقل مراتب الدعوة فما بالك بالشروط التى يجب أن تتوافر فى مراتب الحدود التى هى أعلى شأنا من مرتبة المكاسر

ويحدثنا الداعى أحمد حميد الدين الكرمانى فى كتابه راحة العقل عن الحدود الجسمانية الذين إليهم أمر الدعوة ورتبهم بالترتيب الآتى . —

١ — الناطق وله رتبة التنزيل
٢ — الأساس وله رتبة التأويل
٣ — الإمام وله رتبة الأمر
٤ — الباب وله رتبة فصل الخطاب
٥ — الحجة وله رتبة الحكم فيما كان حقا أو باطلا
٦ — داعى البلاغ وله رتبة الاحتجاج وتعريف المعاد
٧ — الداعى المطلق وله رتبة تعريف الحدود العلوية والعبادة الباطنية
٨ — الداعى المحدود وله رتبة تعريف الحدود السفلية والعبادة الظاهرة
٩ — المأذون المطلق وله رتبة أخذ العهد والميثاق
١٠ — المأذون المحدود الذى هو المكاسر وله رتبة جذب الأنفس المستجيبة (١)

هكذا ذهب الكرمانى فى ترتيب الحدود الجسمانية ولكننا نتساءل عن الطريقة التى رتبوا بها هذه الحدود بعد وفاة الناطق والأساس ولا سيما وقد ذكر الفاطميون

(١) المشرع السادس من السور الرابع من كتاب راحة العقل (مطبوعات الجمعية الاسماعيلية بالهند) .

فى كتب الدعوة أن الإمام يقوم مقام الناطق بعد وفاته ، ثم نتساءل مرة أخرى عن مرتبة الإمام فى عهد الناطق إذ المعروف أن الناطق له جميع المراتب وأن الإمامة كانت له فما معنى وجود الإمام مع وجود الناطق

ووضع هذا النظام للدعاة بحيث لا يخلو بلد من دعاتهم . وفى ذلك قال المعز لدين الله الفاطمى « إن أكثر الناس يجهلون أمرنا ، ولا يظنون أنا لا نعنى إلا بمن شاهدناه وكان بحضرتنا ، ولو كان ذلك لكنا قد ضيعنا من بعد عنا ، وقد اوجب الله على جميع خلقه ولايتنا ومعرفتنا واتباع أمرنا والهجرة والسعى إلينا من قرب ومن بعد ، ولكننا للرأفة بهم ولما نرجوه ونحبه من هدايتهم قد نصبنا بكل جزيرة لهم من يهديهم إلينا ويدلهم علينا » (١) .

وبالرغم من أن الدعوة كانت سرية قبل العصر الفاطمى وكان الأئمة ودعاتهم يتخذون الستر تقية على أنفسهم خوفا من بطش العباسيين فقد استطاع الباحثون المحدثون بفضل الكشف عن بعض مخطوطات الفاطميين أن يعثروا على أسماء بعض الدعاة الذين كانوا فى دور الستر الأول ، نذكر من هؤلاء الدعاة الحسين بن حوشب ابن زادان الملقب بمنصور اليمن ، وهو الذى أوفده الإمام الثالث من أئمة دور الستر — الحسين بن أحمد بن عبد الله — للدعوة باليمن ، وهو الذى أوفد تلميذه أبا عبد الله الشيعى داعية إلى المغرب (٢) ومنهم الداعى فيروز وكان داعى الدعاة فى زمن المهدى قبل ظهوره بالمغرب ، وكان من أجل الناس عند الإمام ومن أعظمهم منزلة والدعاة كلهم أولاده ومن تحت يده ، وهو باب الأبواب إلى الأئمة (٣) ، ومنهم أبو جعفر الجزرى وكان له أيضا محل جليل عند المهدى لأنه كان من كبار الدعاة ، ووكله المهدى بالحرم عندما فر من سلمية (٤) ، وتوفى هذا الداعى برقادة بعد أن فتحها المهدى ، وكان الداعى بمصر فى وقت فرار المهدى إلى المغرب رجلا يعرف بأبى على الداعى ، وكان رأس الدعاة بمصر وأبو على هذا هو الذى ذكره جعفر بن منصور اليمن فى كتابه « الفترات والقرانات » ملقبا بالشيخ الأجل المفيد وهو أحد تلاميذ فيروز وزوج ابنته (٥) وأنجب ابنه محمدا أبا الحسين بن أبى على الداعى

(١) المجالس والمسايرات للقاضى النعمان ورقه ١٠٥ B مخطوط .
(٢) افتتاح الدعوة للقاضى النعمان نسخة خطية .
(٣) سيرة جعفر الحاجب نشرت بمجلة كلية الآداب ، الجزء الثانى من المجلد الرابع ، عدد ديسمبر سنة ١٩٣٦ . (٤) المصدر السابق . (٥) المصدر السابق .

الذى بلغ مع الأئمة المهدى بالله والقائم بأمر الله والمنصور بالله والمعز لدين الله المحل الجليل العظيم وكان داعى الدعاة (١) ، وجاء فى كتاب استتار الإمام أن عددا من الدعاة اجتمعوا للبحث عن الإمام المستور ، وهم ابو غفير وأبو سلامة وأبو الحسن ابن الترمذى وجياد الخثعمى وأحمد بن الموصلى وأبو محمد الكوفى (٢) وهؤلاء جميعا لا نعرف عنهم شيئا . أما فى دور الظهور — الذى يبدأ بظهور المهدى بالمغرب إلى انقراض الدولة الفاطمية — فقد وصلت إلينا أسماء عدد كبير من الدعاة كما وصلت إلينا بعض كتبهم (٣)

قلنا: إن من أهم أعمال داعى الدعاة هو عقد مجالس الحكمة التأويلية لقراءة علوم أهل البيت على جمهور المؤمنين ، فاتخذت مراكز لإلقاء هذه المجالس التأويلية ، ولعل أهم هذه المراكز فى مصر هى :

(١) المساجد (٢) القصر (٣) دار العلم .

١ — المساجد : كانت المساجد تقوم مقام المدارس والجامعات فى أيامنا الحديثة ، فقد كان الناس يتحلقون فى المساجد حول العلماء يستمعون إلى ما يلقيه هؤلاء عليهم من علوم وآداب على النحو الذى نراه إلى الآن فى بعض المساجد فى مصر ، فالمساجد على هذا النحو لم تكن مكانا لإقامة الشعائر الدينية فحسب بل كانت دور علم أيضا . وعرف الفاطميون هذه الحقيقة فلم يتوانوا فى اتخاذ المساجد مجالا لنشر دعوتهم الدينية وبث عقائدهم المذهبية ، ولعل هذا هو السبب الذى من أجله أكثروا من بناء المساجد وجعلها تتناسب مع عظم ملكهم أولا وما أرادوه من اتخاذها وسيلة من وسائل نشر دعوتهم ثانيا ، لذلك نرى القائد جوهر الصقلى عند ماوضع أساس مدينة القاهرة لم ينس أن يبنى مسجده العتيد — الجامع الأزهر — أنشأه بأمر مولاه الإمام المعز لدين الله ، وشرع فى بنائه فى يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة (٤) وتم بناؤه لتسع خلون من رمضان سنة إحدى وستين وثلثمائة ، ثم جدد فيه العزيز بالله والحاكم بأمر الله

(١) المصدر السابق ص ١١٤ .
(٢) استتار الإمام ، نشر بمجلة كلية الآداب بالجزء الثانى من المجلد الرابع عدد ديسمبر سنة ١٩٣٦ ص ٩٣ .
(٣) راجع مقدمة كتاب المجالس المستنصرية .
(٤) خطط المقريزى ج ٤ ص ٤٩ (طبع مطبعة النيل) .

الذى وقف عليه رباعا بمصر ، ثم جدده المستنصر بالله والحافظ لدين الله الذى أنشأ فيه مقصورة بجوار الباب الغربى ، وهكذا كان هذا المسجد فى العصر الفاطمى محل رعاية الأئمة وعنايتهم ، فلم يقصروا فى تجديده والزيادة فيه ، حتى قيل إنه كان يصدر فى محرابه منطقة فضة قلعها صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٩ ه فكان وزنها خمسة آلاف درهم سوى قناديل الفضة وتنورين من الفضة ، ووقفوا لمؤذنيه وخدمه ووسائل نظافته وإنارته وفرشه ما هو مذكور فى كتب التاريخ ، والذى يهمنا الآن هو أن الفاطميين كانوا يشجعون العلماء والفقهاء للتحليق فى هذا المسجد العتيد واتخذوا منه جامعة علمية ، فعد بحق أقدم جامعة عرفها التاريخ ، ففى هذا المسجد اتخذت الدعوة الفاطمية مكانا لها بين أماكن أخرى ، ففيه عقد أول إجتماع بمصر للاحتفال بعيد الغدير - وفى ذلك يروى المقريزى عن المسبحى أنه فى يوم الغدير ثمانية عشر من ذى الحجة سنة ٣٦٢ ه اجتمع الناس بجامع القاهرة والقراء والفقهاء والمنشدون فكان جمعا عظيما أقاموا إلى الظهر ثم خرجوا إلى القصر فخرجت إليهم الجائزة وكان هذا أول ما عمل بمصر (١)، وبالجامع الأزهر كان داعى الدعاة يعقد مجالس للنساء يلقى عليهن شيئا من علوم أهل البيت (٢) وفيه جلس القاضى عبد العزيز بن محمد بن النعمان وابتدأ فى قراءة كتاب جده « اختلاف أصول المذاهب » (٣) ويذهب المقريزى إلى أن أول ما عرف من إقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر فى خلافة العزيز بالله نزار ، وعمل ذلك بالجامع الأزهر (٤)، ويقول القلقشندى إن الوزير أبا الفرج يعقوب بن كلس سأل العزيز بالله فى حمله رزق جماعة من العلماء كانوا بمسجد القاهرة وأطلق لكل منهم كفايته من الرزق وبنى لهم دارا بجانب الجامع الأزهر ، فإذا كان يوم الجمعة حلقوا بالجامع بعد الصلاة وتكلموا فى الفقه ، وأبو يعقوب قاضى الخندق رئيس الحلقة والملقى عليهم إلى وقت العصر وكانوا سبعة وثلاثين نفرا (٥)، وجاء فى خاتمة النسخة الخطية من رسالة مباسم البشارات . « تمت رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين عليه السلام وصلواته وبركاته وتحياته على رسوله وخيرته من خلقه محمد وآله الأئمة الطاهرين وهى الرسالة التى كتبها على بن حسين بن أحمد الأصبهانى المؤذن بالجامع الأزهر عن الداعى

(١) المقريزى الخطط ح ٢ ص ٢٢٣ . (٢) خطط المقريزى ح ٢ ص ٢٢٦ .
(٣) رفع الإصر ص ١٣ . (٤) خطط المقريزى ح ٤ ص ١٩٢ ، ح ٢ ص ٢٢٢
(٥) صبح الأعشى ح ٣ ص ٣٦٦

أحمد بن عبد الله بن محمد الكرمانى مؤلفها قدس الله روحه ، كتبت من نسخته وقرأت عليه وعلى جمهور المؤمنين (١) ويحدثنا الكرمانى فى مقدمة هذه الرسالة أنه وفد إلى مصر — ويخيل إلى أنه جاء مصر إبان ثورة الدرزى — فاضطر إلى تأليف هذه الرسالة وقراءتها على الناس فنقلها عنه مؤذن الجامع الأزهر . فهذا كله يؤيد ماذهبنا إليه من أن الفاطميين اتخذوا من المسجد الجامع الأزهر مركزا من مراكز دعوتهم ومعهدا تلقى فيه علوم أهل البيت .

وهنا نقف لنتساءل ، هل كان هذا المسجد معهدا لتعليم الدعوة الفاطمية فحسب فلا نجد أثرا للحلقات الشافعية والمالكية والحنفية ؟ يخيل إلى أن الفاطميين كانوا يتسامحون مع علماء أهل السنة بأن أذنوا لبعض فقهاء أهل السنة أن يلقى دروسه وتعاليمه فى الجامع الأزهر ، فقد قيل إنه فى سنة ٣٨٣ ه رتب رجل جعفرى للجلوس فى الجامع للفتوى على مذهب أهل البيت فشغب عليه الفقهاء من أهل الجامع ، فبلغ القاضى ذلك فقبض على بعضهم (٢) فمن هذا النص نستطيع أن نتبين أنه كان بالجامع فقهاء يخالفون العقيدة الفاطمية ، وأنهم كانوا يفتون على حسب مذهبهم وعقيدتهم ، فلما جاء هذا الفقيه للفتيا على المذهب الفاطمى شغبوا عليه فاضطر القاضى إلى أن يقبض على بعضهم لا لشىء سوى أنهم لم يتسامحوا مع هذا الفقيه مثل ما تسامحت الدولة معهم . ويروى أيضا أن الحاكم بأمر الله أمر بطلب فقيهين وأمرهما بتدريس مذهب مالك فى الجامع ثم بدا له فقتلهما بعد ذلك (٣). أضف إلى ذلك أن مصر شاهدت فى العصر الفاطمى عدداً من فقهاء الشافعية والمالكية ، كذلك وفد على مصر عبد السلام بن محمد ابن بندار أبو يوسف القزوينى شيخ المعتزلة وأقام بها أربعين سنة (٤) يلقى تعاليمه التى تخالف تعاليم الفاطميين ، وسنتحدث عن ذلك كله فى الفصل الخاص بفقهاء أهل السنة ، وإذن نستطيع أن نقول إن الفاطميين كانوا يسمحون لأصحاب المذاهب الأخرى بإلقاء تعاليمهم بجانب ما كان يلقى من تعاليم الفاطمية . وقد تكون هذه سياسة وضعت لأن تقام المناظرات بين علماء هذه المذاهب وبين دعاة الفاطميين حتى يستطيع جمهرة المستمعين أن يتبينوا بعض المآخذ على المذاهب غير الفاطمية وأن يقتنعوا بحجج الدعاة وأدلتهم وتبهرهم فصاحتهم فيدخلوا فى الدعوة .

(١) رسالة مباسم البشارات : نسخة خطية بمكتبتى الخاصة .
(٢) الكندى ص ٥٩٤ . (٣) النجوم الزاهرة ح ٤ ص ١٧٨ .
(٤) المصدر السابق ج ٥ ص ١٥٦ .

وإلى جانب الجامع الأزهر نرى الفاطميين قد بنوا جامع الحاكم خارج باب الفتوح وجامع راشدة وجامع المقس وجامع القرافة والجامع الأقمر وكثيرا من المساجد التى لا يزال بعضها ماثلا أمام أعيننا الآن، وقد نقل الفاطميون إليها المصاحف وجلس فيها الفقهاء والعلماء ودعاة المذهب الفاطمى فكانت هذه المساجد بمثابة مدارس لتلقين الدعوة الفاطمية.

٢ — القصر: يحدثنا القاضى النعمان بن محمد بأنه «لما فتح المعز لدين الله (ص) للمؤمنين باب رحمته وأقبل عليهم بوجه فضله ونعمته أخرج إلى كتابا من علم الباطن وأمرنى أن أقرأه عليهم فى كل يوم جمعة فى مجلس فى قصره المعمور بطول بقائه، فكثر ازدحام الناس وغص بهم المكان، وخرج احتفالهم عن حد السماع وملأوا المجلس الذى أمر باجتماعهم فيه (١).

وفى موضع آخر قال القاضى النعمان: وسمعته صلى الله عليه (أى سمع المعز) يقول لبعض الأولياء: ما تنظرون اليوم فى شىء تنتفعون به، ما تقرءون شيئا، ما تسمعون شيئا؟ فسكتوا، وكنت قبل ذلك قد سمعت بعضهم يحرض بعضا فى الاجتماع لقراءة كتاب دعائم الإسلام الذى بسطه المعز لدين الله (صلع) وجعله فى مجلس من مجالس قصره. وأباح لهم حتى أحبوا استماعه وقراءته وانتساخه والتعلم منه والتفقه فيه، وقال بعض من حرض على ذلك: ويحكم أما تخافون إن قصرتم فى هذا أن يكون حجة من الله ومن وليه عليكم أن يحتج بكم فيه، وقد أباحه لكم دهرا طويلا فيختبركم فيه أو فى بعض أبوابه فلا يجدكم حفظتم شيئا منه ولا انتفعتم به، فيقال لكم إذا كنتم لم تقوموا بما أعطيناكم من ظاهر دينكم الذى تعبدكم الله بالقيام به فكيف ينبغى لنا أن نعطيكم من باطنه (٢)

ولعل هذه القاعة التى أشار إليها النعمان والتى ألقى فيها هذا العلم الباطن هى المكان نفسه الذى خصصه الفاطميون للدعوة وعرف باسم المحول. فكان المحول فى العصر الفاطمى أشبه شىء بقاعات المحاضرات العامة فى عصرنا الحديث، وكان يؤم المحول الخاصة وشيوخ الدولة وخدم القصر والطارئون على مصر وعامة الناس (٣)، وهكذا جعل الفاطميون جزءا من قصرهم للدعوة لمذهبهم، ومكانا

(١) المجالس والمسايرات ورقة ٦٨ ب.
(٢) المجالس والمسايرات ج ٢ ص ١٢٣ — ١٣٤.
(٣) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٢٦.

يلتقى فيه العلماء والدعاة علوم أهل البيت، وهى المجالس التى عرفت بمجالس الحكمة التأويلية. ولم يكتف الأئمة الفاطميون بأن يكون المحول فى قصرهم بل نراهم يهتمون اهتماما خاصا بمكتبة القصر حتى عدت هذه المكتبة من مفاخر الفاطميين، فقد تميزت عن جميع مكتبات العالم الإسلامى فى ذلك الوقت. ويقول المقريزى نقلا عن ابن أبى طى بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين الأيوبى على القصر: «ومن جملة ما باعوه خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا، ويقال إنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى القصر، ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبرى إلى غير ذلك، ويقال إنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب (١). ويقول المقريزى: ومما يؤيد ذلك أن القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على لما انشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة جعل فيها من كتب القصر مائة ألف مجلد (٢). ويروى عن المسبحى أن عدة الخزائن التى برسم الكتب فى سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة بعضها داخل القصر لا يتوصل إليها أحد وبعضها فى خزائن القصر البرانية. وكانت هذه الخزائن تشتمل على مجلدات فى كل فن من فنون العلوم الإسلامية، فمن فقه على سائر المذاهب إلى نحو ولغة وكتب حديث وتاريخ ونجامة، وروحانيات وكيميا غير المصاحف الكثيرة، ويقال إن العزيز بالله ذكر عنده كتاب العين للخليل بن أحمد فأمر خزان دفاتره فأخرجوا من خزائنه نيفا وثلاثين نسخة من كتاب العين منها نسخة بخط الخليل نفسه، وحمل إليه رجل نسخة من كتاب تاريخ الطبرى اشتراها بمائة دينار فأمر العزيز خازنه فأخرج له من الخزانة ما ينيف عن عشرين نسخة منها نسخة بخط ابن جرير. الخ (٣) وهكذا كانت خزانة كتب القصر. ولعلنا نستطيع أن ندرك من هذه اللمحة القصيرة مدى عناية الخلفاء الفاطميين باقتناء الكتب فى كل فن وحرصهم على أن تجمع خزائنهم الطرائف والنفائس فى كل علم، وذلك تشجيعا منهم للعلم والعلماء. ولا غرو فى ذلك، فإن مذهبهم الدينى يدعو إلى العلم والعمل وإلى الاستزادة من جميع العلوم والآداب، حتى يتسنى لدعاتهم أن يكاسروا خصومهم بأدلة علمية، وأن يتخذوا من سعة أفقهم ومداركهم وثقافتهم مجالا يجولون فيه حتى يبزوا غيرهم. فلا نعجب إن رأينا داعيا من دعاتهم مثل هبة الله بن موسى الشيرازى المعروف بالمؤيد

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٥٥. (٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٥٣.

في الدين كان يلم بجميع ألوان العلوم التي كانت معروفة في عصره ، واستطاع بما حصله من علم أن يرد على جميع المذاهب والفرق الإسلامية ، وأن يدحض رأى الزنادقة المارقين أمثال ابن الراوندي والثغوري ، وأن يناظر بعض الشاكين أمثال أبي العلاء المعري ، وأن يجادل خصومه هؤلاء بأدلة علمية منطقية وحجج قوية ، فلولا ما أوتيه من علم لما استطاع أن يعرف مواطن الضعف عند هؤلاء جميعا فيهاجمهم ويدحض حججهم نثرا وشعرا ويترك لنا هذه الذخيرة في مجالسه وديوانه. ونستطيع أن نقول كذلك عن الداعي أحمد حميد الدين الكرماني وعن الداعي أبي حاتم الرازي وعن السجستاني وغيرهم من فحول دعاة المذهب الذين تم على أيديهم فلسفة المذهب وتبلورت عقائده .

لكن هذه الكنوز العلمية من نفائس الكتب التي حافظ عليها الفاطميون في قصرهم أصابها ما أصاب الفاطميين أنفسهم ، وكان ابتداء هذه المحنة التي نكبت بها مكتبات القصر إبان الشدة العظمى التي حلت بالبلاد أيام المستنصر بالله الفاطمي وقد شاهد المسبحي المؤرخ المصري شيئا من هذه المحنة وصفها بقوله « وكنت بمصر في العشر الأول من محرم سنة إحدى وستين وأربعمائة فرأيت فيها خمسة وعشرين جملا موقرة كتبا محمولة إلى دار الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي فسألت عنها فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير ابن الموفق في الدين بإيجاب وجبت لهما عما يستحقانه وغلمانهما من ديوان الجيليين ، وأن حصة الوزير أبي الفرج منها قومت عليه من جاري مماليكه وغلمانه بخمسة آلاف دينار ، وذكر لي من له خبرة بالكتب أنها تبلغ أكثر من مائة ألف دينار ، ونهب جميعها من داره يوم انهزم ناصر الدولة ابن حمدان من مصر في صفر من السنة المذكورة مع غيرها مما نهب من دور من سار معه من الوزير أبي الفرج وابن أبي كدينة وغيرهما ، هذا سوى ما كان في خزائن دار العلم بالقاهرة وسوى ما صار الى عماد الدولة أبي الفضل بن المحترق بالاسكندرية ثم انتقل بعد مقتله إلى المغرب ، وسوى ما ظفرت به لواتة محمولا مع ما صار إليه بالابتياع والغصب في بحر النيل والإسكندرية في سنة إحدى وستين وأربعمائة وما بعدها من الكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل في سائر الأمصار صحة وحسن خط وتجليد وغرابة التي أخذ جلودها عبيدهم وإماؤهم برسم عمل ما يلبسونه في أرجلهم ، وأحرق ورقها تأولا منهم أنها خرجت من قصر السلطان

أعز الله أنصاره ، وأن فيها كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم ، سوى ما غرق وتلف وحمل إلى سائر الأقطار وبقي منها ما لم يحرق ، وسفت عليه الرياح التراب فصار تلالا باقية في نواحي آثار تعرف بتلال الكتب(١) هذا ما عاينه هذا المؤرخ المصري الكبير وذكره في كتبه ، وعنه أخذ من جاء بعده عن هذه الذخيرة العلمية ومقدار ما أصابها إبان الشدة المستنصرية من تلاعب الوزراء والخدم بعد أن ضعف أمر الخلافة الفاطمية وأصبح الوزراء والأمراء أصحاب الحول والطول في البلاد ، ومع ذلك كله بقي في مكتبات القصر عدة آلاف من الكتب ، ويحدثنا ابن ميسر أنه وجد في ثروة الأفضل بن بدر الجمالي خمسمائة ألف مجلد من الكتب (٢) لا أشك أن أكثرها كان في خزائن القصر وأبادها صلاح الدين الأيوبي كما أباد دولة الفاطميين وقد ذكرنا ما أخذه القاضي الفاضل من خزائن القصر لمدرسته الفاضلية ، ويذكر المقريزي أن ابن صورة دلال الكتب باع منها جملة في مدة أعوام(٣) وكذا ضاعت كنوز الفاطميين العلمية بيد التعصب الممقوت .

كان في هذه الخزائن كتب الدعوة وما ألفه الأئمة وكانت هذه الكتب مما يحافظ عليه الفاطميون أشد المحافظة حتى لا يصيبه الفساد ، ويحدثنا منصور الجوذري الكاتب أن المنصور بالله أرسل الى جوذر الصقلي رسالة نسختها : « بعثت إليك كتبي وكتب الأئمة آبائي الطاهرين ، وقد ميزتها فأقررها عندك مصونة من كل شر ، فقد وصل الماء إلى بعضها فغير فيه ، وما من الذخائر شيء هو أنفس عندي منها فأمر محمداً كاتبك ينسخ لك منها ثلاث كتب ففيها من العلوم والسير ما يسرك الله به (٤) فهذا يدل على شدة العناية التي كان يوجهها الفاطميون إلى كتب الأئمة وهي كتب الدعوة ومحافظتهم عليها . فلا شك أن مثل هذه الكتب العزيزة لديهم كانت تحفظ داخل القصر فلا يقربها إلا الأئمة والدعاة فقط ، أما المكتبات التي عبر عنها المسبحي « بالبرانية » فأرجح أنها كانت كالمكتبات العامة في عصرنا هذا ، ولا سيما في تلك الأيام التي كان يجتمع فيها الناس بالقصر لسماع مجالس الحكمة التأويلية ...

فهذه المكتبات التي كانت في القصر لعبت دوراً هاماً في الدعوة ونشرها ،

(١) خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٥٤ .   (٢) أخبار مصر لابن ميسر ص ٥٧ .
(٣) خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٥٥ .
(٤) سيرة الأستاذ جوذر ، نسخة خطية بمكتبي الخاصة .

لحرص الفاطميين على اقتناء الكتب على اختلاف فنون العلم والآداب ، وشغفهم بالمحافظة عليها ، سهل للدعاة الاطلاع وإدمان النظر فيها ، والمجادلة فيها بينهم ، والمناظرة فى هـذه العلوم حتى يتخذوا منها وسيلة لغاياتهم ، وسلاحا من أسلحة دعوتهم . حقا لم يذكر لنا القدماء أن الفاطميين استخدموا هذه المكتبات التى كانت بالقصر فى خدمة الدعوة ، فلم يعقد فيها الدعاة مجالس الحكمة ، ولكن هذه الكتب الكثيرة لم توجد فى القصر عبثا ، ولم يحافظ عليها الفاطميون ليباهوا بها غيرهم ومنافسيهم فحسب ، بل كانت أداة من أدوات تثقيف الدعاة وتعليمهم حتى تكون لديهم ذخيرة علمية للقيام بما تفرضه عليهم طبيعة عملهم ، ولا سيما هـذه الكتب التى كانت فى داخل القصر والتى لا يقربها إلا الخاصة ، وهى الكتب التى قلنا إنها كتب الأئمة أى كتب الدعوة ، فكيف يتأتى للداعى أن يقوم بما فرض عليه من الدعوة إلا بمعرفة هذه الكتب ودراسة ما فيها دراسة كاملة شاملة ، ولا سيما أن الداعى كان عرضة دائما للمجادلات والمناظرات مع علماء المذاهب الأخرى المخالفين لمذهبه . وقد ذكرنا شيئا من صفات الداعى العلمية ، وما يجب أن يكون عليه من سعة الاطلاع والإلمام بمذهبه ، وإذن فلنا أن نقول إن هذه المكتبات التى كانت فى القصر استخدمت فى الدعوة من طريق غير مباشر . وهكذا استخدم القصر فى العصر الفاطمى فى نشر الدعوة الفاطمية بمحوله ومكتباته ، وفى المحول كان يجتمع الناس لسماع المحاضرات — مجالس الحكمة التأويلية — وكان الجمهور يقسم إلى أقسام فكان للأولياء مجلس ، وللخاصة وشيوخ الدولة وخدم القصر مجلس ، ولعوام الناس مجلس ، وللطارئين مجلس وللنساء مجلس (1) ، وهكذا ، وسنتحدث عن ذلك فى فصل مجالس الحكمة التأويلية .

دار العلم : ومن مآثر الفاطميين تلك الدار التى أنشأها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ وسماها بدار العلم وجعلها جزءا من قصره ، ولعلها هى الخزائن التى أشار إليها المسبحى باسم الخزائن البرانية ، وقد حمل إلى هذه الدار الكتب من خزائن القصر من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك ، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها فجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء ، فكان ذلك من المحاسن المأثورة التى لم يسمع بمثلها من إجراء الرزق السنى لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيه

(1) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٢٦ .

وغيره ، وحضرها الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين ثقافاتهم وفنونهم العلمية ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق (1) ، فدار العلم إذن كانت مكتبة عامة على نحو ما نراه اليوم فى المكتبات العامة ، ولكنها بجانب ذلك كانت جامعة علمية للتعليم ، وكثيرا ما كانت تقام المناظرات بين علمائها . من ذلك ما يرويه السيوطى أن جنادة بن محمد بن الحسين الأزدى الهروى أبا أسامة اللغوى النحوى قدم مصر وصحب الحافظ عبد الغنى بن سعيد وأبا إسحق على ابن سليمان المعرى النحوى ، وكانوا يجتمعون فى دار العلوم بالقاهرة وتجرى بينهم مباحثات ومذاكرات (2) . وروى المقريزى عن المسبحى أنه فى سنة ٤٠٣ هـ أمر الحاكم بإحضار جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغنى بن سعيد ، وجماعة من الأطباء إلى حضرته ، للمناظرة بين يديه ، وكانت كل طائفة تحضر على انفراد ، ثم يخلع الحاكم على الجميع ويصلهم (3) .

ومن أشهر العلماء الذين ألقوا بعلومهم فى دار العلم رجل مكفوف يقال له أبو الفضل جعفر ، قدم مصر فأعجب به الحاكم وخلع عليه ، ولقبه بعالم العلماء ، وجعله يجلس فى دار العلم يدرس النحو واللغة (4) ، ومنهم أبو بكر الأنطاكى الفقيه المالكى الذى سمح له الحاكم ولشيخ مالكى آخر أن يقيما بدار العلم ويلقيا دروسا فى المذهب المالكى (5) . فهذا كله إن دل على شىء فإنما يدل على أن دار العلم كانت بمثابة جامعة فيها أساتذتها وبها مكتبتها ، وفيها كل ما يبعث على النشاط العلمى والبحث والتحصيل ، فالفاطميون بإنشائهم الجامع الأزهر ودار العلم كانوا أسبق الناس إلى إنشاء الجامعات التى تمتاز بها المدنية الحديثة فى أيامنا هذه !

جعل الحاكم بأمر الله النظر على دار العلم إلى عبد العزيز بن محمد بن النعمان قاضى القضاة (6) ، وظلت تؤدى أغراضها العلمية ، ويقبل عليها الطلاب والعلماء من كل صوب ، إلى أن كانت أيام وزارة الأفضل بن بدر الجمالى ، وعلم الوزير أن جماعة من المترددين على دار العلم يحاولون بث دعوة إلحادية بين الطلاب وأن بعضهم ادعى الألوهية ، فاضطر الوزير إلى أن يغلق هذه الدار سنة ٥١٦ هـ بعد أن عمرت

(1) خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٤ . (2) بغية الوعاة للسيوطى ص ٢١٣ .
(3) خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٥ .
(4) رفع الإصر (ص ١٩ ب) نسخة خطية بدار الكتب المصرية .
(5) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢ . (6) الولاة والقضاة للكندى ص ٦٠٠ .

أزيد من قرن ، وكان إغلاق هـذه الدار العلمية وقع وقع الصاعقة على الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله وعلى بعض العلماء الذين كانوا فى خدمته ولكن الخليفة كان مسلوب الإرادة مع وزيره ، فصبر على مضض ، حتى قتل الأفضل وتولى الوزارة المأمون البطائحى ففاتحه الآمر فى إعادة دار العلم على ما كانت عليه ، وما زال الخليفة بوزيره حتى قبل أن يعيد افتتاحها بشرط أن تكون بعيدة عن القصر ، وأن يتولاها رجل دين ، وأن ينظر فيها الداعى ابن عبد الحقيق ، وأن يقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن . فوافق الخليفة الآمر على ذلك كله ، واستخدم فى هذه الدار الجديدة أبو محمد حسن بن آدم (١) ، ولكن هـذه الدار الجديدة لم تعمر طويلا إذ قضى عليها بالقضاء على الدولة الفاطمية .

كانت دار العلم من مراكز الدعوة الفاطمية ، فكان الداعى يجلس فيها ويجتمع إليه من التلاميذ من يتكلم فى العلوم المتعلقة بمذهبهم (٢) ، كما كانت هـذه الدار المكان الذى يجتمع فيه داعى الدعاة بالدعاة والفقهاء لتنظيم أمور الدعوة (٣) . ومن يدرى لعل فى دار العلم كانت تحضر مجالس الحكمة التأويلية التى كان يلقيها داعى الدعاة نائبا عن إمامه .

ومهما يكن من شىء فالقصر والمساجد ودار العلم كانت أبرز مراكز الدعوة فى العصر الفاطمى . ولما كانت هذه المراكز فى القاهرة كان فى كل بلد من البلدان مركز للدعوة هو المسجد أو منزل الداعى فى هذا البلد . يحدثنا المؤيد فى الدين وكان داعيا فى أول الأمر بشيراز : « فلما كان يوم عيد الفطر من سنة تسع وعشرين وأربعمائة كنت يوم قبله مستعدا له فى تحصيل فرش وآلة وسجادات يصلى عليها المصلون ولا يستغنى عنها المتعبدون ، فرفع الخبر بأنى أستجمع الجموع للصلاة والخطبة فى غد وأضرب فى ساحة دارى المضارب والفازات ولما كان فى غد وهو العيد اجتمع الخلق الكثير من الديلم للصلاة فصليت بهم ، فلما أتممت عكفت عليهم بالوعظ والإنذار . . اخ (٤) فالداعى هنا كان يتخذ منزله مركزا للدعوة ولكنه كان فى بلد يخضع لحكم العباسيين ، أما فى مصر فقد كانت الدعوة ظاهرة مكشوفة تؤيدها الدولة بمالها وسلاحها ، فكان الدعاة يتخذون المنازل والمساجد للدعوة دون خشية . وفى المساجد كانوا يلقون مجالسهم التأويلية .

(١) المقريزى ج ٢ ص ٣٣٧ . (٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٦ .
(٣) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٦٦ . (٤) السيرة المؤيدية .

الفصل الثالث

مجالس الحكمة التأويلية

من أجل أعمال داعى الدعاة ونوابه فى الجزائر عقد مجالس الحكمة التأويلية ، أو بعبارة أخرى إلقاء محاضرات على جمهور المؤمنين بدعوتهم يبثهم فيها الداعى عقائد مذهبهم والتأويل الباطن للدين ، وهى العلوم التى عرفت بعلوم أهل البيت ، والتى هى السر الذى يجب أن يظل مدفونا فى صدور الأولياء لا يبوحون به لأحد ، فكل المجالس التى عقدها الدعاة هى مجالس تعليمية ، ولكن لهذه المجالس درجات ، ولكل طبقة من المؤمنين مجلس خاص كما ذكرنا من قبل ، فللعامة مجلس ، وللنساء مجلس ، وللخاصة مجلس ، وهكذا . ولم تقسم هذه المجالس على حسب الطبقات الاجتماعية لجمهور المؤمنين ، إنما قسمت على حسب مرتبة الحاضرين فى مدارج الدعوة ، فلا يلقى داعى الدعاة على دعاته ما يلقيه على المبتدئين فى دخول الدعوة ، ولا يلقى على العامة من أهل البلد ما يلقيه على الغرباء ، فلكل طبقة من هذه الطبقات أسلوب خاص ، وعلوم خاصة ، بحيث ينتهى إلى أسرار الدعوة التى يجب ألا يقربها إلا كل ذى قدم راسخة فى الدعوة ، ومن بلغ فيها مرتبة رفيعة كأن يكون داعيا مثلا .

وداعى الدعاة — ويعرف بباب الأبواب ، وباب حطة ، وبالحجة — هو الذى يعد هذه المحاضرات ويرفعها إلى الإمام فيوقعها هذا بعلامته ويعيدها إلى كبير دعاته فيلقيها على المستجيبين فى المحول أو غيره ، فإذا انتهى من قراءتها مسح على رءوس الناس بعلامة الإمام تبركا بها ، وتكتب هذه المجالس عادة على أنها صادرة من الإمام فتظهر للجمهور وكأن الإمام هو الذى كتبها وأن داعى الدعاة هو قارئ لما كتب الإمام ، ولذلك يختفى اسم الداعى ولا يظهر فى كتب المجالس ، مع أن المعروف أن حجة الإمام هو صاحب التأويل فى عصره .

تبدأ هذه المجالس عادة بحمد الله والصلاة على نبيه والأئمة من نسل على ، ويردفها الداعى بشىء من الوعظ والإرشاد ، ثم يبدأ فى تأويل آية من آيات القرآن أو حديث نبوى أو أثر عن الأئمة أو يؤول شيئا من فرائض الدين العملية ،

ويختم مجلسه بالدعاء والصلاة والحمد . وتلقى هـــذه المجالس مرتين فى الأسبوع : يوم الاثنين ويوم الخميس ، ويخيل إلى أن مجالس يوم الخميس كانت للخاصة ، وفيها يقول المؤيد :

يا صباح الخميس أهلا وسهلا   زادك الواحد المهيمن فضلا
أنت عيـــد للمؤمنين عتيد   جمع الدين منهـــم فيك شملا
نحن نجنى ثمار جنة عدن   كلما أقبل الخميس وولى
من رياض أنهارها جاريات   وبهـا الحور فى المقاصر تجلى
تتروى الأرواح منها بماء   هو أشفى من الزلال وأحلى
رتبة خصنا بها صاحب العصـــــر أمين الإله عز وجلا (١)

وبين يدى الآن عدة كتب جمعت مجالس الحكمة التأويلية التى كان يلقيها بعض الدعاة ، مثل كتاب تأويل دعائم الإسلام للقاضى النعمان بن محمد ، وكتاب المجالس المؤيدية ويحتوى على ثمانمائة مجلس من مجالس التأويل ، وكتاب المجالس المستنصرية للداعى الموسوم بعلم الإسلام ثقة الإمام (٢) ، وهذه المجالس تختلف باختلاف الداعى ، فمجالس القاضى النعمان فى تأويل فقه الفاطميين ، والمؤيد يميل فى تأويله إلى فلسفة المذهب ، أما ماجاء فى المجالس المستنصرية فهو تأويل بداتى ، ويخيل إلى أن المجالس المستنصرية كانت تلقى على المبتدئين فى الدعوة ، وقد رأيت أن أقدم صورة من هذه المجالس المختلفة .

المجلس العاشر من الجزء الرابع من تأويل دعائم الإسلام القاضى النعمان

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذى جل عن تقدير المتوهمين ، ولطف عن لطيف بحث المتوسمين ، وصلى الله على محمد النبى وعلى الأئمة من ذريته الطاهرين ، ثم إن الذى يتلو ما تقدم ذكره ما جاء عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال : أول الصفوف أفضلها ، وهو صف الملائكة ، وأفضل المقدم ميامن الإمام . تأويله ما تقدم القول به من أن أمثال الصفوف فى الصلاة أمثال درجات المستجيبين إلى دعوة الحق على مقادير فضلهم وسبقهم ، وأن أمثال الملائكة من الناس أمثال

(١) ديوان المؤيد داعى الدعاة .
(٢) طبع هذا الكتاب سنة ١٩٤٦ بدار الفكر العربى بالقاهرة .

المملكين أمور العباد ، وهم أولياء الله من رسله وأئمة دينه ومن ملكوه شيئا من أمور العباد وأرسلوه لهم وما أرسلوهم له ، والملك والملائكة فيما ذكر أهل اللغة مشتقة أسماؤها من الرسالة ، والألوك والمألكة فى لغة العرب الرسالة ، وقد قال الله جل من قائل : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » . فالصف الأول من صفوف ظاهر الصلاة لا ينبغى أن يقف فيه إلا أفضل أهل المسجد من علمائهم ، كما قال رسول الله (ص) : ليلنى منكم أولو النهى والعلم . وينبغى أن يكون على يمين الإمام فى الصف من خلفه أفضلهم ، ومن يصلح أن يكون إماما إن حدث به حدث يوجب خروجه من الصلاة ، لأن انصرافه إذا انصرف من الصلاة إنما يكون عن ذات اليمين ، فيكون من يقدمه هناك ، فيأخذ بيديه ويقدمه مكانه ، وعلى هـذا تجرى مراتب أهل الدعوة فى حدودها : أن يكون الذين يلون القائم بها فى الدرجة العالية من درجات المؤمنين الذين هم أهلها . وأن يكون أقربهم منه عن يمينه ، وهى أفضل درجاتهم ، من يصلح لمقامه من بعده ، ويتلوه ذلك ما جاء عنه عليه السلام أنه قال : سدوا فرج الصفوف ، ومن استطاع أن يتم الصف الأول أو الذى يليه فليفعل ، فإن ذلك أحب إلى نبيكم ، وأتموا الصفوف فإن الله وملائكته يصلون على الذين يتمون الصفوف . وعن جعفر بن محمد صلوات الله عليه أنه قال : « أتموا الصفوف ولا يضرك أن تتأخر إذا وجدت تضييقا فى الصف الأول فتتم الصف الذى خلفك ، وإن رأيت خللا أمامك فلا يضرك أن تمشى منحرفا حتى تسده . يعنى وهو فى الصلاة . وعن رسول الله (ص) أنه قال : صلوا صفوفكم ، وحاذوا بين مناكبكم ، ولا تخالفوا بينها فتختلفوا ويتخللكم الشيطان كما يتخلل أولاد الحذف . فتعديل الصفوف وسد ما فيها من الفرج وتمامها واعتدال وقوف القيام فيها من واجب الصلاة وحدودها فى الظـاهر ، ومثله فى الباطن اعتدال أهل الدرجات فى دعوة الحق على درجاتهم وحدودهم التى حدت لهم ، لا يتجاوز أحد منهم حده إلى غيره ، ومن رأى منهم خللا فى حد من الحدود التى فوقه أو دونه فينبغى له أن يسعى ويجتهد فيما يبلغه إلى تلك الدرجة ويوجب له سد ذلك الخلل ، وبأن يكون أهل كل حدود درجة قد استوت بهم الحـال فيها ، وأوجبت لهم الأحوال والأعمال أن يكونوا متساوين فى ذلك على ما أمروا به من التساوى فيـــه ، لا يتقدم أحـد منهم

أحداً فى ذلك ، كما وجب فى ظاهر الصلاة أن يحاذى أهل كل صف منها بين مناكبهم ، ولا يتجاوز أحد منهم أحداً ، وأنهم إن فعلوا ذلك اختلفوا وتخللهم الشيطان ، وتأويل ذلك أن أهل مراتب الدعوة إذا تعدى أحدهم حده ، وخرج عنه إلى حد غيره ، أوجب ذلك اختلافهم ، ودخل بينهم ما يجب أن يختلفوا عن أعداء أولياء الله الذين أمثالهم أمثال الشياطين ، وقوله : « كما يتخلل أولاد الحذف » . فالحذف ضرب من الغنم الصغار السود ، واحدتها حذفة ، تتخلل الغنم وتمشى بينها ، فشبه رسول الله (صلع) تخللها ومشيها بتخلل الشيطان ومشيه بالتخريب بين المؤمنين لما يريده من تقاطعهم وتدابرهم إذا وقع مثل ذلك فيهم ، وتنافسوا فى الرياسة بالخروج من حدودهم التى حدت لهم وأمروا بلزومها . ويتلو ذلك ما جاء عن على (ص) أنه قال : قال لى رسول الله (ص) يا على لا تقومن فى العيكل. قلت : وما العيكل يارسول الله ؟ قال : تصلى خلف الصفوف وحدك ، فهذا مما يكره فى ظاهر الصلاة، أن يقف المصلى خلف الصفوف وحده ، وهو يجد فيها مكانا يقوم فيه ، فإن لم يجد ذلك قام إلى أن يأتى من يقوم إلى جانبه أو يصلى كذلك وحده إن لم يأت أحد ولم يجد فى الصفوف موضعا يقوم فيه ، وتأويل ذلك فى الباطن ؛ نهى رسول الله (ص) عليا عليه السلام عن أن يفعله فى الظاهر لأنه ليس هو حده فى الباطن ، وحده فى الباطن أعلى الحدود وأرفع الدرجات دون درجة النبوة ، فكره له أن يقوم فى الظاهر فى مكان لا يشبه مكانه فى الباطن ، وكذلك لا ينبغى له أن يخالف بنفسه وأن يتواضع عن الدرجة التى جعلها له رسول الله (ص) . ويتلو ذلك قول محمد بن على عليه السلام : « ليكن الذين يلون الإمام أولو الأحلام والنهى فإن تعايا لقنوه » وقد جاء فى مثل ذلك عن رسول الله (ص) أنه قال : ليلنى منكم أولو النهى والعلم . وتأويل ذلك ما تقدم القول به من أن ذلك كذلك يجب فى ظاهر الصلاة أن يكون الذين يلون الإمام إذا صلى بالناس علماؤهم وأهل الفضل منهم، فإن تعايا وتوقف فى القراءة لقنوه وإن سها فى الصلاة سبحوا له ليتذكر ما سها فيه، فيرجع إلى الواجب منه ، وإن ذلك فى الباطن كذلك لا يلى صاحب دعوة الحق فى الرتبة والدرجة إلا أفضل أهل تلك الدعوة فإن سها عن شىء عندهم من علم ذكروه إياه على ما تقدم القول به ، ويتلو ذلك قول أبى جعفر محمد بن على عليه السلام : « إذا صلى النساء مع الرجال فهن فى آخر الصفوف لا يتقدمن رجلا ولا يحاذينه إلا أن

يكون بينهن وبين الرجال سترة ، فهذا هو الواجب فى ظاهر الصلاة . وتأويله ما قد تقدم القول به من أن الرجال أمثال المفيدين والنساء أمثال المستفيدين، وأن درجة المفيدين فوق درجة المستفيدين ، ولا ينبغى المستفيد أن يتجاوز حداً إلى حد المفيد ولا أن يدانيه ، بل ينبغى له كما ذكرنا أن يقع دونه ويتواضع له، وأما قوله: « إلا أن تكون بينهن وبين الرجال سترة » تأويله أن يكون المفيد مستتراً لحال التقية ، فيعامل المستفيد منه فى السر ويفيده ويتقدم إليه ألا يدل عليه شىء من إجلاله ولا التواضع له فيطرح ذلك المستفيد فى ظاهر أمره تقية على مفيده وعلى نفسه . فافهموا بيان التأويل يا ذوى النهى والعقول، جعلكم الله ممن يفهم ويعلم ويعمل بما علم، وصلى الله على محمد نبيه وعلى الأئمة من ذريته وسلم تسليما، وحسبنا الله ونعم الوكيل . »

صورة من المجالس المؤيدية :

المجلس التاسع من المائة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذى علا عن كل معلوم ، وسما عن كل موسوم ، وكبر عن كل موهوم ومفهوم ، وصلى الله على ربيب رحمته المعمور ، وبحر حكمته المسجور ، محمد المبشر به فى التوراة والإنجيل والزبور ، وعلى أخيه وابن عمه فارس يوم الهياج ، ومستودع سر ليلة المعراج، على بن أبى طالب البرزخ بين البحرين العذب الفرات والملح الأجاج، وعلى الأئمة من ذريته هداة من ذرأ الله من خلقه، والمستحفظين لدينه وحقه، والمتمين كلمة عدله وصدقه . معشر المؤمنين، آمنكم الله من الفزع الأكبر ، وحشركم مع من تحبون فى يوم المحشر ، القليل الطيب خير من الكثير الخبيث ، فكونوا طيابا، وكونوا فى جانب الخير ولا تيمموا الشر جنابا، والخير كله طاعة الله واتباع رسوله (صلع) فيما شرع، والاقتداء به فى وصل ما وصل وقطع ما قطع ، فصلوا ما أمر الله به أن يوصل بقوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » واقطعوا ما أمر الله به أن يقطع بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء » يرض عنكم ، وبدلوا حرصكم على الدنيا فتورا ، وفتوركم عن الآخرة حرصا ، وعوضوا

عن نقصكم فى طلب الباقى ازديادا. وعن ازديادكم فى طلب الفانى نقصا ، من قبل أن يغشيكم غواشى الندم ، ويطوف عليكم طوائف العدم ، فلا دنيا أدركتم ، ولا بعقبى تمسكتم ، وأنصتوا لما يلقى إليكم من الحكمة فإنها تنقش صور نفوسكم المستجنة فى الأجسام ، كما تنقش قوى الشراب والطعام صور الأجنة فى الأرحام . واعلموا أنها نعمة الله سبحانه على خالصة عباده ، وأنتم بها مشمولون ، وعلى حالتى حفظكم لها وإضاعتكم لا محالة مسئولون . قال الله أصدق القائلين : ثم لتسألن يومئذ عن النعيم . زعم الزاعمون أنه الماء البارد فى اليوم الصائف ، وحمى الماء البارد للبهائم كما للإنسان مباح ، وأحق منه بالسؤال عنه ما هو للإنسان دون البهائم متاح ، وهو علم الحقيقة الذى يؤثر فى النفوس اللطيفة لصلاح المعاد أكثر مما يؤثر الماء البارد لصلاح الأجسام . وفسر بعض مفسرى الشيعة أن النعيم المسئول عنه هو ولاية على بن أبى طالب (ص) وقد صدقوا إن اعتقدوا فيه أن الولاية مصحة التوحيد ، ومعرفة الحدود الوقوف على معالم الإيمان ، وعلم التأويل الذى نفك به أقفال القرآن ، وكذبوا إن اعتمدوا فى معرفة الله سبحانه على عقولهم ، وادعوا وقوع الغناء فيها عن الرسول والوصى ، على ما عليه رأى كثير من الشيعة بزعمهم من الاستظهار بالولاء والاقتداء فى معرفة التوحيد بذوى القياس والآراء والجحود بالتأويل الذى ينقذ من ظلمات الاختلاف ويفضى إلى نور الائتلاف ، وإنما الافتقار إلى الرسول والوصى عليهما السلام لبلوغ ما هم بزعمهم بالغوه من معرفة الله جل جلاله ، فإذا كانت معرفة الله سبحانه تصح من دونهما فأى حاجة تبقى بعدها إليهما للناس ، وأية فضيلة تخلص لهما ، وسوى هذا فإن كانت المعتزلة التى هى الفئة المبرزة بدعاوى معرفة الله سبحانه بغير واسطة رسول نزولا على رأى بعض الفلاسفة وإشراف منهم بقوا مأمونين عند من أشرنا إليهم من الشيعة أن يقتدوا بهم فى توحيد ربهم والقول فى العدل على قضايا مذهبهم ، فلم لا يكونون مأمونين على الإمامة التى هى دونهما فيرجعوا إلى ربهم فيها ، ولا يناقضوهم فى نقض مبانيها ، عهد من يكون مأمونا على انتظار ، ولا يكون مأمونا على دينار ، فقد اختل عليهم القول بولاية على (ص) بقطعهم ما أمر الله به أن يوصل من نظام الإمامة فى ولده ، فصاروا فى معالم توحيدهم وعدلهم على أضدادهم عيالا ، ولو

فاءوا إلى جملة المعتصمين بحبل الله الممدود باتصالها لوردوا عيونا وظلالا ، ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله ، وكرهوا رضوانه ، فأحبط أعمالهم ، وقد كان قرئ عليكم من قول الله سبحانه: «فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا» . ما شفع بالإبانة عن معنى الحق ، ولم سمى حقا؟ وإن ذلك جهة كونه أصلا يحتمل الوضع عليه . وانتهى الشرح إلى القول بأن الأشكال الجسمانية الكثيفة موضوعة على القوى النفسانية اللطيفة، ومثال ذلك :أن السموات والأرض وما بينهما محمولة على قوة إلهية لطيفة يعبر عنها بأمر الله كما قال الله سبحانه: ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، وكذلك أجسام البشر على ثقلها محمولة على الأرواح اللطيفة التى هى من أمر الله سبحانه .. «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى» .. الآية .. فقد تثبت العلم أن النفسانيات حاملة والجسمانيات محمولة عليها، وأن النفوس المحقوقة بالثواب إذا انفكت عن عالم الجسم ثابت إلى عالم النفس الذى هو الحق والأصل الحامل ، وثبت أيضا من ائتلاف الجسم والنفس الإنسانية عن غير قصد منها ولا إرادة ، وتفرقتهما عن غير قصد ولا إرادة على كون تألف النفس الكلية بالجسم الكلية وعالم الجسم من السماء والأرض وما بينهما أيضا عن غير قصد منهما ولا إرادة، بل بأمر المبدع سبحانه، وأنه إذا أراد أن يبطل دار الدنيا بأفلاكها وأنجمها وسفلها وعلوها أمكنته القدرة منه على حسب الإمكان من التفريق بين الأنفس والأجسام الذى يصير به عامر الأجسام خرابا . وأنتم تسمعون ما نقرأه الآن عليكم من قوله تعالى : « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين » وما نلوح به فى معناه. وقال قوم: إن الضلال والهدى من الله سبحانه وهم جمهور العامة، واستشهدوا عليه بهذه الآية وما هو فى معناها من مثل قوله: «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » وقوله تعالى: « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » وقوله حكاية عن نوح ع م : « ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم، إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون » ونظائرها كثيرة فى القرآن ، وقال أهل الرأى : إنه إن كانت الصورة هذه فقد بطل ثواب المحسنين وعقاب المسيئين، وإن لهذه الآيات تأويلا يرجع إليه ويحمل الأمر عليه، وهو مثل قولهم فى معنى الآية : يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا . أى يضل به عن الثواب

الضالين ويهدى به إلى الثواب المهتدين بفعلهم وكسب أيديهم . واستشهدوا على ذلك بقوله سبحانه : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » وماجرى مجراه وهو كثير فى كتاب الله تعالى . وقد سئل الصادق عليه السلام عن ذلك فقيل: يا بن رسول الله الناس مجبورون على المعاصى؟ فقال : الله أعدل أن يجبر خلقه على المعاصى ثم يعاقبهم عليها . قيل : فمفوض إليهم ؟ قال : هو أعز من أن يكون لأحد فى ملكه سلطان . قيل: فكيف ذلك؟ قال عليه السلام : أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض، فقوله تعالى « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا » يوجب أن كثير الضالين قليل وقليل المهتدين كثير، وذلك أن الإنسان كثير بنفسه البسيطة لا بجسمه الكثيف ، فالنفس الصالحة منسرحة فى فضاء عالم النفس منفسحة ، وصاحبها قليل من حيث الجسم المعدود المحصور، كثير من حيث النفس البسيطة غير المحصورة، قال الله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة » والنفس الطالحة ضيقة حرجة كأنفس البهائم لاخطر لها فى العالم العلوى، فأربابها وإن كثروا عددا فلقد قلوا محصولا كما قال الله سبحانه : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » وكما قال سبحانه : « قل لايستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » وقال رسول الله (صلع) لعلى عليه السلام : لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت الشمس عليه . وقوله : « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين » معنى الفسوق الخروج من الطاعة وعقد البيعة ، وأما « الفاسقين » فمن الفسوق فسق عن أمر ربه دور آدم عليه السلام الذى هو أول الأدوار وهو إبليس لعنة الله عليه فنقض بيعة الله، وفيه قال الله سبحانه : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » ثم نزل على مكانه فى آخر الأدوار الذى هو دور محمد (صلع) فنقض بيعة الغدير ، وسار الآخر على منهاج الأول، فإبليس إمام الفاسقين أولا وهو إمام الفاسقين آخرا ، جعلكم الله براء من الفاسقين، وألحقكم بالصالحين، لتكونوا لهم فى منازلهم مرافقين، والحمد لله الذى له فى إظهار دينه أمر يبلغه ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه، وصلى الله على رسوله الأمين، محمد المبعوث بالبرهان المبين، وعلى وصيه السنى الأقدار، على بن أبى طالب معدن الفخار ، وعلى الأئمة من ذريته هداة الحق ، وأولياء الحق .

هكذا كانت مجالس الحكمة التأويلية التى كان يلقيها كبار الدعاة على جمهور المستجيبين، كل بحسب درجته وحده فى مراتب الدعوة ، فكل مجالس التأويل كما ذكرنا هى تطبيق النظرية التى أطلقت عليها نظرية المثل والممثول ، وكل العقيدة الفاطمية إنما تدور حول الإمام وولايته ومحاولة إثبات أن الله سبحانه أشار إلى الأئمة فى كتابه الكريم ورمز إليهم فيه، وعلى المسلمين المؤمنين طاعة الأئمة وولايتهم وتصديق ما جاءوا به ، وأن الله سبحانه وتعالى خص الأئمة بعلم التأويل الباطن وأمرهم بستره إلا لمستحقيه من المؤمنين .

الفصل الرابع

أشهر علماء الدعوة الفاطمية

١ — بنو النعمان (١)

لا أكاد أعرف فى تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية الدولة الفاطمية أسرة كان لها من الأثر فى الحياة العقلية والسياسية ما كان لهاتين الأسرتين: أسرة عبد الحكم (٢) قبل العصر الطولونى وأثنائه وأسرة النعمان فى العصر الفاطمى ، فبنو عبد الحكم كانوا أساتذة المدرسة المالكية فى مصر ، وكذلك كان بنو النعمان أساتذة مدرسة المذهب الفاطمى بمصر ، وكان بين بنى عبد الحكم من اتجه إلى التاريخ وتدوينه ، كذلك كان بين بنى النعمان من دون التاريخ ، وكان بنو عبد الحكم مقربين إلى الولاة فى مصر ، كذلك كان بنو النعمان فى مكانة لا تقربها مكانة أخرى لدى أئمة الفاطميين ، فالأسرتان — بنو عبد الحكيم وبنو النعمان — من أشد الأسرات أثرا فى الحياة المصرية ، ولا سيما من الناحية العقلية .

أسس أسرة النعمان رجل عرف أنه من أشهر فقهاء المذهب الفاطمى ومن أكثرهم تأليفا للكتب ، وتعد مؤلفاته من الأسس التى تبعها من جاء بعده من علماء هذا المذهب ، بل لا تزال بعض كتبه إلى اليوم من أهم الكتب وأقومها لدى طائفة البهرة الإسماعيلية ، هذا الرجل هو القاضى أبو حنيفة النعمان ابن أبى عبد الله محمد بن منصور بن حيون التميمى المغربى ، ويعرف فى تاريخ الدعوة الفاطمية باسم القاضى النعمان تميزا له عن سميه أبى حنيفة النعمان صاحب المذهب السنى المعروف . اختلف الناس فى تاريخ مولده فذهب بعضهم مثل الأستاذ جوثيل إلى أنه ولد سنة ٢٥٩ (٣) وتبعه الأستاذ ماسينيون فى ذلك الرأى . ولكن الأستاذ آصف فيظى خالفهما وذهب إلى أنه ولد فى العشر الأخير من القرن الثالث (٤) وليس لدينا

---

(١) راجع ما كتبناه عن بنى النعمان فى مقدمة كتاب الهمة فى آداب اتباع الأئمة . (طبع دار الفكر العربى)
(٢) راجع ما كتبناه عن بنى عبد الحكم فى كتاب أدب مصر الإسلامية — عصر الولاة
(٣) J.A.O.S. 1907 Pvol. XXVII P.227.
(٤) J.R.A.S. I 1 P.34

ما يرجح أحد الرأيين ، بل نصرح بأنه لم يصلنا شىء عن نشأته الأولى ولا عن آبائه وأسرته إلا ما رواه ابن خلكان أن والده أبا عبد الله محمد قد عمر طويلا ، وأنه كان يحكى أخباراً كثيرة نفيسة حفظها فى كبره ، وتوفى فى رجب سنة ٣٥١ وصلى عليه ولده أبو حنيفة النعمان ودفن بأحد أبواب القيروان (١) لحياة الأسرة غامضة أشد الغموض ، ولم يحفظ التاريخ شيئاً عنها ، ولا أدرى من أين استق الأستاذ جوثيل ما رواه من أن والد النعمان كان من رجال الأدب ، إلا إذا كان قد فهم من نص ابن خلكان ذلك .

وليس لدينا شىء عن حياة النعمان قبل قيام الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦ هـ وقبل اتصاله بعبيد الله المهدى الفاطمى مؤسس الدولة الفاطمية ، إلا أنه كان مالكى المذهب وتحول إلى المذهب الفاطمى (٢) ، ولكن مؤرخى الشيعة الاثنى عشرية قالوا إن النعمان كان مالكى المذهب ثم تحول إلى الشيعة الاثنى عشرية ثم انتقل إلى الإسماعيلية الفاطمية (٣) ويذهب أبو المحاسن إلى أنه كان حنفى المذهب قبل أن يعتنق المذهب الفاطمى (٤) . ولكن إذا أمعنا النظر فى هذه الخلافات وجدنا أن الأرجح هو ما رواه ابن خلكان ، فالمذهب المالكى هو المذهب الذى كان يسود شمال إفريقية والأندلس ، على أن المذهب الحنفى كان قليل الانتشار بين المسلمين فى إفريقية وفى مصر أيضا ، وأن خاصة تلاميذ مالك كانوا مصريين ، وعن مصر انتقل هذا المذهب المالكى إلى شمال إفريقية والأندلس وساد هذه البلاد حتى قل أن نجد فيها مذهبا آخر من مذاهب أهل السنة . فمن المرجح أن النعمان كان على مذهب أهل بلاده ، أما ما يدعيه الأستاذ آصف فيظى أن النعمان كان إسماعيلى المذهب منذ نعومة أظفاره وأنه اتخذ التقية والستر خوفا على نفسه وعلى مذهبه فهو كلام يحتاج إلى ما يؤيده ، وكذلك لم يتحدث أحد من المؤرخين الذين ذكروا النعمان عن إسماعيليته إلا بعد صلته بالمهدى سنة ٣١٣ هـ أى بعد أن أظهر المهدى نفسه فى المغرب وهزم الأغالبة واحتل ديارهم . دخل النعمان فى خدمة المهدى واتصل به ، ولا ندرى نوع الخدمة

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٦٦
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المستدرك ج ٣ ص ٣١٣
(٤) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢

التى كان يؤديها ولا الصلة التى اتصلها به ، ولكن بعد وفاة المهدى اتصل النعمان بالقائم بأمر الله طوال مدة حكمه . وفى أواخر أيام القائم ولى النعمان قضاء مدينة طرابلس الغرب . أما قبل ولايته قضاء طرابلس فلا نكاد نعرف عنه شيئا . ولما بنى المنصور مدينة المنصورية كان النعمان أول من ولى قضاءها ، بل ولاه المنصور القضاء على سائر مدن إفريقية .

وأصبح النعمان شديد الصلة بالإمام الفاطمى مقربا منه ، وظل قاضى قضاة هذه المدن ومن تحته قضاتها ، إلى أن ولى المعز لدين الله الإمامة فاشتدت صلة النعمان به حتى إنه كان يجالسه ويسايره وقل أن يفارقه بعد أن كان مستوحشا منه عقب ولايته. ولكن المعز طلب إليه أن يكون فى عهده كما كان فى عهد أبيه المنصور بالله ، ثم قويت الصلة بين المعز والنعمان حتى أصبح النعمان جليسه ومسايره ، ووضع النعمان كتابه المجالس والمسايرات جمع فيه كل مارآه وما سمعه من إمامه المعز . ولما رحل المعز من إفريقية إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ اصطحب معه بنى النعمان ، وكان النعمان إذ ذاك قاضى الجيش ، وكان من الطبيعى أن يقلد النعمان قضاء مصر ، ولكن المعز بعد أن استقر بمصر ترك القضاء لأبى طاهر الذهلى محمد بن أحمد الذى كان على قضاء مصر منذ سنة ٣٤٨هـ وطلب إلى أبى طاهر أن يحكم بفقه الفاطميين ، فكان لابد للقاضى من أن يسترشد فى أحكامه بالقاضى النعمان ، وما زال كذلك حتى توفى النعمان سنة ٣٦٣هـ .

ويقول ابن حجر: إن النعمان كان يسكن مصر أى الفسطاط ويغدو منها إلى القاهرة فى كل يوم (١) ويروى ابن خلكان عن المسبحى أن النعمان كان من أهل العلم والفقه والدين والنبل ما لا مزيد عليه(٢) ، ونقل ابن خلكان عن ابن زولاق أن النعمان بن محمد القاضى كان فى غاية الفضل من أهل القرآن والعلم بمعانيه ، وعالما بوجوه الفقه وعلم اختلاف الفقهاء واللغة والشعر الفحل والمعرفة بأيام الناس مع عقل وإنصاف (٣) . وكل من تحدث عن النعمان من المؤرخين يذكر فضله وعلمه وسعة ثقافته، فلا غرابة إذن أن نرى هذه الكتب الكثيرة التى ألفها النعمان والتى

(١) رفع الإصر ص ١٣٦ ب نسخة خطية بدار الكتب المصرية .
(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .
(٣) المصدر نفسه .

أصبحت عمدة كل باحث فى المذهب الفاطمى بل أصبحت الأصل الذى يستقى منه علماء المذهب ، فلا أكاد أعرف عالما من علماء الدعوة الفاطمية لم ينهج نهج النعمان فى فقهه أو اختلف معه فى رأى فى المسائل الفقهية ، وقد يكون ذلك لأن النعمان قال فى كتابه المجالس والمسايرات : إن الإمام المعز لدين الله طلب إليه أن يلقى على الناس شيئاً من علم أهل البيت ، فألف النعمان كتبه ، وكان يعرضها على المعز فصلا فصلا وبابا بابا حتى أتمها ، فهو يقول مثلا :

أمرنى المعز لدين الله (صلع) بجمع شىء لخصه لى وجمعه وفتح لى معانيه وبسط لى جملته فابتدأت منه شيئا ثم رفعته إليه ، واعتذرت من الإبطاء فيه لما أردته من إحكامه ورجوته من وقوع ما جمعته منه بموافقته (ص) فطالعته فى مقداره ، فوقع إلى : يانعمان لاتبال كيف كان القدر مع إشباع فى إيجاز ، فكلما أوجزت فى القول واستقصيت المعنى فهو أوفق وأحسن ، والذى خشيت من أن يستبطأ فى تأليفه فوالله لولا توفيق الله عز وجل إياك وعونه لك لما تعتقده من النية ومحض الولاية لما كنت تستطيع أن تأتى على باب منه فى أيام كثير ، ولكن النية يصحبها التوفيق(١).

وفى كتابه هذا كثير من النصوص التى تدل على أنه كان يعرض كتبه على المعز قبل إذاعتها ونشرها بين الناس ، كما أنه كان يقرأ مجالس الحكمة التأويلية ومن هنا لقبه ابن زولاق بالداعى (٢) وليس لدينا من النصوص ما يثبت أن النعمان كان من الدعاة وإن كان مؤرخو المذهب المحدثون مثل الداعى إدريس يحدثنا فى كتابه عيون الأخبار أن النعمان كان فى مكانة رفيعة جدا قريبة من الأئمة، وأنه كان دعامة من دعائم الدعوة ، ولكنه لم يصرح بأن النعمان ولى مرتبة داعى الدعاة ، ويخيل إلى أن النعمان كان داهية فى سياسة التقرب إلى الأئمة، وأنه استطاع بعلمه وثقافته أن يجذب إليه قلوبهم ، فقربوه إليهم وعرف أسرارهم ونياتهم ، فوضع هذه الكتب الكثيرة وادعى أن الأئمة هم الذين لقنوه إياها ، بل لعلى لا أغالى إذا قلت إن النعمان هو أول من دون فقه المذهب الفاطمى ، فلا أكاد أعرف فقيها من فقهاء المذهب قبله كتب فى هذا الفن ، وبين يدى الآن كتاب المرشد إلى أدب الإسماعيلية (٣)

(١) المجالس والمسايرات ورقة ٧٥ ب .
(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .
(٣) Inavow: Griol to Ismaih. Literqture

وهو ثبت لأسماء المؤلفين والكتب الإسماعيلية ، وأمامى فهرست ابن النديم ، ومجموعة خطية قديمة لمؤلف مجهول جمع فيه أسماء الكتب التى ألفت منذ أوائل الدعوة الإسماعيلية ، فلم أعثر فى هذه الكتب كلها على كتاب واحـــد فى الفقه الإسماعيلى قبل كتب القاضى النعمان بن محمد . فلا غرو أن يعرف المعز فضل هذا العالم وأن يرفعه إلى أعلى الدرجات ، ولاسيما أن النعمان ذكر فى كتبه أنه اقتبس هذه العلوم من الإمام !! حتى قال المعز عن النعمان : من يؤدى جزءا من مائة مما أداه النعمان أضمن له الجنة بجوار ربه[1] ويحدثنا المؤيد فى الدين فى سيرته أن الوزير اليازورى قال له : إن النعمان بى هذا الأمر وإن أحق الناس بمكانه أبناؤه [2] ، فالنعمان إذن قد أدى للدعوة الفاطمية هذا الفضل الذى عرفوه له ، إذ لا يزال علماء الدعوة يعيشون على الفقه الذى وضعه لهم النعمان ، وربما على التأويل الذى ذكره فى كتبه .

ولننظر الآن إلى هذه الكتب التى وضعها النعمان لأهل الدعوة ، فيقول ابن خلكان : إن النعمان ألف لأهل البيت من الكتب آلاف أوراق بأحسن تأليف وأملح سجع ، وعمل فى المناقب والمثالب كتابا حسنا . وله ردود على المخالفين ، له رد على أبى حنيفة وعلى مالك والشافعى وعلى ابن سريج ، وكتاب اختلاف الفقهاء ينتصر فيه لأهل البيت ، وله القصيدة الفقهية لقبها بالمنتخبة [3] وسرد الأستاذ إيفانوف مؤلفات القاضى النعمان فإذا بها نحو أربعة وأربعين كتابا بعضها لا يزال يحتفظ به أتباع المذهب وهم طائفة البهرة ، ومنها كتب عثر على بعض أجزائها ومنها ما فقـد ولم يعرف إلا أسماؤه ، ولا تعرف مكتبات أوربة إلا ستة كتب من كتب النعمان هى :

(١) جزء من كتاب شرح الأخبار بمكتبة برلين ، وأحضرت دار الكتب المصرية صورة فتوغرافية منه .

(٢) كتاب دعائم الإسلام بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن وفى دار الكتب المصرية صورة فتوغرافية منه .

---

(١) كتاب عيون الأخبار ج ٦ ص ٤١

(٢) السيرة المؤيدية .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦

(٣) تأويل دعائم الإسلام بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن وفى مكتبة جامعة فؤاد الأول صورة فتوغرافية منه .

(٤) أساس التأويل بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن .

(٥) جزء من كتاب المجالس والمسايرات بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن وفى مكتبة جامعة فؤاد الأول .

(٦) كتاب الهمة فى اتباع الأئمة بمكتبة مكتب الهند بلندن . وعندى نسخة خطية منه [illegible]

ويحتفظ أصحاب الدعوة الآن فى مكتباتهم الخاصة بالكتب الآتية :

(١) افتتاح الدعوة ، وعندى نسخة خطية منه كما تحتفظ مكتبة جامعة فؤاد بصورة منه (٢) كتاب الإيضاح (٣) كتاب الينبوع (٤) مختصر الآثار (٥) كتاب الطهارة (٦) القصيدة المختارة (٧) القصيدة المنتخبة (٨) منهج الفرائض (٩) الرسالة ذات البيان فى الرد على ابن قتيبة (١٠) اختلاف أصول المذاهب (١١) كتاب التوحيد والإمامة (١٢) مناقب بنى هاشم (١٣) تأويل الرؤيا (١٤) مفاتيح النعمة .

أما كتبه التى لم يعثر عليها وعرفت أسماؤها فهى :

(١) مختصر الإيضاح (٢) كتاب الأخبار (٣) كتاب الاقتصار (٤) كتاب الاتفاق والافتراق (٥) كتاب المقتصر (٦) كتاب يوم وليلة (٧) كتاب كيفية الصلاة (٨) الرسالة المصرية فى الرد على الشافعى (٩) كتاب فى الرد على أحمد بن سريج البغدادى (١٠) دامغ الموجز فى الرد على العتكى (١١) نهج السبيل إلى معرفة علم التأويل (١٢) حدود المعرفة فى تفسير القرآن والتنبيه على التأويل (١٣) كتاب إثبات الحقائق فى معرفة توحيد الخالق (١٤) كتاب فى الإمامة فى أربعة أجزاء (١٥) كتاب التعاقب والانتقاد (١٦) كتاب الدعاة (١٧) كتاب الحلى والثياب (١٨) كتاب الشروط (١٩) أرجوزة ذات المنن وهى فى سيرة الإمام المعز (٢٠) أرجوزة ذات المحن وهى فى تاريخ ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد (٢١) كتاب معالم المهدى (٢٢) كتاب منامات الأئمة (٢٣) كتاب التقريع والتعنيف .

هذه هى الكتب التى تركها النعمان بن محمد ، ولعل أهم كتاب خالد له هو كتاب

دعائم الإسلام ، فى ذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام ، وهو الكتاب الذى أمر الظاهر بأن يحفظه الناس وجعل لمن يحفظه مالا جزيلا ، ويشتمل هذا الكتاب على جميع فقه الفاطميين ، فدعائم الإسلام عندهم الولاية والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد ، وكل فريضة من هذه الفرائض لها أصولها وفروعها وآدابها فهو يتحدث عن ذلك كله بشىء من الإطناب ، ويروى عن كل فريضة ما ورد عنها فى القرآن الكريم وفى الأحاديث النبوية وما جاء عن الأئمة ، ومن يقرأ هذا الكتاب ويقارن بين الفقه فيه وبين فقه مالك لا يكاد يجد اختلافا إلا فى بعض أمور لا تمس الدين فى شىء ، اللهم إلا ما ورد فى القسم الخاص بالولاية .

والفصل الخاص الذى فى أول الكتاب تحدث فيه عن الإيمان وجعل الولاية شرطا أساسيا للمؤمن ، أما ما سوى ذلك من أحكام فرائض الدين وسننه والمعاملات وغيرها فلا تختلف عن الأحكام الشرعية عند المالكية . وتظهر قيمة هذا الكتاب عند علماء المذهب – منذ عرف هذا الكتاب – إذا عرفنا أن عالمين من أكبر علمائهم ذكراه فى كتبهم واعتمدا عليه ونوها به ، أما العالم الأول فهو أحمد حميد الدين بن عبدالله بن محمد الكرمانى المتوفى ٤١٢ هـ فقد ذكر فى مقدمة كتابه « راحة العقل » الكتب التى يجب أن تقرأ قبل قراءة راحة العقل ومن هذه الكتب كتاب « دعائم الإسلام » ، والعالم الثانى هو المؤيد فى الدين هبة الله بن موسى الشيرازى المتوفى ٤٧٠ هـ فقد ذكر فى السيرة المؤيدية « أنه كان يعقد مجلسا خاصا كل يوم خميس يقرأ فيه على السلطان أبى كاليجار البويهى فصول كتاب دعائم الإسلام » . ويعتبر هذا الكتاب الآن من أهم كتب الإسماعيلية بالرغم من أنه فى علم الظاهر ، ويعد من كتبهم السرية التى لا يقربها إلا علماء المذهب فقط .

وقد أتبعه القاضى النعمان بكتاب تأويل دعائم الإسلام واسمه الكامل : كتاب تربية المؤمنين بالتوقيف على حدود باطن علم الدين فى تأويل دعائم الإسلام ، وهو فى ذكر التأويل الباطنى للأحكام والفرائض التى وردت فى كتاب دعائم الإسلام ، وهو من أهم كتب التأويل عند الإسماعيلية ، وعليه اعتمد الدعاة بعد النعمان (١) ، وقد توفى النعمان قبل أن يتم هذا الكتاب .

---

(١) راجع ما ذكرناه عن ذلك فى مقدمة كتاب المجالس المستنصرية .

ومهما يكن من شىء فالقاضى النعمان يعد من أكبر علماء الدعوة وفقيهها الأعظم ، وتوفى هذا الرجل بمصر سنة ٣٦٣ هـ

كان هذا الفقيه رأس هذه الأسرة ومؤسسها ، وجاء بعده أبناؤه وحفدته وعرفوا جميعا بالعلم والفقه ، وتولوا الدعوة والقضاء بعده .

٢ — وولد ابنه الأكبر أبو الحسين على بن النعمان بالقيروان فى رجب سنة ٣٢٨ هـ (١) وقدم مصر مع باقى أفراد الأسرة فى صحبة المعز لدين الله ، ولما مات النعمان اشترك على بن النعمان فى قضاء مصر مع أبى طاهر الذهلى فظلا يقضيان حتى توفى المعز وولى العزيز وعرض لأبى طاهر القاضى مرض الفالج ، ففوض العزيز الحكم إلى على بن النعمان وذلك فى صفر سنة ٣٦٦ ، وظل منفردا بالقضاء وافر الحرمة عند الإمام العزيز حتى أصابته الحمى وهو بالجامع يقضى بين الناس ، فقام من وقته ومضى إلى داره وأقام عليلا أربعة عشر يوما ، وتوفى يوم الاثنين لست خلون من رجب سنة ٣٧٤ هـ وصلى عليه العزيز ، وهو أول من لقب بقاضى القضاة فى مصر ، وكان عالما فقيها مثل أبيه ، وكان شاعرا أورد له الثعالبى شيئا من شعره ، مثل قوله :

ولى صديق ما مسنى عدم   مذ وقعت عينه على عدمى
أغنى وأقنى فما يكلفنى   تقبيل كف له ولا قدم
قام بأمرى لما قعدت به   ونمت عن حاجتى ولم ينم (٢)

ومن شعره ، وقيل بل من شعر أخيه محمد بن النعمان (٣)

رب خود عرفت فى عرفات   سلبتنى بحسنها حسناتى
حرمت حين أحرمت نوم عينى   واستباحت دمى بذى اللحظات
وأفاضت مع الحجيج ففاضت   من جفونى سوابق العبرات
لم أنل من منى منى النفس حتى   خفت بالخيف أن تكون وفاتى (٤)

ومن شعره أيضا :

صديق لى له أدب   صداقة مثله نسب
رعى لى فوق ما يرعى   وأوجب فوق ما يجب

---

(١) رفع الإصر ورقة ٨٥
(٢) يتيمة الدهر للثعالبى ج ١ ص ٣٠٥
(٣) يتيمة الدهر للثعالبى ج ١ ص ٣٠٦
(٤) دمية القصر للباخرزى ص ٨٨

فلو نقدت خلائقه ... ابهرج عندها الذهب(١)

فمن هذه الأبيات القليلة نستطيع أن ندرك أنه كان شاعراً رقيق الشعر عذب الديباجة متلاعبا باللفظ، ومن سوء الحظ أن شعره لم يصل إلينا كاملا حتى نستطيع أن نكون رأيا دقيقا فى شاعريته .

ولا أدرى أيضا من أين استقى الأستاذ آصف فيظى أن أبا الحسن على بن النعمان كان فى مرتبة داعى الدعاة ، فليس لدى من النصوص ما يؤيد ذلك ، بل الذى ذكره المؤرخون أن أول من أضيفت إليه الدعوة من قضاة الفاطميين هو ولده الحسين بن على بن النعمان على نحو ما سنذكره بعد .

٣ — ولما توفى على بن النعمان أرسل الإمام العزيز بالله إلى أبى عبد الله محمد ابن النعمان يقول : إن القضاء لك من بعد أخيك ولا نخرجه عن هذا البيت (٢) وهكذا ولى مرتبة قاضى القضاة بعد أخيه، وكان فى حياة أخيه ينوب عنه فى القضاء ، فإنه لما سافر العزيز بالله إلى حرب القرامطة سنة ٣٦٨ وسار على فى صحبته استخلف أخاه محمدا فى القضاء . ولد محمد بالمغرب سنة ٣٤٥ هـ (٣) وقدم القاهرة مع أفراد الأسرة ، وما زال بها حتى ولى القضاء وكان جيد المعرفة بالأحكام، متفننا فى علوم كثيرة، حسن الأدب والدراية بالأخبار والشعر وأيام الناس(٤) وقد مدحه الشاعر عبد الله بن الحسن الجعفرى السمرقندى بقوله :

تعادلت القضاة على إمام ... أبو عبد الإله فلا عديل
وحيد فى فضائله غريب ... خطير فى مفاخره جليل
تألق بهجة ومضى اعتزاما ... كما يتألق السيف الصقيل
ويقضى والسداد له حليف ... ويعطى والغمام له زميل
لو اختبرت قضاياه لقالوا ... يؤيده عليها جبرئيل
إذا رقى المنابر فهو قس ... وإن حضر المشاهد فالخليل

فلما قرأ محمد بن النعمان هذه القصيدة كتب إلى الشاعر :

قرأنا من قريضك ما يروق ... بدائع حاكها طبع رقيق

(١) يتيمة الدهر ص ٣٠٥ ، وابن خلكان ج ٢ ص ١٦٧ .
(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٧ .
(٣) رفع الإصر ص ١٢٩ (٤) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٨

كأن سطورها روض أنيق ... تضوع بينها مسك فتيق
إذا ما أنشدت أرجت وطابت ... منازلها بها حتى الطريق
وإنا تائقون إليك فاعلم ... وأنت إلى زيارتنا تتوق
فواصلنا بها فى كل يوم ... فأنت بكل مكرمة حقيق (١)

ومما يروى له أيضا قوله :

أيا مشبه البدر بدر السماء ... لسبع وخمس مضت واثنتين
ويا كامل الحسن فى نعته ... شغلت فؤادى وأسهرت عينى
فهل لى من مطمع أرتجيه ... وإلا انصرفت بخفى حنين
ويشمت بى شامت فى هواك ... ويفصح لى ظلت صفر اليدين
فإما مننت وإما قتلت ... فأنت القدير على الحالتين (٢)

وفى سنة ٣٧٥ عقد لابنه عبد العزيز بن محمد بن النعمان على ابنة القائد جوهر الصقلى فى مجلس العزيز ، ثم قرر ابنه هذا فى نيابته عنه فى الأحكام بالقاهرة ومصر، وعلت منزلة محمد بن النعمان عند الإمام العزيز بالله حتى إنه كان يصعد معه على المنبر (٣) وكان مهيبا محترما، حتى إن أحداً لم يكن يخاطبه إلا بسيدنا (٤) ويروى ابن خلكان عن ابن زولاق المؤرخ المصرى : « ولم نشاهد بمصر لقاض من القضاة من الرياسة ما شاهدناه لمحمد بن النعمان ولا بلغنا ذلك عن قاض بالعراق، ووافق ذلك استحقاقاً لما فيه من العلم والصيانة والتحفظ وإقامة الحق والهيبة » (٥) فكانت هذه المكانة التى حظى بها هذا القاضى سببا فى أن ينقم عليه الوزير يعقوب بن كلس . ويخيل إلى أن الوزير كان يخشى اتساع نفوذ بنى النعمان فحاول ما استطاع أن يكسر شوكتهم وينقص من قدرهم ، فكان يعمد إلى أن ينقض أحكام القاضى ، ويروى ابن حجر العسقلانى عن المسبحى أن الوزير ابن كلس كان كثير المعارضة لبنى النعمان فى أحكامهم » (٦) وروى قصة تدل على مدى خوف الوزير من اتساع سلطانهم ونفوذهم وما كان يضمره لهم . وبعد أن توفى العزيز بالله سنة ٣٨٥ وولى الحاكم بأمر الله أقر القاضى محمد بن النعمان على ما بيده من القضاء ، وزادت منزلته عنده

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٨ (٢) المصدر نفسه
(٣) المصدر نفسه (٤) الكندى ص ٥٩٤
(٥) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٨ . (٦) رفع الإصر ص ١٢٩

رفيعة ، ولكن محمدا تزاحمت عليه العلل ، فتوفى ليلة الثلاثاء رابع صفر سنة ٣٩٩ وصلى عليه الحاكم ووقف على دفنه ، وحزن الحاكم لوفاته ، فلم يول أحداً مرتبة القضاء إلا بعد شهر ، فقلد القضاء أبا عبد الله الحسين بن على بن النعمان .

٤ — ولد أبو عبد الله الحسين بن على بن النعمان بالمهدية سنة ٣٥٣ هـ وقدم مع أسرته إلى القاهرة المعزية ، ومهر فى علوم الفقه حتى صار أحد أقطاب فقهاء المذهب الفاطمى ، وكان ينوب أحيانا عن عمه محمد بن النعمان فى القضاء حتى وليه بعد وفاة عمه . وفى صفر سنة ٣٩١ بينما كان القاضى جالسا فى الجامع بمصر يقرأ عليه الفقه أقيمت صلاة العصر، فقام يؤدى الفريضة، وبينما هو فى الركوع إذ هجم عليه رجل مغربى وضربه بمنجل فى رأسه ووجهه ، فحمل القاضى جريحا إلى داره ، وظل حتى اندمل جرحه، فصار من ذلك اليوم يحرسه عشرون رجلا بالسلاح ، وكان إذا صلى وقف خلفه الحرس بالسيوف حتى يفرغ من الصلاة ثم يصلى حرسه ، ولا نكاد نسمع أن قاضيا من قضاة المسلمين فى التاريخ الإسلامى كله كان يصلى والشرطة تحرسه غير الحسين بن على بن النعمان . وزاد الحاكم فى إكرامه حتى أمر أن يضاف له أرزاق عمه وصلاته وإقطاعاته ، وفوض إليه الخطابة والإمامة بالمساجد الجامعة ، وولاه الدعوة وقراءة مجالس الحكمة التأويلية بالقصر وكتابتها وهو أول قاض أضيفت إليه الدعوة من قضاة الفاطميين(١) . ويظهر أنه فى ذلك الوقت دب دبيب الشقاق بين أبناء هذه الأسرة ، فهذا القاضى طالب ابن عمه عبد العزيز بن محمد بن النعمان ببعض ودائع كانت فى الديوان أيام ولاية محمد بن النعمان على القضاء ، وتشدد القاضى فى مطالبة ابن عمه بهذه الودائع حتى ألزمه أن يبيع كل ما خلفه أبوه سدا لهذه المطالبة . ولست فى مركز يسمح لى أن أقول أكان تشدد القاضى عن ورع ودين أم عن حسد وغيرة وشقاق بين بنى الأعمام . ومهما يكن من شىء فقد صرف هذا القاضى عن رتبة القضاء والدعوة فى رمضان سنة ٣٩٤ ، وأمر الحاكم بحبسه ثم ضربت عنقه فى مطلع سنة ٣٩٥ هـ وهكذا لقى حتفه بيد الحاكم ، بعد أن كان مكرما لديه مقربا إليه .

٥ — وولى القضاء بعده ابن عمه عبد العزيز بن محمد بن النعمان المولود فى أوائل ربيع الأول سنة ٣٥٥ هـ وهو الذى كان ينوب عن أبيه فى القضاء ، وكان

(١) الكندى ص ٥٩٦ وما بعدها

عالما من علماء الدعوة الفاطمية ينسب إليه كتاب البلاغ الأكبر والناموس الأعظم فى أصول الدين ، وهو الكتاب الذى رد عليه القاضى أبو بكر الباقلانى(١) ، وقيل إن هذا الكتاب من تصنيف عمه على بن النعمان ، ومهما يكن من شىء فالقاضى عبد العزيز بن محمد هو أول من ولى النظر على دار العلم(٢) ، وكان يجلس فى الجامع ويقرأ على الناس كتاب جده النعمان « اختلاف أصول المذاهب » وبالرغم من أنه خص بمجالسة الحاكم ومسايرته فإنه لم ينج من نزوات الحاكم وتقلباته ، فعزله عن القضاء سنة ٣٩٨ هـ ثم اعتقله فى السنة التالية ثم عفا عنه وأعاد إليه النظر فى المظالم وخلع عليه ، وفى سنة ٤٠١ اضطر هذا القاضى إلى أن يهرب من وجه الحاكم هو والقائد الحسين بن جوهر الصقلى ، فصادر الحاكم بيوتهما وحمل كل ما كان فيها ، ثم كتب الحاكم لهما بالأمان وخلع عليهما ، ولكنه أمر بعد ذلك بقتلهما فى ثانى عشر جمادى الآخرة سنة ٤٠١ هـ .

وبعد هذه المأساة ضعف أمر بنى النعمان وساءت حالهم ، ولم تبق لهم تلك السطوة ولا ذلك النفوذ ، حتى إن القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان ولى القضاء سنة ٤١٨ هـ ولكنه لم يمكث فى هذه المرتبة سوى عام وشهرين ، وأعيد مرة أخرى إلى القضاء سنة ٤٢٧ هـ وأضيفت إليه الدعوة ويقول عنه المؤيد فى الدين: « وتوجهت إلى الموسوم بالقضاء والدعوة ، وهو يومئذ القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان رحمه الله وإيانا ، فرأيته رجلا يصول بلسان نسبه فى الصناعة التى وسم بها دون لسان سببه ، فارغا مثل فؤاد أم موسى عليه السلام ، وفيه جنون يلوح من حركاته وسكناته »(٣) وعزل القاسم عن هذه المراتب سنة ٤٤١ هـ ويحدثنا المؤيد أن نساء بنى النعمان تشفعن للقاسم عند أم المستنصر وألحفن عليها بالسؤال لإعادته ، فعينه الوزير اليازورى سنة ٤٤٢ هـ نائباً له فى الدعوة ، فقبل القاسم أن يكون تابعاً لداعى الدعاة بعد أن كان أصلا فى هذه الخدمة ، واستمر القاسم بن عبد العزيز نائباً لليازورى فى مرتبة الدعوة حتى أقعده المرض ، فأناب ابنه محمد بن القاسم فى الدعوة بدله ، واستمر محمد نائباً عن والده فى نيابة الدعوة حتى سنة ٤٥٠ هـ . ثم لم نعد نسمع شيئاً عن هذه الأسرة التى ظلت زهاء قرن فى مكانة رفيعة عالية وفى اتصال

(١) الكندى ص ٦٠٣
(٢) المصدر نفسه
(٣) السيرة المؤيدية

بالأئمة الفاطميين ، كما كان لهذه الأسرة أثرها فى بث العقائد الفاطمية فى نفوس الناس بما ألفوه من كتب وما ألقوه من مجالس الدعوة ، وبما كانوا يحكمون به فى القضايا على حسب فقه المذهب الفاطمى الذى وضعه لهم النعمان بن محمد مؤسس هذه الأسرة .

٢ — يعقوب بن كلس

ومن أشهر علماء الدعوة الفاطمية الذين كان لهم أثر قوى فى الحياة العقلية بمصر أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس ، ولد ببغداد فى أسرة يهودية ونشأ بها حيث درس شيئا من الكتابة والحساب واتخذ التجارة متكسبا له ، شأن غيره من أبناء جلدته الذين لا يتورعون عن كسب المال بشتى الطرق والوسائل، ثم رحل مع أبيه إلى الشام فى بعض مسائل تجارية فنزل مدينة الرملة وأقام بها فصار وكيلا للتجار بها ، ثم فر منها إلى مصر . قيل إن سبب ذلك أنه اجتمع قبله مال عجز عن أدائه فهرب(١) وقيل بل أرسله أبوه إلى مصر للتجارة بها (٢) ومهما يكن من شىء فقد وفد يعقوب على مصر إبان ولاية كافور الإخشيدى ، فاستطاع بذكائه وكياسته أن يتصل بكافور ، وأظهر من علو النفس والجد ما جعل كافور يقربه إليه ويثق به حتى اشتدت صلة يعقوب بكافور، فعرض عليه كافور الإسلام ، فترك يعقوب اليهودية ودخل دين الإسلام ، وذلك يوم الاثنين لثمانى عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ٣٥٦ ولزم التعبد ودراسة القرآن، ورتب لنفسه رجلا من أهل العلم يدرس له أصول الدين الإسلامى ، وكأنه فى ذلك الوقت كان يتطلع إلى ما وصل إليه بعد ذلك ، فعمل على إتمام النقص الذى كان يشعر به ، وهو يهوديته السابقة، فأراد ألا يرمى بضعف إسلامه إذا بلغ ما تاقت إليه نفسه ، فاجتهد فى الدرس والتحصيل حتى بلغ فيهما درجة عالية ، وكأنى بالوزير أبى الفضل جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابة وزير كافور عرف ما كان يرمى إليه يعقوب ، فخشى من صلة كافور بهذا اليهودى التاجر، فإنه بعد أن أسلم يعقوب بن كلس اشتد مقت ابن حنزابة له، فنصب له الحبائل لإخراجه من البلاد ، فلما توفى كافور سنة ٣٥٧ قبض ابن الفرات على جميع الكتاب وأصحاب الدواوين، وطلب يعقوب بن كلس فوجده قد هرب إلى المغرب ، واتصل يعقوب

(١) المقريزى ج ٣ ص ٧ (٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٣

بالمعز لدين الله، فقربه المعز إليه وصحبه معه إلى مصر بعد أن فتحها الفاطميون . وقيل إن ابن كلس هو الذى أطلع المعز على أسرار مصر وسهل له أمر فتحها بعد أن استعصت على جيوش الفاطميين من قبل . وبعد أن استتب الأمر فى مصر للمعز ونقل عاصمة ملكه إلى مدينة القاهرة ، ولى يعقوب بن كلس الخراج وجميع وجوه الأموال والحسبة وذلك فى سنة ٣٦٣ هـ ومن مثل ابن كلس يصلح لأمر المال ! ! فاستمر فى عمله حتى سنة ٣٦٥ فقد زادت صلته بالمعز واكتسب حبه وثقته ، فولاه المعز النظر فى جميع أموره فى قصره ، وبعد قليل توفى المعز لدين الله ففوض العزيز بالله ليعقوب النظر فى سائر أموره وجعله وزيرا له وذلك فى المحرم ٣٦٧ ، وفى رمضان ٣٦٨ خلع العزيز عليه ، ولقبه بالوزير الأجل ، فكان يعقوب بن كلس أول وزير فى مصر الفاطمية ، ويروى ابن زولاق مؤرخ مصر ومعاصر ابن كلس ، أنه لما خلع على الوزير يعقوب بن كلس وكان مكينا من العزيز وكنت حاضرا مجلسه ، فقلت أيها الوزير : روى الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود أنه قال حدثنى الصادق رسول الله (ص) أن الشقى من شقى فى بطن أمه والسعيد من سعد فى بطن أمه ، وهذا علو سماوى ، فقال الوزير : ليس الأمر كذلك وإنما أفعالى وتوفيراتى وكفايتى ونيابتى ونيتى وحرصى الذى كان يهجى ويعاب ، وقد مات قوم ممن كان وبقى قوم . وكان هذا القول بحضرة القوم الذين حضروا قراءة السجل الذى خرج من العزيز فى ذكر تشريفه ، قال ابن زولاق : فأمسكت ، وقلت : وفق الله الوزير، إنما رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا صحيحا . وقمت وخرجت وهو ينظر إلى . وحدثنى أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم الحسينى قال : عاتبت الوزير على ما تكلم به ، وقلت : إنما روى حديثا صحيحا بجميع طرقه ، وما أراد إلا الخير ، فقال الوزير : خفى عنك ، إنما هذا مثل قول المتنبى فى كافور :

ولله سر فى علاك وإنما … كلام العدى ضرب من الهذيان

وأجمع الناس على أن ذلك هجو فى كافور لأنه أعلمه أنه تقدم بغير سبب ، وابن زولاق هجانى على لسان صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ، فما أمكننى السكوت ، وكان فى نفسى شىء فجعلت كلامه سببا(١). فركب النقص عند يعقوب دفعه إلى أن يعتقد أن تهنئة ابن زولاق هجاء له، وشعوره بيهوديته الأولى وأنه أصبح وزيرا مقربا

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ٧ ص ٢٢٥ .

إلى إمام من أئمة المسلمين دفعته إلى أن يتعمقّ فى دراسة الدين الإسلامى حتى أصبح علما من أعلام علماء الدعوة الفاطمية . ومع ذلك فنحن لا ندرى السبب الذى من أجله اعتقل الوزير فى القصر سنة ٣٧٣ ﻫ عدة أشهر ، فالمؤرخون لم يذكروا لنا شيئا عن ذلك ، ثم نرى العزيز يطلقه سنة ٣٧٤ ﻫ ويأمر بحمله على عدة خيول وقرئ سجل برده إلى تدبير أمور الدولة مرة أخرى ، ووهبه العزيز خمسمائة غلام من الناشئة وألف غلام من المغاربة ، فاتسعت دائرته وعظمت مكانته حتى كتب اسمه على الطرز وفى الكتب[1]

بجانب هذه المكانة الرفيعة التى بلغها الوزير يعقوب بن كلس ، وهذا السلطان القوى الواسع الذى أحرزه ، كان هذا الوزير محبا للعلم والعلماء مشجعا لمن طلب العلم، يغدق المنح والعطايا للكتاب والشعراء ، ويروى ابن خلكان : « كان يعقوب يجمع عنده العلماء ، وكان فى داره قوم يكتبون القرآن الكريم وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب والطب ويعارضون ويشكلون المصاحف وينقطونها ، وكان ينصب كل يوم خوانا لخاصته من أهل العلم والكتاب وخواص أتباعه[2] فكان من خاصة جلسائه الحسين بن عبد الرحيم المعروف بالزلازلى مصنف كتاب الأسجاع[3] والتيمى المقدسى الطبيب الذى صنف للوزير كتابا ضخما فى عدة مجلدات سماه « مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء »[4] وأخذ الوزير علم العروض عن شيخه البدهى وبفتحه وهدايته قال الشعر[5] وبلغ هو نفسه فى علم الفقه الفاطمى درجة أهلته لأن يؤلف الكتب ويعقد مجالس التأويل ، فقد رتب لنفسه مجلسا فى كل ليلة جمعة يقرأ فيه مصنفاته على الناس ، وكان يحضر هذا المجلس القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وجميع أرباب الفضائل والعدول وغيرهم من وجوه الدولة[6] ، كما نصب مجلسا فى داره يحضره فى كل يوم ثلاثاء الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل للمناظرة بين يديه[7] فرعايته للعلم والعلماء ساعدته على أن يؤلف هذه الكتب التى قرأها على الناس والتى منها كما ذكر ياقوت[8]

---

(١) المقريزى ج ٣ ص ٨ (٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٤
(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٤ (٤) أخبار الحكماء للقفطى ص ٧٤
(٥) الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٢٢ (٦) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٤
(٧) المقريزى ج ٢ ص ٣٣٤ .
(٨) معجم الأدباء ج ١٠ ص ١١٨ ط دار المأمون

(١) كتاب فى القراءات (٢) كتاب فى علم الأبدان وصلاحها (٣) كتاب فى الفقه مما سمعه من المعز والعزيز (٤) كتاب فى الأديان وهو فى الفقه (٥) مختصر الفقه وهو المعروف بالرسالة الوزيرية (٦) كتاب فى آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم . هذه بعض الكتب التى ألفها هذا الوزير . ويقول إيفانوف إنها فقدت جميعها ولم يبق منها إلا الرسالة الوزيرية فى مختصر الفقه وهو الكتاب الذى طلب الإمام الظاهر إلى الناس أن يحفظوه ، وشجع على ذلك بترتيب أموال لمن حفظه[1] ويحدثنا المقريزى أن الناس كانوا يفتون بكتابه فى الفقه، ودرس فيه الفقهاء بجامع مصر ، وأن العزيز بالله أجرى لجماعة فقهاء كانوا يحضرون مجلس الوزير أرزاقا كل شهر تكفيهم[2] ، وقد ذكرنا أن هذا الوزير هو أول من جعل من الجامع الأزهر جامعة علمية ، ورتب لعلمائها الأرزاق ، معنى هذا كله أن الوزير يعقوب بن كلس رعى العلم والعلماء . فاتسعت بفضله الثقافة ، وازداد الإقبال على العلم . وكذلك لقى الشعر على يديه التشجيع الذى لقيه العلم ، فقد كان الوزير بعد أن ينتهى من مجالسه العلمية يأذن للشعراء فى إنشاده مدائحهم فيه[3] وكان يغدق عليهم الهبات والعطايا ، ولعل أكثر الشعراء مدحا له هو الشاعر أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكى المنبوز بأبى الرقعمق وعبدالله بن محمد بن أبى الجوع ، فمن قول ابن أبى الجوع وقد مرض الوزير من علة أصابت يده :

يد الوزير هى الدنيا فإن ألمت ... رأيت فى كل شىء ذلك الألما
تأمل الملك وانظر فرط علته ... من أجله، واسأل القرطاس والقلما
وشاهد البيض فى الأغماد هائمة ... إلى العدى وكثيرا ما روين دما
وأنفس الناس بالشكوى قد اتصلت ... كأنما أشعرت من أجله سقما
هل ينهض المجد إلا أن يؤيده ... ساق يقدم فى إنهاضه قدما
لولا العزيز وآراء الوزير معا ... تحيفتنا خطوب تشعب الأمما
فقل لهذا وهذا أنتما شرف ... لا أوهن الله ركنيه ولا انهدما
كلاكما لم يزل فى الصالحات يدا ... مبسوطة ولسانا ناطقا وفما
ولا أصابكما أحداث دهركما ... ولا طوى لكما ما عشتما علما
ولا انمحت عنك يامولاى عافية ... فقد محوت بما أوليتنى العدما

---

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ١٦٩ . (٢) خطط المقريزى ج ٣ ص ٩ .
(٣) المصدر السابق (٤) المصدر السابق

ومن قول أبى الرقعمق :

إن يعقوب قد أفاد وأفنى ... وأعاد الندى وأغنى الضعيفا
سل سيفا من البصيرة والرأ ... ى فأغناه أن يسل السيوفا
باذلا للعزيز دون حمــاه ... مهجة حرة ورأيا حصيفــا
ما رأيناه قط إلا رأينـا ... خلقـا طاهرا وفعلا شريفا
ورأينـا قرما كبيرا هماما ... منعما مفضلا رحيما رءوفا (١)

ووجد بين شعراء مصر فى ذلك الوقت من كان يهجو الوزير ابن كلس ، ويحدثنا ابن الأثير أن الشاعر الحسن بن بشر الدمشقى هجا يعقوب بن كلس وهجا كاتب الإنشاء أبا نصر عبد الله الحسين القيروانى بقوله :

قل لأبى نصر صاحب القصر ... والمتأتى لنقض ذا الأمر
انقض عرا الملك للوزير تفز ... منه بحسن الثناء والذكر
واعط أو امنع ولا تخف أحدا ... فصاحب القصر ليس فى القصر
وليس يدرى ماذا يراد به ... وهو إذا ما درى فما يدرى

فشكاه ابن كلس إلى الإمام العزيز وأنشده الشعر ، فقال له : هذا شىء اشتركنا فيه فى الهجاء ، فشاركنى فى العفو عنه ، ثم قال هذا الشاعر أيضا وعرض بالفضل القائد :

تنصر فالتنصر دين حق ... عليه زماننا هـذا يدل
وقل بثلاثة عـزوا وجلوا ... وعطل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب وهذا الـ ... ـعزيز ابن وروح القدس فضل

فشكاه يعقوب إلى العزيز فامتعض منه إلا أنه قال : اعف عنه . فعفا عنه ، ثم دخل الوزير على العزيز فقال له : لم يبق للعفو عن هذا معنى وفيه غض من السياسة ونقض لهيبة الملك ، فإنه قد ذكرك وذكرنى وذكر ابن زبارج نديمك وسبك بقوله :

زبارجى نديم وكلس وزير
نعم على قدر الكلـ ... ـب يصلح الساجور

فغضب العزيز على هذا الشاعر وأمر بالقبض عليه ، ثم بدا للعزيز إطلاقه فأرسل

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٣٩

يستدعيه ، وكان للوزير عين فى القصر فأخبره بذلك ، فأمر بقتل الشاعر ، فقتل (١) .

وهكذا كان لهذا الوزير أعداء كما كان له أنصار ومحبون ، وقد حزن الناس حين ابتدأت علته فى الحادى والعشرين من شوال سنة ٣٨٠ هـ ونزل إليه العزيز بالله يعوده وقال له : « وددت أنك تباع فأبتاعك بمالى أو تفدى فأفديك بولدى » (٢) .

وتوفى يعقوب بن كلس ليلة الأحد لخمس خلون من ذى الحجة سنة ٣٨٠ هـ واجتمع الناس فيما بين القصر وداره لتشييعه إلى مقره الأخير ، وخرج العزيز من القصر على بغلة ، والناس يمشون بين يديه وخلفه بغير مظلة والحزن ظاهر عليه ، وأقام ثلاثا لا يأكل على مائدته ولا يحضرها من عادته الحضور ، وأقام الناس عند قبر الوزير شهرا ، وغدا الشعراء إلى قبره فرثاه مائة شاعر أجيزوا كلهم . فهذا كله يدل على أنه كان للوزير مكانة فى نفس إمامه وفى نفوس معاصريه جميعا ، وذلك لما عرف عنه من إنصافه وكرمه وعلمه ، وما أظهره من شدة تمسكه بأهداب الدين الإسلامى على مذهب القوم .

٣ — المؤيد فى الدين داعى الدعاة (٣)

وهل نستطيع أن نتحدث عن علماء الدعوة الفاطمية دون أن نتحدث عن هذا العالم الذى بلغت علوم الدعوة الذروة على يديه ، ذلك هو المؤيد فى الدين داعى الدعاة الذى عرف فى تاريخ الأدب العربى بمناظرته مع أبى العلاء المعرى فى تحريم أكل اللحم ، والذى أراد الأستاذ مرجوليوث المستشرق الإنجليزى أن يعرف شيئا عن حياته فخانه التوفيق واكتفى بذكر اسمه دون حياته ، فبالرغم من أن المؤيد لم يكن مصرى المولد والنشأة فقد وفد على مصر ، وأقام بها زهاء ثلاثين عاما ، واستمع له جمهرة من المصريين ، أخذوا عنه علوم الدعوة فأثر فى الحياة العقلية المصرية بمبادئه التى كان ينادى بها ، وفى مصر أخذ عنه لمك بن مالك قاضى الصليحيين باليمن فنقلت عن مصر علوم الدعوة إلى اليمن وأصبح اليمنيون يدينون للمؤيد بالأستاذية فى علوم الدعوة ، وفى مصر أنشد المؤيد أكثر قصائد ديوانه ، وألقى مجالسه التى بلغت

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٨ (٢) المقريزى ج ٣ ص ٩

(٣) راجع « ديوان المؤيد داعى الدعاة » وكتاب « السيرة المؤيدية » — طبع شركة الكاتب المصرى .

اليمانية بمجلس ، فلا غرابة أن نتحدث عنه فى كتابنا هذا ، وهو كتاب خاص بمصر.

اسمه هبة الله بن أبى عمران موسى بن داود الشيرازى ، ولد بشيراز فى العشر الأخير من القرن الرابع من الهجرة فى أسرة اتخذت العقيدة الفاطمية مذهبا لها ، وكان أبوه حجة جزيرة فارس أيام الحاكم الفاطمى ، فنشأ ابنه هبة الله ليأخذ مكانته فى الدعوة فى هذا الإقليم . وأخذه منذ نشأته بالإلمام بكل شىء يخص الدعوة وأسرارها . وكان الحاكم بأمر الله بأن يولى ابنه هبة الله أمر فارس من بعده ، وبالفعل أصبح هبة الله حجة فارس بعد أبيه ، وما لبث أن أصبح يملك نفوس أتباعه فانقادوا له الانقياد كله ، فكانوا يفشون إليه أسرارهم الخاصة حتى مع أهل بيتهم ، ويضحون فى سبيله بأرواحهم ، وكثر أتباعه حتى خشى السلطان أبو كاليجار البويهى سطوته ونفوذه ، وهم أن ينفيه مرارا من شيراز ، ولكنه كان يخاف ثورة أتباع المؤيد ، وبلغت كراهية السلطان أبى كاليجار للمؤيد أنه كان يكره سماع اسمه فى مجالسه . ولكن المؤيد فى الدين احتال حتى استطاع أن يتصل بأبى كاليجار ، وأن يجعل السلطان يستمع إليه وأن يعقد مجالس المناظرة بين المؤيد وعلماء المعتزلة والشيعة وأهل السنة ، فكان المؤيد يبرز على خصومه ومناظريه فاضطر السلطان أمام قوة بيانه ودامغ حجته إلى أن يخضع للمؤيد ، بل لأن يدخل فى دعوته وأن يعقد مجلسا خاصا يلقى فيه المؤيد على السلطان شيئا من علوم أهل البيت والفقه الفاطمى من كتاب دعائم الإسلام للقاضى النعمان . كان ذلك كله سببا فى غضب جمهور أهل السنة فى فارس ولا سيما القضاة والعلماء ، فأخذوا يوغرون صدور المقربين من أبى كاليجار وندمائه على المؤيد ، وانتهزوا فرصة واتتهم للايقاع به ؛ ذلك أن المؤيد زار أتباعه فى مدينة الأهواز فوجد مسجدا قديما تهدمت جدرانه فأمر شيعته بتجديده ونقش على محرابه بالذهب أسماء الأئمة الفاطميين وطلب من خطبائه أن يؤذن فيه « بحى على خير العمل » أذان الشيعة ، وخطب يوم الجمعة باسم المستنصر الفاطمى ، فجهر بالدعوة الفاطمية دون خشية وأعلن عصيانه فى بلد يدين للعباسيين . مما جعل قاضى الأهواز يرسل إلى الخليفة العباسى ببغداد ينعى الدولة العباسية وضياع خلافتها على يد المؤيد فى الدين كما ثار أهل السنة على أبى كاليجار وجاء الوزير العباسى ابن المسلمة موفدا من قبل العباسيين للقبض على المؤيد ، وكان أبو كاليجار إذ ذاك يرنو إلى ملك بغداد ، فكان بين عاملين إما

ضياع هذه الفرصة من يده فى سبيل رعاية ذمة المؤيد، وإما أن يضحى بالمؤيد فى سبيل أطماعه . وأدرك المؤيد تردد أبى كاليجار فى هذا الأمر، ولاسيما بعد أن قطع السلطان مجالسه الليلية مع المؤيد، ورغبته عن لقائه. فلم يجد المؤيد بدا من النزوح عن وطنه، فسار مختفيا متجنبا الطرق العامة ، سالكا البرارى والقفار حتى وصل إلى مصر سنة ٤٣٧ هـ .

جاء مصر يحدوه الأمل فيما سيكون عليه شأنه من جاه وسلطان وتوقير، لأنه خدم دعوته بما لم يخدمها به أحد من الدعاة قبله . وقام بأمرها حق قيام ، ولكنه من جهة أخرى كان يعلم أن الأمر فى مصر ليس بيد إمامه المستنصر، بل كانت السلطة كلها بيد أم المستنصر ووكلائها أمثال التسترى واليازورى وغيرهما ؛ ويصرح المؤيد بذلك فى سيرته بقوله : « بلغت بشق النفس الباب الطاهر ، مترجحا بين أمل ويأس ، ومتعقبا الملتقى ما يلقانى من طرفى إيحاش وإيناس ، فأما الأمل فمن جهة خدمة ما خدم مثلها غيرى ، حدانى حاديها ، ونادانى بالأهل والمرحب مناديها . وأما اليأس فمن حيث علمت أن المقصود شمس توارت بالحجاب ، ووجه نهار تبرقع بالسحاب ، وأن المسافة لعلها تقذفنى من الإضاعة فى يم . وتؤوينى من حيث ارادت غنما إلى غرم . . . . أدخلونى من باب القاهرة المعزية إلى قصر الخلافة ، عمرها الله تعالى — فاستلمت على جارى العادة فى مثله الأبواب . ولمحت الثريا ترابا تحت قدمى إذ ترشفت ذاك التراب ، وأجلسونى هنيهة لأفيق من غشية الهيبة التى ملأت جوانحى لما غشيت المسرة بمشاهدة ذلك المقام قلبى وجوارحى ، ثم أدخلونى إلى الوزير المعروف بالفلاحى — رحمه الله — فرأيت شيخا عليه من الوقار مسحة ، ومن الإنسانية سمة . فأدنى وقرب ، وأكرم ورحب ، وخرجت . فأخذونى إلى دويرة كانت فرشت لى هى من الكرامة فى الدرجة الوسطى من الحال ، لا بالإكثار ولا بالإقلال . (١) » وهكذا استقر بمصر واتصل برجالها وحضر مجالس الدعوة فيها، ولكن الوشايات لم تنقطع عنه ، والدسائس تحاك حبالها حوله ، فكان يقربه الوزراء حينا ويبعدونه حينا آخر ، فعاش فى مصر بين الرضا والغضب ، وكثيرا ما فكر فى الرحيل عن مصر ، ولكن القوم لم يسمحوا له بالرحيل ، وكان يأمل أن يولى مرتبة داعى الدعاة ولكنها كانت تفر منه كلما حاول الإمساك بها ، وأخيرا عينه الوزير اليازورى رئيسا لديوان الإنشاء ، وزاد فى معاشه، فتحسنت حاله، فظل فى

(١) « السيرة المؤيدية » — طبع شركة الكاتب المصرى .

هذا العمل إلى أن علم بقيام طغرلبك التركماني لامتلاك بغداد . وهنا تظهر لنا موهبة المؤيد وتوقد ذكائه ، إذ أدرك أن التركمانية خطر على الدولة الفاطمية وأنه إذا تم أمر بغداد لطغرلبك فإنه لا ينثني عن محاربة أملاك الفاطميين في بلاد الشام وأعالي الجزيرة ، فأسرع المؤيد في الدين في درء هذا الخطر عن أملاك إمامه ، فكاتب رجال طغرلبك يستميلهم إلى الدعوة الفاطمية ، كما راسل البساسيري وغيره من رجال العباسيين الذين يحقدون على التركمانية ويخشون تملكهم للبلاد ، ووعد هؤلاء بإمدادات الفاطميين إن قاوموا طغرلبك ، أما البساسيري ورجاله فرحبوا بالعمل باسم الفاطميين على حين لم يستجب رجال طغرلبك . فأيقن المؤيد أن الحرب لاشك ناشبة بين الفاطميين والتركمانية ، فنشط للدعوة بين الوزراء ورجال مصر لحرب طغرلبك ، ووجدت دعوته قبولا منهم وأعدت مصر الخلع والسلاح والعتاد والأموال ، وأنفقت الدولة على هذه الحملة أموالا جمة ذكرها المؤرخون في كتبهم، وهي الأموال التي أدت إلى ضعف مصر اقتصاديا وجرتها إلى ماعرف بالشدة العظمى . وطلب من المؤيد أن يكون على رأس هذه القافلة لتسليم هذه الذخائر إلى البساسيري. فاعتذر المؤيد ولكن المستنصر الفاطمي أصدر أمره بأن يكون المؤيد على رأس الركب فلم يسع المؤيد إلا الخضوع لأمر إمامه . وطلب المؤيد لأن يلبس خلع الوزارة فأبى وأمعن في الإباء ، وهكذا بدأ المؤيد حياة جديدة، حياة الرجل العسكري وحياة السياسي الداهية . فقد خرج من مصر وليس معه جندي واحد وإنما كانت معه ذخائر وأموال وعتاد حربي، ورسم له أن يصطنع من الأعراب وأمراء البادية ومن العرب والأكراد من يشاء ، ويغريهم جميعا بالأموال والخلع والألقاب من قبل الفاطميين ، فإذا كانت إنجلترا تعترف لأحد أبنائها وهو « لورنس » بخدماته في تأليب العرب على العثمانيين في الحرب العالمية الأولى ، وتشيد بذكر أعماله وتمجد بطولته ، فكيف ينسى المصريون المؤيد في الدين وقيامه بما عهد إليه من حفظ ممتلكات الفاطميين ، بل ما أداه من نشر الدعوة الفاطمية في بلاد لم تذكر الدعوة فيها من قبل ، وفي إعادة بلاد أخرى كانت خرجت عن الدعوة وسلطانها . لقد وصف لنا المؤيد في سيرته حركاته ومكاتباته مع أمراء العرب ، وكيف استمالهم جميعا للنهوض معه في حرب التركمانية ومساعدته في طردهم من العراق، حتى تكاثر الأنصار حوله ، وسارع أمراء الكوفة وواسط وحلب إلى الدعوة باسم الإمام المستنصر ، فاستطاع المؤيد بما تجمع حوله أن ينتصر

على طغرلبك في موقعة سنجار التي ذكرها الشاعر ابن حيوس في قصيدة منها :

عجبت لمدعي الآفاق ملكا ... وغايته ببغداد الركود

وبهذا النصر الذي أحرزه المؤيد دانت له الموصل والجزيرة وديار بكر، ولكن جموعه كانت تضم نفوسا متباغضة متشاحنة فسرعان مادب بينها النفور وحل الشقاق وتفرق عنه أكثر الأمراء حسدا منهم لمن قربهم المؤيد إليه ، ووصف المؤيد حالهم بأنه كان بين ذئاب تتخادش وكلاب تتهارش . . وكان يحاول تهدئتهم وإصلاح ما بينهم فلم يوفق ، وعلم طغرلبك بحالهم فأسرع إليهم وهزمهم ، وكان المؤيد إذ ذاك في الرحبة، فاصطنع الصبر والثبات وأخذ يحث من تفرقوا عنه إلى الرجوع إليه ويمدهم ويمنيهم ، ولكنها كانت صيحة في واد ، وخشي أن يدركه العدو وهو حي ، فآثر أن ينسحب إلى حلب واتخذها مقرا لقيادته ، وكانت حلب في يد المرداسيين الذين قطعوا خطبة الفاطميين ، فمازال المؤيد بهم حتى سلموا بلدهم إلى الوالي الذي أرسله المستنصر الفاطمي ، وفي حلب استطاع المؤيد أن يتصل بإبراهيم بن ينال وأغراه أن يخالف طغرلبك ووعده بالتلقيب والخلع الفاطمية ، فكانت مؤامرة ناجحة إذ انفصل إبراهيم بن ينال عن جيوش طغرلبك وخرج هذا لمحاربته فانتهز المؤيد هذه الفرصة ، وأمر البساسيري بالمسير إلى بغداد فتم له ذلك سنة ٤٥٠ هـ ودعي على منابرها باسم المستنصر الفاطمي لمدة عام ، ولو كان وزراء مصر استمعوا لنصائح المؤيد لتغير وجه التاريخ الإسلامي، ولكانت هذه الحركة سببا في محو الخلافة العباسية منذ دخلت جيوش البساسيري بغداد سنة ٤٥٠ هـ ، ولكن المؤيد عاد إلى مصر دون أن يحفل به أحد ، ولم تحتفل مصر بامتلاك بغداد فلم ينفخ فيها بوق واحد ولم يقرع فيها طبل واحد ، ولا غرابة في ذلك فقد كان الوزير في مصر إذ ذاك هو الوزير المغربي الذي لم ينس ما فعله الفاطميون بأجداده وآبائه . وهكذا أضاع وزراء مصر تلك الفرصة الذهبية التي هيأها لهم المؤيد بدهائه وسياسته .

عاد المؤيد إلى مصر فولي مرتبة داعي الدعاة . وبذلك أصبح في المرتبة التي شق بالتطلع إليها ردحا طويلا من الزمان ، ولكنه لم يمكث في تلك المرتبة طويلا إذ خشي الوزراء مكانته ونفوذه وسلطانه ، فنفي مرة من مصر ، ثم أعيد إليها وولي مرتبة الدعوة، ثم عزل عنها وولي ديوان الإنشاء مرة ثانية. وهكذا عاش حتى توفي ٤٧٠ هـ بالقاهرة ودفن في دار العلم بجوار القصر، وصلى عليه الإمام المستنصر نفسه .

كان المؤيد فى الدين من أكبر علماء عصره ، وتدلنا كتبه التى وصلت إلينا على أنه كان واسع الثقافة ملما إلماما تاما بجميع العلوم التى عرفت فى العالم الإسلامى إذ ذاك ، قوى الحجة فى مناظراته وجداله مع مخالفيه ، وقد صدق أبو العلاء المعرى حين وصفه بقوله : « وسيدنا الرئيس الأجل المؤيد فى الدين ، لازالت حجته باهرة ودولته عالية . . . ولو ناظر أرسطاليس لجاز أن يفحمه أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه »(١) ويكفى أن ننظر إلى مناظرات المؤيد مع المعرى لندرك كيف كان شيخ المعرة يتهرب من هذه المناظرة ، وأنه كان يخشى قوة منطق المؤيد وحجته مع فصاحة بيانه ، فاعترف له بالتفوق فى الجدل ، وأنه ورث علم الأولين .

وضع المؤيد فى الدين عدة كتب أهمها :

١ — المجالس المؤيدية وهو أكبر كتاب وصل إلينا فى الدعوة الفاطمية إذ يضم هذا الكتاب ثمانمائة مجلس من مجالس الدعوة التى كان يلقيها المؤيد ، ويثبت من هذا الكتاب أن الدعوة وعلومها بلغت ذروتها على يد المؤيد ، ويعد هذا الكتاب من أقوم الكتب عند طائفة البهرة ولا يقربه إلا من بلغ مرتبة خاصة من مراتب دعوتهم . وقد رتب حاتم بن إبراهيم الحامدى الداعى اليمنى هذا الكتاب وقسمه إلى أبواب حسب موضوعاته ، وسمى الكتاب « جامع الحقائق » وإذا نظرنا فى كتب الدعوة لدعاة اليمن ، نرى أن جميع الدعاة كانوا يقتطفون من المجالس المؤيدية ويستشهدون بها . ونرجو أن نوفق إلى نشر هذا الكتاب القيم ، فهو موسوعة فى علوم الدعوة الفاطمية ، وفى هذه المجالس نرى مناظرات المؤيد ورده على المخالفين.

٢ — ديوان المؤيد فى الدين : كان المؤيد شاعرا كما كان أديبا وعالما وقد وصل إلينا ديوانه فإذا به مجموعة من قصائده التى أنشدها فى مدح الأئمة ، وفى هذا الديوان نرى تطور حياة المؤيد ووصف أحواله وإشارات إلى جهوده ، كما ملأ قصائده بالعقائد الفاطمية ومصطلحاتها ، وطبع هذا الديوان بشركة الكاتب المصرى فى سلسلة مخطوطات الفاطميين .

٣ — السيرة المؤيدية ، ولعل هذا الكتاب أقوم كتاب تاريخى يفصل لنا الحياة السياسية والاجتماعية فى فارس والعراق ومصر فى المدة من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠

(١) أنظر الرسالة الثانية من الرسائل التى دارت بين المؤيد فى الدين وأبى العلاء المعرى فى معجم الأدباء ج ٣ ص ٢٠٢ طبعة دار المأمون .

كما يعد سجلا للوثائق التى تبودلت بين المؤيد وأمراء العرب ، وبينه وبين الوزراء المصريين إبان الثورة التى عرفت فى التاريخ باسم ثورة البساسيرى، وكذلك لم أجد كتابا من كتب التاريخ تحدث عن هذه الثورة كما تحدث عنها المؤيد ، ولا غرو فى ذلك إذ كان المؤيد سبب هذه الثورة ومدبرها والمشرف عليها . وقد طبع هذا الكتاب بشركة الكاتب المصرى فى سلسلة مخطوطات الفاطميين .

وللمؤيد غير هذه الكتب كتاب شرح المعاد ، وكتاب الإيضاح والتبصير فى فضل يوم الغدير ، وكتاب الابتداء والانتهاء وكتاب تأويل الأرواح وكتاب نهج العبادة وكتاب المسألة والجواب ، وترجم إلى اللغة الفارسية كتاب أساس التأويل للقاضى النعمان وهو فى تأويل قصص الأنبياء .

ويعتبر المؤيد أستاذ الدعوة فى اليمن والهند. فعنه أخذ القاضى لمك بن مالك علوم الدعوة وعاد إلى اليمن يلقى على المستجيبين ما تلقاه عن المؤيد . كما يعد أستاذ ناصرى خسرو الشاعر الفارسى المعروف ، فقد ذكره ناصر فى أشعاره ووصف مجالسه . وهكذا كان للمؤيد أثر فى الحياة السياسية والعقلية والأدبية .

الباب الثاني

فى الحياة العلمية

يعد عصر الفاطميين من أزهى عصور مصر الإسلامية من الناحية العلمية ، فقد بلغت الحياة العلمية فى مصر الفاطمية درجة كبيرة من النمو والازدهار لكثرة العلماء الذين كانوا فى مصر أو وفدوا عليها ، وكثرة المؤلفات فى كل فن من فنون العلم .

وقد ذكرنا أن أئمة الدعوة الفاطمية كانوا يقربون العلماء ويشجعون الطلاب ، وأنهم أوقفوا أرزاقاً ثابتة للمشتغلين بالعلم حتى يتهيأ لهم التفرغ لما أهلوا أنفسهم له ، فكان الفاطميون على هذا النحو من الاهتمام بشئون العلماء أسبق مما عليه كثير من الدول التى لم تعرف للعلماء قدرهم ولم توفهم حقهم ، فشغل العلماء بأمر أرزاقهم أولا ، فركدت الحركة العلمية عند هذه الدول . وقد رأينا كيف اهتم الفاطميون بإنشاء خزائن الكتب فى القصر وفى دار العلم حتى يتسنى للعلماء أن يطلعوا ويستفيدوا مما تركه السابقون ، وبلغ من تشجيع الفاطميين لطلاب العلم أن القاضى النعمان سمع إمامه المعز يقول: « إنا لنسر بمن نراه من أوليائنا يطلب العلم والحكمة ويرغب فى الخير كما نسر بذلك فى الولد » (١) ففى ظل هؤلاء الأئمة ، وعلى ضوء ما ذكره الإمام المعز ، وجد العلماء ملاذا يؤويهم من العوز ، ويحميهم من الفاقة ، بل وجدوا ما يشجعهم على مواصلة البحث والدرس والتأليف .

ويذكر المؤرخون عددا من العلماء الذين وفدوا على مصر الفاطمية ووجدوا من التشجيع ما جعلهم يذكرون مصر والأئمة بالخير. فيحدثنا ابن أبى أصيبعة أنه لما وصل المهذب بن النقاش — وكان فاضلا فى صناعة الطب — إلى الشام من بغداد أقام بدمشق مدة ولم يحصل له بها ما يقوم بكفايته وسمع بالديار المصرية وإنعام الخلفاء فيها وكرمهم وإحسانهم إلى من يقصدهم ولا سيما من أرباب العلم والفضل ، فتوجه إلى مصر واتصل بالقاضى الأجل السديد أبى المنصور عبد الله بن الشيخ السديد

(١) المجالس والمسايرات (ورقة ٤٦ ا)

أبى الحسن على فوهب له الأموال وأقام فى مصر مكرما (٢). ونردد ما ذكره المؤرخون عن القاضى عبد الوهاب بن على أحد فقهاء المالكية المجتهدين فى المذهب حتى قال عنه صاحب تاريخ بغداد: « لم أر فى المالكية أفقه منه » إذ وفد على مصر لضيق حاله ببغداد، وأكرمه المصريون بالرغم من تمذهبه بمذهب يخالف ما هم عليه ، حتى تحول وحسنت حاله جدا، ولكن أدركه المرض، وكان يقول وهو فى مرضه : لا إله إلا الله عندما عشنا متنا، وتوفى بمصر سنة ٤٢٢ هـ. وسنذكر غير هذين العالمين فى الفصول التالية.

فالقاهرة المعزية أصبحت مطمع أنظار العلماء ومحط رحال الطلاب . وفى العصر الفاطمى استطاعت مصر أن تنتزع زعامة العالم الإسلامى فى الحياة العلمية ، وأن تبسط آراءها وتعاليمها على البلدان الأخرى ، حتى نرى بعض العلماء الذين كانوا ينقمون على الشيعة عامة والفاطميين خاصة يفدون على مصر ويتأثرون ببعض الآراء التى كانت سائدة فيها . وأقرب مثل نقدمه لذلك هو الإمام الغزالى، فقد هاجم الفاطميين فى كتبه القسطاس والمنقذ من الضلال والمستظهرى أو الرد على الباطنية وغيرها من كتبه ، ولكنه وفد على مصر فى أواخر حياته ووضع كتابه مشكاة الأنوار متأثرا ببعض العقائد الفاطمية ، ولا سيما نظريتهم فى ترتيب العقول .

ويخيل إلى أن السبب الذى من أجله شجع أئمة الفاطميين العلم والعلماء أن المذهب الفاطمى نفسه يقوم على العلم والعقل قبل كل شىء ، ومن طريق العلم وبالجدل والمناظرات استطاعت الدعوة الفاطمية أن تنتشر فى العالم الإسلامى . واستطاع الفاطميون أن يكونوا دولتهم العتيدة ، فعقيدة الفاطميين كانت تقوم على العمل والعلم. فالعمل هو الظاهر والعلم هو الباطن ، وعلم الباطن يقوم على استخدام العقل ومطابقة المحسوس للمعقول ، فلا غرو أن رأينا الفاطميين يشجعون العلم الذى هو دعامة من دعائم العقيدة الفاطمية . وقد أثرت الفلسفة اليونانية والمذاهب الدينية القديمة فى أرباب هذه الدعوة وعلمائها على نحو ما رأيناه فى الباب السابق من هذا الكتاب ، فكان الفاطميون يهتمون بهذه الألوان من الدراسة الفلسفية والمذهبية ، إما لإدخال بعض عناصر منها فى عقيدتهم وآرائهم أو للرد عليها وتهجين

(١) ابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ١٠٩ (طبعة مصر سنة ١٨٨٢) .

هذه الآراء القديمة ، فمل ذلك الفاطميون فى الوقت الذى كان فيه أهل السنة فى البلاد الأخرى يرمون من يشتغل بالفلسفة بالزندقة والإلحاد ، فالفكر اليونانى وجد ترحيبا من الفاطميين وتوسعوا فى دراسته ، وقد لاحظ المستشرق أوليرى ذلك فقال : « إن الحركة الفاطمية بأكلها أخذت مكانتها فى جو مشبع بالفكر الهلينى ، وإحياء دراسة المواد اليونانية هو الإلهام المباشر لطائفة الإسماعيلية (١) . وسنرى فى الفصل التالى مبلغ اهتمام الفاطميين بالعلوم الفلسفية واصطناعهم لكل من عرف بالاشتغال بفرع من فروع الفلسفة، فقد قيل إن العزيز بالله كاتب جرائيل بن بختيشوع واستدعاه إلى مصر فاعتذر(٢) ، وأرسل الحاكم بأمر الله إلى ابن الهيثم يستدعيه فأجاب ، وكتب الوزير الفلاحى إلى والى حلب وأعمالها يحمل أبى العلاء المعرى إلى مصر ليبنى له دار علم يكون متقدما فيها ، وسمح بخراج معرة النعمان له فى حياته وبعده ، وان والى حلب سار إلى معرة النعمان واجتمع بأبى العلاء وقرأ السجل عليه فاستمهله ، وكتب إلى الوزير الفلاحى يستعفيه من ذلك فأعفاه . وتسامح الفاطميون مع العلماء الذين لم يعتنقوا مذهبهم ، بل كانوا متسامحين مع أصحاب الأديان غير الإسلامية، فأبو الفتح منصور بن مقشر كان طبيبا للعزيز والحاكم بأمر الله ومن المقربين إليهما ، وبعد وفاته استطب الحاكم إسحق بن إبراهيم بن نسطاس وهما من أهل الذمة ، ولكن الفاطميين أغدقوا عليهما وعلى غيرهما من أصحاب الفلسفة الأموال والخلع والألقاب ، وحفظ لنا التاريخ أسماء عدد كبير منهم .

وقد ذكرنا أن الفاطميين كان لهم دعاة فى جميع أرجاء البلاد الإسلامية يناقشون ويجادلون أصحاب المذاهب الأخرى ، ورأينا كيف التف عدد كبير من المسلمين حول هؤلاء الدعاة وأخذوا عنهم علوم الدعوة ، فنستطيع إذن أن ندرك فى سهولة ويسر أن هذه الدعوة الفاطمية لم تؤثر فى مصر فحسب بل أثرت فى جميع البلاد الإسلامية ، وتبع ذلك أن الآراء اليونانيـــة وغيرها من المذاهب القديمة من إسرائيلية ومسيحية وزرادشتية ووثنية وهى التى صبغها الفاطميون بالصبغة الإسلامية قد انتشرت فى العالم الإسلامى على أيدى دعاة الفاطميين . وإذا درسنا الحياة العقلية فى العالم الإسلامى فى القرن الرابع وما بعده رأينا أكثر العلماء كانوا متأثرين بهذه

(١) O'Leary : Hist. ofthe Fatimid Khalfite P. 140 (London 1923)

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٠٥ .

الآراء التى بثها دعاة الفاطميين ، ونرى بعض الفلاسفة الذين نبغوا فى القرن الرابع وما بعده كانوا على صلة قريبة أو بعيدة من العقائد الفاطمية أو العقائد الشيعية عامة ، فابن حوقل كان متشيعا لهم حتى قيل إنه من دعاتهم، والفارابى مثلا فى حديثه عن القلم واللوح يكاد يتحدث بلسان دعاة الفاطميين ، ويكاد يشاركهم فى حديثه عن التوحيد (١) ، وابن سينا قيل إنه إسماعيلى المذهب وأن أباه كان أحد دعاتهم فنشأ متأثرا بعقائدهم ، وجماعة إخوان الصفاء الذين يرجح أنهم ازدهروا فى ظل البويهيين الذين كانوا يميلون إلى التشيع ومنهم من اعتنق الدعوة الفاطمية وكان يراسل الخليفة الفاطمى ، وظهرت فى رسائل إخوان الصفاء إسماعيليتهم . وابن الهيثم كان متصلا بالحاكم بأمر الله الفاطمى وعاش فى كنفه ، وأبو العلاء المعرى حكيم المعرة كان متأثرا تأثرا تاما بهذه الآراء التى كانت تحيط به، فقد امتد ظل الحكم الفاطمى إلى بلاد الشام وانتشرت فيها آراء الفاطميين كما انتشرت فى كل البقاع التى خضعت أو لم تخضع لهم ، فنرى فى أشعار أبى العلاء وكتابته كثيرا من الآراء الفاطمية التى كانت تسود ذلك العصر ، ونذكر أحمد حميد الدين بن عبد الله الكرمانى فيلسوف الدعوة وحجتها فى العراق وكرمان وصاحب الكتب الفلسفية الفاطمية مثل كتاب راحة العقل وكتاب المصابيح وكتاب الهادى والمستهدى وكتاب الأقوال الذهبية وغيرها التى تدل على أن الكرمانى فيلسوف ناضج التفكير، وأنه متأثر بما أخذه من فلسفة اليونان وغيرها(٢) ، ونذكر المؤيد فى الدين وهو من شيوخ الدعوة وفلاسفتها . وهكذا نستطيع أن نتتبع كثيرا من فلاسفة المسلمين الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية وصبغوها بالصبغة الإسلامية، وكان لهم فضل تقريب هذه الدراسات إلى جمهور المسلمين ، فإن هؤلاء الفلاسفة تأثروا بالعقائد الشيعية عامة والفاطمية خاصة .

ولم ينس الفاطميون العلوم العربية الخالصة ، بل وجهوا إليها اهتماما ملحوظا وعناية خاصة ، وقد رأينا كيف كان الحاكم يجمع علماء اللغة والأدب للمناظرة بين يديه، ورأينا أثر يعقوب بن كلس فى نشاط الحركة العلمية والأدبية ، ويحدثنا عمارة اليمنى أن مجالس الوزير الصالح بن رزيك لم تكن تنقطع إلا بالمذاكرة فى أنواع العلوم

(١) راجع ماذكرناه فى كتاب راحة العقل فى المقارنة بين رأى الكرمانى ورأى الفارابى

(٢) راجع كتاب راحة العقل (من مطبوعات الجمعية الاسماعيلية بالهند) .

الشرعية والأدبية وفى مذاكرة وقائع الحرب مع أمراء دولته (١) . فكانت هذه العناية الخاصة التى وجهها الأئمة ووزراؤهم وأمراء دولتهم للعلوم سببا فى قيام هذه النهضة العلمية الرائعة التى ظهرت فى مصر الفاطمية ، وفى أن يكثر علماء مصر من التأليف وإنتاج الكتب فى مختلف الفنون والعلوم .

حقيقة كان علماء مصر فى ذلك العصر يشرحون أو ينقدون ما خلفه علماء المسلمين قبلهم فى هذه العلوم العربية ، ولا نكاد نجد فى مؤلفات المصريين فى هذا العصر آراء أصيلة يتميزون بها عن الذين سبقوهم ، ولكن ليس ذلك بغريب فالتاريخ يحدثنا أن العلوم إذا تم تكوينها ووضعت قواعدها تمر على العلماء فترة بعد ذلك طويلة أو قصيرة لشرح هذه القواعد أو نقدها ، ويكثرون من التأليف حول هذه القواعد دون أن يحاولوا وضع قواعد جديدة ، بل يفرعون على هذه الأصول القديمة دون مساس بالقديم . هذا ما كان عند اليونان بعد عصر الفلاسفة ، وهذا ما حدث أيضا للمسلمين فى جميع الأقطار الإسلامية بعد أن وضعت قواعد اللغة ودوّن الأدب العربى بألوانه وفنونه ، وبعد أن صيغت القواعد الفقهية على اختلاف المذاهب ، فهذه الفترة فترة ركود ذهن العلماء عن وضع أصول جديدة وقواعد متباينة عن القديم مرت بها مصر الفاطمية بل مرت بها جميع الأقطار الإسلامية ، بل أستطيع أن أقول إننا لا نزال نعيش على هذه الأصول القديمة ، ولم نستطع أن نتحرر منها إلى الآن ، فقواعد اللغة التى دونها سيبويه وأصول الصرف كما تركه ابن جنى وعروض الخليل بن أحمد وأصول الفقه كما دونه الشافعى ومالك وأبو حنيفة وابن حنبل هى التى تسيطر على حياتنا العلمية العربية إلى الآن ، بالرغم من أن عددا كبيرا من دعاة حرية الفكر ينادون بضرورة التحرر من القديم وتعديل هذه العلوم تعديلا يلائم حياتنا الحديثة ، ولكن لا تزال السيطرة للقديم ، ولم يستطع المصلحون إلى الآن أن يجدوا وسيلة للخلاص منه .

فبالرغم من تشجيع الفاطميين للعلماء حتى ألفوا هذه المؤلفات الكثيرة التى تحتاج إلى مجلد ضخم لسرد أسمائها ، وأن هذه المؤلفات كانت التراث العلمى للعصور التى تلت عصر الفاطميين ، فإن هذه الكتب الكثيرة ولا سيما ما كان منها

(١) النكت العصرية ص ٤٨

فى العلوم العربية لا تظهر فيها شخصية مصر ولا أثر مصر ، إلا إذا استثنينا كتب التاريخ التى تحدثت عن مصر ، ففى هذه الكتب استطاع مؤرخو مصر أن يتأثروا بما حولهم وأن يظهروا شيئا مصريا لا يستطيع غير المصريين أن يأتوا به .

وهناك سبب آخر لعدم ظهور شخصية مصر فى كتب العلماء المصريين فى العلوم العربية ، ذلك هو رحلات العلماء فى الأقطار الإسلامية طلبا للعلم ، فمصر بموقعها الجغرافى الممتاز الذى جعل منها مركزاً وسطا بين الشرق والغرب وطريق الغرب الى الأراضى المقدسة ، هذا الموقع الجغرافى جعل مصر مركزاً هاما لتبادل الآراء العلمية بين الأقطار الإسلامية ، فعلماء الأندلس والمغرب وصقلية كانوا مضطرين إلى التعريج على مصر فى رحيلهم لتأدية فريضة الحج . أو فى رحيلهم لطلب العلم فى العراق وفارس ، وتطول مدة إقامتهم فى مصر أو تقصر يأخذون عن علماء مصر أو يلقون على المصريين ما عندهم من علم فتتلاقح الآراء وتمتزج وتصبح متشابهة لا فرق بين أندلسى ومصرى ومغربى وصقلى ، ولا تظهر الشخصية الإقليمية فى هذا النحو من العلم ، وكذلك نقول عن علماء مصر الذين رحلوا فى طلب العلم من الأقطار الأخرى وعلماء الأقطار الأخرى الذين رحلوا فى طلب العلم أو للتعليم فى مصر ، فهذه الرحلات الكثيرة كانت سببا فى ألا تمايز العلوم العربية بتمايز الأقطار ، حتى أصبحنا لا نفرق بين كتب المشارقة وكتب المغاربة إلا عن طريق تاريخ المؤلفين أنفسهم . أما من الناحية الموضوعية للكتب فمن الصعب العسير أن نصل الى نتيجة يطمئن اليها الباحث ، والأقطار العربية التى كانت تتنازع فيما بينها فى السياسة والمذهب الدينى ، وتنشب فيها الحروب المختلفة ، كانت تربطها وتوحدها هذه الحياة العلمية ، فجعلتها كتلة واحدة تدرس علوما واحدة لا فرق بين قطر وقطر ، ولا تزال هذه الظاهرة إلى الآن فى العلوم العربية الخالصة والعلوم الاسلامية ، وأملنا عظيم اليوم وقد توحدت البلاد العربية فى آرائها السياسية أن تتم وحدتها فى مختلف ألوان الثقافة حتى يعود للعرب مجدهم القديم بهذه الوحدة التى لن تنفصم بعون الله وبفضل يقظة البلاد العربية .

الفصل الأول

العلوم الفلسفية

إذا قلت العلوم الفلسفية فإنما أقصد بها جميع العلوم التي كانت تشتمل عليها الفلسفة في القرون الوسطى، والتي تضمها رسائل إخوان الصفاء من رياضيات وموسيقى وطب وتنجيم وطبيعيات وإلهيات ومنطق إلى غير ذلك من هذه العلوم التي كان يحذقها فلاسفة هذه العصور، والتي لا يستحق طالب الفلسفة هذا اللقب إلا إذا ألم بها جميعا، وقد رأينا كيف كانت العقائد الفاطمية تعتمد قبل كل شيء على العلم وتمييز الإلهيات من الطبيعيات، فلا غرو أن نرى هذه العلوم الفلسفية على اختلاف ألوانها وفنونها تزدهر في العصر الفاطمي ويرعاها الفاطميون، بل كان من الخلفاء الفاطميين من أتقن هذه العلوم وبرز فيها ولا سيما رصد الكواكب، فالمؤرخون يذكرون أن المعز لدين الله والعزيز والحاكم بأمر الله والحافظ كانوا يرصدون النجوم لاستقراء ما وراءها من أحداث، ويذكر المؤرخون أن اهتمام الأئمة بهذه العلوم كان وسيلة لادعائهم معرفة الغيب، ويروي المؤرخون بعض روايات هي أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، كما يروون بعض الأشعار كان يتهكم بها المصريون على ادعاء الفاطميين معرفة الغيب، من ذلك ما روي أن العزيز بالله صعد المنبر ذات يوم فرأى رقعة كتب فيها:

بالظلم والجور قد رضينا ... وليس بالكفر والحماقه
إن كنت أعطيت علم غيب ... فقل لنا كاتب البطاقه

وتضيف الرواية أن العزيز بالله أقلع عن ادعائه الغيب بعد ذلك، ويروي ابن ميسر في تاريخه أن النيل زاد وبلغ الماء الباب الجديد أول الشارع خارج القاهرة، فلما بلغ الحافظ ذلك أظهر الحزن والانقطاع، فدخل إليه بعض خواصه وسأله عن السبب فأخرج له كتابا فإذا فيه: إذا وصل الماء الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد، ثم قال: هذا الكتاب الذي نعلم منه أحوالنا وأحوال دولتنا وما يأتي

بعدها (1) فإن صحت هذه الرواية فهي تؤيد ما أذاعه الناس وتناقله الرواة عن ادعاء الفاطميين الغيب وأن الأئمة يعرفون ما كان وما يكون إلى يوم القيامة. وبين يدي الآن كتاب «الفترات والقرانات» المنسوب إلى جعفر بن منصور اليمن من علماء الدعوة في القرن الرابع الهجري — ولكني أشك في نسبة هذا الكتاب إليه — يتحدث في هذا الكتاب عن أثر الكواكب في عالم الكون والفساد ويتنبأ بما سيحدث في الأيام المقبلة. وذهب مؤلفه إلى أن علم القرانات أو علم الجفر علم خص الله سبحانه به آدم عليه السلام وورّثه آدم وصيه شيث، وتداولته الأنبياء والأوصياء والأئمة إلى الخلفاء الراشدين والنقباء المتوحدين بالتأييد(2)، ويروي علماء الدعوة أن علي بن أبي طالب كان يقول: «لو ثنيت لي وسادة وجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الانجيل بانجيلهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم، ولولا أن يقال إن ابن أبي طالب ساحر لأخبرتكم بما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة بما علمني رسول الله صلعم(3)»، فهذا كله يؤيد ما قيل عن الفاطميين أنهم كانوا يدعون علم الغيب وأنهم كانوا يستغلون معرفتهم بحركات الأفلاك لادعاء الغيب. ولكن بجانب هذه النصوص التي تثبت ذلك نجد نصوصا أخرى تثبت عكسها، فالقاضي النعمان يحدثنا في كتابه المجالس والمسايرات: «ذكر الإمام المعز لدين الله يوما وأنا بين يديه النجامة والمنجمين. فقال: من نظر في النجامة ليعلم عدة السنين والحساب ومواقيت الليل والنهار وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله جل ذكره وما في ذلك من الدلائل على توحيده لا شريك له، فقد أحسن وأصاب، ومن تعاطى بذلك علم غيب الله والقضاء بما يكون فقد أساء وأخطأ، ولقد كان المنصور بالله من أعلم الناس بها، ولقد قال لي غير مرة: والله ما نظرت فيها إلا طلبا لعلم توحيد الله وتأثير قدرته وعجائب خلقه، ولقد عانيت ما عانيت من الحروب وغيرها فما عملت في شيء من ذلك باختيار مني لدلائل النجوم ولا التفت إليه، ثم قال المعز: أتاني بعض المنجمين بكتاب ألفه يذكر فيه خلق آدم وكيف كانت الكواكب يوم خلقه الله عز وجل، وما دلت عليه بما آل أمره وأمر ذريته إليه، ورأى أنه أتى

(1) أخبار مصر لابن ميسر حوادث سنة ٥٤٣ هـ والمقريزي ج ١ ص ٩٧ .
(2) كتاب الفترات والقرانات ورقة ٢ نسخة خطية بمكتبتي الخاصة.
(3) المجالس المؤيدية والفترات والقرانات ص ٥٧ والسيرة المؤيدية في القصيدة المسمطة.

فى ذلك إلى بفائدة وعلم سبق إليه ، فلما وقفت على كتابه سألته : هل كان قبل آدم شىء ؟ قال : نعم قد كان قبله ، قلت : فما كان قبله ؟ ومن كان ؟ وكيف كانت هذه الكواكب قبل ذلك وما دلت عليه قبل خلق آدم ؟ فلم يحر جوابا ، وقال : هذا شىء ما ظننت أنى أسأل عنه ، قلت : وهذا الذى تكلفته وجئت به ما سألت عنه أيضا فكيف تكلفته ؛ فعجبت من قوم يتهون فيما لا يعلمون ويتعاطون مالا يدرون(١) فهذا يدل على أن المنصور بالله والمعز لدين الله لم يدعيا الغيب ، ولم يدرسا الكواكب وحركاتها لعلم ما كان وما سيكون ، ويقول جعفر بن منصور اليمن فى كتابه الكشف : « قال الله تعالى : قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك ، وهذا قول نوح عليه السلام الذى ذكر الله فى كتابه عنه ، وكل هذا دليل على أن الأئمة والرسل لا يعلمون إلا ما أعلمهم الله بوحيه وتأييده ونوره وتثبيته عن الله جل ذكره(٢) » فهذا دليل آخر نقدمه فى دفع تهمة ادعاء الفاطميين للغيب .

وقال القاضى النعمان فى كتابه الهمة : « فإنا لا نقول ما قاله الغلاة الضالون المبطلون الصادون عن أولياء الله الدافعون إمامتهم الزاعمون أنهم يعلمون غيب الله وما تخفى صدور عباده ، تعالى الله الذى تفرد بعلم ذلك دون خلقه ، ولم يطلع ما شاء منه إلا من ارتضى من رسله ، وإنما أراد هؤلاء الفسقة . بما نسبوه إلى الأئمة صلوات الله عليهم من ذلك دفع إمامتهم لأنهم لما زعموا أن الأئمة يعلمون الغيب والناس يرونهم لا يعلمون من امور الناس إلا ما ظهر منها لهم لم يكونوا أئمة عند أولئك الفييقة ولا عند من قبل منهم ، إذ لم تكن تلك الصفة التى وصفوهم بها منهم(٣) » . ولعل سبب هذا الادعاء هو تطرف بعض الدعاة فى إسباغ جميع الفضائل على الأئمة حتى جعلوا أئمتهم يعلمون الغيب ، وكان اختلاف الناس فى هذا الأمر مصدر جدل بين المصريين ، وصور لنا الأمير تميم فى إحدى قصائده ذلك كله بقوله يخاطب أخاه الإمام العزيز بالله :

ولما اختلفنا فى النجوم وعلمها ... وفى أنها بالنفع والضر قد تجرى
فمن مؤمن منا بها ومكذب ... ومن مكثر فيها الجدال ولا يدرى

(١) المجالس والمسايرات ورقة ٩٢ ب .
(٢) كتاب الكشف لجعفر بن منصور اليمن (نسخة خطية بمكتبتى) .
(٣) كتاب الهمة فى آداب أتباع الأئمة (طبع دار الفكر العربى) ص ٥٤

ومن قائل تجرى بسعد وأنحس ... وتعلم ما يأتى من الخير والشر
فعلمتنا تأويل ذلك كله ... بما فيه من سر وما فيه من جهر
عن الطاهر المنصور جدك ناقلا ... وكان بها دون البرية ذا خبر
فأخبرتنا أن المنجم كاهن ... بما قال ، والكهان من شيعة الكفر
وأن جميع الكافرين مصيرهم ... إلى النار فى يوم القيامة والحشر
فجمعتنا بعد اختلاف ومرية ... وألفتنا بعد التنافر والزجر
وأوضحت فيها قول حق مبرهن ... يجلى ظلام الشك عن كل ذى فكر
فعدنا الى أن الكواكب زينة ... وفيها رجوم للشياطين إذ تسرى
مسخرة مضطرة فى بروجها ... تسير بتدبير الإله على قدر
وأن جميع الغيب لله وحده ... تبارك من رب ومن صمد وتر
وما علمت منه الأئمة إنما ... رووه عن المختار جدهم الطهر (١)

وإذن نستطيع أن نخالف المؤرخين الذين رموا الفاطميين بادعاء الغيب ، فان هؤلاء المؤرخين استقوا أخبارهم من إشاعات العامة وأقوال بعض الغلاة ولم يحققوا الأمر تحقيقا علميا ، فقصيدة الأمير تميم وأقوال علماء الدعوة تنفى ما جاء به المؤرخون وتبرىء الفاطميين من ادعاء الغيب .

حقيقة اهتم الفاطميون بالنجوم ورصدها ، واستدعى الفاطميون إلى مصر عددا كبيرا من المنجمين ، فعندما دخل المعز لدين الله مصر قدم معه منجمه محمد بن عبد الله بن محمد العتقى (٢) ، ورفع العزيز بالله منزلة المنجم أبى عبد الله بن القلانسى إلى أن توفى سنة ٣٨٦ (٣) ، وأنشأ الحاكم بالمقطم منزلا يرصد فيه النجوم وعمل

(١) ديوان الأمير تميم بن المعز ورقة ٩٣ ب نسخة خطية بمكتبتى الخاصة .
(٢) أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الله بن محمد العتقى المنجم كان متفننا فى عدة علوم والغالب عليه علم النجوم ، ولما وفد بمصر قربه الفاطميون ولم يزل مقربا الى أيام العزيز بالله ولكن حدث أن صنف كتابا فى التاريخ ذكر فيه بنى أمية وبنى العباس وأشاد ببعض محاسنهم وجميل أفعالهم ، وأنام عليه الوزير يعقوب بن كلس وأنهاه إلى العزيز فوبخ العتقى على ذلك وجمع الوزير العلماء إلى داره وذم العتقى أمامهم ، فاضطر العتقى إلى أن يلزم داره كما صودرت أملاكه وتوفى سنة ٣٨٥ هـ وله عدة تصانيف منها كتب فى النجوم وأحكامها وكتاب التاريخ الجامع صنفه إلى بعض أيام العزيز ، وكتاب فى النحو سماه السبب لعلم العرب [راجع أخبار الحكماء للقفطى ص ١٨٧]
(٢) القفطى ص ٢٦٧ .

له منجمه أبو الحسن على بن يونس الزيج الحاكمى فى أربعة مجلدات ، ويقول ابن خلكان عنه إنه لم ير فى الأزياج على كثرتها أطول منه(١) ، ويقول القفطى إن ابن يونس كان يقصد تحرير زيج جامع كبير يدل على أن صاحبه كان أعلم الناس بالحساب (٢) وهذا الزيج هو الذى سار عليه منجمو مصر بعده . ويذهب المقريزى إلى انه عمل للأفضل بن بدر الجمالى مائة تقويم لاستقبال سنة خمسمائة من الهجرة ، وكان منجمو الحضرة يومئذ ابن الحلبى وابن الهيثمى وسهلون وغيرهم يطالق لهم الجارى فى كل شهر والرسوم والكسوة على عمل التقويم فى كل سنة ، فإذا كان فى غرة السنة حمل كل منهم تقويمه فيقابل بينها وبين التقويمات المحضرة من الشام فيوجد بينها اختلاف كثير ، فأنكر ذلك ، فلما كان غرة ثلاث عشرة وخمسمائة عند إحضار التقاويم على العادة جمع المنجمين والحساب وأهل العلم وسألهم عن السبب فى الاختلاف بين التقاويم فقالوا : الشامى يحسب ويعمل على رأى الزيج المهجور المأمونى ، ونحن نعمل على رأى الزيج الحاكمى لقرب عهده ، وبين المتقدم والمتأخر تفاوت وخلف ، ثم أشاروا عليه بعمل رصد مستجد ، وأشار عليه أبو الحسن بن أبى أسامة أن يتولى ذلك القاضى ابن أبى العيش الطرابلسى المهندس العالم . ولكن الأفضل غضب على ابن أبى العيش وولى بدله أبا سعيد بن قرقة الطبيب ، فنشط فى إقامة المرصد وساعده جميع المهندسين وعلماء الحساب والتنجيم إلى أن قتل الأفضل سنة ٥١٥ هـ وولى الوزارة المأمون البطائحى فأحب أن يتم هذا الرصد على أن يعرف بالرصد المأمونى المصحح ، واستمر العمل إلى أن قتل الوزير البطائحى سنة ٥١٨ هـ فوقف العمل به ، وكان من المهندسين الذين اشتركوا فى إقامة هذا الرصد أبو جعفر بن حسنداى والقاضى ابن أبى العيش ، وأبو الحسن على بن سليمان بن أيوب ، وأبو النجا بن سند الساعاتى الاسكندرانى المهندس . وأبو محمد عبد الكريم الصقلى وغيرهم ، ومن الحساب والمنجمين ابن الحلبى وابن الهيثمى وأبو النصر تلميذ سهلون وابن دياب والقلعى وغيرهم (٣) . وكان الخليفة الحافظ مغرما بعلم النجوم وله عدة من المنجمين (٤) . ومما يدل على

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧٥ . (٢) القفطى ص ١٥٥
(٣) المقريزى ج ١ ص ٢٠٦ (٤) المقريزى ج ٢ ص ٢٤٩ .

شدة عناية الفاطميين بحركات الكواكب ما يرويه ابن السنبدى وكان من أهل الخبرة بعمل الاصطرلاب والحركات أن الوزير الجرجرائى تقدم سنة ٤٣٥ فأمر بعمل فهرست لخزانة الكتب وبرم ما أخلق من جلودها وأنفذ القاضى القضاعى وابن خلف الوراق ليتوليا ذلك ، وحضر ابن السنبدى ليشاهد ما يتعلق بصناعته قال : فرأيت من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة آلاف وخمسمائة جزء وكرة نحاس من عمل بطليموس وكرة أخرى من عمل أبى الحسين الصوفى للملك عضد الدولة وزنها ثلاثة آلاف درهم قد اشتريت بثلاثة آلاف دينار ،(١) من هذا كله نستطيع أن ندرك مدى عناية الفاطميين بهذا اللون من العلم ، ولكن الفاطميين لم يكونوا بدعا فى ذلك كله، فهم ليسوا بأول من رصدوا النجوم ، وجعلوا رابطة بين الكواكب العلوية والعالم السفلى وتأثير حركات الكواكب فى الأرض، فهذا كله قديم معروف قبل ظهور الإسلام وبعد الإسلام ، ففى أوائل قيام الدولة العباسية عنى أبو جعفر المنصور بالتنجيم والنجوم ، وترجم له السندهند ، وجاء خلفاء العباسيين واقتدوا به حتى أصبح للتنجيم شأن كبير عندهم وجعلوا للمنجمين رواتب واستشارهم الخلفاء فى أحوالهم الإدارية والسياسية ، وليس ببعيد عن أذهاننا قصة فتح عمورية وقصيدة أبى تمام التى مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

ويقول أستاذنا المرحوم كارلو نالينو إن التنجيم كان له شأن فى قصور الخلفاء والسلاطين وبين العامة ، وظل كذلك الى القرن الماضى فكان فى دخول الحضارة الغربية عامة ومذهب كوبرنيقوس خاصة القضاء المبرم على التنجيم، بيد أنه لا يزال موجوداً فى البلاد التى لم تصب من الحضارة الغربية الا قليلا (٢) . فالفاطميون شاركوا غيرهم من المسلمين فى التنجيم والفلك . وقد يكون من أهم الأسباب التى أدت الى اهتمامهم بالفلك مسألة ابتداء شهر رمضان ، فقد ذكرنا أن الفاطميين جعلوا شهر رمضان ثلاثين يوماً دائماً ، ولم يبدأوا صومهم برؤية الهلال رؤية بصر بل رؤية استبصار ، فرصدوا حركات الأجرام السماوية ليعرفوا مبدأ الشهر على حساب أن

(١) القفطى ص ٢٨٦ .
(٢) مادة تنجيم فى دائرة المعارف الاسلامية .

السنة القمرية ثلثمائة وأربعة وخمسون يوما وخمس يوم وسدس يوم ، وأن ستة أشهر من السنة تامة وستة أشهر ناقصة وأن كل ناقص منها يتلوه تام ، ولشدة الدقة فى هذا التقويم اضطروا الى استخدام عدد كبير من علماء الفلك والتنجيم والحساب والمهندسين وغيرهم من الفلاسفة الذين أقاموا المراصد والزيجات .

ابن الهيثم

ولعل أشهر عالم رياضى شهدته مصر الفاطمية هو الفيلسوف أبو على محمد بن الحسن بن الهيثم وقيل: إنه أبو على الحسن بن الحسن بن الهيثم ، اتفق المؤرخون على أنه بصرى المولد والنشأة ، وإن كانوا لم يذكروا شيئا عن حياته فى شبابه ، فان هذه الفترة من عمره غامضة أشد الغموض ، والذى ذكره المؤرخون أنه رحل إلى الشام وعاش فى كنف أمير من أمرائها ، وأن الأمير أغدق عليه نعمه وعطاياه ، ولكن ابن الهيثم كان يقول للأمير : « يكفينى قوت يومى ، وتكفينى جارية وخادم ، فما زاد على قوت يومى إن أمسكته كنت خازنك وإن أنفقته كنت قهرمانك ووكيلك ، وإذا اشتغلت بهذين الأمرين فمن الذى يشتغل بأمرى وعلمى ؟ فما قبل بعد ذلك الا نفقة احتاج اليها ولباسا متوسطا (١) فان صحت هذه الرواية فهى تدلنا على ما كان عليه ابن الهيثم من انصراف الى العلم ورغبة عن المال خوفا من أن يشغله المال عن العلم ، وكان حريصا أن يتمسك بما يجب أن يكون عليه العالم الفاضل من خلق وترفع عن طلب الماديات ، وأين هم العلماء الآن الذين لا يسعون وراء المال وإن كان ذلك بطرح العلم ؟ وأين العلماء الآن الذين يرفضون من متاع الدنيا ما يفيض عن حاجتهم الضرورية ، فان علماء عصرنا مع شديد الأسف يتكالبون على جمع المال بشتى الطرق والوسائل ، والحقد يملأ قلب أحدهم إذا أثرى له زميل ، او ارتفع قدره . ولعلنا نشاهد الآن ما عليه بعض من نطاق عليه لقب عالم يترك العلم والبحث للجرى وراء اقتناء الدور والأراضى وبكنز الأموال وهو فى غنى عن ذلك كله إن كان عالما حقا قانعا قناعة ابن الهيثم وما تحلى به من خلق .

(١) تاريخ حكماء الاسلام للبيهقى ص ٥١ مخطوط بدار الكتب المصرية .

ويروى البيهقى قصة نذكرها الآن لعلها تجد عند ساداتنا علماء عصرنا رادعا لهم عما هم عليه ، فهى تدل على أن ابن الهيثم لم يأبه المادة ولم يطلب سوى العلم للعلم ، تقول القصة إن أميرا جاءه يطلب العلم عليه ، فقال له ابن الهيثم : أطلب منك للتعليم أجرة وهى مائة دينار فى كل شهر ، فبذل ذلك الأمير ماطلبه ابن الهيثم ، وماقصر فيه ، وأقام عند ابن الهيثم ثلاث سنوات يأخذ عن أستاذه العلم ، فلما عزم الأمير على الانصراف إلى دياره قال له ابن الهيثم : خذ أموالك بأسرها فلا حاجة لى اليها وأنت أحوج اليها منى عند عودتك إلى مقر ملكك ، ومسقط رأسك . وإنى قد جربتك بهذه الأجرة ، فلما علمت أنه لاخطر ولا موقع للمال عندك فى طلب العلم بذلت مجهودى فى تعليمك وإرشادك . واعلم أن لا أجرة ولارشوة ولاهدية فى إقامة الخير ، ثم ودعه وانصرف (١) . وهكذا كان ابن الهيثم يتصف بصفات العالم بما فى هذه الكلمة من معان وأوصاف . وظل ابن الهيثم بالشام حتى سمع به الإمام الحاكم بأمر الله الفاطمى ، وقيل إنه نقل إلى الحاكم أن ابن الهيثم قال : لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال وهو فى طرف الإقليم المصرى (٢) ، فازداد الحاكم شوقا إلى ابن الهيثم للاستفادة من علمه ، وأرسل اليه يرغبه فى الوفود اليه ، فاستجاب ابن الهيثم إلى رغبته وخرج الحاكم نفسه للقائه والترحيب به وقربه اليه وأكرمه ، ثم طلب اليه الحاكم أن ينظر فى أصول النيل عساه ينفذ ما خطر له وهو بالشام ، فرحل ابن الهيثم فى النيل حتى بلغ موضع الشلال الأول قبلى أسوان ، ورأى فى طريقه آثار قدماء المصريين فعلم أنه لايستطيع أن يأتى من الأعمال الهندسية مالم يبلغ القدماء معرفته ، فاظهر ابن الهيثم عجزه وعاد الى القاهرة معتذراً إلى الحاكم (٣) وهذه خصلة أخرى نسجلها لهذا العالم العظيم الخلق الذى خطر له رأى فلما كلف بتنفيذه أبى عليه تواضعه العلمى إلا أن يعترف بعجزه أمام ما وجده من فن القدماء ، ولو لم يكن ابن الهيثم على هذا الخطر من الخلق العظيم لتمادى فى مشروعه ولكلف الدولة آلاف الدنانير ولاستفاد هو ايضا إن كان على نمط علماء عصرنا ،

(١) البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ص ٥١ وما بعدها نسخة خطية بدار الكتب المصرية
(٢) القفطى ص ١١٤
(٣) القفطى ص ١١٥

فأحرانا وقد مضى نحو ألف عام على وفاة ابن الهيثم أن نتمثل به فى قناعته وتواضعه وعلمه . وكان من المتوقع ان يغضب الحاكم بأمر الله على ابن الهيثم ، ولكن الإمام الحاكم حفظ له مكانته وعرف قدر خلقه وعلمه ، فولاه بعض الدواوين ، وقبل ابن الهيثم العمل رهبة لا رغبة . ثم خاف بطش الحاكم بعماله وتقلباته مع من حوله ، فنزوات الحاكم وتسرعه فى إراقة الدماء أو التعذيب أمر عرف به هذا الإمام ، فاضطر ابن الهيثم إلى أن يتصنع الجنون والخبال ، فتركه الحاكم فى منزله وجعل له من يخدمه ويقوم بمصالحه (١) فاعتكف ابن الهيثم حتى بلغه وفاة الحاكم سنة ٤١١ هـ واطمأن من نزواته على نفسه ، فأظهر العقل وعاد إلى ما كان عليه ، واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر ، وأقام بها متنسكا ، واشتغل بالتصنيف والتعليم ونسخ الكتب القديمة ، فكان يتعيش من نسخ ثلاثة كتب كل سنة هى إقليدس والمتوسطات والمجسطى ، ويبيعها بمائة وخمسين دينارا هى مؤونته لسنة (٢) ، ولم يزل على ذلك إلى أن توفى فى حدود سنة ثلاثين وأربعمائة .

اتفق المؤرخون الذين ترجموا لابن الهيثم على أنه كان عالما متقنا لعلوم كثيرة فيقول القفطى عنه : « ابن الهيثم صاحب التصانيف والتآليف المذكورة فى علم الهندسة ، كان عالما بهذا الشأن متقنا له متفننا فيه قيما بغوامضه ومعانيه مشاركا فى علوم الأوائل ، أخذ عنه الناس واستفادوا منه » (٣) . ويقول البيهقى : « الحكيم بطليموس الثانى أبو على بن الهيثم ، كان تلو بطليموس فى العلوم الرياضية والمعقولات ، وتصانيفه أكثر من أن تحصى » (٤) ، ويذهب ابن أبى أصيبعة إلى أن ابن الهيثم كان متفننا فى العلوم لم يماثله أحد من أهل زمانه فى العلم الرياضى ولا يقرب منه (٥) . ويقول المستشرق دى بور : نجد فى القاهرة فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس من الهجرة) رجلا من أعظم الرياضيين والطبيعيين فى العصور الوسطى هو أبو على محمد بن الحسن بن الهيثم (٦) . ويسرد القفطى أسماء سبعة وستين كتابا من تآليف ابن الهيثم ، أما ابن أبى أصيبعة فذكر

(١) القفطى ص ١١٥ وابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٩٠

(٢) القفطى ص ١١٥ وابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٩٠ (٣) القفطى ص ١١٤ (٤) تاريخ حكماء الاسلام ص ٥١ (٥) ابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٩٠ (٦) تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ١٩٠ ترجمة الدكتور أبو ريدة .

له ما يقرب من مائتى كتاب ، خلا رسائل كثيرة ، فقد ألف ابن الهيثم فى الهندسة والطبيعيات والفلك والحساب والجبر وفى الطب والمنطق والأخلاق . فلا غرو إذا رأينا الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية تحتفل بذكرى مرور تسعمائة سنة على وفاة ابن الهيثم ، وقد أظهر أعضاء هذه الجمعية الثروة العلمية التى خلفها ابن الهيثم ، ونوهوا بمكانته فى هذه الفنون التى نبغ فيها وغرض لها فى مصنفاته ، فالأستاذ مصطفى نظيف بك قال : « إن ابن الهيثم قلب الأوضاع القديمة ، وأنشأ علما جديدا ، هو قد أبطل علم المناظر الذى وضعه اليونان ، وأنشأ علم الضوء الحديث بالمعنى وبالحدود وبالأصول التى نراها الآن ، وإن عد نيوتن بحق رائد علم الميكانيكا فى القرن السابع عشر ، فابن الهيثم خليق بأن يعد بحق رائد علم الضوء فى مستهل القرن الحادى عشر الميلاد » (١) .

وقال الأستاذ محمد رضا مدور بك : « إذا أردنا أن نقارن ابن الهيثم بعلماء عصرنا الحاضر فلا أكون مغاليا إذا اعتبرت ابن الهيثم فى مرتبة تضاهى مرتبة العلامة أنيشتين فى عصرنا هذا » (٢) .

ويقول الأستاذ الدكتور مشرفة باشا : « المطلع على كتاب ابن الهيثم فى حل شكوك إقليدس يلمس فيـــه دقة المؤلف فى التفكير وتعمقه فى البحث واستقلاله فى الحكم ، كما يتضح له صحة إدراك ابن الهيثم لمكان الهندسة الإقليدسية من العلوم الرياضية على أنها دراسة منظمة للعلاقات والمقادير المكانية من ناحية كونها علاقات أو مقادير ، وبغير نظر إلى ما يمكن أن تدل عليه من موجودات . فابن الهيثم فى هذا الكتاب رياضى بحت بأدق ما يدل عليه هذا الوصف من معنى وأبلغ ما يصل اليه من حدود » (٣) . فهذا كله قول مختصين يستطيعون الحكم على مكانة ابن الهيثم فى العلوم الرياضية والطبيعية ، ولكن ابن الهيثم كان فى مصر الفاطمية فوجدت تعاليمه وآراؤه ما وجدت مصر الفاطمية كلها بسبب تعصب من أتى بعد الفاطميين ، وقد لاحظ الأستاذ ديبور إهمال العلماء له فقال: إنه لم يكن لدعوة ابن الهيثم ثمرة كبيرة فى الشرق ، ولا يعرف من تلاميذه غير واحد يعد من الفلاسفة هو أبو الوفاء

(١) الاجتماع التخليدى لذكرى ابن الهيثم ص ٢٧

(٢) المصدر السابق ص ٣١

(٣) المصدر السابق ص ٤

مبشر بن فاتك القائد (١) ولكنى أرى خلاف ما رآه ديبور فقد كان لابن الهيثم تلاميذ كثيرون، وأنهم حافظوا على تعاليمه ودعوته، ولكن كما قلت كان التعصب الدينى عند الأيوبيين والعباسيين قويا حتى إنهم لم يفرقوا بين عقيدة الفاطميين أعدائهم وبين العلوم الرياضية، فكل من اتصل بالفاطميين فهو من زمرتهم وكل عالم من علماء مصر الفاطمية متهم بالخروج عن الدين ويجب أن تحرق كتبه ولا تتبع تعاليمه. وهذا ما حدث لابن الهيثم وغير ابن الهيثم من العلماء.

أما مبشر بن فاتك الذى ذكر أنه تلميذ ابن الهيثم فهو الأمير محمود الدولة أبو الوفاء المبشر بن فاتك وكان من أعيان أمراء مصر وأفاضل علمائها، دائم الاشتغال محباً للفضائل والاجتماع بأهلها ومباحثاتهم والانتفاع بما يقتبسه من جهتهم، وكان ممن اجتمع به منهم، وأخذ عنه كثيرا من علوم الهيئة والعلوم الرياضية أبو على محمد ابن الهيثم (٢). ويقول أمية بن أبى الصلت إنه أدرك أبا الوفاء وأخذ عنه شيئاً من المنطق وتخصص به وتميز عن أضرابه، وأن أبا الوفاء أدرك أبا كثير بن الزقان تلميذ أبى الحسن على بن رضوان وقرأ عليه بعض كتب جالينوس، ثم نصب نفسه لتدريس جميع كتب المنطق وجميع كتب الفلسفة الطبيعية والإلهية وشرح بزعمه وفسر ولخص (٣)، وكان أبو الوفاء أحد أدباء مصر العارفين بالأخبار والتواريخ، وكان فى أيام الظاهر والمستنصر وله كتاب سيرة المستنصر فى ثلاثة مجلدات، وله تواليف فى علوم الأوائل كما كان حريصا على اقتناء الكتب فجمع منها مالا يحصى عدده كثرة (٤). ويقول: القفطى إنه قرأ على المبشر فضلاء زمانه فسادوا (٥)، ويذكر من تلاميذه الطبيب سلامة بن رحمون اليهودى الذى ناظر أمية بن أبى الصلت (٦).

ومن الرياضيين الذين كانوا فى هذا العصر رزق الله المنجم النحاس الذى وصفه أمية بقوله: «وله فى فروع النجامة بعض دربة وبتجرباتها بعض خبرة، وهو شيخ أكثر المنجمين بمصر وكبيرهم الذى علمهم السحر، فجميعهم إليه منسوب

(١) تاريخ الفلسفة ص١٩٤ (٢) ابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٩٨
(٣) الرسالة المصرية ص ٧٧ نسخة خطية بدار الكتب المصرية.
(٤) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٧٧ (طبع رفاعى) (٥) القفطى ص ١٧٦.
(٦) القفطى ص ١٤٢ وابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ١٠٦.

وفى جريدته مكتوب وبفضله معترف» (١). وأبو على المهندس المصرى الذى كان قيما بعلم الهندسة، وكان يعيش فى أوائل القرن السادس الهجرى، وكان مع ذلك أديبا شاعرا، ويظهر من شعره أنه متأثر بدراسته الهندسية فهو يقول مثلا:

تقسم قلبى فى محبة معشر ... بكل فتى منهم هواى منوط
كأن فؤادى مركز وهم له ... محيط وأهوائى لديه خطوط (٢)

وقوله أيضا:

إقليدس العلم الذى يحوى به ... ما فى السماء معا وفى الآفاق
تزكو فوائده على إنفاقه ... يا حبذا زاك على الإنفاق
هو سلم وكأنما أشكاله ... درج إلى العلياء للطراق
ترقى به النفس الشريفة مرتقى ... أكرم بذاك المرتقى والراقى (٣)

وظهر فى مصر فى هذا العصر عدد كبير من الأطباء، والطب كما نعلم كان فى ذلك العصر من علوم الفلسفة، وكثرت فى مصر الفاطمية مناظرات الأطباء ومجادلاتهم، فكان ذلك من أسباب ازدهار هذا النوع من العلم واتساع أفقه وكثرة التآليف حوله، وقرب الفاطميون الأطباء وأغدقوا عليهم من نعمهم وعطاياهم خلاف ما أوقفوه لهم من مرتبات شهرية، فمن ذلك ما يروى أن منصور ابن مقشر النصرانى طبيب العزيز بالله اعتل سنة ٣٨٥ ﻫ وتأخر عن الركوب مع الإمام، فلما تماثل من علته كتب إليه العزيز رقعة بخطه نسختها:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

طبيبنا سلمه الله.

سلم الله الطبيب وأتم النعمة عليه، وصلت إلينا البشارة بما وهبنا الله من عافية الطبيب وبرئه، والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقنا نحن من الصحة فى جسمنا، فتمم الله عليك النعمة، وكمل لنا صحتك وعجل بها، ولا أشمت بنا فيك عدوا ولا حاسدا، ورد كيد من يريد المكيد فى نحره، وابتلاه بما لا طاقة له، بعد الكفاية فيك، وإقالتك العثرة، ورجوعك إلى أفضل ما عودك، وصلى الله على خيرته من خلقه محمد النبى وآله وسلم تسليما (٤)».

(١) القفطى ص ١٢٧. (٢) القفطى ص ٢٦٧ (٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق ص ٢١٩

فمثل هذه الرسالة لا تصدر إلا من صديق حميم يخلص لصاحبه ويحب له الخير ، فما بالك إذا صدرت من إمام مسلم إلى طبيبه المسيحي ، فالإمام عرف لطبيبه قدرته فى فنه وعلو كعبه فى صناعته ، فقربه واتخذه صديقا ، وكذلك يقال : إن المعز لدين الله اصطنع لنفسه الطبيب موسى بن العيزار ، وكان طبيبا عالما بتركيب الأدوية وطبائع المفردات ، وهو الذى ألف شراب الأصول [١] .

ووفد على مصر فى عهد المعز والعزيز الطبيب محمد بن أحمد بن سعيد التميمى وهو من بيت المقدس ، واشتهر بخواص العقاقير وتركيب الأدوية ، ولقى الأطباء بمصر وحاضرهم وناظرهم ، واختلط بأطباء الخاصة القادمين من المغرب فى صحبة المعز والمقيمين بمصر من أهلها . ويقول القفطى : إنه كان منصفا فى مذكراته ، غير راد على أحد إلا بطريق الحقيقة ، وصنف للوزير يعقوب بن كلس كتابا كبيرا فى عدة مجلدات سماه : « مادة البقاء ، بإصلاح فساد الهواء ، والتحرز من ضرر الأوباء » . وتوفى التميمى بمصر فى حدود سنة ٣٧٠ هـ [٢] .

ومن أشهر الأطباء فى هذا العصر سلامة بن رحمون أبو الخير اليهودى المصرى الذى قال عنه أمية بن أبى الصلت : « وأنبه من رأيته من أطباء مصر وأدخلهم فى عداد الأطباء رجل من اليهود يدعى أبا الخير سلامة بن رحمون فإنه لقى أبا الوفاء المبشر بن فاتك وأخذ عنه شيئا من صناعة المنطق تخصص به وتميز عن أضرابه وأدرك الكثير الوقائى تلميذ أبى الحسن بن رضوان وقرأ عليه بعض كتب جالينوس ، ثم نصب نفسه لتدريس كتب المنطق جميعا وجميع كتب الفلسفة الطبيعية والإلهية وشرح بزعمه وفسر ولخص ، ولم يكن هنالك فى تحصيله وتحقيقه ، بل كان يكثر كلامه فيضل ، ويسرع جوابه فيزل [٣] ، وناظره أمية ، ولكن إجابات سلامة لم تجد منه قبولا ، فرماه بسوء التصور والفهم [٤] .

ولعل من أشهر أطباء هذا العصر هو أبو الحسن على بن رضوان ، ولد بالجيزة وكان أبوه فرانا ، ولما بلغ السادسة من عمره أسلم نفسه للمعلمين وانتقل إلى مدينة مصر وهو فى العاشرة لطلب العلم . وبدأ فى دراسة الطب وغيره من علوم الفلسفة وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، ولفقره وحاجته إلى ما يستعين به فى الحياة اضطر إلى أن يتكسب بالطب مرة وبالتنجيم مرة أخرى وبالتعليم كذلك ، وفى الوقت نفسه

(١) القفطى ص ٢١٠ . (٢) القفطى ص ٧٤ و ٧٥ .
(٣) القفطى ص ١٤٢ (٤) المصدر السابق.

كان يواظب على طلب العلم ويجد فى التحصيل حتى بلغ الثانية والثلاثين من سنى حياته ، إذ بدأ يشتهر بالطب ، وكفاه ما كان يكسبه عن طريقه ، بل تفوق على غيره من الأطباء المعاصرين ، وصار له ذكر حسن فى البلاد . وسمع به الحاكم بأمر الله فاستخدمه وجعله رئيسا على سائر المتطببين ، فاتسعت حاله ، واقتنى الأملاك فى المدينة ، كما ذاع صيته فى البلاد الإسلامية ، حتى إن الأطباء فيها كانوا يناظرونه مراسلة ، ويطلبون ما عنده من علم الطب ، فممن راسله الطبيب أبو الفرج جرجس بن يوحنا المعروف باليبرودى الدمشقى الذى راسل ابن رضوان وغيره من الأطباء المصريين .

ويقول ابن أبى أصيبعة عنه : وله مسائل عدة إليهم طبية ومباحثات دقيقة ، وكتب بخطه شيئا كثيراً جدا من كتب الطب ، ولا سيما من كتب جالينوس وشروحها وجوامعها [١] . ويفهم من إحدى رسائل ابن رضوان أن اليبرودى زار مصر ، وكان كثير الاختلاط به للمناظرة والمناقشة فى المسائل الطبية [٢] . كذلك ناظره الطبيب أبو الحسن المختار بن الحسن المعروف بابن بطلان النصرانى البغدادى ، فكان بين الطبيب المصري والطبيب البغدادى مراسلات عجيبة ، ولم يكن أحد منهما يؤلف كتابا ولا يبتدع رأيا إلا ويرد الآخر عليه ويسفه رأيه فيه . ثم رأى ابن بطلان البغدادى أن يفد على القاهرة لمشاهدة زميله ومناظره ابن رضوان ، فدخل مصر سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ، وأقام بها ثلاث سنوات ، وكان وجوده بالقاهرة المعزية من أسباب شدة المناقشات والمناظرات العلمية بين الطبيبين ، وخرج ابن بطلان من مصر ووضع كتابا تضمن الوقائع التى كانت بينه وبين منافسه ابن رضوان ورد ابن رضوان عليه [٣] . ويقول ابن أبى أصيبعة فى الموازنة بين الطبيبين ابن رضوان المصرى وابن بطلان البغدادى : كان ابن بطلان أعذب لفظا وأكثر ظرفا وأميز فى الأدب وما يتعلق به ، وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها [٤] . وحفظ لنا خمس رسائل لهذين الطبيبين فى المناظرة بينهما وطبعت هذه الرسائل بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول .

(١) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٤١ .
(٢) خمس رسائل لابن بطلان البغدادى وابن رضوان المصرى ص ٤٣ (مطبوعات كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول) .
(٣) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٠١ (٤) عيون الأنباء ج ١ ص ٢٤٢ .

وكان ابن رضوان معتزا بعلمه ومهارته فى فنه فكان يرد على جميع أطباء عصره وغيرهم ، فكان كثير الرد على آراء من سبقه من الأطباء ، وكانت عنده سفاهة فى بحثه وتشنيع على من يريد مناقشته ، وأكثر ذلك عند ما كان يرد على حنين بن إسحق وعلى أبى الفرج بن الطيب أستاذ ابن بطلان ، وعلى أبى بكر محمد بن زكريا الرازى (١) وكان ابن رضوان دميم الخلقة مشوه الصورة أسود اللون . ومن تآليفه مقالة فى من عيره بقبح الخلقة ، وبين فى هذه الرسالة أن الطبيب الفاضل لا يجب أن يكون جميل الوجه ، وكثيرا ما كان ابن بطلان البغدادي يتحدث عن قبح شكل ابن رضوان المصرى حتى إنه قال فى الرسالة التى وسمها « بوقعة الأطباء » يصف ابن رضوان :

فلما تبدى للقوابل وجهه   نكصن على أعقابهن من الندم
وقلن وأخفين الكلام تسترا   ألا ليتنا كنا تركناه فى الرحم

وكان يلقبه بتمساح الجن لشدة قبح منظره وسفاهة لسانه (٢) .

وتغير عقل ابن رضوان فى أواخر أيام حياته ، وقيل إن السبب فى ذلك أنه فى إبان المحنة العظمى التى حلت بمصر أيام حكم المستنصر الفاطمى والتى اشتدت وعظمت من سنة سبع وأربعين وأربعمائة كان ابن رضوان قد أخذ يتيمة رباها وكبرت عنده ، فلما كان فى بعض الأيام خلا لها المنزل ، وكان قد ادخر أشياء نفيسة ومن الذهب نحو عشرين ألف دينار ، فأخذت الجميع وهربت ولم يظفر منها على خبر ، فتغيرت أحواله منذ ذلك الوقت ، وتوفى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ، وترك من مؤلفاته وتصانيفه أكثر من مائة كتاب .

كان لابن رضوان أثر كبير فى الحياة العقلية بمصر . فهذه المناظرات الكثيرة التى كانت بينه وبين غيره من الأطباء . وهذه الردود المختلفة التى كتبها فى الرد على الأطباء السابقين كان لها أثرها فى تنبيه الأطباء والفلاسفة إلى آراء ابن رضوان وآراء خصومه ، وكان لابن رضوان تلاميذ أخذوا عنه علمه وطبه ، فمن هؤلاء التلاميذ الطبيب الإسرائيلى افرائيم بن الزفان وأبو كثير بن الحسن بن إسحق ، وكان من الأطباء المشهورين بمصر ، واستخدمه الأئمة ، وكان كثير الاهتمام بجمع الكتب ونسخها حتى كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها ، وكان عنده النساخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفايتهم منه ، ومن جملة هؤلاء النساخ

(١) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٠١   (٢) عيون الأنباء ج ٢ ص ٢٤٢ .

محمد بن سعيد بن هشام الحجرى المعروف بابن ملساقة ، وقيل إن أحد وراقى العراق أراد شراء كتب من افرائيم ، فسمع الأفضل بن بدر الجمالى بذلك ، فأمر بفسخ هذه الصفقة وأن تبقى الكتب فى مصر ولا تنتقل إلى بلاد أخرى ، وأمر بشرائها وإضافتها إلى خزانة الأفضل ، وكتب عليها ألقابه ، ويقال إن افرائيم خلف ما يزيد على عشرين ألف مجلد (١) .

وصنف الطبيب أبو جعفر يوسف بن حسداى شرحا لكتاب الإيمان من كتب أبقراط . سماه الشرح المأمونى ، نسبة إلى الوزير المأمون بن البطائحى .

من هذه الأمثلة التى ذكرناها عن حركة العلوم الطبية فى مصر ندرك مقدار نشاط هذه العلوم وازدهارها إبان حكم الفاطميين ، وأن مصر استطاعت فى هذا العصر أن تنافس غيرها من الأقطار الإسلامية فى مضمار هذا العلم ، فوفد عليها عدد من الفلاسفة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر أمية بن أبى الصلت الأندلسى جاء مصر سنة ٤٨٩ هـ وظل بها إلى أن نفاه الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٥٠٩ هـ ، وكان أمية عالما فى فنون مختلفة شاعرا لخلا ، وأديبا ممتازا بجانب علومه الفلسفية ، سجنه الوزير الأفضل فصنف وهو بالسجن رسالة العمل بالاصطرلاب وكتاب الوجيز فى علم الهيئة وكتاب الأدوية المفردة ، وكتابا فى المنطق ، وآخر سماه الانتصار فى الرد على ابن رضوان فى رده على حنين بن إسحق ، وكان له تلاميذ بمصر نذكر منهم أبا عبد الله الشامى وسليمان بن الفياض الاسكندرانى ، وروى عنه ظافر الحداد وغيرهم ، وسنتحدث عن أمية فى باب الشعر من هذا الكتاب .

ومن أشهر الفلاسفة الذين تحدثوا فى الإلهيات فى هذا العصر أحمد حميد الدين ابن عبد الله بن محمد الكرمانى ، ويعرف فى الدعوة الاسماعيلية بحجة العراقين ، وفد على مصر فى عهد الحاكم بأمر الله . فهو يقول فى رسالته : « مباسم البشارات بالإمام الحاكم » : « فإنى لما وردت الحضرة النبوية مهاجرا ، وللسدة العلوية زائرا ، ورأيت السماء قد أظلت بسحاب عميم ، والناس تحت ابتلاء عظيم . . . » (٢) ويخيل إلى أنه وفد على مصر عقب ثورة الدرزى ، وظل بمصر نحوا من عشر سنوات ، وصنف بها عدة رسائل منها « الرسالة الكافيــة » فى الرد على الشريف الهارونى الحسنى ، والرسالة الواعظة فى الرد على الفرغانى ابن الأخرم أحد دعاة الدرزية ، ورسالة

(١) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٠٥ (طبعة مصر ١٨٩٢) .
(٢) رسائل الكرمانى (نسخة خطية بمكتبتى)

وكما كان الفلاسفة يجتمعون للمباحثة والمذاكرة فى فنونهم ، كذلك فعل علماء النحو واللغة ، فقد قيل إن جنادة الهروى والحافظ عبد الغنى بن سعيد ، وأبا إسحق على بن سليمان المعرى النحوى ، كانوا يجتمعون فى دار العلم بالقاهرة ، وتقوم بينهم مباحثات ومذاكرات (١) . وبلغ من اهتمام الفاطميين بعلوم اللغة والنحو أنهم جعلوا فى ديوان الإنشاء لغويين ونحويين يراجعون ما كان يصدر عن الكتاب من رسائل ، حتى لا يظهر فى كتابات الكتاب لحن فى اللغة أو خطأ فى النحو . وسنتحدث عن ذلك فى باب الكتابة الفنية .

ومن أشهر العلماء الذين ظهروا فى هـــذا العصر ، أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمى المعروف بالقزاز النحوى ، كان فى خدمة العزيز بالله الفاطمى ، ويقال إن العزيز تقدم إليه أن يؤلف كتابا يجمع فيه سائر الحروف التى أشار اليها النحويون فى قولهم إن الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، وأن يقصد فى تأليفه إلى ذكر الحرف الذى جاء لمعنى ، وأن يجرى ما ألفه من ذلك على حروف المعجم ، وهو لون جديد لم يسبق إليه أحد من النحاة ، فقام القزاز بجمع مواد هذا الكتاب ، فبلغ جملة ماجمعه ألف ورقة . ويروى ابن خلكان عن أبى على الحسن بن رشيق فى كتاب الأنموذج أن القزاز فضح المتقدمين ، وقطع ألسنة المتأخرين ، وكان مهيبا عند الملوك والعلماء وخاصة الناس ، محبوبا عند العامة ، قليل الخوض إلا فى علم دين أو دنيا ، يملك لسانه ملكا شديدا (٢) . ولأبى عبد الله القزاز كتاب الجامع فى اللغة ، وهو من الكتب المختارة المشهورة ، وتوفى سنة اثنتى عشرة وأربعمائة بالقاهرة .

ومن العلماء الذين شاهدتهم مصر فى العصر الفاطمى : على بن أحمد المهلبى ، فقد كان إماما فى النحو واللغة ، ورواية الأخبار وتفسير الأشعار ، وكان من جلساء المعز والعزيز المقربين إليهما ، وكان المهلبى قبل ذلك مقربا إلى كافور الأخشيدى وممن عاصر المتنبى فى مصر ، وكانت بينه وبين المتنبى بعض محاورات علمية . يروى ياقوت أن المهلبى قال : وقع بينى وبين المتنبى فى قول العدوانى :

يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى ... أضربك حتى تقول الهامة اسقونى

(١) بغية الوعاة للسيوطى ص ٢١٣ (٢) ابن خلكان ج ١ ص ٥١٤ .

وذلك أن المتنبى قال : إن الناس يغلطون فى هذا البيت ، والصواب اشقونى من شقات الرأس بالمشقاة وهو المشط . فقلت له : أخطأت فى وجوه : أحدها أنه لم يرو كذلك ، والآخر أنه يقال شقأت بالهمزة ، وأيضا فإنى أظنك لا تعرف الخبر فيه ، وما كانت العرب تقول فى الهامة ، إنها إذا لم يثأر بصاحبها لا تزال تقول : اسقونى ، فإذا ثأروا به سكن كأنه شرب ذلك الدم (١) .

وللمهلبى كتاب فى الرد على كتاب المقصور والممدود لابن ولاد المصرى (٢) ، وقيل: إن المهلبى أخذ مادة هذا الكتاب عن المتنبى ونسبها إلى نفسه . ويروى كثير من المصريين عن المهلبى ، ومن أشهر تلاميذه أبو يعقوب يوسف بن يعقوب النجيرمى وابنه بهزاد وعبد الرحمن بن إسماعيل العروضى نزيل مصر وغيرهم . وتوفى المهلبى سنة ٣٨٥ هـ (٣) .

ومن أشهر علماء مصر فى ذلك العصر أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ الذى عد إمام عصره فى النحو ، وهو أحد الذين عهد إليهم تصحيح رسائل الكتاب فى ديوان الإنشاء ، يروى ابن خلكان أن الخطيب التبريزى دخل مصر فى عنفوان شبابه وقرأ عليه بها الشيخ أبو الحسن بن بابشاذ النحوى وغيره علوم اللغة ، ثم عاد إلى بغداد (٤) . ألف من الكتب كتاب المقدمة المحسنية فى فن العربية ويوجد من هذا الكتاب ثلاث نسخ خطية بدار الكتب المصرية ، وله شرح على هذه المقدمة ، وشرح الجمل للزجاجى ، وشرح كتاب الأصول لابن السراج ، وله فى النحو كتاب بلغ خمس عشرة مجلدة سماها النحاة بعده تعاليق الغرفة ، ذلك أن تلاميذه من بعده احتفظوا بهذا الكتاب عند من تصدر موضع ابن بابشاذ فى حلقته بجامع عمرو ، فقد انتقلت إلى تلميذه عبد الله محمد بن بركات السعدى النحوى اللغوى ، ثم انتقلت بعده إلى صاحبه أبى محمد عبد الله بن برى النحوى ، ثم بعده إلى أبى الحسين النحوى المنبوز بشاط الفيل ، فكان كل واحد من هؤلاء العلماء يهبها إلى أخص تلاميذه ويعهد إليه بحفظها . ولقد اجتهد جمـــاعة من الطلاب فى نسخها فلم يتمكنوا من ذلك . وهكذا انتفع

(١) معجم الأدباء ج ١٢ ص ٢٢٤ (طبعة رفاعى) .
(٢) راجع كتاب أدب مصر الإسلامية ص ٦٩ وما بعدها .
(٣) راجع بغية الوعاة ص ٣٢٨ ومعجم الأدباء ج ١٢ ص ٢٢٤ ، وأنباء الرواة ج ٤ ص ٤٦٤ . (٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٣٣ .

الناس بعلم ابن بابشاذ وبتصانيفه ، وقد تزهد فى أواخر أيامه ، واستقال من عمله بديوان الانشاء ، وانقطع فى غرفة بجامع عمرو ، فخرج ذات ليلة من الغرفة إلى سطح الجامع فزلت قدمه فسقط وأصبح ميتا فى اليوم الثالث من رجب سنة تسع وستين وأربعمائة (١) .

ومن لهم أثر يذكر من علماء النحو واللغة ، على بن جعفر بن على السعدى المعروف بابن القطاع الصقلى ، لم يكن مصريا ، ولكنه من صقلية ، فيها شب وقرأ على علمائها كابن البر أبى بكر الصقلى اللغوى وأمثاله ، ثم رحل عن صقلية لما أشرف الفرنج على تملكها فى حدود سنة خمسمائة ، فوفد على مصر متخذها وطنا له ، ولقيه المصريون بالحفاوة وبالغوا فى إكرامه وخصه الوزير الأفضل بن بدر الجمالى بالرعاية وجعله مؤدبا لولده فى علوم العربية وفنون الأدب ، وقد روى ابن القطاع عن أبى بكر الصقلى كتاب الصحاح للجوهرى ، وعن طريق ابن القطاع اشتهرت رواية هذا الكتاب فى الآفاق ، وله حواش على كتاب الصحاح اعتمد عليها محمد بن برى النحوى المصرى فيما تكلم عليه من حواشى الصحاح ، ولابن القطاع عدة تصانيف أخرى منها كتاب الدرة الخطيرة فى شعراء الجزيرة — أى جزيرة صقلية — اشتمل على مائة وسبعين شاعرا وعشرين ألف بيت شعر ، وكتاب الأسماء فى اللغة ، جمع فيه أبنية الأسماء كلها ، وكتاب الأفعال هذب فيه أفعال ابن القوطية وأفعال ابن طريف وغيرهما فى ثلاث مجلدات . وله تاريخ صقلية ، وتوفى فى صفر سنة خمس عشرة وخمسمائة ودفن بقرب ضريح الشافعى (٢) .

ولا يتسع المجال هنا للحديث عن جميع النحاة واللغويين الذين نبغوا فى مصر فى العصر الفاطمى أمثال محمد بن أحمد البازودى ، ومحمد بن أحمد العميدى ، ومحمد بن أحمد الجرجانى ، ومحمد بن الحسين بن عمير اليمنى صاحب أخبار النحويين ومضاهاة أمثال كليلة ودمنة ، وهو أستاذ القاضى القضاعى ، وأمثال محمد بن حميد بن حيدرة ومحمد بن على بن محمد أبو سهل الهروى الذى إليه كانت رياسة المؤذنين بجامع عمرو

(١) راجع النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٠٥ وابن خلكان ج١ ص ٢٣٥ وبغية الوعاة ص ٢٧٢
(٢) راجع بغية الوعاة ص ٢٣١ وابن خلكان ج ١ ص ٣٣٩ ، ومعجم الأدباء ج ١٢ ص ٢٧٩ (طبعة رفاعى) .

وأحمد بن مطرف المتوفى سنة ٤١٣ الذى ولى قضاء دمياط . وله تصانيف أدبية ولغوية . كما كان شاعرا له ديوان شعر ، وهو الذى أجاز لأبى عبد الله الصورى الحافظ .

وبجانب هؤلاء العلماء المصريين أو الذين استوطنوا مصر من البلاد الأخرى ، نرى عددا كبيرا من العلماء الذين كانوا يرحلون إلى الأقطار العربية فى طلب العلم أو التكسب به ، وفدوا على مصر وأقاموا بها ردحا من الزمان ثم تركوها إلى بلادهم أو إلى غيرها من البلدان ، ولكنهم تركوا فى مصر تلاميذ أخذوا عنهم علومهم ، كما استفادوا هم من علماء مصر ، نذكر من هؤلاء العلماء محمد بن عبد الله بن محمد بن ظفر المكى ، ولد بمكة وقدم مصر فى صباه ورحل عنها إلى إفريقية وأقام بالمهدية مدة طويلة ، انتقل بعدها إلى صقلية ومنها إلى مصر ، ثم وفد على حلب وشاهد هناك الفتنة الكبرى بين الشيعة والسنة ، وفى هذه الفتنة نهبت كتبه فقصد حماة وأقام بها إلى أن مات سنة ٥٦٥ ، وكان لغويا أكثر منه نحويا ، وله من الكتب ينبوع الحياة فى التفسير ، التفسير الكبير ، الاشتراك اللغوى ، الاستنباط المعنوى ، القواعد والبيان فى النحو ، الرد على الحريرى فى درة الغواص ، المطول فى شرح المقامات ، وغيرها من الكتب (١) .

ومحمد بن أبى الفرج الكنانى الصقلى المعروف بالذكى النحوى ، كان من صقلية وطاف العالم الإسلامى حتى وصل إلى الهند ، وكان من أئمة النحو ، وتوفى بأصبهان سنة ٥١٦ هـ (٢) .

ومحمد بن يحيى مزاحم أبو بكر الخزرجى تلميذ القاضى القضاعى وراويته ، وكان نهاية فى علوم العربية ، وألف كتاب الناهج للقراءات بأشهر الروايات . وأصله من لشبونة ، ورحل إلى مصر حيث أقام بها ردحا من الزمن ، ثم عاد إلى مدينة بطليوس يحدث فيها بما رواه عن المصريين ، وتوفى بها سنة ٥٠١ هـ (٣) .

وإبراهيم بن محمد بن أحمد الهاشمى ، وهو كوفى رحل إلى الشام ومصر ثم عاد إلى موطنه وبه توفى فى شوال سنة ٤٦٦ ، وكان له حظ من الشعر وتفوق فى النحو

(١) راجع بغية الوعاة ص ٥٩ (٢) البغية ص ٩٠ .
(٣) البغية ص ١١٥ .

واللغة ، وهو صاحب القصيدة التى أنشدها وهو فى مصر ، ومنها .

فإن تسأليني كيف أنت فإننى ... تنكرت دهرى والمعاهد والقربى
وأصبحت فى مصر كما لا يسرنى ... بعيدا عن الأوطان منتزحا غربا
وإنى فيها كامرىء القيس مرة ... وصاحبه لما بكى ورأى الدربا
فان أنج من بابى زويله فتوبة ... إلى الله ألا امس خنى لها تربا

ومن الطريف أن هذا العالم الشاعر حدثنا بأنه قال هذه الأبيات وكان حصل له من المستنصر بالله خمسة آلاف دينار مصرية(١) ومع ذلك فإنه كان يشعر بشدة الغربة عن بلاده

ونذكر من هؤلاء العلماء الرحالة عبد الله بن أبى سعيد الأندلسى النحوى الذى كانت له حلقة فى جامع عمرو للإقراء وتوفى سنة ٥٢٠ هـ (٢) . وعبد الجبار بن محمد بن على المعافرى اللغوى الذى قدم مصر وأقرأ بها العربية ، ورحل إلى بغداد حيث ألقى بها علومه وهو شيخ ابن برى المصرى (٣) . ومنهم الحسن بن الوليد القرطبى المعروف بابن العريف النحوى . فقد خرج إلى مصر ورأس فيها ومات سنة سبع وستين وثلثمائة (٤) ، كذلك نذكر نصر بن صدقة القابسى النحوى ، قدم مصر وأخذ عن علمائها ثم توجه إلى معرة النعمان ، ولازم أبا العلاء المعرى وأخذ عنه ديوان سقط الزند وكتب منه نسخة جيدة لنفسه ، وعاد إلى مصر فقدمها للحاكم بأمر الله الفاطمى ، وقرأه عليه فأعجبه نظم المعرى حتى قيل إن الحاكم أرسل إلى عزيز الدولة الوالى بحلب أن يحمل المعرى إلى مصر فاعتذر المعرى (٥) .

إذن نستطيع أن نلمس هذا النشاط فى درس علوم اللغة بمصر فى هذا العصر ، وكيف كثر عدد العلماء ، وكثر إنتاجهم ، كما تعددت أماكن هذا الدرس ، ففى الجامع الأزهر كانت تقام حلقات الدرس ، وفى دار العلم كان يجتمع العلماء والطلاب وفى جامع عمرو بالفسطاط استمرت حلقات التدريس التى تحدثنا عن نشاطها فى كتابنا « أدب مصر الإسلامية » ، ولم تكن القاهرة والفسطاط مراكز الدرس فى مصر فحسب ، بل كانت الإسكندرية أيضا تزخر بالعلماء والطلاب ، وقد نقلت

(١) البغيه ص ١٨٨ (٢) البغية ص ٢٨٢ (٣) البغية ص ٢٩٥ .
(٤) البغية ص ٢٣٠ (٥) البغية ص ٤٠٣

كتب التراجم عن الحافظ السلفى تراجم عدد كبير من العلماء والمتعلمين الذين شهدتهم الإسكندرية فى هذا العصر ، والعلماء الذين وفدوا على الإسكندرية . كما يحدثنا السيوطى أن محمد بن حميد بن الأرقط الحسينى النحوى قرأ على القاضى الأديب بأسوان الأدب ، وظل بأسوان تؤخذ عنه علوم القرآن الكريم والأدب ، وانتقل الى قوص وتوفى سنة ٥٤١ هـ (١) . وكانت قوص من مراكز العلم فى مصر ، وسنتحدث عن ذلك كله فيما بعد . ومعنى هذا كله أنه كان بمصر مراكز كثيرة للعلم والثقافة بجانب الفسطاط والقاهرة .

القراءات وعلوم القرآن :

من المعروف أن العلوم العربية والإسلامية إنما نشأت بسبب القرآن الكريم وما يدور حول دراسة القرآن من ضبط حروفه وتفسير غريبة ومعرفة أسرار إعجازه ، وتفهم معانيه ، فعلم النحو وعلوم اللغة لم تنشأ إلا بسبب القرآن ، فلا غرو أن رأينا هذه العلوم التى كانت تدور حول دراسة القرآن موضع اهتمام المسلمين فى جميع الأقطار الإسلامية ومنها مصر ، فقد عرفت مصر هذه العلوم منذ دخلها المسلمون على نحو ما ذكرناه من قبل فى كتاب « أدب مصر الإسلامية » ، واستمرت هذه الدراسات تنمو وتزدهر حتى جاء الفاطميون فأولوا هذه الدراسات عنايتهم ورعايتهم ، ففى كل الحفلات التى كان يقيمها الفاطميون كان القراء فى مقدمة الحاضرين يقرأون بين يدى الإمام ، وكان كل مقرىء يحاول أن ينال القربى من الإمام ليفوز بأكبر قسط من العطاء ، وكذلك كانت تختتم الحفلات بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم ، فكان هناك قراء الحضرة الإمامية وهم أشبه شىء بموظفين رسميين فى الدولة ، ولهم جاريهم الشهرى سوى الهبات والخلع ، وكان عدد العلماء الذين اهتموا بهذه الدراسات كبيرا جدا ، كما كثرت كتبهم التى وضعوها فى علوم القرآن الكريم ، نذكر من هؤلاء العلماء أبا الحسن على بن إبراهيم بن سعيد الحوفى ، فقد كان عالما بالعربية وتفسير القرآن ، أخذ عن أبى جعفر النحاس وأبى بكر الأدفوى ، ولقى جماعة من علماء المغرب وأخذ عنهم ، وتصدر للإفادة فى العربية وإعراب القرآن وتفسيره ، واخذ عنه خلق كثير ، وله تفسير اسمه البرهان

(١) البغية ص ٤٠ .

في تفسير القرآن في ثلاثين مجلدا ، وله في إعراب القرآن كتاب علوم القرآن في عشر مجلدات ، وصنف في النحو كتاب الموضح في النحو ، وهو أستاذ إسماعيل بن خلف الصقلي المقرىء صاحب كتاب إعراب القراءات في تسع مجلدات ، توفى الحوفي سنة ٤٣٠ هـ (١) .

ونذكر كذلك عبد العزيز بن علي بن محمد بن إسحق أبا عدي المصري المعروف بابن الإمام مسند القراء في زمانه ، قرأ على أبي بكر بن عبد الله بن مالك وقرأ عليه عدد من العلماء المعروفين أمثال طاهر بن غلبون ومكي بن أبي طالب وابن نفيس وغيرهم ، وتوفى سنة ٣٨١ (٢) .

ويقول صاحب الشذرات. إن ابن الإمام كان محققا ضابطا لقراءة ورش وأنه حدث عن محمد بن زبان وابن قديد وقرأ على أبي بكر بن سيف صاحب أبي يعقوب الأزرق (٣) . وكان أبو بكر الأدفوي محمد بن علي بن أحمد المصري المقرىء النحوي المفسر شيخ مصر وعالمها في عصره ، كان أصله خشابا ثم أخذ العلم عن أبي جعفر النحاس النحوي ، وقرأ برواية ورش على أبي غانم المظفر ابن أحمد ، وبرع في علوم القرآن حتى ساد أهل عصره في مصر ، وانفرد بالإمامة في وقته في قراءة نافع ، وكانت حلقته من أكبر الحلقات العلمية ، وله كتاب في التفسير في مائة وعشرين مجلدا سماه كتاب الاستفتاء في علوم القرآن . وتوفى في ربيع الأول سنة ٣٨٧ هـ (٤) ويقول السيوطي بل في سنة ٣٨٨ هـ (٥) .

ومن العلماء أيضا عبد الجبار بن أحمد الطرسوسي ، وكان شيخ القراء بمصر في زمانه ، ومن أساتذة أبي الطاهر إسماعيل بن خلف الصقلي ، وله كتاب المجتبى في القراءات . وتوفى سنة ٤٢٠ هـ (٦) . وكذلك نذكر فارس بن أحمد بن موسى بن عمران الضرير مؤلف كتاب المنشأ في القراءات الثمان ، وهو المذكور في باب التكبير في الشاطبية وتوفى سنة ٤٠١ (٧) . ويروى ياقوت عن الحافظ السافي : أن عثمان

(١) راجع ابن خلكان ج ١ ص ٣٣٢ ، والبغية ص ٣٢٥ وياقوت ج ٦ ص ١٦٥ .
(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٨٠ .
(٣) شذرات الذهب ج ٣ ص ١٠١ (طبع مصر سنة ١٣٥٠ هـ) .
(٤) شذرات الذهب ج ٣ ص ١٠١ (٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٨٠ .
(٦) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٨١ (٧) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٨٢ .

ابن علي بن عمر السرقوسي الصقلي كان من العلم بمكان نحوا ولغة وقرأ القرآن على ابن الفحام وغيره ، وله تواليف في القراءات والنحو والعروض ، وصارت له في جامع مصر حلقة للإقراء ، وقرأ عليّ كثيرا وعلى من كنت أقرأ عليه كأبي صادق وابن بركات الفراء الموصلي وآخرين (١) »

وهكذا كان لعلوم القرآن في مصر مكانه خاصه ، وكثرت فيها المؤلفات بجانب غيرها من العلوم والفنون مما كان له أثره في الحياة العقلية المصرية . ونستطيع من هذه اللمحة التي أسلفناها أن نتبين أن الفاطميين الذين كانوا لا يتفقون في تفسير القرآن مع باقي المسلمين ، مدعين أن للقرآن الكريم تأويلا باطنيا يخالف ما يقول به المفسرون، قد أفسحوا صدورهم لتفسير هؤلاء العلماء الذين كانوا بمصر، وسمحوا لهم بالتحلق في المساجد وإلقاء دروس التفسير على طلاب العلم ، فهذا يدل على أن الفاطميين كانوا متسامحين مع غيرهم من أصحاب الفرق والنحل الأخرى. وسنوضح ذلك فيما بعد .

رواية الحديث :

نشطت رواية الحديث في مصر كما كان عليه الأمر في البلاد الإسلامية الأخرى، وكثرت الرحلة في طلبه ، وكانت مصر من أهم مراكز الرواية منذ دخول الإسلام ، ومن أشهر المحدثين الذين كانوا في مصر الفاطمية : أبو بكر محمد بن علي ابن حسن المصري نزيل تنيس ، ولد سنة اثنتين وثمانين ومائتين وسمع النسائي وأبا علي وروى عنه الدارقطني وغيره وتوفى سنة تسع وستين وثلثمائة (٢).

ومعاصره الحسن بن رشيق ، أبو بكر محمد العسكري المصري ، روى عن النسائي أيضا ، وعنه أخذ الدارقطني وعبد الغني بن سعيد ، وفيه يقول ابن الطحان في تاريخه الذي جعله ذيلا لتاريخ ابن يونس المصري : « ما رأيت عالما اكثر حديثا منه ، ولد في صفر سنة ثلاث وثمانين ومائتين ، وتوفى في جمادى الأخرى سنة سبعين وثلثمائة (٣) » .

والمحدث الجوال أبو الفتح عبد الواحد بن محمد المعروف بابن مسرور البلخي روى عن ابن سعيد بن يونس ، وروى عنه عبد الغني بن سعيد ، وأقام بمصر وتوفى سنة ثمان وسبعين وثلثمائة (٤) .

(١) ياقوت معجم الأدباء ج ١٢ ص ١٣٠ .
(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٩ (٣) المصدر السابق (٤) المصدر السابق .

ومن أشهر الحفاظ فى هذا العصر أبو محمد عبد الغنى بن سعيد الأزدى ، ولد سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة ، وتوفى والده بعد خمس سنوات من ولادته ، ونشأ عبد الغنى محبا للحديث ، فروى عن حمزة بن محمد المعروف بأبى القاسم الكنانى المصرى(١) وأبى بكر محمد بن على وابن مسرور البلخى ، ثم اتصل بالدارقطنى ولازمه وروى عنه ، وقيل إن الدارقطنى سئل : هل رأيت فى الحديث أحدا يرجى علمه ؟ فقال : نعم ، رأيت شابا بمصر كأنه شعلة نار يقال له عبدالغنى . ولما خرج الدارقطنى من مصر جاءه المودعون ، وتحزنوا على مفارقته وبكوا ، فقال لهم : لقد تركت عندكم خلفا ، يعنى عبد الغنى ، وقيل أيضا : إن عبد الغنى لما صنف كتابه المؤتلف والمختلف عرضه على الدارقطنى ، فقال له : اقرأه ، فقال : كيف أقرؤه لك ومعظمه أخذته عنك ؟ فقال : نعم أخذته عنى متفرقا والآن قد جمعته(٢) وروى عن الدارقطنى أيضا أنه كان يقول عنه : ما رأيت فى طريقى مثله ، ما اجتمعت به وانفصلت عنه إلا بفائدة (٣)

وكان بين عبد الغنى بن سعيد وبين أبى أسامة جنادة اللغوى وأبى على المقرى الأنطاكى مودة أكيدة واجتماع فى دار العلم ومذاكرات ومحادثات ، فلما أمر الحاكم بأمر الله بقتل جنادة وأبى على الأنطاكى استتر عبد الغنى خوفا من أن يلحق بهما لصداقته لهما ، وأقام مستخفيا مدة حتى حصل له على الأمر فظهر وتوفى فى صفر سنة ٤٠٩ هـ ، وقيل سنة ٤١٠ هـ ، ولما أراد الحاكم بأمر الله بناء جامعه جعل الحافظ عبد الغنى بن سعيد على بنائه ونظره(٤) .وقد طبع كتابه المؤتلف والمختلف بالهند سنة ١٣٢٦ هـ

ولعل أشهر المحدثين الذى شهدتهم مصر فى أواخر الدولة الفاطمية هو الحافظ السلفى وكان متقنا ناقدا ثبتا دينا خيرا ، انتهى إليه علو الاسناد ، وكان أوحد زمانه فى علم الحديث وأعلمهم بقوانين الرواية(٥) ، ويقول صاحب النجوم : وكان طاف الدنيا ولقى المشايخ ، وكان يمشى حافيا لطلب العلم والحديث(٦) . ورد بغداد فأخذ عن أبى الحسن الهراس علوم الفقه وعن الخطيب التبريزى علوم اللغة ، كما روى عن

(١) النجوم الزاهرة (٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٠٥
(٣) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٤٤ (٤) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٩
(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٠ (٦) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٧

أبى محمد جعفر بن السراج وغيره ، ثم دخل دمشق وأخذ عن علمائها ودخل الاسكندرية سنة ٥٢١ هـ واستوطنها فقصده الناس وسمعوا عليه ، وبنى له العادل ابن الحسن على بن السلار وزير الظافر الفاطمى مدرسة بالاسكندرية سنة ٥٤٦هـ وفوض أمرها إليه (١) ، وصار إليه الهجرة فى الحديث حتى لم يكن فى آخر أيامه مثله ، ومن أشهر تلاميذه جمال الدين عبد الرحمن بن حفص الصفراوى الاسكندرى والحافظ أبو الحسن على بن فاضل الصورى والحافظ شرف الدين السكندرى وغيرهم من حفاظ الحديث الذين ظهروا فى العصر الذى يلى هذا العصر الذى نؤرخه .

ولما وفد أبو حامد الغزالى على الاسكندرية لقى الحافظ السلفى وتباحثا فى بعض المسائل ، أما كتبه وأماليه فهى كثيرة ، وكذلك كان له بعض مقطعات من الشعر ، فمن قوله فى كبر سنه :

أنا إن بان شبابى ومضى ... فلربى الحمد ، ذهنى حاضر
ولئن خفت وجفت أعظمى ... كبراً ، غصن علومى ناضر(٢)

ذلك أن السن تقدمت به حتى قيل إنه جاوز المائة بخمس سنين ، إذ توفى سنة ست وسبعين وخمسمائة . ومن الرحالين الذين وفدوا على مصر فى هذا العصر فى طلب الحديث ، الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى الأندلسى ، ولقى بمصر والاسكندرية جماعة من المحدثين روى عنهم ، كما استفاد بعض المصريين منه ، وعاد إلى الأندلس سنة ٤٩٣ هـ (٣) . وأبو الفضل محمد بن طاهر المقدسى المعروف بابن القيسرانى ، وكان أحد الرحالين فى طلب العلم والحديث بوجه خاص ، روى بالحجاز والشام ومصر والثغور والجزيرة والعراق وفارس ، وتوفى ببغداد سنة ٥٠٧ هـ (٤) .

دراسة مذاهب أهل السنة :

وهنا نعرض لموضوع كثر فيه اختلاف الكتاب منذ العصر الفاطمى إلى الآن ، فقد ذهب أكثر المؤرخين إلى أن الفاطميين كانوا شديدى التعصب

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣١ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٧ . (٣) ابن خلكان ج ١ ص ٤٨٩ .
(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٤٨١ .

لمذهبهم الديني ، وتطرفوا في عصبيتهم حتى إنهم أكرهوا الناس على اعتناق عقيدتهم رهبة لارغبة ، وإنهم في سبيل ذلك اضطهدوا علماء مذاهب أهل السنة بل أفنوهم تقتيلا ، ويقول السيوطي : إن الفاطميين أفنوا من كان بمصر من أئمة المذاهب الثلاثة — أي الشافعية والمالكية والحنفية — قتلا ونفيا وتشريدا وأقاموا مذهب الرفض والشيعة(١) . وذهب قليل من المؤرخين المحدثين إلى أن الفاطميين كانوا أهل تسامح ورفق بالرعية ، وأن جوهر الصقلي أعطى الأمان للمصريين بأن يختاروا المذهب الديني الذي يرتضونه ولا إكراه في الدين ، وبلغ تسامح الفاطميين إلى أن استخدموا في أكبر وظائف الدولة من لم يكن مسلما . فكان من الوزراء والنواب في الأقاليم وكتاب دار الإنشاء من كان مسيحيا أو يهوديا ، أما الاضطهاد الذي حاق بأهل السنة فقد كان في أيام الحاكم بأمر الله الذي عرف بالتقلب في سياسته وأحكامه .

فقهاء الشافعية :

وإذا نظرنا في كتب الطبقات والتاريخ رأينا عدداً كبيراً من علماء مذاهب أهل السنة كانوا يعيشون في مصر الفاطمية ، ويلقون تعاليمهم على جمهور المستمعين تحت بصر رجال الدولة الفاطمية ودعاة دعوتهم دون أن يمسهم سوء . فمن علماء مذهب الشافعي القاضي أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى البغدادي نزيل مصر فقد أملى بها وأفاد حتى توفي سنة ٤٤١ هـ(٢) ، وأبو القاسم نصر بن بشر بن علي فقد كان فقيها محققاً ومناظراً مبرزاً وتوفي سنة ٤٧٧ هـ(٣) . والقاضي أبو الحسن علي بن الحسين الموصلي الخلعي المولود بمصر سنة ٤٠٥ هـ وكان فقيها مشهوراً له تصانيف وروايات متسعة وكان أعلى أهل مصر إسناداً ، وجمع له أبو نصر أحمد ابن الحسن الشيرازي عشرين جزءاً وخرجها عنه وسماها « الخلعيات » وبالرغم من أنه كان شافعي المذهب فقد ولاه الفاطميون القضاء سنة ٤٥٠ هـ ولكنه استقال بعد يوم واحد ومات بمصر سنة ٤٩٢ هـ وينسب إليه مسجد الخلعي بالقرافة ، وكان والده أيضاً من فقهاء الشافعية ، توفي بمصر سنة ٤٤٨ هـ(٤) .

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧٤ .
(٢) حسن المحاضره ج ١ ص ٢٢٧ وتاريخ بغداد .
(٣) المصدران السابقان .
(٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٨ وابن ميسر ص ٣٩ .

ومن فقهاء الشافعية أيضاً في ذلك العصر أبو الفتح سلطان بن إبراهيم بن مسلم المقدسي ، الذي قال عنه الحافظ السلفي : كان من أفقه الفقهاء بمصر ، وعليه قرأ أكثرهم ، ولد بالقدس سنة ٤٤٢ هـ وتفقه على الشيخ نصر المقدسي ثم دخل مصر فظل بها إلى أن توفي سنة ٥١٨ هـ(١) .

وكذلك نقول عن أبي الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن علي الميورقي الذي اتخذ الإسكندرية موطنا له وصنف تعليقه في الخلاف بين الفقهاء . وهو أحد الذين روى عنهم الحافظ السلفي ، وتوفي بالإسكندرية سنة ٥٢٣ هـ(٢) ومجلي ابن جميع بن نجا المخزومي المصري صاحب كتاب الذخائر، تفقه على سلطان المقدسي وبرع في فقه الشافعي حتى صار من كبار الأئمة ، وتفقه عليه جماعة منهم العراقي شارح المذهب ، وبالرغم من تمذهبه بمذهب يخالف مذهب أولي الأمر في البلاد فقد ولي القضاء سنة ٥٤٧ هـ ومكث في القضاء عامين ، ومات سنة ٥٥٠ هـ ومن تصانيفه كتاب أدب القضاء وكتاب الجهر بالبسملة(٣) .

وأبو محمد عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي المصري الذي ولي قضاء الجيزة فقد كان فقيها ماهرا في الفرائض، أخذ عن الخلعي ولازمه مدة طويلة،وهو آخر من حدث عنه ، ثم ترك القضاء واعتزل في القرافة متعبدا إلى أن توفي سنة ٥٦١(٤)

وستحدث في فصل التاريخ عن القاضي القضاعي الشافعي وكيف ولي القضاء ، وولي ديوان الإنشاء بالرغم من شافعيته ، وأنه صنف كتابا في مناقب الإمام الشافعي وأخباره ، وكتاب الشهاب في فقه الشافعية(٥) .

وهكذا نرى عددا كبيرا من فقهاء الشافعية كانوا يعيشون في العصر الفاطمي ، ومنهم من ولي القضاء أوغيره من مراتب الدولة الفاطمية ، دون أن يكون لظاهر مخالفتهم لمذهب الدولة أثر في حياتهم العلمية او العملية .

فقهاء المالكية :

وكذلك نقول عن فقهاء المالكية ، فقد وجد في مصر الفاطمية عدد كبير منهم ، أمثال محمد بن سليمان المعروف بأبي بكر النعال الذي كانت إليه إمامة

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٨ .
(٢) المصدر السابق
(٣) المصدر السابق وابن ميسر ص ٩٥ .
(٤) المصدران السابقان .
(٥) ابن خلكان ج ١ ص ٤٦٢ .

المالكية فى وقته وإليه كانت الرحلة بمصر ، وكانت حلقته فى الجامع تدور على سبعة عشر عمودا ، لكثرة الطلاب الذين كانوا يقصدونه للأخذ عنه ، وتوفى سنة ٣٨٠ هـ (١) .

وأبو القاسم الجوهرى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى المصرى صاحب مسند الموطأ المتوفى فى شهر رمضان سنة ٣٨٠ هـ (٢) .

ونحن جميعا نعلم قصة الفقيه المالكى عبدالوهاب بن على ، أحد الأئمة المجتهدين فى المذهب حتى وصفه الخطيب فى تاريخ بغداد بأنه لم ير فى المالكية أفقه منه . ونعلم كيف وفد إلى مصر لضيق حاله فى بغداد ، وكيف أكرمه المصريون حتى تمول وحسنت حاله ، ولما أدركه المرض كان يقول : لا إله إلا الله، عندما عشنا متنا ، وتوفى بمصر ٤٢٢ هـ .

ونسمع فى هذا العصر عن عبد الجليل بن مخلوف الصقلى الذى قال ابن ميسر عنه : إنه أفتى بمصر أربعين سنة ومات بها سنة ٤٥٩ هـ . وعن على بن الحسن بن محمد ابن العباس الفهرى صاحب كتاب فضائل مالك وشارح الموطأ . وعن أبى بكر الطرطوشى محمد بن الوليد الأندلسى نزيل الإسكندرية ، وكان كثير الرحلة فى طلب العلم فسافر إلى العراق وسمع ببغداد ثم استوطن الإسكندرية واتصل بالوزير المأمون البطائحى الذى أكرمه فصنف له الطرطوشى كتاب « سراج الملوك » . وكان له عدة من التلاميذ أمثال سند بن عفان بن إبراهيم الأزدى الذى خلفه فى حلقته ، والذى شرح المدونة . وتوفى الطرطوشى سنة ٥٢٥ هـ وتوفى تلميذه سنة ٥٤١ هـ .

إذن تستطيع أن تطمئن إلى أن دراسة مذهب مالك استمرت فى مصر فى العصر الفاطمى بجانب مذهب الشافعى بالرغم من أن الفاطميين كانوا يوجهون النقد اللاذع إلى هذين المذهبين ، وأن دعاة المذهب الفاطمى كثيرا ما كانوا يتناولون بالتجريح هذه المذاهب السنية فى مجالس حكمتهم وفى أشعارهم ، وها هو ذا الداعى المؤيد فى الدين يقول :

فما أبو حنيفة والشافعى حيثهم قد نفعوا بنافع (٣)

ويقول مرة أخرى :

وتزيل لبس الشافعى ومالك ببيان زين العابدين وجعفر

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٥٦ . (٢) المصدر السابق .
(٣) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة (من مطبوعات دار الكاتب المصرى)

وقياس قياس غدا متبرجا بالإعتزال وترهات الجبر (١)

بيد أن الفاطميين تركوا لفقهاء هذه المذاهب حريتهم العقلية ، وسمحوا لهم بالتحلق فى المسجد وإلقاء تعاليم المذاهب السنية على من يشاء من الطلاب ، وقد ذكرنا أن الحاكم بأمر الله لما أمر بعمارة دار العلم ونقل اليها الكتب من القصر ، أسكنها من شيوخ السنة شيخين أحدهما أبو بكر الأنطاكى وخلع عليهما وقربهما وسمح لهما بحضور مجالسه وملازمته . وأنه جمع الفقهاء والمحدثين إلى دار العلم ويحدثنا عمارة اليمنى أن الملك الصالح طلائع بن رزيك كان يلتقى فى ولايته فقهاء السنة ويسمع كلامهم (٢) ، مع ما كان عليه الملك الصالح من إفراط فى التعصب لمذهبه (٣).

تعصب الفاطميين لمذهبهم !!

أما هذه المسألة التى أثارها المؤرخون حول تعصب الفاطميين أو تسامحهم . فيخيل إلى أن الفاطميين كانوا يميلون إلى صبغ البلاد كلها بصبغة مذهبهم ، أحيانا بالترغيب وأحيانا بالترهيب ، فكان الدعاة يؤدون واجبهم فى تشكيك المسلمين فى مذاهبهم السنية ويحببون إليهم المذهب الفاطمى . فمن المصريين من استجاب لهذه الدعوة عن رغبة بعد أن اقتنع بأقوال الدعاة ، ومنهم من استجاب لغرض التقرب إلى الحاكمين عساه يجد حظوة لديهم وينال مآربه ، وهذا اللون من الناس كثير فى كل البيئات والأقاليم ، ومن المصريين من امتنع عن التحول عن مذهبه الدينى ، واستمر يحافظ على عقيدته التى دان بها والتى نشأه عليها أبواه ولو أدى ذلك إلى تعسف الحاكمين معه ، وإذا كان الفاطميون استعملوا السيف فى سبيل نشر عقيدتهم وإخضاع الخارجين على مذهبهم . فهذا أمر طبيعى نجد مثيلا له فى ظل كل الحكومات التى لها نزعة خاصة حتى فى عصرنا الحاضر . فقد رأينا اليوم ألوانا مختلفة من الحكومات الفاشية والشيوعية والنازية وكلها تحاول فرض سلطانها ومبادئها فى بلادها وأن تصبغ هذه البلاد بصبغتها الخاصة ، وأن تحكم بالقوانين التى سنتها نظمها ، ولو أدى ذلك إلى القتل والنفى والتشريد لكل من حاول مخالفة تلك النظم والقوانين . رأينا ذلك كله ولمسناه فى هذا العصر الحديث، فلا نستطيع أن ننكر أن الفاطميين الذين حكموا مصر منذ ألف عام تقريبا كانوا يستعملون وسائل الارهاب لمخالفى عقيدتهم . ولا سيما أن الشيعة عامة ذاقت من العذاب والتنكيل على أيدى خصومهم ما تتحدث به كتب التاريخ .

(١) من القصيدة السابعة من ديوان المؤيد فى الدين .
(٢) النكت العصرية ص ٤٥ . (٣) النكت ص ٤٨ .

كان الفاطميون منذ أوائل حكمهم بمصر الى آخر عهد الظاهر يحكمون بأنفسهم ولم يكن الوزراء قد بلغوا من القوة والاستبداد بالأمر هذا المبلغ الذى نراه فى عهد المستنصر ومن بعده من خلفاء الفاطميين. فى هذا العصر الاول كان اضطهاد أهل السنة أمراً طبيعياً لتثبيت أركان الدولة وحمايتها من أعدائها أمويى الأندلس فى الغرب ، ومن العباسيين فى الشرق ، فكانت السياسة تقضى على الفاطميين أن يكونوا على حذر من كل مخالف لعقيدتهم ، وأن يشحذوا السيف لكل من تحدثه نفسه بالخروج على سلطانهم ، ولاسيما أن العباسيين وأمويى الأندلس أخذوا يسيئون إلى الفاطميين فى نسبهم وفى عقائدهم ، وحاربوا الفاطميين بالسيف طوراً وبالدعاية طوراً آخر، فكتبوا المحاضر فى نسب الفاطميين ، وطلبوا من العلماء والكتاب الطعن فى عقائد الفاطميين مثل ما نراه فى كتب الغزالى وغيره فاضطر الفاطميون إلى أن يكونوا على يقظة من أمرهم إذا جد الجد، وأن يعتبروا كل من لم يعتنق عقيدتهم عدواً لهم، وبهذا نستطيع أن نفسر تطورات الحاكم بأمر الله فى سياسته، فكان حيناً يقرب أهل السنة ويغدق عليهم أمواله وطوراً يشتت شملهم ويمعن فيهم بالقتل والسجن، وهو فى كلا الأمرين مضطر إلى اتخاذ هذه السياسة أو تلك على حسب مقتضى الحال مع خصومه وأعدائه، فالحاكم بأمر الله لم يكن مجنوناً كما يصور فى كتب التاريخ، وإنما كان سياسياً حازماً فى سياسته ، يعفو فى وقت العفو ويقتل حين يشتد به الأمر، وهكذا كان الحال فى سياسة الفاطميين نحو أهل السنة.

فحيناً ترى الفاطميين لا يفرقون بين أصحاب الفرق الاسلامية أو الذميين فهم يستخدمونهم فى وظائف الدولة ، ولا يتعرضون لهم بمقت ولا أذى ،وقد قال القاضى النعمان فى كتابه المجالس والمسايرات(١) : « لما قلدنى القضاء بالمنصورية رأيت قوماً لم يصلوا إلى الدعوة ورأيت فيهم مقاربة ورجوت أن يهديهم الله إن فتح فى ذلك لعباده ، فلما جاء الله من ذلك بما هيأه لخلقه من فتح باب رحمته لعباده تخلفوا ، ورجوت أن يحاسبوا أنفسهم ، ورمزت لهم وطارحتهم فلم أرهم يقبلون على شىء، فواجهتهم وكلمتهم واحتججت عليهم وناظرتهم حتى قطعتهم فلم يزدهم ذلك إلا تمادياً فى الغى وإصراراً على الجهل . فثقل على أمرهم وكرهت جانبهم وأبغضت رؤيتهم وسئمت صحبتهم . فأردت الاستبدال بهم . فرفعت ذلك إلى

(١) المجالس والمسايرات ورقة ٧٣ ب (نسخة خطية بمكتبتى) .

المعز ، فوقع إلى فيهم: « أبقهم على خدمتك فان يفىء الله بهم فسعادة ساقها الله إليهم وثواب يصير اليك بما بذلته من النصيحة لهم ، وإلا فلا يمنعك جهل الحمر المستنفرة من الانتفاع بها فى بعض مصالحك، ويكونون بعد كما قال الله عز وجل: « عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية ».

وحيناً آخر كان الفاطميون يضطرون اضطراراً إلى أخذ أهل هذه المذاهب بالشدة والعنف . حتى ولى المستنصر بالله سنة ٤٢٧ هـ فأخذ الوزراء ورجال الدولة كل سلطة من الخلفاء، واستطاع الوزراء أن يكونوا هم أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد، وأصبح الخليفة الفاطمى ألعوبة فى أيدى وزرائه وليس له من الأمر إلا الخطبة . وظهر بين الوزراء من كان على مذهب يخالف المذهب الفاطمى(١)، هنا نرى حدة العصبية الأولى تخف، وتعود إلى الناس حرية العقيدة أكثر مما كانت من قبل ؛ بل ذهب الوزير أبو على أحمد ابن الأفضل بن بدر الجمالى إلى أن يعين للبلاد أربعة قضاة ، اثنين من الشيعة واثنين من أهل السنة، فالشيعيان أحدهما فاطمى المذهب والآخر إمامى المذهب ؛ والسنيان أحدهما شافعى والآخر مالكى ، وأعطى لكل واحد السلطة المطلقة فى إصدار أحكامه على وفق مذهبه (٢). وقد ذكرنا أن الوزير أبا الحسن على بن السلار وزير الظافر كان ظاهر التسنن شافعى المذهب وهو الذى أنشأ مدرسة للشافعية بالإسكندرية وفوض أمرها إلى الحافظ السلفى (٣) ، وهكذا بدأ الضعف يدب فى الدولة الفاطمية والمذهب الفاطمى نفسه ، حتى هم بعض الوزراء فى مصر إلى تسيير الدعوة لابنى صاحب عدن ، ويقول عمارة اليمنى فى ذلك : إن الداعى ابن عبد القوى والأجل الفاضل ، وشاور ، والكامل ، عزموا على أن يتبرعوا ابتداء بتسيير الدعوة لولدى صاحب عدن بعد موته ، ثم قال شاور: أحضروا فلاناً (يعنى عمارة) وخذوا ماعنده، ولم يبق فى النوبة إلا صرمها، فلما حضرت وأعلمونى منعتهم وقلت: إن أهل اليمن إنما يبعثون لكم الهدايا والتحف والنجاوى ويتولونكم لأجل الدعوة، فإذا تبرعتم بها فقد هونتم حرمتها ، فرجع الجميع عما كانوا عليه (٤)

(١) راجع ما كتبناه عن ذلك فى مقدمة كتاب المجالس المستنصرية .

(٢) أخبار مصر لابن ميسر ص ٧٥ (٣) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧٠ .

(٤) النكت ص ٩٢ .

وقصة أخرى رواها عمارة أيضا تدلنا على ما بلغ اليه التهاون فى عقيدة الفاطميين ، ذلك أن سيف الدين الحسين بن أبى الهيجاء صهر الصالح بن رزيك توضأ ومسح رجليه ولم يغسلهما ـ على حسب عقيدة الفاطميين ـ فتناول عمارة الابريق وسكب الماء على رجليه ، فجذبهما وهو يضحك . فقال عمارة : إن كان الحق معكم فى مسح الرجلين يوم القيامة فما نعطى ولا نعاقب على غسلها ، وإن كان الحق معنا فى غسل الرجلين خرجتم من الدنيا بلا صلاة لأنكم تتركون غسل الرجلين وهو فرض . فكان سيف الدين يقول له بعد ذلك : والله لقد أدخلت على قلبي الشك والوسواس بكلامك فى مسألة الوضوء (١)

ولعل قصة محاولة إدخال عمارة اليمنى فى الدعوة من القصص التى ترينا أن القائمين بأمر الدولة الفاطمية فى أواخر عهدها لم يأبهوا بأمر المذهب وأنهم كانوا يتسامحون مع مخالفيهم إلى حد بعيد ، فبالرغم من أن الملك الصالح طلائع بن رزيك كان شديد التعصب لمذهبه الفاطمى ، وأنه أدخل عددا من المسلمين فى مذهبه فانه لم يستطع أن ينجح فى محاولته مع عماره . يقول عمارة : وكانت تجرى بحضرته مسائل ومذاكرات ويأمرنى بالخوض مع الجماعة فيها وأنا بمعزل عن ذلك لا أنطق بحرف واحد . حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين فى مجلس السمر من ذكر السلف ما اعتمدت عند ذكره وسماعه قول الله عز وجل : « فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » ونهضت فخرجت فأدركنى الغلمان ، فقلت : حصاة يعتادنى وجعها . فتركونى وانقطعت فى منزلى أياما ثلاثة ورسوله يأتى فى كل يوم والطبيب معه . ثم ركبت بالنهار فوجدته فى البستان المعروف بالمختص فى خلوة من الجلساء ، فاستوحش من غيبتى ، فقلت : إنى لم يكن بى وجع وإنما كرهت ما جرى فى حق السلف وأنا حاضر ، فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت ، وإلا فلا ، وكان لى فى الأرض سعة وفى الملوك كثرة . فعجب من هذا وقال : سألتك بالله ما الذى تعتقده فى أبى بكر وعمر ؟ قلت : أعتقد أنه لولاهما لم يبق الاسلام علينا ولا عليكم ، وأنه ما من مسلم إلا ومحبتهما واجبة عليه ، فضحك . وبعد أيام جاءت عمارة رقعة فيها أبيات بخط الملك الصالح ، ومعها ثلاثة أكياس ذهبا . وفى الرقعة :

(١) النكت ص ١٢٦ .

قل للفقيه عمارة يا خير من ... أضحى يؤلف خطبة وخطابا
اقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى ... قل (حطة) وادخل إلينا البابا
تلق الأئمة شافعين ، ولا تجد ... إلا لدينا سنة وكتابا
وعلىّ أن يعلو محلك فى الورى ... وإذا شفعت إلىّ كنت مجابا
وقبضت آلافا وهن ثلاثة ... صلة وحقك لا تعد ثوابا

فأجابه عمارة مع الرسول بهذه الأبيات :

حاشاك من هذا الخطاب خطابا ... يا خير أملاك الزمان نصابا
لكن إذا ما أفسدت علماؤكم ... معمور معتقدى وصار خرابا
ودعوتم فكرى إلى أقوالكم ... من بعد ذاك أطاعكم وأجابا
فاشدد يديك على صفاء محبتى ... وأمنن على وسد هذا البابا (١)

ولا أدرى كيف سكت الملك الصالح بعد أن طعن عمارة مذهب الفاطميين بالبيت الثانى من هذه المقطوعة ، ولكن الأمر لم يكن أمر تعصب من الملك الصالح بن رزيك ، بل هو أمر تهاون بالمذهب شمل الأمراء وغير الأمراء . ولعل هذا الضعف الذى حل بالعقيدة الفاطمية هو الذى سهل الأمر لصلاح الدين الأيوبى فى أن يقوض أركان الدولة المتداعية وأن يعيد إلى الناس عقيدة أهل السنة والجماعة . وقبل الناس منه ذلك . فتحولت مصر بعد عشية وضحاها من شيعية إلى سنية ، لأن الدعوة الشيعية لم تكن متغلغلة فى نفوس المصريين . وأن الذين اعتنقوا هذه الدعوة تهاونوا بها ، فسهل على الأيوبيين أن ينتزعوها منهم .

(١) النكت ص ٤٣ وما بعدها .

الفصل الثالث

التاريخ والسير

رأينا فى عصر الولاة بمصر(١) كيف أسهم المصريون فى تدوين التاريخ منذ القرن الثانى للهجرة ، وعرفنا بعض المؤرخين الذين نبغوا فى العصر الذى سبق العصر الفاطمى ، أمثال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، وعمار بن وسيمة المصرى ، وابن يونس والكندى وابن الداية وغيرهم ، وقد استمر تيار هذا اللون من العلم طوال العصر الفاطمى ، فظهر عدد كبير من المؤرخين ، وحفظت لنا أسماء مؤلفاتهم . وبعض مقتطفات من كتبهم متفرقة فى كتب التواريخ ، ففى كتب المقريزى وأبى المحاسن بن تغرى بردى والسيوطى وابن فضل الله العمرى والنويرى والقلقشندى مقتبسات كثيرة من الكتب التى وضعها مؤرخو مصر الفاطمية ، وهذه المقتطفات تدلنا على أن مؤرخى مصر فى العصر الفاطمى كانوا يهتمون اهتماما خاصا بمصر . فأكثر كتبهم كانت تدور حول مصر ، وإن كان منها ما كتب فى التاريخ العام .

فمن المؤرخين الذين شاهدوا هذا العصر ، أحمد بن عبد الله بن أحمد الفرغانى ، ولد بمصر فى ذى الحجة سنة ٣٢٧ هـ ، وكان أبوه مؤرخا صاحب ابن جرير الطبرى وروى عنه تصانيفه . وأخذ أحمد بن عبد الله عن أبيه كتبه وكتب الطبرى وصنف عدة كتب منها كتاب التاريخ وصل به تاريخ أبيه ، وكتاب سيرة كافور الأخشيدى ، وسيرة العزيز بالله الفاطمى . وكان مقامه بمصر إلى أن توفى فى ربيع الأول سنة ٣٩٨ هـ(٢) .

ابن زولاق :

وشهد هذا العصر المؤرخ المصرى الكبير الذى أخذ عنه كل من جاء بعده من المؤرخين الذين تحدثوا عن مصر . ذلك المؤرخ هو الحسن بن إبراهيم الليثى المصرى المعروف بابن زولاق ، فقد كان من أعيان علماء مصر ولد سنة ست

(١) راجع كتاب أدب مصر الإسلامية (من مطبوعات دار الفكر العربى) .
(٢) معجم الأدباء لياقوت ج٣ ص ١٠٥

وثلثمائة ، وروى الحديث ، وأخذ عنه بعض المحدثين أمثال عبد الله بن دهبان وغيره ، وأولع بالتاريخ فروى عن الكندى وابن قديد وابن الداية ، يقول ابن زولاق : كان أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب (أى ابن الداية) قد عمل سيرة أحمد بن طولون أمير مصر . وسيرة ابنه أبى الجيش . وانتشرتا فى الناس ، وقرأتهما عليه ، وحدثت بهما عنه مع غيرهما من مصنفاته . ثم عملت أنا ما فاته من سيرتهما(١) ،

وكان ابن زولاق من فرط حبه لرواية التاريخ كثيراً ما ينشد :

مازلت تكتب فى التاريخ مجتهداً   حتى رأيتك فى التاريخ مكتوبا(٢)

وصنف ابن زولاق عدة كتب منها سيرة محمد بن طغج الأخشيد ، وكتاب أخبار سيبويه المصرى ، وكتاب سيرة المادرائيين — وقد طبعت هذه الكتب كلها . وكتاب فضائل مصر (منه نسخة خطية بمكتبة الأزهر وأخرى بدار الكتب المصرية وثالثة بالمكتبة الأهلية بباريس) وكتاب سيرة كافور، وكتاب سيرة جوهر، وكتاب سيرة المعز ، وكتاب سيرة العزيز، وكتاب التاريخ الكبير على السنين ، وله تذييل على كتاب الولاة للكندى وآخر على كتاب القضاة للكندى أيضا ، وكتاب خطط مصر ، وأكثر هذه الكتب فقدت ولم يبق منها إلا شذرات متفرقة فى الكتب . وإذا نظرنا إلى الكتب التى حفظت إلى الآن نرى ابن زولاق يدون بإسمه من الثقات العدول من معاصريه أو ماشاهده بنفسه من أحداث، فهى سجلات حوادث يتلو بعضها بعضا دون أن يكون هناك رابطة بين الحادثة والأخرى ، فالكتب ليست بكتب تاريخ على النحو الذى نفهمه الآن من كتب التاريخ، بل هى أشبه شىء بجرائد الأخبار فى عصرنا الحديث .وإن كان الكتاب الواحد يجمع الحوادث التى حدثت فى عصر ملك من الملوك ، ولم تقسم الكتب إلى أبواب وفصول، بل هى كما قلت مجرد سرد للحوادث . كما أن أكثرها ليس مرتبا على السنين أو على حسب وقوع الأحداث التى ذكرها، فقد تجد حادثة فى أول الكتاب وتاريخ حدوثها بعد الحوادث التى جاءت بعدها ، ومهما يكن من شىء فقد كان تأليف كتب السير فى ذلك العصر على هذا النحو الذى نراه فى كتب ابن زولاق ، وبالرغم من ذلك فقد كانت كتب ابن زولاق مصدرا هاما من المصادر

(١) المغرب فى حلى المغرب ص ٤ .
(٢) هذا البيت من قصيدة أنشدها أحد شعراء مصر فى رثاء أبى سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى المؤرخ المصرى المتوفى سنة ٣٤٧ هـ .

التى اعتمد عليها المؤرخون الذين تحدثوا عن مصر بعده . فابن خلكان ، والنويرى ، وابن حجر العسقلانى ، والسيوطى ، وابن دقماق ، وأبو المحاسن ، وياقوت ، والقلقشندى . والعمرى وغيرهم نقلوا كثيرا من مادة كتبهم عن كتب ابن زولاق ، وكانوا يطلقون عليه « مؤرخ مصر » مما يدل على قيمة كتبه وأخباره ، ولا غرو فى ذلك فقد كان محدثا ، والمفروض فى المحدث أن يكون صدوقا فيما يرويه ، وقد تكون ميزة ابن زولاق الكبرى هى صدق أخباره ، حتى عرف بذلك بين معاصريه أنفسهم ، فاستطاع أن يكتسب مكانة رفيعة فى نفوسهم ، وقد ذكرنا قصته مع الوزير يعقوب بن كلس . وتوفى ابن زولاق فى عهد الحاكم سنة سبع وثمانين وثلثمائة من الهجرة (١) .

المسبحى :

ومن مؤرخى هذا العصر الذين كثر نقل المتأخرين عنهم ، المؤرخ الأمير المختار عز الملك محمد بن أبى القاسم عبيد الله بن أحمد المعروف بالمسبحى ، الحرانى الأصل ، المصرى المولد والنشأة ، ولد فى رجب سنة ست وستين وثلثمائة ، واتصل فى صباه بخدمة الحاكم بأمر الله فى زمرة جنده . وما زال يرقى فى مراتب الجندية حتى صار أميرا على إقليم البهنسا والقيس من أعمال صعيد مصر ، ثم ولى ديوان الترتيب ، وينقل عنه أنه كان له مع الحاكم بأمر الله مجالس ومذاكرات أودعها كتابه « التاريخ الكبير » الذى وصفه بقوله : "التاريخ الجليل قدره ، الذى يستغنى بمضمونه عن غيره من الكتب الواردة فى معانيه ، وهو أخبار مصر ، ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء ، وما بها من العجائب والأبنية ، واختلاف أصناف الأطعمة ، وذكر نيلها ، وأحوال من حل بها ، وأشعار الشعراء ، وأخبار المغنين ، ومجالس القضاء والحكام والمعدلين والأدباء والمتغزلين وغيرهم . وهو فى ثلاثة عشر ألف ورقة . ويدلنا هذا النص على أن المسبحى لم يهتم بالتاريخ السياسى فحسب ، بل أراد أن يجعل من كتابه موسوعة عامة عن مصر من ناحيتها السياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية ، ومن المؤلم حقا أن يضيع مثل هذا الكتاب القيم ، ولم يبق منه إلا هذه الفقرات القليلة المتفرقة فى كتب التاريخ ، وهذا الجزء الصغير المخطوط بمكتبة الأسكوريال بأسبانيا .

لم يكن الأمير المسبحى مؤرخا فحسب ، بل كان أديبا له ذوق فنى واطلاع

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٤ ومعجم الأدباء ج ٧ ص ٢٢٥ .

واسع فى ميدان الأدب ، وألف فى ذلك الميدان كتبا كثيرة منها « كتاب التلويح والتصريح » فى معانى الشعر ، وكتاب « الشجن والسكن » فى أخبار أهل الهوى وما يلقاه أربابه ، وكتاب « جونة الماشطة » يتضمن غرائب الأخبار والأشعار والنوادر التى لم يتكرر مرورها على الأسماع ، وكتاب « الراح والارتياح » فى وصف الشراب وآلاته والندام عليه ، واختيار أوقاته ، وذكر الزهور والرياض والثمار والأشجار . وكتاب الغرق والشرق » وكتاب مختار الأغانى ومعانيها وكتاب المفاتحة والمناكحة فى أصناف الجماع ، وكتاب الطعام والإدام فى صفة ألوان الطعام وما يقدم على الخوان ، وكتاب درك البغية فى وصف الأديان والعبادات وذكر الملك والأنبياء والمتنبئين وذكر الفرائض والآداب ، وكتاب الجوعان والعريان ، وكتاب القران والتمام . وكتاب الأمثلة للدول المقبلة ، إلى غير ذلك من الكتب . كما كان شاعراً رقيق العاطفة دقيق الحس ، فمن شعره فى رثاء أم ولده :

ألا فى سبيل الله قلب تقطعا ... وفادحة لم تبق للعين مدمعا
أصبراً وقد حل الثرى من أوده ... فلله هم ما أشد وأوجعا
فياليتنى للموت قد مت قبلها ... وإلا فليت الموت أذهبنا معا

وانظر إليه وهو يرثى والده سنة ٤٠٠ هـ :

خطب ألم من الزمان عظيم ... فالدمع سح للمصاب سجوم
خطب يقل له البكاء وينطوى ... عنه العزاء ويظهر المكتوم
خطب يميت من الصدور قلوبها ... أسفا ، ويقعد ثاره ويقيم
يادهر : قد أنشبت فى مخالبا ... بالأسودين لوقعهن كلوم
يادهر : قد ألبستنى حلل الأسى ... مذ حل شخص فى التراب كريم
لو كنت تقبل فدية لفديت من ... رضت عظامى فيه وهو رميم
يا من يلوم إذا رآنى جازعا ... من طارق الحدثان . فيم تلوم
بأبى فجعت فأى ثكل مثله ... ثكل الأبوة فى الشباب أليم
قد كنت أجزع أن يلم به الأذى ... أو يعتريه من الزمان هموم

وبجانب هذه النفحة الأدبية كان المسبحى يلم بالنجامة . وله فى ذلك كتاب القضايا الصائبة فى معانى أحكام النجوم . من هذا كله نستطيع أن ندرك أن المسبحى كان من أركان الحركة العلمية والأدبية فى مصر الفاطمية . وقد استفاد

منه المؤرخون الذين جاءوا بعده . فاقتبسوا من مؤلفاته ولقبوه بمؤرخ الفاطميين . وتوفى المسبحى سنة عشرين وأربعمائة . ورثاه جماعة من شعراء عصره ؛ ذكرهم ولده فى تاريخه وذكر مراثيهم[1]

القضاعى :

ومن المؤرخين النابهين فى هذا العصر ؛ أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى ، تفقه على مذهب الشافعى ، ومع ذلك فقد ولاه الفاطميون القضاء ثم اتصل بالوزير الجرجرائى فجعله الوزير كاتب علامته ؛ ثم عمـل فى ديوان الإنشاء . وأوفده أولو الأمر بمصر إلى القسطنطينية سنة ٤٤٧ﻫ رسولا من قبلهم إلى الامبراطورة ثيودورا لإصلاح مافسد من العلاقات بين المصريين والبيزنطيين ولكن البيزنطيين لم يرحبوا بصداقة المصريين إذ ذاك وفضلوا أن يتحالفوا مع طغرلبك التركمانى[2] ؛ ولما عاد القاضى القضاعى من هذه السفارة اتخذه الوزير اليازورى كاتبا لإنشائه وعلامته . وهكذا كان مقدما عند الفاطميين بالرغم من تمذهبه بمذهب يخالف عقيدتهم . ألف القضاعى كتبا كثيرة نذكر منها كتابه فى مناقب الإمام الشافعى وأخباره ، وكتاب الشهاب ، وكتاب الأنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء ؛ وكتاب خطط مصر ؛ وقدوهم المقريزى حين قال[3] : إن أول من رتب خطط مصر وآثارها ، وذكر أسبابها فى ديوان جمعه ، هو أبو عمر محمد ابن يوسف الكندى ، ثم كتب بعده القاضى أبو عبدالله محمد بن سلامة القضاعى كتابه المنعوت بالمختـار فى ذكر الخطط والآثار . ومات فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة قبل سنى الشدة ، فدثر أكثر ما ذكر » فإن أول من تحدث من مؤرخى مصر عن الخطط هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم فى كتابه فتوح مصر[4] وتبعه المؤرخون بعده .

والقاضى القضاعى كان أستاذ مدرسة فى رواية التاريخ أخذ عنه عدد كبير من المؤرخين أمثال محمد بن بركات بن هلال السعدى النحوى المولود سنة ٤٢٠ ﻫ

(١) راجع ابن خلكان ج ١ ص ٥١٥ — النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٧١ — المغرب ص ٩٦ وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) راجع ذلك بالتفصيل فى السيرة المؤيدية ونجد شيئا من ذلك فى أخبار مصر لابن ميسر

(٣) الخطط ج ١ ص ٦ (٤) راجع كتاب « فى أدب مصر الإسلامية » .

صاحب كتاب خطط مصر[1] . وكان ابن بركات نحويا لغويا وله فى هذه العلوم كتاب الإيجاز فى معرفة ما فى القرآن من ناسخ ومنسوخ ألفه للأفضل بن بدر الجمالى ، وله تصانيف فى النحو حتى قيل إنه بحر العلوم . وعنه روى الحافظ السلفى والبوصيرى صاحب البردة وأبو الميمون عبد الوهاب المالكى وهبة الله ابن صدقة المعروف بأبى الرداد وغيرهم ، وتوفى ابن بركات سنة ٥٢٠ ﻫ .

وممن روى عن القضاعى أبو عبد الله الحميدى والخطيب أبو بكر أحمد بن على ابن ثابت صاحب تاريخ بغداد ، فقد قابل القضاعى فى الحج سنة ٤٤٥ ﻫ . وروى عنه . وهكذا كان أثر القضاعى فى معاصريه ، كما أن الذين جاءوا بعده نقلوا كثيراً من رواياته ، واقتبسوا من أقواله . وتوفى القضاعى سنة ٤٥٧ ﻫ[2] .

ومن المؤرخين فى أواخر العصر الفاطمى ابن المأمون البطائحى ، وكان والده وزيرا الآمر بأحكام الله . ونحن لا نعرف شيئا عن هذا المؤرخ ولا عن كتبه ؛ ولكن المقريزى اقتبس كثيراً من كتاباته فى مواضع متفرقة .

فن السير :

أما فن السير وهو ذلك الفن الذى يعد من فنون التاريخ ، فقد كان له شأن كبير فى الحياة الفكرية فى مصر الإسلامية ، ذلك أن كتاب مصر وعلماءها وجهوا عنايتهم إلى كتابة سير عظمائهم وأبطالهم ومجتهديهم . وقد وصل إلينا بعض هذه الكتب مثل سيرة عمر بن عبد العزيز لعبد الله بن عبد الحكم رئيس المدرسة المالكية فى مصر فى القرن الثانى للهجرة[3] وقد ذكرنا أن ابن الداية كتب سيرة أحمد بن طولون وسيرة ابنه أبى الجيش ، وكتب ابن زولاق سيرة الإخشيد وسيرة ابنه وسيرة كافور وسيرة المعز لدين الله وسيرة العزيز وسيرة سيبويه المصرى ، وكتب القاضى النعمان سيرة المعز لدين الله ، وكتب محمد بن محمد اليمانى سيرة جعفر الحاجب ، ويطول بنا الأمر لو أحصينا كل ما وصل إلينا فى فن السير مما كتبه المصريون مما يدل على كلفهم بهـذا الفن . ويخيل إلى أن مصر منذ أقدم عصورها اهتمت بهـذا الفن اهتماما خاصا ، نراه ممثلا فيما تركته مصر

(١) بغية الوعاة ص ٢٤ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٤١٢ وابن ميسر ص ١٤ وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٧ وطبقات الشافعية ج ٣ ص ٦٣ .

(٣) راجع كتاب « فى أدب مصر الإسلامية » .

الفرعونية من سير ملوكها وأمرائها منقوشا على جدران المعابد والمقابر أو مسطراً على ورق البردى ، ونراه فى مصر القبطية فيما تركه الآباء البطارقة من سير من سبقوهم من الآباء والقديسين . وفى مصر الإسلامية ظهرت هذه الحلقات المتتابعة فى فن السير ، ولعل أولها ما قيل من أن ابن إسحق صاحب السيرة النبوية وفد على مصر وروى بها السيرة ، ووفد ابن هشام على مصر وروى بعض أجزاء السيرة عن المصريين .

وبلغت عناية المصريين بالسير وكلفهم بهذا الفن أنهم وضعوا للشعب سيراً عن أبطال أحبهم المصريون وردد الشعب هذه السيرة فى اجتماعاته ومغانيه ، مثل سيرة عنترة بن شداد وسيرة الهلالية . وسنتحدث عن ذلك فيما بعد .

وقد حصلنا أخيراً على مخطوطين فى فن السير ، الأول «سيرة الأستاذ جوذر» والثانى « سيرة المؤيد فى الدين » .

سيرة الأستاذ جوذر (١)

يتحدث هذا الكتاب عن حياة رجل من رجال الدولة الفاطمية الذين أغفل المؤرخون ذكرهم ، وهو الأستاذ جوذر الصقلى ، مع ما كان له من مكانة رفيعة فى الدولة الفاطمية بالمغرب قبل انتقال المعز لدين الله إلى مصر ، ومع ما كان للأستاذ من منزلة قريبة عند الأئمة الفاطميين . يحدثنا هذا الكتاب عن دخول جوذر فى خدمة المهدى بالله الفاطمى ، وأن المهدى أهدى هذا الغلام إلى ولى العهد القائم بأمر الله ، وكيف اشتدت الصلة بين العبد وسيده ، حتى إن القائم — وكان لا يزال ولى العهد — عند ما خرج لغزو بلاد المغرب سنة ٣٠٠ هـ استخلف جوذر على قصره وجميع من فيه من حرمه وأهله ، ولما توفى المهدى بالله سنة ٣٢٢ هـ خص القائم عبده جوذر دون سائر أهله ورجال الدعوة بمرتبة الاستيداع لولى عهده المنصور بن القائم ، فظل هذا السر سبع سنوات حتى أعلن القائم ولاية العهد على الملأ ، وفى خلافة القائم أصبح جوذر صاحب بيت المال ، ووكل بخزائن الكساء كما كان سفيرا بين الخليفة وسائر الناس .

وهكذا ارتفعت منزلة جوذر وأصبح له نفوذ قوى فى هذه الدولة الناشئة فهابه الناس ، وحبه للخير وعطفه على الشعب أحبه الناس . وتوفى القائم بعد ذلك

(١) هو الذى تنسب إليه عطفة وحارة وشارع الجوذرية بقسم الدرب الأحمر بالقاهرة.

ولكن المنصور بالله لم يعلن وفاة أبيه فلم يعلم أحد الخبر إلا جوذر ، وخرج لحرب الخارجين عليه مستخلفا جوذر على دار الملك وسائر البلاد وسلمه مفاتيح خزائن الأموال ، ولما عاد من حروبه أعلن موت القائم وكافأ جوذر على خدماته فأعتقه ولقبه « مولى أمير المؤمنين » وأمره ألا يكنى فى رسائله أحداً ولا يتقدم على اسمه اسما إلا الخليفة وولى العهد ، وأن يرقم اسمه بالذهب على ملابس الخليفة وولى عهده ، وأن يثبت اسمه على الحصر والبسط ، كل ذلك إمعاناً فى تشريفه ، وفى خلافة المعز كان جوذر موضع سر مولاه . إلى أن فتحت مصر وأراد المعز أن يسير إليها ، فأرجف الناس بأن أمر المغرب سيئول إلى جوذر ولكن جوذر أبى أن يفارق إمامه فسار معه إلى مصر ولكنه توفى بالقرب من مدينة برقة فى مكان يعرف بمياسر سنة ٦٣٢ هـ .

لم تقف أهمية سيرة جوذر على هذه الناحية التاريخية من ترجمة أحد رجال الدولة الفاطمية الذين كان لهم أثر قوى فى هذه الدولة منذ نشأتها ، وإنما يوضح هذا الكتاب بعض نواح تاريخية هامة أغفلها المؤرخون القدماء أو مروا بها مرا سريعا ، ففى الكتاب حديث عن تلك الثورات العنيفة التى نشبت بالمغرب عقب قيام الدولة الفاطمية وكادت تقوض أركان تلك الدولة ، كما يطلعنا على العلاقة بين الفاطميين وصقلية ، وعلى ما كان يعانيه الفاطميون من رجال هذه الجزيرة ومن قرصان البحر ، ويظهر سبب الجفاء الذى كان بين المنصور وبين بنى عمومته من أولاد المهدى ، وكيف طلب إلى جوذر أن يشتد فى تأديبهم ورصد حركاتهم . أضف إلى ذلك كله أننا نستطيع أن نعتبر كتاب سيرة جوذر من الوثائق الأدبية فقد جمع مصنفه جميع التوقيعات التى خرجت من المنصور والمعز إلى جوذر ورسائله اليهما ، وقد بلغ عددها فى هذا الكتاب نحو المائة ، فالكتاب أشبه بديوان توقيعات للفاطميين ، ولا أكاد أعرف كتابا جمع توقيعات الفاطميين سوى هذا الكتاب وكتاب المجالس والمسايرات للقاضى النعمان الذى جمع فيه مصنفه بعض توقيعات المعز إليه ، وكتاب السجلات المستنصرية الذى جمع فيه رسائل المستنصر إلى الصليحيين باليمن ، وأجد فى سيرة جوذر بعض قطع من شعر المنصور بالله ، وخطبة المنصور فى نعى القائم ، وخطبة المعز فى نعى المنصور . وهكذا نستطيع أن نستفيد من هذا الكتاب الصغير من الناحية الأدبية والتاريخية والاجتماعية فى العصر الفاطمى بالمغرب .

أما مصنف هذه السيرة فهو رجل مغمور لا نكاد نعرف عنه إلا أنه منصور الجوذرى العزيزى ، وأنه دخل فى خدمة الأستاذ جوذر كاتبا له سنة ٣٥٠ ﻫ وأصبح موضع سره ، وظل فى عمله إلى أن توفى جوذر فاتصل بالمعز فالعزيز. ويتضح من كلامه أن العزيز جعله فى مرتبة رفيعة هى نفس المرتبة التى كان فيها جوذر ، ويضيف المقريزى أن أبا على منصوراً الجوذرى زادت مكانته فى عهد الحاكم بأمر الله ، فأضيفت اليه مع الأحباس الحسبة وسوق الرقيق والسواحل وغير ذلك (١) .

هذا كل ما نعرفه عن واضع هذه السيرة، ونستدل من هذه السيرة أنها صنفت فى عهد العزيز بالله الذى ولى سنة ٣٦٥ ﻫ وتوفى سنة ٣٦٨ﻫ ، ولكننا لا نستطيع أن نحدد السنة التى ألفت فيها(٢) ونرجو أن نوفق إلى نشر هذا الكتاب قريبا .

السيرة المؤيدية :

لا أكاد أعرف كاتبا من كتاب المسلمين ، سبق المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى الدعاة — الذى تحدثنا عنه من قبل — فى تصنيف كتاب خاص لسيرته ، فقد ترجم لنفسه فى هذا الكتاب ، بفصل من تاريخ حياته، أى من سنة ٤٢٩ ﻫ إلى سنة ٤٥٠ ﻫ . وأودع هذا الكتاب بعض رسائله ومناظراته العلمية المذهبية . ولما كان المؤيد ممن أسهم فى الحياة السياسية فى هذه الفترة فهو يوضح جهوده وحركاته وسكناته منذ كان فى بلاط أبى كاليجار البويهى بفارس ، فوصف المؤيد حياته فى هذه البلاد ، كما وصف هذه الحياة التى كان يحياها السلطان مع الندماء وصلة السلطان بالعباسيين ، وكان المؤيد متصلا برجال المستنصر الفاطمى من وزراء وكتاب ودعاة ، فاضطر إلى أن يتحدث عن شىء من أسرار هذا العصر الغامض المضطرب ، وأسرار وزراء مصر فى ذلك العصر ، وذهب المؤيد لمؤازرة البساسيرى فى العراق واجتمع بعدد كبير من أمراء العرب والأتراك والأكراد فتحدث عن هذه الحركة السياسية التى كادت تقوض أركان العباسيين ، فالكتاب على هذا النحو ليس ترجمة للمؤيد فحسب ، بل هو مصدر هام للحياة السياسيه والاجتماعية فى القرن

(١) خطط المقريزى ج٢ ص٦ .

(٢) راجع ما كتبناه عن هذا الكتاب فى مجلة الكاتب المصرى المجلد الثامن عدد ٣١ (أبريل سنه ١٩٤٨) .

الخامس الهجرى، لأن المؤيد ترجم لنفسه من حيث علاقته بالمجتمع الذى عاش فيه. والكتاب قيم جدا فى دراسة هذه السنوات الإحدى والعشرين التى كان بها أحداث وخطوب ، وكان لها أثر قوى فى مجرى الحياة الإسلامية عامة ، ولقيمة هذا الكتاب نشرناه (١) فهو فى متناول القراء الآن .

وهكذا كانت حركة التاريخ والسير قوية فى مصر الفاطمية كما كانت قوية قبل عصر الفاطميين ، وكما كانت قوية بعد عصر الفاطميين ، ففن التاريخ وروايته من الفنون التى ازدهرت فى مصر فى عصورها المختلفة ، شغف به المصريون فأكثروا من روايته وتدوينه .

خاتمة القول فى الحياة العقلية

قلنا إن العقائد الفاطمية كانت ميداناً فسيحاً للعقل ، وإن الفاطميين أفسحوا صدورهم للدراسات الفلسفية فى وقت كانت فيه هذه الدراسات موضع هجمات عنيفة فى الأقطار الإسلامية الأخرى ، بل رأينا الفاطميين يأخذون من النظريات والآراء الفلسفية والدينية القديمة ويصبغون هذه الآراء والديانات بالصبغة الإسلامية بما يتفق مع العقائد التى بشروا بها ، فأعطوا لأنفسهم من حرية التفكير وفى الأخذ عن القديم ، والاجتهاد فى المذهب ، مالا نراه عند غيرهم من الفرق الإسلامية الأخرى ، ولكن هذا الاجتهاد وهذه الحرية الواسعة فى الفكر كانت مقيدة بموضوع الإمامة ، فكل مؤلفات الدعوة الفاطمية، ومجالس حكمتهم، كانت تدور قبل كل شىء حول صاحب النص المعصوم وتثبيت إقامته وإظهار الإمام بمظهر الجلال والقدسية ، فكأن الفاطميين فى مصر قد أعادوا اليها شيئاً من الحياة الفكرية التى كانت بالاسكندرية منذ عهد بطليموس . إذ كان أهم الدراسات بالاسكندرية استرضاء الحكام وإشباع غرورهم بإسناد الفضائل كلها اليهم والى أجدادهم ، بيد أن دعاة الفاطميين اتخذوا التعاليم الدينية ذريعة للوصول إلى غرضهم فأدخلوا فى الدين ما وصلت اليه الفلسفة الهلينية والأفلاطونية الحديثة ، وبعض الإسرائيليات والمسيحيات وآراء هرمس الحرانى وغيرها من الآراء القديمة ، وذلك كله لإسباغ الفضائل كلها على الأئمة من أهل البيت ، فكأنهم قالوا بحرية

(١) سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة (من مطبوعات دار الكاتب المصرى) .

الفكر الى أبعد مدى هذه الحرية ، ولـكنهم مع ذلك قيدوا هذه الحرية بالإمامة .

وكانت هذه الحرية الفكرية سببا فى ازدهار الحركة الفلسفية فى مصر وظهور عدد كبير من الفلاسفة على نحو ماذكرنا من قبل ، ولـكن هذه الدراسات الفلسفية كانت فى أغلبها تتبع عقائد الفاطميين ، فدراسة الأفلاك والنجوم وإنشاء الرصد مثلا كانت كلها بسبب معرفة ابتداء شهر رمضان ، ويغلب على ظنى أن الفاطميين لو لم يدينوا برؤية الهلال رؤية استبصار وعلم لما ازدهرت هذه الألوان من الدراسات .

ورأينا أن مصر الفاطمية شاهدت دراسات أدبية عربية ، ولـكننا نلاحظ أن هذه الدراسات كانت مقصورة على دراسة النصوص القديمة وشرحها والتعليق عليها دون أن تنتج مصر شيئا جديدا ، وهذا ما كان أيضا فى مصر إبان ازدهار مدرسة الاسكندرية حين كانت الدراسات الأدبية تقوم على دراسة شعر هوميروس ووضع المعجمات لمفردات هذه الأشعار وغيرها من الشعر القديم ، دون أن يكون للدراسات الوجدانية أثر قوى فى هذه الدراسات التى قوى فيها عمل العقل والاراء العلية أكثر مما يظهر تأثير العاطفة التى تستوحى من نفسية الشعب ، ولذلك تتفق الدراسات الأدبيـة فى العصر الاسكندرى مع العصر الفاطمى فى أن هذه الدراسات لا تظهر فيها شخصية مصر ، وكذلك فى المزاوجة بين الدراسات الأدبية الخالصة والآراء الفلسفية بمصطلحاتها وتعبيراتها ، ومن هنا نرى سبب هذا التعقيد فى أسلوب الدعاة والعلماء ، حتى يخيل إلينا أن هؤلاء العلماء بعدوا عن التعبيرات الأدبية التى تتمثل فيها البساطة والذوق الموسيقى والعاطفى فى اللفظ والمعنى ، ولـكن الدعاة والعلماء فى العصر الفاطمى حشوا كتاباتهم بالتعبيرات الفلسفية ، واستعملوا مصطلحات اضطروا أن ينحتوها من ألفاظ عربيـة ، وأن يتلاعبوا بقواعد الصرف المعروفة فجاءت كتاباتهم غريبـة عن الأسلوب العربى . حقيقة حاول بعض الدعاة والعلماء أن يستعيدوا الأسلوب الأدبى وأن يبتعـدوا عن تعقيدات الفلاسفة ، ولـكنهم وجدوا مشقة فى تعبيرهم ، وصعوبة فى صناعتهم . فاضطروا إلى استخـدام المحسنات البديعية والإغراق فيها ليفتنوا الجماهير بالزينة اللفظية ، فكانت نتيجة ذلك أنهم تجنبوا تعقيداً ليقعوا فى تعقيد آخر ، وهذه الشروح والحاشيات التى وضعت حول النصوص القديمـة احتاجت هى نفسها فيما بعد إلى شروح وحواش أخرى لتوضيحها وتقريبها إلى المتعلمين ، وهكذا

كانت جناية الدراسات الفلسفية والمصطلحات العلمية على الأساليب العربية .

على أن هذه الظاهرة لم تكن فى مصر فحسب ، بل كانت فى جميع الأقطار الإسلامية منذ عرفت هذه الأقطار هذه العلوم التى عرفت بالعلوم الدخيلة ، ومنذ أخذ أصحاب الفرق المختلفة الصياغات المنطقية والفلسفية للتعبير عن آرائهم ودحض رأى خصومهم ، ومن يدرى لعل هؤلاء العلماء تعمدوا تعقيد أسلوبهم حتى يقال عنهم إنهم علماء ، وهاهو ذا الجاحظ يحدثنا عن هؤلاء الذين تعمدوا التعقيد فيقول : « قلت لأبى الحسن الأخفش : أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ فأجاب: أنا رجل لم أصنع كتبى هذه لله ، وليست هى من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعوننى إليه قلت حاجات الناس إلى فيها . وإنما كانت غايتى المنالة ، فأنا أضع بعضها هـذا الوضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا ، وإنما قد كسبت فى هذا التدبير ، إذ كنت إلى التـكسب ذهبت » (١) .

ومهما يكن من شىء فقد كانت هذه الحركة العقليـة فى مصر الفاطمية فى نمو مطرد فى كل نواحيها وألوانها وفنونها ، وتعددت مراكزها فى مصر ، وكانت حلقات الدرس فى المساجد أو الدور فى القاهرة والفسطاط وفى الاسكندرية وتنيس فى الشمال وفى أسوان وقوص وقفط فى الجنوب ، كما كان أمراء الأقاليم يجمعون حولهم العلماء والشعراء ، وهاهو ذا عمارة اليمنى يحدثنا فى « النكت » عن بعض هؤلاء الأمراء وعن مجالسهم وشعرائهم ، فالحياة العلمية كانت مزدهرة فى مصر الفاطمية ، وعن مصر أخذ كثير من العلماء فى الغرب والشرق ، فلا غرو إن قلنا إن مصر الفاطمية كانت بدءاً للزعامة المصرية للأقطار الإسلامية ، تلك الزعامة التى لا تزال مصر تحمل لواءها إلى الآن .

(١) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٥٠ (طبعة الساسى) .

الكتابُ الثاني

في الحيـــاة الأدبية

الباب الأول

فى الشعر

الفصل الأول

ازدهار الشعر

عرف الفاطميون بثراء دولتهم ، وبذخهم الذى لا مثيل له بين ملوك الدول الأخرى ، وأكثروا من استحداث الأعياد والمواسم ، وافتنوا فى إقامة حفلاتهم ومواسمهم ، حتى يخيل إلى من يقرأ تاريخهم أن حياة مصر فى ذلك العصر الزاهر كانت كلها أعيادا ومواسم ، وكلها لهوا ومرحا . بالرغم مما كان فى هذا العصر من سنى شدة وقحط ضرب بها المثل ، ولكن هذه الأيام العجاف لم تمنع الفاطميين من الاحتفال بأيامهم التى اتخذوها لأنفسهم أعياداً بجانب تلك الأعياد التى يتخذها باقى المسلمين ، والأعياد التى يحييها مسيحيو مصر ويشترك معهم فيها إخوانهم المسلمون . فكان الشعب فى عصرهم يتظاهر بما يجلب السرور إلى نفسه ، حتى لو كان ذلك عن طريق المجون وارتكاب المعاصى ، وكانت الدولة تحتفل بهذه الأيام احتفالا يتناسب مع عظم ملكهم واتساع سلطانهم ووفرة خيراتهم وأموالهم ، وقد تكون هذه المبالغة منهم فى حياتهم لونا من ألوان التنافس السياسى بينهم وبين أعدائهم ، فيقف أعداؤهم على هذه الحياة البهيجة الفرحة ، والنفقات الطائلة ، فيعلمون أنهم أمام دولة قوية غنية ، فتضعف همتهم عن مهاجمتها ، أما هذه الأعياد التى استحدثوها فى مصر فقد روى المقريزى عن ابن الطوير المؤرخ أن الفاطميين كانوا يحتفلون بستة موالد : مولد النبى صلى الله عليه وسلم ومولد على بن أبى طالب ، ومولد فاطمة بنت الرسول ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد الخليفة الحاضر (1)

وفى فصل آخر من خطط المقريزى تحدث المؤلف عن الأيام التى كان الفاطميون يتخذونها أعيادا ومواسم ، فقال : وكان للخلفاء الفاطميين فى طول السنة أعياد ومواسم ، وهى : موسم رأس السنة ، وموسم أول العام ، ويوم عاشوراء ومولد

(1) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٩٣ .

النبي (ص) ومولد علي بن أبي طالب ومولد الحسن ومولد الحسين ومولد فاطمة الزهراء ومولد الخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب وليلة نصفه وليلة أول شعبان وليلة نصفه وموسم ليلة رمضان وغرة رمضان وسماط رمضان وليلة الختم ، وموسم عيد الفطر ، وموسم عيد النحر ، وعيد الغدير . وكسوة الشتاء وكسوة الصيف ، وموسم فتح الخليج ويوم النوروز ويوم الغطاس ويوم الميلاد وخميس العدس[١] وأضاف إلى ذلك أيام حفلات صلاة الجمعة فقد كان الخلفاء يركبون فى كل سنة ثلاث ركبات لصلاة الجمعة بالناس فى جامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر مرة وفى جامع الحاكم مرة وفى جامع عمرو بن العاص مرة ، وينال الناس من الخليفة فى هذه الجمع الثلاث رسوما وهبات وصدقات[٢] . وأضاف أيضا أيام الركوبات التى كان فيها الخليفة يركب فى كل يوم سبت وثلاثاء إلى متنزهاته بالبساتين والمناظر التى بنوها لنزهاتهم[٣] ويوم سفر الحاج[٤] وركوب الخليفة فى أول شهر رمضان[٥] وتحدث المقريزى كذلك فى مكان آخر عن ليالى الجمع من شهرى رجب وشعبان وليلتى النصف منهما[٦] فكل هذه الأيام التى كان يحتفل بها الفاطميون ، سواء أكانت أيام حزن مثل عاشوراء أو أيام فرح تمد فيها السمط الفاخرة ، وينفق فيها عن بذخ وإسراف ويصيب رجال الدولة وكل من يتصل بالقصر من النعم والخلع . كل بما يتناسب مع مكانته ، وينال الشعب الذى يشارك أمراؤه فى أفراحهم وأحزانهم حظا مما كان يغدقه الخلفاء والأمراء عليه ، فاذا مصر كلها تحتفل بهذه الأيام التى استنها الفاطميون ، وقد يطول بى الحديث لو توخيت وصف هذه الحفلات الكثيرة ، وأكتفى هنا بأن أعطى صورة ليوم واحد من أيام أعيادهم نقلا عن المقريزى عن المؤرخ المعاصر ابن المأمون فى وصف موسم أول العام :

وأسفرت غرة سنة سبع عشرة وخمسمائة ، وبادر المستخدمون فى الخزائن وصناديق الإنفاق بحمل ما يحضر بين يدى الخليفة من عين وورق من ضرب السنة المستجدة ، ورسم جميع من يختص به من إخوته وجهاته وقرابته وأرباب الصنائع والمستخدمات . وجميع الأستاذين العوالى والأدوان ، وثنوا بحمل ما يختص بالأجل المأمون وأولاده وإخوته . واستاذنوا على تفرقة ما يختص

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٨٤ وما بعدها . (٢) الخطط ج ٢ ص ٣٩٢
(٣) المصدر السابق (٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٨٨
(٥) « « ج ٢ ص ٣٨٦ . (٦) « « ج ٢ ص ٣٤٥ .

بالأجل المامون وأولاده واخوته واستأذنوا على تفرقة ما يختص بالأجل المأمون وأولاده والأصحاب والحواشى والأمراء والضيوف والأجناد ، فأمروا بتفرقته ، والذى اشتمل عليه المبلغ فى هذه السنة نظير ما كان قبلها ، وجلس المأمون باكرا على السماط بداره ، وفرقت الرسوم على أرباب الخدم والمميزين من جميع أصنافه على ما تضمنته الأوراق ، وحضرت التعاشير والتشريفات وزى الموكب إلى الدار المأمونية ، وتسلم كل من المستخدمين المدارج بأسماء من شرف بالحجبة ومصفات العساكر ، وترتيب الأسمطة ، وأصمد كل منهم إلى شغله ، وتوجه لخدمته ، ثم ركب الخليفة واستدعى الوزير المأمون ، ثم خرج من باب الذهب ، وقد نشرت مظلته وخدمت الرهجية ورتب الموكب والجنائب ومصفات العساكر عن يمينه وشماله وجميع تجار البلدين من الجوهريين والصيارف والصاغة والبزازين وغيرهم قد زينوا الطريق بما تقتضيه تجارة كل منهم ومعاشه لطلب البركة بنظر الخليفة ، وخرج من باب الفتوح ، والعساكر فارسها وراجلها بتجملها وزيها ، وأبواب حارات العبيد معلقة بالستور ، ودخل من باب النصر ، والصدقات تعم المساكين ، والرسوم تفرق على المستقرين ، إلى أن دخل من باب الذهب ، فلقيه المقرئون بالقرآن الكريم فى طول الدهاليز إلى أن دخل خزانة الكسوة الخاص ، وغير ثياب الموكب بغيرها . وتوجه إلى تربة آبائه للترحم على عادته ، وبعد ذلك إلى ما رآه من قصوره على سبيل الراحة ، وعبيت الأسمطة وجرى الحال فيها وفى جلوس الخليفة ومن جرت عادته وتهيئة قصور الخلافه وتفرقة الرسوم على ما هو مستقر . وتوجه الأجل المأمون إلى داره فوجد الحال فى الأسمطة على ما جرت به العادة والتوسعة فيها أكثر مما تقدمها ، وكذلك الهناء فى صبيحة الموسم بالدار المأمونية والقصور ، وحضر من جرت العادة بحضوره للهناء ، وبعدهم الشعراء على طبقاتهم ، وعادت الأمور فى أيام السلام والركوبات وترتيبها على المعهود ، وأحضر كل من المستخدمين فى الدواوين ما يتعلق بديوانه من التذاكر والمطالعات مما تحتاج إليه الدولة فى طول السنة وينعم به ويتصدق ، ويحمل إلى الحرمين الشريفين من كل صنف على ما فصل فى التذاكر على يد المندوبين ، ويحمل إلى الثغور ، ويخزن من سائر الأصناف ما يستعمل ويباع فى الثغور والبلاد .. الخ[١]

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٣١٣ — ٣١٤ .

هذه صورة ما نقله المقريزى عن المؤرخين المعاصرين عما كان يجرى تحت بصرهم وسمعهم فى يوم من أيام هذه الأعياد الكثيرة التى استحدثها الفاطميون ، ومن هذه الصورة نتبين أن هذه الأعياد لم تكن أعياد الخلفاء والأمراء ورجال القصر فحسب ، بل كانت أعياد الشعب أيضا بما كان يقدم فيها من الصدقات والسمط . فإذا الشعب يشارك الحاكمين ، ويناله شىء من بذخ الفاطميين ، فإذا هو فى فرح وبشر . ولا يكاد يمضى عيد حتى يلحقه آخر .

فى هذه الحفلات كان الشعراء يتبارون فى إنشاد قصائدهم ، ويتنافسون فى الإجادة والإتقان . وينعمون بأخذ جاريهم وصلاتهم بما لم ينعم به الشعراء فى الدول الأخرى . فلا غرابة إن قلنا إن هذه الأعياد والمواسم كانت من دوافع ازدهار الشعر فى العصر الفاطمى ، وموضوعا من موضوعاته ، حتى إن عمارة اليمنى فى قصيدته التى رثى بها دولة الفاطميين لم يستطع إلا أن يذكر هذه الأعياد والمواسم فقال :

أبكى على ما تراءت من مكارمكم	حال الزمان عليها وهى لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم	واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إذ أضحت مكارمكم	تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست	ورث منها جديد عندهم وبلى
وموسم كان فى يوم الخليج لكم	يأتى تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدين كم لكم	فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز فى يوم الغدير كما	يهتز ما بين قصريكم من الأسل
والخيل تعرض فى وشى وفى شية	مثل العرائس فى حلى وفى حلل (١)

ولعل هذه الصورة التى صورها الشاعر عمارة اليمنى لحفلات وأعياد الفاطميين تدل على ما كانت عليه مصر فى ذلك العصر المترف الغنى .

وليست الأعياد والمواسم التى استحدثها الفاطميون هى فقط أظهر ما كان فى الحياة الاجتماعية فى مصر الفاطمية ، ولكننا نرى الفاطميين يكثرون من المبانى والمنشآت التى أقاموها فى البلاد ، ولعل عنايتهم بالمتنزهات والمناظر والإكثار

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٩٣ .

منها من الأدلة التى نستطيع أن نقدمها على حب الفاطميين للفنون المختلفة ، فهذه البساتين التى جملوا بها مدينتهم القاهرة وضواحيها ، لم تتخذ متنزها لهم فقط دون غيرهم من الرعية ، بل أباحوا للناس دخولها والتمتع بمناظرها وجوها ، فأوجد ذلك عند المصريين لونا من ألوان الحياة الناضرة البهيجة ، وسمت النفوس إلى حب الطبيعة وحب الجمال معا . ولقد كان خروج المصريين فى ذلك العصر إلى المتنزهات جزءا هاما من مقومات حياتهم ، وهناك كانوا يقصفون ويطربون ، وينعمون بجمال الرياض وأريج الزهور ، وكان الشعراء يقصدون هذه الرياض جماعات يتطارحون الشعر ويتبارون فى الإنشاد ، يستوحون من جمال الزهر والطبيعة وحى شعرهم ، فإذا صح ما رواه القدماء أن شعراء الجاهلية كانوا يخرجون إلى الصحراء لاستلهام الشعر ، فكذلك خرج شعراء مصر إلى البساتين يتغنون ببدائع الطبيعة ، فكانت هذه المتنزهات والبساتين التى أكثر منها الفاطميون مصدرا خصبا لكثير من الشعر المصرى فى العصر الفاطمى .

كانت الحياة المصرية إذن حياة ترف ، وكان سكان مصر على حظ من الثراء والغنى يحسدهم عليه العباسيون فى أوج مجدهم وسعة سلطانهم ، وكان الخلفاء الفاطميون يسرفون فى الإغداق على الشعب بما يملكون من مال ومتاع ورقيق ، مما كان يحمله إليهم الدعاة من مال الخمس (١) وأموال النجوى ، ومن هدايا الأمراء فى المشرق ، وكان الوزراء يتشبهون بالأئمة فى الظهور بمظهر الملك فأنفقوا عن سعة وافتن الشعب فى التشبه بأمرائهم وحكامهم ، فظهروا بمظهر صاحب الثروة واتخذوا من الحياة أبهجها ومن الزينة واللباس أزهاها ، وأكثروا من اقتناء الرقيق والقيان ، وإقامة المآدب واستدعاء الخلان لمجالس اللهو والشراب ، حتى خيل إلينا أن حياة المصريين كانت حياة لهو وقصف وسماع غناء وألحان ، فكان ذلك كله وحيا للشعراء بالقريض .

ومن عوامل ازدهار الشعر فى هذا العصر الفاطمى أن القائمين على شئون البلاد اتخذوا من الشعر وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية على نحو ما تتخذ الأحزاب السياسية اليوم بعض الصحف لتعبر عن اتجاه هذه الأحزاب وآرائها ، وقد ذكرنا أن الفاطميين عرفوا قدر الدعاية فاهتموا بها أيما اهتمام ، واصطنعوا

(١) راجع كتاب الهمة فى آداب اتباع الأئمة (من مطبوعات دار الفكر العربى) .

كل مايفيدهم فى دعوتهم من علماء وأدباء وشعراء . وكان الفاطميون على قدرة وكياسة فى فن السياسة ، فعرفوا أن الشعر العربى منذ العصر الجاهلى كان من أهم وسائل الدعاية للقبيلة فى العصر الجاهلى وللأحزاب السياسية والفرق الإسلامية بعد ظهور الإسلام . وأن بعض الشعراء فى العصر العباسى أمثال مروان بن أبى حفصة وأبان بن عبد الحميد اللاحقى وغيرهما أدخلوا فى شعرهم بعض الآراء الفقهية فى الدفاع عن الخلافة العباسية ضد الطامعين من العلويين. فلم يشأ الفاطميون أن يتركوا سلاح الشعر دون أن يشهروه على خصومهم . أو أن يستخدموه فى الدفاع عنهم والمباهاة بفضائلهم والإشادة بدولتهم . فلاغرو أن وجدنا الفاطميين يبذلون العطاء الضخم الجسيم لشعراء دولتهم . ويجعلون لبعض الشعراء مرتبات شهرية . وينقل المقريزى عن ابن الطوير أنه كان للشعراء رواتب جارية من عشرين دينارا إلى عشرة دنانير(١) ويروى أيضاً أنه فى يوم عاشوراء كان يخرج الرسم المطلق للمتصدرين والقراء والوعاظ والشعراء وغيرهم على ماجرت به عادتهم(٢) ومعنى هذا أن الفاطميين كانوا يعطون الشعراء فى أيام المواسم والأعياد رواتب خاصة غير ما كان يعطى لهم شهرياً . ويحدثنا المقريزى مرة أخرى فى كلامه عن بركة الحبش أنه كان بها طاقات ، وعليها صور الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش كتب عليها قطعة من شعر الشاعر فى المدح ، وعلى الجانب الآخر رف لطيف مذهب ، وأن الخليفة الآمر بأحكام الله لما دخل هناك وقرأ الأشعار أمر أن توضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده (٣) .

فلا أكاد أعرف دولة من الدول الاسلامية أقامت للشعراء هذا التمجيد بأن يضعوا صورة كل شاعر مع اسمه وبلده فى طاقات فى متنزهات عامة ، مما يدل دلالة قاطعة على تمجيد لفن الشعر والشعراء ، فأين نحن الآن من مصر فى العصر الفاطمى ؟ !

ويذكر العماد فى الخريدة أن الفاطميين جعلوا من وظائف الدولة وظيفة « مقدم الشعراء » ويذكر أن مقدم الشعراء فى عهد الأفضل بن بدر الجمالى هو

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٤٣ (٢) الخطط ج ٢ ص ٢٩٠ .
(٣) الخطط ج ١ ص ٤٨٦

الملقب بمسعود الدولة المعروف بابن حريز(١) . وكانت سيدات قصر الإمامة الفاطمية يغدقن الأموال على الشعراء كلما سمعن منهم شعراً جيداً فى مدح الأئمة ، ويحدثنا عمارة اليمنى أنه بعد أن أنشد قصيدته الأولى فى مصر أخرجت له السيدة الشريفة بنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار(٢) ، وهكذا نرى الفاطميين يولون الشعر والشعراء عنايتهم لأن الشعراء لسان من ألسن تمجيدهم والذود عنهم أمام أعداء كثيرين أقوياء ، فإغداق النعم الفاطمية على الشعراء كان من أشد الأسباب التى جعلت الشعراء يحرصون على إتقان الشعر مع الاكثار من الإنشاد ، فكثر الشعراء وكثر إنتاجهم ، واستغل الفاطميون هؤلاء الشعراء فى رفع شأن دولتهم وخلفائهم حتى فى القسم الأخير من العصر الفاطمى الذى ضعف فيه الأئمة واستبد الوزراء بالملك فقد طلب إلى الشاعر أبى عبدالله مسلم أن ينظم « السيرة المصرية » وجعلوا له خمسة دنانير كل شهر على ذلك ، فسأل أن يجرى له شىء على الشعر مثل غيره من الشعراء، فزيد نصف دينار، فهجاه الشاعر مجير بن محمد الصقلى المتوفى حوالى سنة ٥٤٠ ه بقوله :

جرى الحديث فقالوا كل ذى أدب ... أضحت له خمسة تجرى بمقدار
بأى فضل حواه ابن المسلم من ... دون الجماعة حتى زيد فى الجارى
أجروا له خمسة عن حق سيرته ... فقال : لا تنقصونى حق أشعارى
نادوا عليه وسوق الشعر نافقة ... فلم يزد قدرها عن نصف دينار(٣)

وهكذا كان الفاطميون يستغلون شعر الشعراء فى تثبيت أركان دولتهم حتى فى وقت ضعف سلطانهم .

شعر الأئمة :

بجانب ذلك كله كان الفاطميون يقدرون الشعر ويتذوقونه من حيث هو فن من الفنون التى تجب العناية بها ويقدرها كل من نال حظاً من الثقافة ورقة الشعور ودقة الإحساس ، بل يذكر المؤرخون أن من بين الأئمة الفاطميين من

(١) الخريدة ورقة ١٠٢ ا (٢) النكت ص ٣٤
(٣) الخريدة ورقة ١٠٢ ا

كان ينشد الشعر ، وقد رأينا كيف خاطب القائم بأمر الله المصريين بالشعر إبان غزواته ، ويذكر صاحب سيرة جوذر عدة أبيات للمنصور بالله ، منها :

تبدلت بعد الزعفران وطيبه   صدا الدرع من مستحكمات السوامر
ألم ترنى بعت المقامة بالسرى   ولين الحشايا بالخيول الضوامر
وفتيان صدق لاضغائن بينهم   يثورون ثورات الأسود الخوادر
أرونى فتى يغنى غنائى ومشهدى   إذا رهج الوادى لوقع الحوافر
أنا الطاهر المنصور من نسل أحمد   بسيفى أقد الهام تحت المغافر (١)

ومن شعر المنصور بالله أيضاً يخاطب ابنه وولى عهده المعز لدين الله :

كتابى إليك مِنَ اقصى الغروب   وشوقى شديد عريض طويل
أجوب القفار وأطوى الرمال   وأحمل نفسى على كل هول
أريد بذاك رضاء الإله   وإعزاز دولة آل الرسول
إلى أن برى السير أجسامنا   وكلّ الركابُ وتاه الدليل
فواغربتاه وواوحشتاه   وفى الله هذا قليل قليل
وما ضقت ذرعاً ولكننى   نهضت بقلب صبور حمول
وقد مَنّ ذو العرش من فضله   بفتح مبين وعز جليل
وفى كل يوم من الله لى   عطاء جديد وصنع جميل
فلله حمد على ما قضى   وحسبى ربى ونعم الوكيل (٢)

ولعلك تلاحظ معى أن المقطوعة الأولى أقوى وأجزل شعراً من المقطوعة الثانية التى هى أقرب إلى الكلام العادى منها إلى فن الشعر ، فالقطعة الأولى من شعر المنصور تدل على أن صاحبها شاعر حماسى ملك ناصية الفن فى اللفظ والمعنى ، فهو يختار اللفظ الذى يتلاءم فى موسيقاه مع المعنى الذى يقصده الشاعر فيلذ الأذن والعقل معاً ، ولكن القطعة الثانية فلا أستطيع أن أقول إلا أن ناظمها يعبث حين يدعى أنه يقول شعراً .

ويذكر ابن خلكان أن المعز لدين الله كان أديباً شاعراً ، وينسب إليه هذه الأبيات :

(١) سيرة الأستاذ جوذر (نسخة خطية بمكتبتى) .
(٢) المصدر السابق .

لله ماصنعت بنا   تلك المحاجر فى المعاجر
أمضى وأقضى فى النفوس   من الخناجر فى الحناجر
ولقد تعبت ببينكم   تعب المهاجر فى الهواجر (١)

فهذه الأبيات إن دلت على شىء فهى تدل قبل كل شىء على أن الشاعر كان من شعراء الزينة البديعية ، فقد فتن بهذه الملاءمة اللفظية بين « المحاجر » و « المعاجر » وبين « أمضى » و « أقضى » وبين « الخناجر » و « الحناجر » وبين « المهاجر » و « الهواجر » ومع ظهور هذه الصنعة البديعية فى هذه الأبيات فإن خيال الشاعر كان قويا فى تعبيره عما تفعله العيون التى تختفى تحت المحاجر ولكنها تصيب هدفها ، وتفعل فى النفوس أكثر مما تفعله الخناجر فى الحناجر .

وكذلك ينسب القدماء إلى المعز لدين الله هذه الأبيات :

أطلع الحسن من جبينك شمسا   فوق ورد فى وجنتيك أطلا
وكأن الجمال خاف على الور   د جفافا فمد بالشعر ظلا (٢)

هنا صورة جميلة من شاعر بلغ درجة لا بأس بها من الفن ، فهو يصف جمال المحبوب بصورة من صور الطبيعة المحببة إلى النفس فهى كالورد المتفتح قد غمرته الشمس ، ولكن الشاعر كان دقيق الحس رقيق الشعور ، فخشى أن يذبل الورد من حرارة الشمس فظلله بخصلة من شعر الحبيب ، فالصورة هنا لا شك جميلة ، ولا غرو أن رأينا القدماء قد فتنوا بها حتى قال ابن خلكان : « إن هذا معنى غريب بديع »(٣) . ولكن هل أستطيع أن أنسب هذه الأبيات إلى المعز لدين الله كما روى ابن خلكان ، أم أنسبها إلى ظافر الحداد الشاعر الفاطمى الفحل إذ ورد فى الخريدة أن ظافراً قال :

أطلع الشمس من جبينك بدر   فوق ورد من وجنتيك أطلا
فكأن العذار خاف على الور   د جفافا فمد بالشعر ظلا (٤)

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٣
(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٣   (٣) نفس المصدر السابق
(٤) الخريدة ورقة (٨٧ ب)

لست أدرى لمن أنسب البيتين ، فربما حاكى ظافر الإمام المعز فأخذهما عنه بعد أن غير بعض الألفاظ ، أو ربما نسب أتباع المذهب البيتين إلى المعز عندما أرادوا إثبات شاعريته . ومهما يكن من شيء فإن المؤرخ ابن إياس تحدث أيضا عن شعر المعز فقال : «كان المعز عاقلا حازما لبيبا فصيحا شاعرا ، وله شعر جيد من ذلك قوله :

ما بان عذرى فيه حتى عذرا   وبدا البنفسج فوق ورد أحمرا
همت بقبلته عقارب صدغه   فاستل ناظره عليها خنجرا(١)

وهكذا كان المعز لدين الله ينشد الشعر ، وعرف به ، وكذلك كان ابنه العزيز بالله نزار ، وابنه المعروف بالأمير تميم ، يقول أبو المحاسن عن العزيز : «كانت لديه فضيلة ، وله شعر جيد(٢)» . وروى الثعالبى فى يتيمته قول العزيز ، وقد وافق بعض الأعياد وفاة ابنه وعقد المآتم عليه :

نحن بنو المصطفى ذوو محن   يجرعها فى الحياة كاظمنا
عجيبة فى الأنام محنتنا   أولنا مبتلى وخاتمنا
يفرح هذا الورى بعيدهم   طرا ، وأعيادنا مآتمنا(٣)

فالشاعر فى هذه الأبيات صادق العاطفة يعبر عن ألم دفين وحزن كمين ، فهو لم يحزن لفقد ولده فحسب بل هو يألم لما أصاب أهل البيت من محن وكوارث حتى أصبحت أعيادهم مآتم ، ويخيل إلى أن هذه العاطفة الصادقة هى التى دفعت العزيز لأن يقول :

ولما رأيت الدين رثت حباله   وأصبح ممحو الضيا والمعالم
وأصبحت الأغنام من كل أمة   تسوم عباد الله خزم الخاطم
وتحكم فى أموالها ودمائها   بغير كتاب الله عند التحاكم
غضبت لدين الله غضبة ثائر   غيور عليها مانع للمحارم
وسيرت نحو الشرق بحر كتائب   تموج بأبطال رجال قماقم

(١) تاريخ ابن اياس ج ١ ص ٤٨ (٢) النجوم ج ٤ ص ١٢١ .
(٣) اليتيمة ج ١ ص ٢٢٣ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٣ .

يقودون جرد الخيل تخطر بالقنا   وبالمشرفيات الرقاق الصوارم
أنا ابن رسول الله غير مدافع   تنقلت فى الأنوار من قبل آدم
لى الشرف العالى الذى خضعت له   رقاب بنى حواء من كل عالم
بنا فتحت أبواب كل هداية   ومنا بحمد الله (خير الخواتم)
فقل لبنى العباس مع ضعف ملكهم   بأنهم أسرى بأيدى الأعاجم
غصبتم بنى المروان ما غصبوه من   مواريثنا ، سحقا لظالم ظالم
ولم تحفظوا فينا وصايا محمد   ولا ما ادعيتم من مناسب هاشم
سنسقيكم كأسا كما قد سقيتم   أوائلنا والله أعدل حاكم(١)

ففى هذه الأبيات نحن أمام رجل غيور على عقيدته ودينه ، شديد العداء لمن خالفه من العباسيين ، يتوعدهم بالانتقام لما أصاب آباءه وأجداده من محن على أيديهم ، شديد الفخر بنسبته الى الرسول الكريم ، وهو فى ذلك كله لا ينسى عقائده المذهبية التى كان إمامها ، فأشار إلى أنه تنقل فى الأنوار من قبل آدم . فهذا المعنى لا يقوله إلا من اعتقد مذهب الفاطميين ، وذلك أن الفاطميين ذهبوا إلى أن الله سبحانه خلق نور محمد (ص) قبل أن يخلق السموات والأرض ، وأن هذا النور تنقل فى الأصلاب الطاهرة والأرحام الزكية حتى بلغ عبد المطلب ، فقسم الله هذا النور قسمين قال لأحدهما : كن يا هذا محمدا ويا هذا كن عليا ، وأن هذا النور يجمع مرة أخرى بزواج على من فاطمة بنت الرسول وتنقل فى الأئمة من ذريتهما حتى كان العزيز بالله ، فكأن العزيز وجد قبل آدم لأن النور الذى حل به وجد قبل آدم (٢) .

وكان الحاكم بأمر الله شاعرا أيضا وينسب إليه صاحب النجوم الزاهرة :

دع اللوم عنى لست منى بموثق   فلا بد لى من صدمة المتحقق
وأسقى جيادى من فرات ودجلة   وأجمع شمل الدين بعد التفرق(٣)

(١) ورقة ٦٣ ا من مجموعة أشعار اسماعيلية ، نسخة خطية بمكتبتى .
(٢) راجع المجالس المؤيدية فى مواضع شتى وما كتبناه عن ذلك فى مقدمة ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة .
(٣) النجوم ج ٤ ص ١٩٦

الصليحى باليمن ، ولكن من يطلع على هذه الرسائل يدرك أن مثل هذه الرسائل لا تصدر عن الإمام ، إنما تصدر عن كتابه ، وقل أن نجد خليفة من خلفاء المسلمين أرسل مثل هذه الرسائل لأحد عماله ، إنما كان ذلك عمل كتاب ديوان الإنشاء ، ونحن نشك فى نسبة هذه الرسائل إلى المستنصر ، ونرجح أنها كتبت بعد انتقال مركز الدعوة المستعلية إلى اليمن ، وأن كاتبها أحد الدعاة فى اليمن ، وسنعود إلى هذه الرسائل فى بحث آخر(١) .

ويقول صاحب النجوم عن الآمر بأحكام الله « كان للآمر نظم ونظر فى الأدب(٢) » وروى له عدة أبيات منها الأبيات التى نسبها حيناً إلى الحاكم وحينا آخر إلى الآمر ، كما ذكرنا من قبل . وينسب ابن ميسر إلى الآمر قوله :

أما والذى حجت إلى ركن بيته ... جرائيم ركبان مقلعة شهبا
لأقتحمن الحرب حتى يقال لى ... ملكت زمام الحرب فاعتزل الحربا
وينزل روح الله عيسى بن مريم ... فيرضى بنا صحبا ونرضى به صحبا(٣)

وينسب طائفة البهرة إلى الآمر بأحكام الله رسالة تعرف « بالهداية الآمرية فى إبطال الدعوة النزارية » وقد نشر هذه الرسالة صديقنا الأستاذ آصف فيظى وذكر فى مقدمته لهذه الرسالة أنها ليست للآمر فى الحقيقة وربما كانت لأحد كتابه ، فإن هذه الرسالة من السجلات التى يكتبها رجال ديوان الإنشاء ، وربما كان الآمر هو الذى أوصى بها(٤) .

وهكذا كان بعض الأئمة الفاطميين ينشد الشعر ، فلا غرو أن رأيناهم يقربون الشعراء ويجزلون لهم العطاء ويلتف الشعراء حولهم ويتنافسون بين أيدى أمرائهم فى الإنشاد ، مما دعا إلى كثرة الشعر وازدهاره .

وكما كان الأئمة فى عهد سلطانهم وقوتهم — أى فى القسم الأول من العصر الفاطمى — ينشدون الشعر ويقربون الشعراء ، كان بعض الوزراء فى عهد غلبة الوزراء فى مصر — ينشد الشعر ويثيب عليه ، ولا سيما أن الوزراء أصبحوا

(١) السجلات المستنصرية نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن .
(٢) ج ٤ ص ١٨٣ .
(٣) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٧٣ .
(٤) الهداية الآمرية تحقيق الأستاذ آصف على أصغر فيظى من مطبوعات (جمعية الدراسات الإسلامية بالهند)

كل شىء فى الدولة . فأصبحوا مقصد الشعراء ووجهتهم ، حتى إن الشعراء عندما كانوا يريدون مدح الخليفة الفاطمى كانوا يذكرون بجانبه الوزير ، ويطنبون فى مدح الوزير أكثر مما يقولون فى مدح الإمام ، ويروى المقريزى أن جميع الشعراء لم يكن لهم فى الأيام الأفضلية ولا فيما قبلها على الشعر جار ، وإنما كان لهم إذا اتفق طرب السلطان واستحسانه لشعر من أنشد منهم ما يسهله الله على حكم الجائزة ، فرأى القائد أن يكون ذلك من بين يديه من الظروف(١) ، إذ كان الأفضل يجلس بدار الملك التى أنشأها فى مجلس العطايا وقد أمر بتفصيل ثمانية ظروف ديباج أطلس ، من كل لون اثنين ، وجعل فى سبعة منها خمسة وثلاثين ألف دينار فى كل ظرف خمسة آلاف ، فمن هذه الظروف كان يغدق عطاياه على الشعراء الذين كانو يقصدونه . ولعل أكثر الوزراء فى العصر الفاطمى إنشادا للشعر وتحببا إلى الشعراء هو الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك ، فقد جمع شعره فى مجلدين كبيرين ، وجمع شعر الشعراء فيه فكان شيئاً كثيراً ، ولكن هذه الأشعار كلها فقدت ، ولم يبق منها إلا شذرات . وكذلك كان الوزير الناصر العادل رزيك بن الصالح الذى وصفه عمارة اليمنى بقوله : وأما فهمه فكان يعرف جيد الشعر ويستحسنه ويثيب عليه(٢) . فسوق الشعر قد ازدهر فى عهد الوزراء كما كان مزدهراً فى عهد الأئمة على ماسنوضحه فيما بعد .

ضياع الشعر الفاطمى :

كانت الحياة فى مصر الفاطمية كما رأينا جانبا منها — تدعو إلى ازدهار الشعر وإلى كثرة ما أنتجه الشعراء فى كل فن من فنون الشعر وكل موضوع من موضوعاته ، ولكن هذه الموجة الفنية التى طغت على مصر سرعان ما أبادها الأيوبيون فيما أبادوه من تراث هذا العصر الذهبى فى تاريخ مصر الإسلامية ، فضاع الشعر ولم يبق منه إلا النزر اليسير ، أو قل لم يبق إلا اسم الشاعر أحيانا إن قدر لاسمه البقاء ، ونحن لا نتردد فى اتهام الأيوبيين بجنايتهم على تاريخ الأدب المصرى بتعمدهم أن يمحوا كل أثر أدبى يمت للفاطميين بصلة ، فقد حرقوا كتبهم بما فيها من دواوين الشعر خوفا من أن يكون بالشعر مدح للأئمة ، وهو كفر

(١) الخطط ج ٢ ٣٧٥ .
(٢) النكت ص ٥٥

بزعمهم . وهاهوذا كاتب الأيوبيين العماد الأصفهانى عندما أراد أن يجمع فى خريدته شعر شعراء المائة الخامسة قال عن ابن الضيف داعى الآمر وشاعره : وكنت عازما لفرط غلوه على حطه ، لأنه أساء شرعا وإن أحسن شعراً ، بل أظهر فيه كفراً ، ولكننى لم أر أن أترك كتابى منه صفراً لأن البحر الزاخر يركبه المؤمن والكافر ، ويقصده البر والفاجر ، ويحمل الغثاء كما يحمل الدر[١] ، وقال عن ظافر الحداد : أقول ظافر بحظ من الفضل ظاهر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر ، وما أكمله لولا أنه من مداح المصرى والله له غافر[٢] . ومع ذلك لم يرو العماد لهما شيئا فى مدح الأئمة ، فقد تعمد العماد الأصفهانى أن يستبعد أكثر شعر مديح الأئمة من خريدته ، وتبعه فى ذلك غيره من الأدباء والمؤرخين . فضاع أكثر شعر مصر الفاطمية بسبب هذا التعصب المذهبى .

أضف إلى ذلك أن الأحداث التى كانت فى مصر ، ولا سيما فى عهد المستنصر بالله . إبان المحنة الكبرى ، وفى الصراع الذى كان بين شاور وضرغام فى أواخر العصر الفاطمى ، كانت من أهم أسباب ضياع شعر الشعراء وكتب العلماء . حتى إن الشاعر عمارة اليمنى عندما أراد أن يذكر لنا شيئا من شعره فى مدح طى بن شاور قال : فإن جميع ما قلته فيه نهب من دار الخليج[٣] ولم يتذكر منه شيئا يرويه ، فكانت هذه الأحداث والاضطرابات مأساة للعصر الفاطمى نفسه إذ سببت زوال دولة الفاطميين ، ومأساة للحياة الأدبية والفكرية أيضا ، وإلا فحدثنى عن شعر الشعراء المائة الذين رثوا ابن كلس . وأين ديوان ابن حيدرة العقيلى[٤] وأين ديوان أبى الحسن على بن المؤمل بن غسان الكاتب المصرى وكان ديوانه فى مجلدين[٥] ، وأين ديوان أبى الحسن بن مطير[٦] ، وديوان ابن الشخباء أستاذ القاضى الفاضل[٧] وديوان الملك الصالح بن رزيك[٨] ، وديوان القاضى الرشيد ابن الزبير[٩] وديوان أخيه المهذب بن الزبير[١٠] ، وديوان ابن الضيف ، وديوان ظافر الحداد الذى وصفه أحد معاصريه وهو الفقيه نصر بن عبد الرحمن

(١) الخريدة ورقة ٥٣ ب .
(٢) الخريدة ورقة ٥٠
(٣) النكت ص ١٢٧
(٤) المغرب ص ٥٢ .
(٥) الخريدة ورقة ٩ ا
(٦) الخريدة ورقة ١٤ ا
(٧) الخريدة ورقة ١٤ ا
(٨) الخريدة ورقة ٣٢ ب
(٩) الخريدة ورقة ٣٦ ا
(١٠) الخريدة ورقة ٣٦ ب

الفزارى بقوله : وله ديوان شعر مشهور وبالجودة له مشهود[١] وأين ديوان الفقيه الصوفى ابن الكيزانى ، وأين شعر بنى عرام شعراء الصعيد ، وأين مقطوعات ابن الصياد فى أنف ابن الحباب ، فقد قيل إن ابن الحباب كان كبير الأنف وكان ابن الصياد مولعا بأنفه وهجاه بأكثر من ألف مقطوعة[٢] ، وأين شعر أولاد الكنز بأسوان[٣] ، وأين المجموعة التى جمعها عثمان بن عبد الرحيم المعروف بابن بشرون التى صنفها سنة ٥٦١ وسماها « المختار فى النظم والنثر لأفاضل أهل العصر » وأين مجموع شعراء ابن رزيك[٤] . وأين كتاب جنان الجنان للمهذب ابن الزبير الذى صنفه سنة ٥٥٨ هـ وجمع فيه أشعار شعراء مصر وذيل به اليتيمة ، وأين ديوان القاضى المفضل كافى الكفاة أبى الفتح محمود بن القاضى الموفق اسماعيل بن احمد الدمياطى المعروف بابن قادوس وكان من أماثل المصريين وكتابهم مقدما عند ملوكهم[٥] ؟

ويطول بنا الأمر لو طالبنا بكل شعر الشعراء الذين كانت تزخر بهم مصر الفاطمية ، إنما ذكرنا هذه الأسماء على سبيل المثال لا الحصر ، لنعرف مدى هذه الخسارة التى لحقت بتاريخ الأدب المصرى لضياع هذه الثروة الادبية المصرية ولندل على أن مصر الفاطمية كانت غنية بشعرائها ، خصبة فى شعرها .

هناك جناية أخرى ارتكبها الثعالبى والباخرزى والعماد وابن سعيد المغربى وغيرهم من المؤلفين الذين أرادوا أن يحفظوا فى كتبهم شيئا من الشعر ، فعمدوا الى عدة أبيات من قصيدة ، ولم يدونوا كل القصيدة ، فقد اكتفوا بمقطوعة من بيتين أو أكثر لكل شاعر ، وقل أن نجد قصيدة كاملة فى هذه الكتب ، مما جعلنا لا نستطيع أن نكون حكما صحيحا على فن الشاعر من هذه المقطوعات التى رويت له ، لأن الناقد المدقق مهما بلغت مقدرته الفنية ، واتسعت ثقافته الأدبية وارتقى ذوقه الأدبى لا يستطيع أن يحكم على شاعر بمقطوعة من قصيدة ، أو بقصيدة واحدة من ديوان ، وإلا كنا كالقدماء الذين كانوا يفضلون شاعرا على

(١) الخريدة ورقة ٥٩ ب
(٢) الخريدة ورقة ٦٨ ا
(٣) الخطط ج ١ ص ٣٢٠
(٤) الخريدة (٦٨ ب)
(٥) ابن ميسر ص ٩٧ .

شاعر ببيت شعر قاله . فهؤلاء الكتاب الرواة كانوا من عوامل ضياع الشعر القديم ، كما هم فى الوقت نفسه من عوامل حفظ بعضه .

ومهما يكن من شىء فإن بين أيدينا الآن بعض آثار لحياة الشعر فى العصر الفاطمى ، وهى إن دلت على شىء فإنما تدل على أن العصر الفاطمى كان خصبا فى إنتاج الشعر بحيث استطاع شعراء مصر الفاطمية أن يقف بجوار غيره من الشعر فى الأقطار الإسلامية فى أرقى عصوره وصوره ، فالعوامل التى تحدثت عنها ، والآثار التى وصلتنا ، وما قاله الرواة عن شعر مصر ، كل ذلك يجعلنا نقول إن شعر مصر الفاطمية كان يحتل هذه المكانة الممتازة فى الحياة الأدبية ويتطور هذا التطور الذى نلمسه فى العصر الفاطمى .

الفصل الثانى

الشعر والأئمة

ذكرنا أن الفاطميين جاءوا بمصر يحملون مذهبا دينيا خاصا يختلف عن العقائد التى كان يدين بها المصريون ، وأن للمذهب الفاطمى مصطلحات خاصة لا يعرفها غير المنتسبين لفرقتهم ، ولا يفهمها غيرهم ، فكان لهذه العقائد الفاطمية تأثير قوى فى شعر مصر الفاطمية ، ذلك أن الشعراء الذين اتصلوا بالأئمة كانوا يمدحون هؤلاء الأئمة بالصفات التى صبغها المذهب على الأئمة ، ويتعمد الشاعر أن يستعمل فى شعره المصطلحات التى اصطلح عليها علماء المذهب ودعاته ، وكلما أمعن الشاعر فى استخدام هذه المصطلحات ، وإدخال هذه الصفات فى شعره ، ازدادت قيمة الشاعر عند الأئمة وكبار رجال الدعوة ، وكثر عطاؤه وزاد جاريه ، فكان الشعراء على هذا النحو دعاة للأئمة والعقائد دون أن يكون لهم فى مراتب الدعوة شأن . وفى الوقت نفسه كان الشعراء سبب اتهام المذهب الفاطمى بالغلو والميل إلى الخروج عن تعاليم الإسلام ، ذلك أن الشعر أسرع فى الانتقال على أفواه الناس من كتب العلماء ، فإذا كانت كتب الدعاة لا يقربها إلا أتباع مذهبهم ، وأن مجالس حكمتهم لا يحضرها إلا من استجاب لهم ، فالشعر يختلف عن ذلك كله ، فإنه يسير بين الناس ويرويه الرواة ، فإذا سمع مستمع إلى تلك الأبيات التى زخرت بعقائد الفاطميين دون ان يكون له إلمام بعقائد المذهب وما فيها من تأويلات باطنية فهو لا يستطيع أن يدرك معنى ما جاء فى هذا الشعر ، وما قصد إليه الشاعر فى مدائحه ، ومن هنا يتهم الشاعر ويتهم المذهب نفسه ، وقد رأينا كيف وصف العماد الأصفهانى شعر بعض شعراء الدولة الفاطمية ، ونقرأ الآن أقوال النقاد والمؤرخين عن ابن هانىء الأندلسى ، وما وصف به من شدة الغلو فى مدح الأئمة حتى رماه بعضهم بالخروج عن الدين جملة ، فلو كان

هؤلاء النقّاد يعرفون التأويل الباطنى لأقوال ابن هانىء ، أو أنهم حاولوا معرفة ما أراده الشاعر وقصد إليه ، لرأيناهم يرجعون عن كثير مما اتهم به الشاعر ، وذكرنا أن هذا من الأسباب التى أدت إلى ضياع شعر مصر الفاطمية ، ولا سيما هذا اللون من الشعر الذى ملىء بالعقائد والذى قيل فى مدح الأئمة . ولكن من حسن الحظ أننا عثرنا على ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة ، وديوان الأمير تميم بن المعز وقصيدة فى مدح العزيز ، وكانت هذه النصوص فى مكتبات رجال البهرة بالهند .

فى مجموعة أشعار الإسماعيلية قصيدة تكاد تكون فريدة فى نوعها فى الشعر العربى كله ، وهى لشاعر مجهول من شعراء العزيز بالله ، وتنسب هذه القصيدة أحيانا إلى المؤيد فى الدين (١) . وتنسب مرة أخرى إلى شاعر يلقب بالاسكندرانى (٢) ، ولكنى أرفض نسبة هذه القصيدة إلى المؤيد لأن العزيز بالله أقدم عهدا من المؤيد فى الدين ، وأن المؤيد لم يمدح العزيز مطلقا إنما مدح الظاهر والمستنصر وهما الإمامان اللذان عاصرهما المؤيد ، ولم يمدح غيرهما من الأئمة ، أضف إلى ذلك كله أن هذه القصيدة تختلف عن شعر المؤيد من ناحية فن الشعر عند المؤيد .

أما الاسكندرانى الذى تنسب إليه هذه القصيدة فلا نعرف عنه شيئا ، ولم تذكره المصادر التى بين أيدينا ، وكل ما ورد عنه فى المجموعة الخطية هو : هذه قصيدة الاسكندرانى رحمه الله فى مدح الإمام العزيز بالله قدس الله روحه ، وهى الموسومة بذات الدوحة (٣) .

قلت : إن هذه القصيدة فريدة فى بابها فى الشعر العربى ، ذلك أن الشاعر روى الحديث المنسوب إلى النبى صلى الله عليه وسلم « أهل بيتى شجرة أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء » وقول النبى أيضا « أنا شجرة وفاطمة حملها وعلى لقاحها والحسن والحسين ثمرتها ومحبونا أهل البيت ورقها حقا حقا أن يكونوا معنا

(١) A Guide to Ismaili Literature. P. 49.

(٢) نسخة ديوان المؤيد الخطية المرموز إليها (ق) راجع ديوان المؤيد

(٣) ورقة ٦٦ ب .

فى الجنة (١) ، وأمثال هذين الحديثين . فشاء له خياله أن يمدح إمامه العزيز بالله بقصيدة جعل لها جذعا وفروعا على مثال الشجرة ، وسمى قصيدته ذات الدوحة ، وأودعها كثيرا من المصطلحات والعقائد الفاطمية ، والقصيدة هى :

سئمت من البين الذى ليس يصدق ... فلست بغير الحق والصدق أنطق
أأمدح رهطا غير رهط محمد ... وفى الجيد عهد للإمام موثق
ولا فضل لى فى ذا، بل الفضل فضل من ... بهم يُحرم الله الأنام ويرزق
أئمة دين الله مذ قام دينه ... وأنوار هذا الخلق من قبل يخلق
محبتهم فرض على الناس واجب ... وعصيانهم كفر إلى النار موبق
هم العروة الوثقى ، هم منهج الهدى ... هم الغاية القصوى التى ليس تلحق
ولولاهم لم يخلق الله خلقه ... ولم يك فى الدنيا ضياء ورونق
هم دوحة الدين التى تثمر الهدى ... وباليمن والتقوى تظل وتسبق
تجير من الأيام من يستظلها ... وتحيى من الموت الجهول وتطلق
سقاها غمام الوحى علما فأينعت ... بمكنون علم الله فالدين مونق
جرت فى تخوم المحكمات عروقها ... وفوق الثريا فرعها متعلق
هم الأصل منها والأئمة فرعها ... ففى كل عصر نورها يتألق
إلى أن تسامت بالعزيز ولم تكن ... بغير أبى المنصور لو كان يلثق
فباهت على الأيام أيامه التى ... تكاد لها صم الجنادل تورق
سحائب جود لا يغيب غمامها ... وبحر سماح بالندى يتدفق
لئن فقد الناس المعز لدينه ... لقد قام بالدين العزيز الموفق
تجددت الدنيا علينا بيمنه ... فلا العيش مذموم ولا الدهر أخرق
ولا الجود ممنوع ولا المجد خامل ... ولا العرف مقطوع ولا النكر مطلق
تضوع نشر العدل فى كل بلدة ... ونشر الثناء الطّيب للطيب يعبق
ملأت قلوب العارفين محبة ... فكل على مقداره يتشوق
فلا صامت إلا بحبك ناطق ... ولا مضمر إلا بشكرك ينطق
فضائل مولانا العزيز جليلة ... إذا عد فضل فهو بالفضل يسبق

(١) يروى الشيعة هذه الأحاديث ونجدها فى المجالس الخامس والستين من المائة الثانية من المجالس المؤيدية وفى كتاب بحار الأنوار وغيرها .

غرست على بيت من الشعر دوحة لها أغصن فى وزنه حين تبسق
فألفت من بيت بيوتا كثيرة ولكنها مع ذاك لا تتفرق
فسبع وسبع عن يمين ويسرة على كل حرف منه بيت مفلق
بمدح أمير المؤمنين لأنها لعمرى به من سائر الخلق أليق
عليه صلاة الله ما لاح كوكب وما ناح فى الأيك الحمام المطوق

فالشاعر هنا قد ألزم نفسه بأن يبنى بيتين من الشعر على كل كلمة من كلمات البيت الأخير ، وأن يفرع عن يمين هذا البيت الأخير أربعة عشر بيتا سبعة أبيات عن يمين ، وسبعة عن شمال حتى تتخذ القصيدة شكل الدوحة ، وما رأينا أحداً من شعراء العربية يتلاعب بمثل هذا التلاعب قبل هذا الشاعر الفاطمى ، ومن يدرى لعل التشجير الذى ظهر فى الشعر الفارسى فى القرن السادس الهجرى وما بعده هو تطور هذا التلاعب الذى نراه فى هذه القصيدة ، فقد أراد الشاعر أن

يهدى إلى إمامه مثالا من الشعر للشجرة التى ذكر فى القرآن أن أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، وشاء الشاعر إلا أن يهدى لإمامه هذه الدوحة وجعل أبيات الفروع والأغصان سبعة عن يمين وسبعة عن شمال تمثيلا لرأى الفاطميين فى الأدوار السبعة إذا انتهى دور سبعة من أئمة الدين تلاه دور آخر لسبعة آخرين . وقد يكون ذلك أيضا لأن المعز كان سابع الأسبوع الثانى من دعوة النبى محمد ، وأن العزيز هو أول الأئمة فى دور الأسبوع الثالث ، وهكذا كان هذا الشاعر فى تلاعبه فى شكل القصيدة باطنيا ؛ وهو باطنى أيضا فى المعانى التى قصد إليها ، ففى مدحه لإمامه أملت عليه عقيدته الفاطمية هذه المعانى ، ففى البيت الثانى يتحدث الشاعر عن العهد أو الميثاق الذى يأخذه الإمام على شيعته والمستجيبين لدعوته . وفى البيت الثالث يشير إلى أن الأئمة مثل للعقل الأول ، وبما أن الله سبحانه وتعالى قال للعقل (وهو القلم أيضا) «بك أثيب وبك أعاقب»(١) فهذه الصفات تنطبق أيضا على مثل العقل وهم الأئمة (٢) فيثيب الله من أطاع الأئمة ويعاقب من خالفهم . وفى البيت الرابع يتحدث الشاعر عن تنقل نور الله منذ بدأ خلقه إلى أن حل هذا النور فى إمام العصر (٣) ، وفى البيت الخامس ذكر طاعة الأئمة وأن طاعتهم فرض فرضه الله تعالى فى القرآن الكريم بقوله تعالى «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم». وفى البيت الثامن وما بعده يتحدث الشاعر عن العلم الباطن الذى خص به الأئمة دون غيرهم ، وأن هذا العلم هو الذى يحيى موتى النفوس ويجلو غياهب الشك ، ثم يتحدث الشاعر بعد ذلك عن عقيدة الفاطميين التى شاركهم فيها غيرهم من المسلمين وهى العقيدة التى تقول : إن الله لم يخلق هذا الخلق سدى ، بل لعبادته وتوحيده . ولكن الفاطميين خالفوا المسلمين فى الوسيلة التى تؤدى بهم إلى العبادة والتوحيد ذلك أن العبادة عندهم لا تقبل إلا بموالاة الأئمة من أهل البيت ، فكأن العالم لم يخلق إلا من أجل الأئمة الذين بهم يصل الإنسان إلى عبادة الله وتوحيد الله . فالشاعر فى هذه القصيدة شاعر عقائد قبل كل شىء ،

(١) ذكرنا أنه ورد فى صحيح البخارى قول النبى (ص) «أول ما خلق الله القلم فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ، فقال : بعزتى وجلالى ما خلقت خلقا هو أعز على منك ، بك أثيب وبك أعاقب ... »

(٢) راجع «نظرية المثل والممثول» (٣) راجع قصيدة الإمام العزيز فى الفصل السابق .

عرف عقائده فاتخذ هذه العقائد وسيلة لمدح الإمام ، فالشاعر متأثر بهذه العقائد فظهرت فى شعره .

وها هوذا الأمير تميم بن المعز لدين الله ، الذى نعرف عنه أنه ابن إمام من الأئمة ، وأخ لإمام من أئمتهم ، كان شاعراً من أكبر شعراء عصره ، مدح أباه وأخاه الإمام بعدة قصائد حفظت فى ديوانه ، وقد استطعنا الحصول على نسخة خطية من هذا الديوان ، فرأينا الشاعر يصف الإمام بالمصطلحات الفاطمية ، ويلم فى شعره بعقائد أسرته ، فهو يقول مرة للعزيز بالله :

جئت الخلافة لما أن دعتك كما ... وافى لميقاته موسى على قدر
كالأرض جاد عليها الغيث منهملا ... فزانها بضروب الروض والزهر
ما أنت دون ملوك العالمين سوى ... روح من القدس فى جسم من البشر
نور لطيف تناهى منك جوهره ... تناهيا جاز حد الشمس والقمر
معنى من العلة الأولى التى سبقت ... خلق الهيولى وبسط الأرض والمدر
فأنت بالله دون الخلق متصل ... وأنت لله فيهم خير مؤتمر
وأنت آيته من نسل مرسله ... وأنت خيرته الغراء من مضر
لو شئت لم ترض بالدنيا وساكنها ... مثوى، وكنت مليك الأنجم الزهر
ولو تفاطنت الألباب فيك درت ... بأنها عنك فى عجز وفى حصر (١)

فى هذه الأبيات نرى الشاعر يمدح إمامه بأنه ليس كغيره من الملوك ، لأن نفس الإمام الشريفة اللطيفة هى روح قدسية حلت فى جسم كثيف ترابى، وأن هذه النفس اللطيفة تناسب العقل — الذى سماه هنا بالعلة الأولى على حسب الاصطلاحات الفلسفية والفاطمية أيضا — وبما أن العقل هو أول ما خلق الله فهو سابق لخلق الهيولى ، ولما كان العقل الأول هو أقرب مبدعات الله إليه سبحانه ، فكذلك الإمام الذى هو مثل العقل أقرب المخلوقات إلى الله على هذه النسبة ، وهو متصل بالله تعالى لأن ممثوله العقل الأول متصل بالله تعالى ، وأن الإمام آية الله تعالى من نسل النبى محمد ، لأن ممثوله العقل هو آية الله الكبرى ، وهكذا يستمر الأمير تميم فى استغلال هذه الآراء والعقائد الفاطمية فى مدح شقيقه الإمام العزيز بالله

(١) ديوان الأمير تميم ورقة ٥٨ ا (نسخة خطية بمكتبتى) .

بحيث لانستطيع أن نصل إلى فهم أشعاره فى هذا المدح دون التوسل إلى ذلك بتطبيق نظرية المثل والممثول . انظر إليه وهو يمدح الإمام :

فيابن الوصى ويابن البتول ... ويابن نبى الهدى المصطفى .
ويابن المشاعر والمروتين ... ويابن الحطيم ويابن الصفا (١)

فهو يصف الإمام بمعان باطنية ، فمناسك الحج فى التأويل الباطن هى محمد (ص) وبما أن الوصى والأئمة يقومون مقام النبى بعد موته فهم يوصفون بصفاته ، ويكرر هذا المعنى فى أكثر قصائده كقوله :

وابن الصفا والحجر وابن الهدى ... وابن نبى الهدى وابن الكتاب (٢)

فبجانب هذه الصفات التى وصف بها الإمام بأنه ابن الصفا وابن الحجر نراه يصف إمامه بأنه ابن الكتاب ، والكتاب هو القرآن ، وفى التأويل الباطن أن القرآن والزبور والتوراة والانجيل هى مثل ، والممثول هو الوصى . يقول فى ذلك صاحب المجالس المستنصرية : « فالقرآن العظيم هو هذا الكتاب الكريم ، وقرينه فى التأويل الحكيم أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه أفضل الصلاة والتسليم لأنه فى زمانه قرين القرآن ، والقرآن قرينه ، وإنما يسمى الكتاب قرآنا لاقترانه بالعترة ، يبين ذلك قول رسول الله (ص) (إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض) فالقرآن قرين كل واحد من الأئمة الطاهرين » (٣).

ومرة أخرى يمدح الأمير تميم إمامه بصفات باطنية فيقول :

يا حجة الرحمن عند عباده ... وشهابه فى كل أمر مشكل
من لم يكن فى صومه متقربا ... بك [illegible] فصومه لم يقبل (٤)

فهو هنا يصف إمامه بأنه حجة الله فى الأرض وهو معنى من المعانى الباطنية وصفة من صفات الأئمة (٥) ، ويقول أيضا : إن الإمام هو النور الذى يبين للناس ما غمض عليهم ويوضح ما أشكل ، وفى البيت الثانى يشير إلى عقيدة الفاطميين التى تقول إن فرائض الدين الإسلامى لا تقبل إلا باتباع المنصوص عليه من أهل

(١) ديوان الأمير تميم ورقة ٥ ا (٢) ديوان تميم ورقة ١٨ ب
(٣) كتاب المجالس المستنصرية ص ٢٩ (٤) ديوان تميم ورقة ١٣١ ب
(٥) راجع ما كتبناه عن ذلك فى كتاب ديوان المؤيد داعى الدعاة .

البيت ، فلا صيام لصائم ما لم يعتقد ولاية الأئمة لأن الولاية كما قلنا هى محور عقيدة الفاطميين ، ويكرر هذا المعنى الأخير فى قوله :

وأنك أنت المصطفى الملك الذى بطاعته من ربنا نتقرب
ولولاك كان الملك فى غير أهله وكان على أفق الشريعة غيهب
عليك صلاة الله ما طلع الضحى وما حن للأوطان من يتغرب (١)

وهكذا نستطيع أن نستخرج من ديوان الأمير تميم أثر العقائد الفاطمية فى شعره ، ونستطيع أن نفهم ما قصد إليه الشاعر من معان إذا طبقنا (نظرية المثل والممثول) .

ولعل الشاعر المؤيد فى الدين هبة الله بن موسى الشيرازى هو أول شاعر فى هذا العصر وصل إلينا ديوان شعره ،فاذا بشعره كله متأثر بالعقيدة الفاطمية ، فالشاعر جعل كل قصائده التى فى هذا الديوان فى مدح الأئمة ، ولم يتناول موضوعا آخر من موضوعات الشعر ، وملأ قصائده كلها بالمصطلحات الفاطمية حتى إنى لا أكاد أعرف لهذا الديوان مثيلا فى الأدب الفاطمى بل فى الأدب العربى كله ، فنحن نستطيع أن نتخذ هذا الديوان الشعرى من كتب العقائد الفاطمية ، ولا غرو فى ذلك فالمؤيد لم يكن شاعراً متكسبا بشعره مثل غيره من الشعراء ، ولم يكن شاعراً من الشعراء الذين تستهويهم حياة المجون والقصف واللهو ، إنما كان عالما من علماء الدعوة ، بل كانت إليه مرتبة داعى الدعاة ، ولقبه إمامه المستنصر بالحجة نزوعا إلى رفع شأنه ، فليس غريبا أن ينقطع مثل هذا العالم الكبير إلى العلم وأن يتفرغ إلى كل ما يتصل بنشر الدعوة بين الناس ، فإذا أنشد شعراً فيتغلب على هذا الشعر عقل العالم لا عاطفته .

ولذلك ترى هذه الأشعار الكثيرة التى ضمها ديوانه ملئت علما وتأويلا ، أنظر اليه يقول فى إحدى منظوماته التى وضعها « لمكاسرة » مخالفى مذهبه :

ما النون يا صاح ترى والكاف فالخلق در وهما أصداف
إن الذى ظنهما حرفى هجا مستوجب من ذى الحجى كل هجا
هل كافل بالأرض والسماء يا عمى حرفان من الهجاء

(١) ديوان تميم ورقة ١١٧ .

تفهموا يا قوم ما الحرفان إن نجاة المرء بالعرفان
ما فاعل العالم كالمفعول كلا ، ولا الحامل كالمحمول
والكاف والنون اللذان انتظما صنع الإله منهما والتحما
وعنهما يأتلف الوجود لمن هو المشاهد الموجود
أنى يكونان من الموات وعنهما منابع الحياة (١)

فقارىء مثل هذه الأبيات من نظم المؤيد يدرك لأول وهلة مقدار تأثرها بالمصطلحات الفاطمية التى لا يعرفها إلا من تعمق فى دراسة المذهب الفاطمى ، فإن قضية الإبداع ، أو الحدود الروحانية والجسمانية عند الفاطميين تكاد أن تكون أدق موضوع عالجه جميع الدعاة والكتاب ، فأفردوا لهذا الموضوع كتبا خاصة ، وفصولا من كل كتاب من كتب الدعوة ،والمؤيد فى الدين فى هذه الأبيات يشير إلى « الكاف » و « النون » وهما الحرفان اللذان تأتلف منهما لفظ « كن » من قوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » غير أن الفاطميين قالوا إن « كن » هى الكلمة التى قامت بها السموات والأرض وما فيهما من خلق ، وإن « الكاف » و « النون » ليسا بحرفى هجا كما يتوهم العامة بل هما ملكان روحانيان جليلا القدر عظيما الشأن ، وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بهما فى قوله « نون والقلم » والله تعالى لا يقسم إلا بأعز مخلوقاته ، « فالكاف » رمز من الله « بالقلم » ، و « النون » رمز إلى « اللوح المحفوظ » ، ويسمى « القلم » عندهم بالسابق وهو العقل الكلى عند الفلاسفة ،وله كل صفات وخصائص ذلك العقل كما تحدث عنه الفلاسفة ، وهو أول ما أبدعه الله سبحانه وتعالى من الحدود الروحانية ، ومن علماء المذهب من قال : بأن وجود عالم الإبداع ظهر دفعة واحدة عن المبدع الحق تعالى لا من شىء ، أى لا من مادة تقدمت عليه ، ولا بشىء ، أى لا بآلة استعان بها عليه ، ولا فى شىء ، أى لا مع غيره يشاكله ويساويه ، ولا مثل شىء أى لا مثل معلوم كان له نظير فيه ، ولا لشىء أى لا لحاجة فى زيادة ولا نقصان فى ملكه تعالى ومشيئته ، فكان وجود الكل كما رمز به الحكماء ولوح به

(١) القصيدة الثانية من ديوان المؤيد داعى الدعاة .

العلماء عنه تعالى بحرف « الكاف » و « النون » فكان ما كان (١) ، ولكن أغلب العلماء على أن « القلم » كان أسبق فى الوجود من اللوح ولذلك سمى « القلم » بالسابق و « اللوح » بالتالى ، و « اللوح » هو ما يسمى عند الفلاسفة بالنفس ، وجعل الفاطميون لهذا الحد جميع الصفات التى وصف بها الفلاسفة النفس الكلية ومن « القلم » و « اللوح » وبواسطتهما أوجد الله تعالى جميع المخلوقات فى السموات والأرض ، فهما كافلا العالم(٢) ، فحديثهم فى الإبداع هو صورة لمراتب الفيوضات فى الافلاطونية الحديثة ، وإن كان الفاطميون صبغوها بالصبغة الإسلامية ، وبتطبيق نظرية المثل والممثول ، يكون النبى مثلا « للقلم » والوصى مثلا « للوح » وبعد وفاة النبى يصبح الإمام مثلا للقلم والحجة مثلا للوح ، وللمثل جميع صفات وخصائص الممثول ، فكأن الفاطميين لم يبحثوا مسألة الإبداع إلا لإثبات مكانة الأئمة بين الحدود الجسمانية ومماثلتهم للحدود الروحانية فى العالم العلوى وإسباغ ألوان التقديس على الأئمة بهذه المماثلة ، وعن هذه العقيدة اشتق الفاطميون عقائدهم فى صفات الإمام ، وظهر أثرها فى الشعر الفاطمى ، من ذلك ما أنشده المؤيد فى الدين فى مدح إمامه المستنصر :

قد خلقتم من طينة وخلقنا ... نحن منها لكن بدا ترتيب
إن أجسامكم لناشئة الطين ... الذى منه شق منا القلوب(٣)

فهو يمدح إمامه بأن جسم الإمام عقل كله ، ذلك أن جسم الإمام خلق من الطينة التى خلقت منها قلوب البشر ، أى أن الطينة التى خلق منها جسم الإمام هى نفس الطينة التى خلق منها عقل البشر ، فما هو كثيف عند الإمام هو لطيف عند غيره من عامة الناس . وتأويل ذلك أن عقل الإمام شريف ويجب أن يكون ما يحل فيه هذا العقل شريفا أيضا ، ولكن بما أن الإمام من البشر وجسمه ترابى كغيره من الآدميين ، فجسمه خلق من تراب ولكنه التراب الذى خلق منه قلب البشر الذى يحله عقول البشر . وفى هذا المعنى يقول المؤيد أيضا :

(١) كتاب كنز الولد (نسخة خطية بمكتبتى) .
(٢) راجع كتاب راحة العقل والمجالس المؤيدية فى مواضع متعددة .
(٣) القصيدة الثالثة

نعم قد أفاضها فى البرايا ... فتخلت عن شكرها أنعام
هم نهايات كل من برأ الله ... وغايات خلقه والسلام
فإليهم تنمى النفوس إذا را ... حت إلى الأرض تنتمى الأجسام(١)

وقوله أيضا :

مولى مواليه الأعز ... ز كما معاديه الأذل
ذو نسبة بالمصطفى ... والمرتضى يسمو ويعلو
بكثيفه ولطيفه ... فأساسه نفس وعقل(٢)

وهذا المعنى كثير جدا فى شعر المؤيد تراه فى أكثر قصائده التى فى الديوان.

هناك عقيدة أخرى رددها المؤيد فى شعره ، فهو يقول مثلا :

سلام على العترة الطاهره ... وأهلا بأنوارها الزاهره
سلام بديا على آدم ... أبى الخلق باديه والحاضره
سلام على من بطوفانه ... أديرت على من بغى الدائره
سلام على من أتاه السلام ... غداة أحفت به النائره
سلام على قاهر بالعصا ... عصاة فراعنة جائره
سلام على الروح عيسى الذى ... بمبعثه شرفت ناصره
سلام على المصطفى أحمد ... ولى الشفاعة فى الآخره
سلام على المرتضى حيدر ... وأبنائه الأنجم الزاهره
سلام عليك ، فحصولهم ... لديك أيا صاحب القاهره
بنفسى مستنصرا بالإله ... جنود السماء له ناصره
شهدت بأنك وجه الإله ... وجوه الموالى به ناضره
وأنك صاحب عين الحياة ... وعين خصومهم غائره
بحار الندى كفه والعلوم ... مدى الدهر فى قرن زاخره
لإحياء أرواحنا الباقيات ... وإنشاء أجسامنا البائره (٣)

فالشاعر هنا يسلم على جميع الأنبياء ، وعلى الوصى على بن أبى طالب والأئمة من ذريته ، ولكنه ذهب إلى أبعد من التسليم فقال : « فحصولهم لديك

(١) القصيدة الثانية عشرة . (٢) القصيدة السادسة عشرة .
(٣) القصيدة الحادية والأربعون .

أبا صاحب القاهرة ، وصاحب القاهرة فى عصره هو الإمام المستنصر بالله ، فهل معنى ذلك أنه جعل الأئمة فى منزلة الأنبياء ؟ تقول عقيدة الفاطميين إن النبى محمدا جمع أدوار كل الأنبياء والمرسلين الذين جاءوا قبله ، أى أنه فى دوره مثل آدم فى دوره فهو آدم على هذا النحو ، وهو إبراهيم فى دوره وهكذا ، فكأنه بذلك جمع أدوار جميع الأنبياء ، بل قال الفاطميون إن دور النبى محمد يشبه أدوار الأنبياء السابقين ، وما حدث للأنبياء وأوصيائهم وأئمة دورهم يحدث أيضا لمحمد ووصيه وأئمة دوره ، فالأدوار واحدة ولكنها تتخذ أشكالا مختلفة . ولما كان الإمام يقوم مقام النبى فهو يجمع الأدوار أيضاً على هذه الصورة ، فالمستنصر هو آدم وهو إبراهيم وهو نوح إلى آخر الأنبياء ، فالنور الذى تنقل بين الأنبياء حل فى إمام الزمان ، ليس معنى ذلك أن الأئمة كانوا بمنزلة الأنبياء . فقد ذكرنا أن لهم نفس صفات الأنبياء إلا صفة النبوة والرسالة ، وهكذا نستطيع أن نفسر قصيدة المؤيد السابقة . ومن الطريف أن المؤيد نفسه فى قصيدة أخرى قارن بين الإمام وبين بعض الأنبياء فقال فى مقارنة المستنصر بنبى الله عيسى بن مريم :

وصديق مثل العدو مداج … لا أراه إلا عدوا مضلا
جاءنى حائرا ، فقال بجهل … ما أرى للمسيح فى الناس شكلا
إن عيسى قد كلم الله فى المهد … صبيا وكلم الناس كهلا
قلت : هذا مولى الأنام معد … قد حوى الملك والإمامة طفلا
قال : عيسى أحيى الموات جهارا … قلت : مهلا يا ناقص الفهم مهلا
إن هذا مولى الأنام معد … هو يحيى بالعلم من مات جهلا
قال : عيسى أبرا العمى قلت : مولا … ى معد يجلو العمى إن تجلى
قال : حسبى أجبتنى بجواب … باطنى بينت لى فيه عقلا
ثم ولى عنى مقرا بفضل … لإمام الهدى ورحت مدلا (١)

وقس على ذلك مقارناته لباقى الأنبياء ، فهو يتحايل على المعانى حتى يأتى منها بما يلائم مقابلة أدوار الأئمة بأدوار الأنبياء ، وتكاد قصص الأنبياء التى وردت فى القرآن الكريم أن تؤول على هذا النحو الذى رأيناه فى هذه القصيدة . ويستمر

(١) القصيدة التاسعة والخمسون .

المؤيد فى كل قصائده يمدح الإمام بمعان باطنية هى من تأثير العقيدة فى نفسه وفى شعره .

ويخيل إلى أن العقائد أثرت أيضا فى جميع الشعراء الذين ظهروا فى بلاط الأئمة فى عهد ضعف الأئمة وسطوة الوزراء ، وفى عهد انتقال مركز الدعوة إلى اليمن ودخول الأئمة فى دور الستر الثانى ، وقد ذكرنا أن الحافظ والظافر والفائز والعاضد آخر ملوك الفاطميين كانوا يحكمون نيابة عن الإمام المستتر ولم يكونوا أئمة ، ولكن شعراء مصر أبوا إلا أن يغدقوا صفات الأئمة على هؤلاء النواب ، بل من الشعراء من لقب هؤلاء الملوك بالأئمة ، فالشاعر الشريف أبو الحسن على بن محمد الأخفش شاعر الآمر والحافظ مدح الحافظ بقوله :

صرف جريان يرى تحويلها … من يرى الحافظ فردا صمدا
بشر فى العين إلا أنه … من طريق العقل نور وهدى
جل أن تدركه أعيننا … وتعالى أن نراه جسداً
فهو فى التسبيح زلفى راكع … سمع الله به من حمدا
تدرك الأفكار فيه بانيا … كاد من إجلاله أن يعبدا (١)

فالشاعر هنا مدح الحافظ بهذه الصفات الباطنية التى هى من صفات الأئمة ولكن الحافظ كان ينوب عن الإمام المستتر فطبق الشاعر صفات الإمام على نائبه ، فالإمام عن طريق العقل ، أى عن طريق علم الباطن ، هو نور أى أنه عقل كله ، والعقل الأول لا يدرك بالأبصار ، فهو يتعالى أن يحد بحدود ذلك الجسد ، أما قوله « فهو فى التسبيح زلفى راكع » فتأويل الركوع — كما يحدثنا القاضى النعمان فى كتابه تأويل دعائم الإسلام — هو طاعة الإمام ، والإقرار بحدود الدين الروحانيين والجسمانيين ، والتسبيح فى الركوع تأويله البراءة والتنزيه لله تعالى أن يقاس أو يشبه به أحد من حدوده أو من خلقه (٢) ، وتأويل « سمع الله به من حمدا » أن كل من صار إلى الدعوة وجب عليه حمد الله على ما أصاره من فضله إليه وأطلعه من أمر أوليائه عليه فيأمر الداعى بذلك من دعاه ويخبرهم أن

(١) الجريدة ورقة ١٤٢ ب .
(٢) المجلس الرابع من الجزء الخامس من تأويل دعائم الإسلام — نسخة خطية بمكتبى .

الله تعالى يسمع حمدهم، ويطلع على اعتقادهم فى ذلك ، فإن كانوا قبلوه حق القبول واغتبطوا به كما يجب وحمدوا الله على ما هداهم إليه منه فيحمد الله كما أمرهم(١) .
أما البيت الأخير فالشاعر يشير إلى أن الإنسان إذا فكر فى أمر الإمام ، وأن الإمام مثل للعقل الأول وما يوصف به هذا العقل ، فيكاد المفكر من إجلاله للعقل أن يعبده وأن يعبد مثله . وهذا البيت الأخير يشبه قول المؤيد فى مدح المستنصر :

لست دون المسيح سماه ربا   أهل شرك ولا نسميك ربا

وهو مثل قول الشريف ابن أنس الدولة فى مدح الحافظ ، وقد صعد المنبر يوم العيد :

خشوعا فإن الله هـذا مقامه   وهمسا فهذا وجهه وكلامه
وهذا الذى فى كل وقت بروزه   تحياته من ربنا وسلامه(٢)

فهذا المعنى الذى ورد فى جميع هذه الأبيات هو من المعانى الباطنية ، وكلها تخضع فى التفسير لنظرية المثل والممثول أيضا . فالإمام مثل العقل الأول فهو أشرف من جميع المخلوقات ، وأنه هو المقصود بوجه الله ويد الله وجنب الله التى وردت فى القرآن الكريم . ثم انظر إلى قول الشاعر :

هذا أمير المؤمنين بمجلس   أبصرت فيه الوحى والتنزيلا
وإذا تمثل راكبا فى موكب   عاينت تحت ركابه جبريلا (٣)

« فمجلس الوحى والتنزيل » هو مجلس النبى صلى الله عليه وسلم الذى يقوم الإمام مقامه ، أما قوله : « عاينت تحت ركابه جبريل » فتأويل الملائكة فى عقيدة الفاطميين هم الدعاة ، فكأن الشاعر يقول : إن الإمام إذا سار فى موكبه سار تحت ركابه الدعاة الذين يدعون له ولمذهبه .
وكان الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك من الشعراء الذين اتخذوا الشعر وسيلة لنشر عقائد مذهبهم ولتهجين مذاهب أضدادهم ، فمن ذلك قوله :

يا أمة سلكت ضلالا بينا   حتى استوى إقرارها وجحودها

(١) المجلس الخامس من الجزء الخامس من تأويل دعائم الإسلام نسخة خطية بمكتبتى .
(٢) خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٠   (٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٧

ملتم إلى أن المعاصى لم يكن   إلا بتقدير الإله وجودها
لو صح ذا كان الإله بزعمكم   منع الشريعة أن تقام حدودها
حاشا وكلا أن يكون إلهنا   ينهى عن الفحشاء ثم يريدها(١)

فهو هنا يشير إلى تلك المسألة التى شغلت أذهان المسلمين وأثارها المعتزلة ردحا طويلا من الزمان ، وأثارت مجادلات بين علماء المسلمين ، وهى مسألة الجبر والاختيار . فجمهور أهل السنة على أن الإنسان مجبر ، والمعتزلة تذهب إلى أن الإنسان مخير ، ولكن الفاطميين كانوا يذهبون مذهبا وسطا ، فالانسان مجبر فى أمور ، ومخير فى أمور ، فهو ولد من غير اختيار بل هو مجبر ، وتصيبه بعض الأحداث فى حياته قضاء وقدرا ويموت بغير اختيار ، أما أفعاله فهو مخير فيها .

ولم يكن شعراء مصر الذين مدحوا الأئمة والوزراء هم الذين ألموا فى أشعارهم بعقائد الفاطميين وتأثروا بها هذا التأثير الذى رأينا بعض نماذجه ، إذ المفروض أن جميع الشعراء الذين اتصلوا ببلاط الفاطميين كانوا يتمذهبون بمذهب الأئمة ، ولكننا نرى الشعراء الوافدين على مصر فى ذلك العصر كانوا يحاولون أن يتخذوا العقائد الفاطمية وسيلة للوصول إلى مدح الأئمة ، وأن يزينوا شعرهم بهذه العقائد للتقرب إلى الأمراء والوزراء والأئمة ، وأكثر الشعراء الذين وفدوا على مصر لم يكونوا فاطمى المذهب ولكنهم اضطروا إلى أن يمدحوا الأئمة بالمعانى الباطنية على نحو ما كان يفعله شعراء مصر ، ويحدثنا ياقوت أن الحسين ابن عبد الله الشاعر المعروف بأبى حصينة المعرى المتوفى سنة ٤٥٧ هـ أوفد إلى المستنصر بالله ، وأنه مدح المستنصر بقصيدة منها :

ظهر الهدى وتجمل الإسلام   وابن الرسول خليفة وإمام
مستنصر بالله ليس يفوته   طلب ولا يعتاص عنه مرام
حاط العباد وبات يسهر عينه   وعيون سكان البلاد تنام
قصر الإمام أبى تميم كعبة   ويمينه ركن لها ومقام
لولا بنو الزهراء ماعرف التقى   فينا ولا تبع الهدى الأقوام

(١) خطط المقريزى ج ٤ ص ٨٢

يا آل أحمد ثبتت أقدامكم وتزلزلت بعداكم الأقدام
لستم وغيركم سواء ، أنتم للدين أرواح وهم أجسام
يا آل طه حبكم وولاؤكم فرض وإن عذل اللحاة ولاموا (١)

فالشاعر بالرغم من أنه من معرة النعمان يمدح إمام مصر الفاطمى بهذه الصفات الباطنية التى تجد حظا من القبول إذا مدح بها الإمام ، فقصر الإمام كعبة والركن والمقام فى التأويل الباطن مثل على الإمام ، ولولا الأئمة ما عرفت حقيقة الدين ، والأئمة عقول والناس أجسام والولاء للأئمة فرض من الله ، فهذه كلها من عقائد الفاطميين ، واضطر الشاعر أن يزج بها فى مدحه للإمام الفاطمى ، ولهذا الشاعر قصيدة أخرى فى مدح المستنصر أيضا منها قوله :

أما الإمام فقد وفى بمقالة صلى الإله على الإمام وآله
لذنا بجانبه فعم بفضله وببذله وبصفوه وجماله
لا خلق أكرم من معد شيمة محمودة فى قوله وفعاله
فاقصد أمير المؤمنين فما ترى بؤسا وأنت مظلل بظلاله
زاد الإمام على البحور بفضله وعلى البدور بحسنه وجماله
وعلى سرير الملك من آل الهدى من لا تمر الفاحشات بباله
النصر والتأييد فى أعلامه ومكارم الأخلاق فى سرباله
مستنصر بالله ضاق زمانه عن شبهه ونظيره ومثاله (٢)

فالشاعر فى هذه القصيدة مدح الإمام بالمعانى التى اعتاد الشعراء أن يمدحوا بها الملوك ، ولكنه ألم فيها أيضا بالمعانى الباطنية التى تميز مصر الفاطمية عن غيرها من الدول ، وتميز شعر مصر الفاطمية عن باقى الشعر العربى ، فالصلاة على الإمام وآله وأن الإمام من نسل الرسول ، وأن لا شبيه الإمام ولا مثيل . كل هذه من العقائد التى كان يبثها الدعاة بين الناس .

ولعل الشاعر عمارة اليمنى أصدق مثال لهؤلاء الشعراء السنيين الوافدين على مصر ، والذين ألموا فى شعرهم بالعقائد الفاطمية . فى أول قصيدة أنشدها

(١) ياقوت — معجم الادباء ج ١٠ ص ٩٠ (طبعة رفاعى) .
(٢) ياقوت ج ١٠ ص ٩٢

فى مصر . قال فى مدح الخليفة الفائز ، ووزيره الملك الصالح بن رزيك تلك القصيدة التى مطلعها :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمدا يقوم بما أولت من النعم

وفيها يقول :

لا أجحد الحق عندى للركاب يد تمنت اللجم فيها رتبة الخطم
قربن بعد مزار العز من نظرى حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم وفدا إلى كعبة المعروف والكرم
فهل درى البيت أنى بعد فرقته ما سرت من حرم إلا إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها بين النقيضين من عفو ومن نقم
وللإمامة أنوار مقدسة تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم
وللنبوة آيات تنص لنا على الخفيين من حكم ومن حكم (١)

ويستمر عمارة فى مدح الفائز ثم ينتقل إلى مدح وزيره الملك الصالح بن رزيك ، ولكن الشاعر كان بعيداً عن مركز الخلافة فلم يستطع أن يعرف شيئا كثيراً من عقائد الفاطميين ، ولذلك لم يتحدث عن المعانى الباطنية إلا بقدر يسير ، ولا سيا فى البيت الأخير من هذه المقطوعة ، على أن الشاعر بعد أن استقر بمصر واتصل بالبيئة المصرية حوله وسمع جدل العلماء ومناقشاتهم فى مجالس الملك الصالح ، وعرف شطرا من العقائد الفاطمية ، تأثر بهذه العقائد فى شعره ، وإن كان لم يعتنق دعوتهم ، بل ظل على عقيدة الشافعية ، فهو يقول فى مدح العاضد :

وعليك من شيم النبى وحيدر للناظرين أدلة وشهود
والوحى ينطق عن لسانك بالذى من دونه يتصدع الجلمود
شخصت إليك نواظر الأمم التى ملكتهم لك بيعة وعهود
يوم جلت فيه الإمامة عزها ولها الملائكة الكرام جنود (٢)

فى هذه الأبيات يظهر تأثير البيئة الفاطمية فى شعر عمارة ، فالشاعر هنا متأثر بالعقائد ، حتى يخيل إلينا أنه أصبح على دينهم وعقيدتهم ، فالوحى — وهو فى التأويل داعى الدعاة — ينطق عن لسان الإمام بالحجج الدامغة والبراهين

(١) النكت ص ٣٢ (٢) ص ١٩٨ .

القوية التى لا تقف أمامها حجج أو براهين ، والبيعة فى عنق جميع الذين عاهدوا الإمام ، والملائكة وهم الدعاة جنود الإمامة . ومرة أخرى يمدح العاضد بقوله :

لا يبلغ البلغاء وصف مناقب   أثنى على إحسانها التنزيل
شيم لكم غر أتى بمديحها الـ   ـفرقان والتوراة والإنجيل
سير نسخناها من السور التى   ما شأنها نسخ ولا تبديل
قامت خواطرنا بخدمة نظمها   فيكم ، وقام بنثرها جبريل
شرف تبيت به قريش كلها   عولا لكم وعليكم التعويل
إن الرسول أبوكم من دونها   فمن الذى منها أبوه رسول
ولقد ورثت مقام قوم يستوى   منهم شباب فى العلى وكهول
وجمعت شمل خلافة لم يختلف   فى فضلها المعقول والمنقول
لما برزت إلى المصلى معلنا   وشعارك التكبير والتهليل
وخطبت فيه المؤمنين خطابة   ذابت عيون عندها، وعقول
وسللت غرب فصاحة نبوية   شهدت بأنك للنبى سليل(١)

فهو هنا يمدح العاضد بأن فى سور القرآن والتوراة والإنجيل آيات فى شأن الأئمة ، وهذا من أقوال الفاطميين فى أئمتهم حتى قال شاعرهم المؤيد فى الدين :

لهم معانى الزبر   وفضل آى الزمر(٢)

وقال عمارة أيضا فى هذا المعنى نفسه :

يا خير من نظم المديح لمجده   وتنزلت سور الكتاب بحمده(٣)

وانظر إليه وهو يقول فى مدح العاضد أيضا :

ولاؤك دين فى الرقاب ودين   وودك حصن فى المعاد حصين
وحبك مفروض على كل مسلم   يقول بحب المصطفى ويدين(٤)

ولعل الأبيات التى أنشدها فى رثاء الملك الصالح بن رزيك تدل دلالة واضحة على مدى تأثر عمارة بالعقائد وبتأويل الفاطميين ، فهو يقول مثلا :

لا تعجبن لقدار ناقة صالح   فلكل عصر صالح وقدار
أحللت دار كرامة لا تنقضى   أبدا وحل بقاتليك بوار(٥)

(١) النكت ص ٣٠٦ (٢) القصيدة الخامسة والعشرون من ديوان المؤيد.
(٣) النكت ص ٢٠١ (٤) ص ٣٦٢ (٥) ص ٦٩

فناقة صالح التى ذكرت فى القرآن تؤول على حجة صالح ، وكذلك كان الوزير ابن رزيك حجة الخليفة الفائز ، ويتحدث عمارة عن الأدوار، فلكل عصر صالح، من نبى أو إمام ، ولكل عصر ناقة صالح ، أى حجة الإمام ، فهذا المعنى لا يأتى به إلا من عرف دقائق الدعوة وأسرارها ، وكان عمارة يحضر مجالس الدعاة والعلماء فعرف الكثير من أسرارهم فجرى لسانه به ، وفى البيت الثانى يتحدث الشاعر أيضا عن عقيدة الفاطميين فى خلود النفس بعد الموت وعودتها إلى العالم الروحانى، فإن كانت نفسا شريفة بأن كانت نفس حد من حدود الدين الجسمانية عادت إلى عالم الحدود الروحانية وتأخذ مرتبتها بين الحدود الروحانية كما كانت مرتبتها بين الحدود الجسمانية .

وفى مديحه للصالح قال :

كاف هو الباب الذى من لم يصل   منه فليس له إليك وصول

إشارة إلى أن داعى الدعاة هو باب الأبواب وهو الذى يشير فيه إلى الحديث النبوى : « أنا مدينة العلم وعلى بابها » فالإمام فى عصره يماثل النبى فى عصره وداعى الدعاة هو الباب أيضا . وقد ذكرنا أن الملك الصالح بن رزيك أنشد يدعو عمارة إلى دخول المذهب واستعمل الصالح هذا المصطلح أيضا :

قل للفقيه عمارة يا خير من   أضحى يؤلف خطبة وخطابا
اقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى   قل «حطة» وادخل إلينا «الباب»
تلق الأئمة شافعين ولا تجد   إلا لدينا سنة وكتابا(١)

وفى قضية أول رمضان ، حدث أن غم الهلال ولم يظهر بين الضباب فلم يره الناس رؤية بصر، ولكن المصريين صاموا على حسب رؤية الاستبصار والعلم بدورة الفلك ، وظهر العاضد ووزيره شاور بين الناس ، فقال عمارة فى ذلك :

ولما تراءت للهلال بصائر   يغطى الهوى أبصارها بضباب
وقفنا فهنأنا الصيام بعاضد   سناه مدى الأيام ليس بخاب(٢)

فرؤية رمضان التى نحتفل بها اليوم هى من فكرة ظهور الإمام الفاطمى معلنا صوم رمضان .

(١) النكت ص ٤٥ (٢) ص ١٦٨

وبعد القضاء على الدولة الفاطمية وموت العاضد اتفق أن اجتمع الشاعر يحيي أبو سالم بن الأحدب بن أبي حصينة والشاعر عمارة اليمني في قصر اللؤلؤة فأنشد أبو سالم في نجم الدين أيوب :

يا مالك الأرض لا أرضى له طرفا ... منها ، وما كان منها لم يكن طرفا

قد عجل الله هذي الدار تسكنها ... وقد أعد لك الجنات والغرفا

تشرفت بك عمن كان يسكنها ... فالبس بها العز ، ولتلبس بك الشرفا

كانوا بها صدفا والدار لؤلؤة ... وأنت لؤلؤة صارت لها صدفا

فأجابه عمارة :

أثمت يا من هجا السادات والخلفا ... وقلت ما قلته في ثلبهم سخفا

جعلتهم صدفا حلوا بلؤلؤة ... والعرف مازال سكنى اللؤلؤ الصدفا

وإنما هي دار حل جوهرهم ... فيها ، وشف فأسناها الذي وصفا

فقال لؤلؤة عجبا ببهجتها ... وكونها حوت الأشراف والشرفا

فهم بسكناهم الآيات إذ سكنوا ... فيها ، ومن قبلها قد أسكنوا الصحفا

والجوهر الفرد نور ليس يعرفه ... من البرية إلا كل من عرفا

لولا تجسمهم فيه لكان على ... ضعف البصائر للأبصار مختطفا

فالكلب يا كلب أسنى منك مكرمة ... لأن فيه حفاظا دائما ووفا(١)

فانظر إلى قول عمارة إن جوهرهم هو الذي حل بهذه الدار ، وأن الآيات سكنتها وكانت تسكن الصحف ، وحديثه عن الجوهر الفرد الذي هو نور تجسم في الأئمة .

أليس ذلك كله من الأدلة التي نسوقها على تأثر عمارة بالعقائد الفاطمية بالرغم من تمسكه بمذهبه السني الشافعي ؟

من ذلك كله نستطيع أن ندرك كيف استطاع الفاطميون أن يتخذوا من الشعراء ألسنة لهم في نشر عقائدهم التي أذاعوها بين هؤلاء الشعراء ، وكيف استغل الشعراء علم الباطن وخاصة ما خلعه علماء المذهب على الأئمة من صفات باطنية ، وكيف كان الشعراء يمدحون الأئمة والدعاة بهذه الصفات حتى يتقربوا إليهم وينالوا من هباتهم وعطاياهم ، ويقول القلقشندي : «كان الشعراء جماعة

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٥١

كثيرة من أهل ديوان الانشاء وغيره ، وكان منهم أهل سنة لا يغلون في المديح ، وشيعة يغلون فيه .(١) فكأن القلقشندي كان يرى أن جميع الشعراء الذين مدحوا الأئمة قد ألموا في شعرهم بالعقائد الفاطمية ، ولكن بعضهم كان يسرف في ذلك ، وبعضهم كان يقتصد .

وها هو ذا الكاتب ولي الدولة أحمد بن علي بن خيران صاحب ديوان الإنشاء في عهد الظاهر والمستنصر ينشد شعراً يدل على أنه كان يتشيع ، ولكنه كان يعارض الفاطميين في أمور ، فهو يقول :

أنا شيعي لآل المصطفى ... غير أني لا أرى سب السلف

أقصد الإجماع في الدين ومن ... قصد الإجماع لم يخش التلف

لي بنفسي شغل عن كل من ... للهوى قرظ قوما أو قذف(٢)

ومهما يكن من شيء فقد كان تأثير العقائد في الشعر الفاطمي ولا سيما شعر المدح الذي قيل في الأئمة واضحا جليا نراه في هذه النماذج من الشعر التي قدمناها ، كما كان الشعراء من ألسنة الدعوة الدينية ، فقد سار شعرهم في البلاد ورواه الناس واستغله الدعاة في نشر المذهب ، وفي عصرنا الحديث لا تزال بعض قصائد المؤيد في الدين تردد في المساجد ، فطائفة البهرة في الهند تردد إلى الآن قصيدة المؤيد التي مطلعها :

سلام على العترة الطاهره ... وأهلا بأنوارها الزاهره(٣)

عقب صلاة الفجر كل يوم . ويرتلون قول المؤيد :

أبا حسن يا نظير النذير ... ولولا وجودك فات النظيرا(٤)

عقب صلاة التهجد كل يوم ، وينشدون قصيدته التي مطلعها :

إلهي دعوتك سراً وجهراً ... أيا مالك الملك خلقا وأمرا(٥)

عقب صلاة النوافل في رمضان ، ولا سيما في ذكرى مقتل علي . ويرددون قول المؤيد أيضا :

هلال بدا من خلال الدجنه ... إمام زمان من النار جنه(٦)

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٧ (٢) معجم الأدباء ج ٤ ص ١٠ (طبعة رفاعي)

(٣) القصيدة الحادية والأربعون من ديوان المؤيد .

(٤) القصيدة الخامسة والأربعون .

(٥) القصيدة السادسة والعشرون (٦) القصيدة الثانية والعشرون .

فى أول كل شهر عربى . وهكذا يترنم طائفة البهرة بأشعار المؤيد شاعر المستنصر الفاطمى وداعى دعاته على نحو ما يفعله الصوفية فى ترتيل الأوراد .

على أن الشعر الذى يلم بالعقائد هو فى أكثره شعر صنعة ، والشاعر كان يجهد نفسه فى أن يأتى فى شعره ببعض العقائد ، وأن يلائم بين هذه العقائد والألفاظ التى يختارها لشعره . ثم يوفق بين هذا كله وبين ضرورات الشعر . ذلك كله يدلنا على أن الشاعر كان يصنع شعره وكان ينفق جهدا كبيرا فى إنشاد الشعر ، ولذلك نرى شعر العقائد أقرب إلى النظم منه إلى الشعر الجيد الجزل . ولا غرابة إذا رأينا فى القصيدة الواحدة للشاعر الواحد لونين من الشعر . فالمقدمة التى كان يجعلها الشاعر لقصيدته لون ، والأبيات التى بها العقائد لون آخر يظهر فى المقدمة فن الشاعر وطبيعته ، وتظهر فى الأبيات التى بها العقائد صناعة الشاعر وتلاعبه . وقل أن نجد شاعرا استطاع أن يوفق بين طبيعته وعقله . أو بين فنه وعلمه . ومع ذلك كله فإن هذا اللون من الشعر الذى كثر فى العصر الفاطمى ظهر مرة أخرى فى شىء من القوة فى شعر الصوفية . وهو الشعر الذى كاد يكون الشعر الرمزى فى الأدب العربى — وسنرى ذلك فى حديثنا عن شعر الصوفية فى العصور التى تلت عصر الفاطميين — ويكفى أن أقول الآن : إن شعر الصوفية هو تطور شعر العقائد الفاطمية ، وكذلك تأويلات الصوفية هى تطور لتأويل الباطن عند الإسماعيلية .

وأكثر الشعر الذى يتأثر بالعقائد كان فى مدح الأئمة الفاطميين . على أن هناك شعراء مدحوا الأئمة ولم يقربوا العقائد من قريب أو من بعيد . بل كان شعرهم فى المدح صورة أخرى للمدح عند غيرهم من الشعراء ولغير الفاطميين من الأمراء ، فوصف بالجمال والكرم والشجاعة والسؤدد إلى غير ذلك من الصفات التى جعلها الشعراء للمدوحين . فمن ذلك قول الشاعر أبى الرقعمق فى العزيز :

حى الخيام فإنى … مغرى بأهل الخيام
بالراميات فؤادى … بصائبات السهام
لا عذب الله قلبى … إلا بطول الغـرام
سقيا لدهر تولى … بشرّتى وعرامى
كأنما ذلك العيـ … ـش كان فى الأحلام

لم يبق من ترتجيه … ـيه لحادث الأيام
إلا ابن أحمد ذو الطو … ل والأيادى الجسام
كفاه أغدق جودا … من واكفات الغمام
يلقى العفاة بوجـ … ـه مستبشر بسام
معظما ترتجيه … للنائبات العظام
يرمى الخطوب برأى … أمضى من الصمصام
قرم لـه عزمات … تفل حد الحسام[1]

ففى هذه الأبيات لا تجد معنى باطنيا فى حاجة إلى تأويل ، ولا تجد مدحا فى الإمام الفاطمى يختلف عن المدائح التى تقال لغير الفاطميين ، فكل الممدوحين عند الشعراء يوصفون بالجود والشجاعة وأصالة الرأى إلى غير ذلك من الصفات التى اعتاد الشعراء أن يذكروها ، وأن يصفوا بها الرجل اليوم وغدا يصفون عدوه بالصفات نفسها .

وفى قصيدة أخرى مدح أبو الرقعمق الإمام العزيز ، ولم يذكر شيئا فى حاجة إلى تأويل باطنى ، فقد قال :

سيد شادت علاه له … فى العلا آباؤه النجب
وله بيت يمد له … فوق مجرى الأنجم الطنب
حسبه بالمصطفى شرفا … وعلىّ حين ينتسب
رتبة فى العز شامخة … قصرت عن مثلها الرتب[2]

فكل هذه المعانى ليست باطنية ، والشاعر قد ثبت نسب الإمام إلى النبى صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبى طالب ، وهذه المعانى تصلح أن يمدح بها كل شريف علوى .

ومن الغريب أن نرى أكثر مدائح الأمير تميم فى أخيه الإمام العزيز بالله هى هذه المدائح المكررة المألوفة ، فهو يقول مثلا يهنئه بالعيد :

للعيد فى كل عام … يوم يعيد سناه
وأنت فى كل يوم … عيد يلوح علاه
ونعمـة وسعود … للمعتفين وجاه
يا من تصلى المعالى … إليـه حين تراه

---

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٤٠

(٢) نهاية الأرب ج ٣ ص ١٩٤ .

ومن يبز اليتامى   من كل خلق سواه
لو كان للفضل يوما   منى لكنت مناه
لأن منك استعارالز   مان حسن حلاه
فأنت شمس ضحاه   وأنت بدر دجاه
كفاك فى كل سلم   سحاب صوب نداه
وحسن رأيك فى الحر   ب سيفه وقناه
فأنت يمنى يديه   وأنت أمضى ظباه
فاسلم لسعدك يا من   يديم نحس عداه (١)

فالأمير تميم يهنىء أخاه بيوم من أيام الأعياد الدينية ، ولكنه مع ذلك كله لم يأت بمعنى واحد من المعانى الدينية التى كان الشعراء يقصدون إليها فى مدح الفاطميين ، ولو شاء الأمير تميم أن يأتى بالمعانى الباطنية فى شعره لأتى بما يعجز عنه غيره من الشعراء لأنه أقدر على معرفة أسرار العقائد الفاطمية فهو ابن إمام وأخو إمام ، بل كانت الإمامة ستئول إليه بعد أبيه ، ومع ذلك كله فالشاعر هنا كان شاعراً فحسب ، أراد أن يمدح الإمام فمدحه بهذه المعانى المألوفة. وفى قصيدة أخرى يقول تميم فى مدح العزيز :

رأيت مَعَدّاً كالحسين وإنما   تطول على المولود إن أنجب الجد
تعرب فهما مثلما ذاب رقة   وظرفا فما فى وصف كنهه له حد
به يشتفى السمع الأصم بلفظه   وتشفى برؤيا وجهه الأعين الرمد
كأن ضياء الشمس رداه نوره   وأهدى إليه قلبه الأسد الورد
وليس يبالى أن يروح ويغتدى   من المال صفرا حين يصبو له المجد
كأنك لا ترضى لنفسك خلة   إذا لم يكن فى كل كف لها رفد
ولست تبالى أن تروح بعيشة   تضيق إذا كانت علاك هى الرغد
ولولا احتمال النفس كل مشقة   إذن لتساوى فى العلا الحر والعبد
حجبت سنى شعرى زمانا ولم يزل   لدى مصونا لا يبين ولا يبدو
ونزهته دهرا فلما هززتنى   هززت حساما ليس ينبو له حد

(١) ديوان تميم « نسخة خطية بمكتبتى » .

كذا السيف لاتستخبر العين عنفه   إذا لم تفارقه الحمائل والغمد
فسار بمدحى فيك كل مهجر   وغنى به فى السهل والوعر من يحدو
وصاغت له علياك حسنا وزينة   وصيغ لها من حلى ألفاظه برد
وليس اكل الناس يستحسن الثنا   كما ليس فى كل الطلى يحسن العقد
وكم لك عندى من يد وصنيعة   أقر بها منى لك اللحم والجلد
فلا يعجب الحساد لى أن وددتنى   فحق لمثلى من مثالك ذا الود
رأيتك يفنى العذر حقدك كله   فترضى ولا يفنى مواهبك القصد
ولا توعد الجانى إذا زل بل له   إذا اعتذر المعروف عندك والوعد
وتجحد ما تولى يداك من الندى   وإن كان عند المجتدى للندى جحد
ولو كفر العافون نعماك لم يكن   لطبعك منك الآن عن كرم رد
وتهتز للمدح اهتزاز مهند   تناوله يوم الوغى بطل نجد
عليك صلاة الله ما لاح بارق   وما حن مشتاق تداوله الفقد (١)

وهكذا يمضى الأمير تميم فى مديحه للإمام ، فقل أن نجد الشاعر يصف أخاه بمصطلحات الفاطميين حتى يخيل إلى أن الشاعر المؤيد فى الدين الذى جاء بعد تميم بزهاء قرن من الزمان لم يعجبه أن تكون مدائح تميم مثل مدائح غيره من الشعراء ، فوضع المؤيد قصيدته التى مطلعها :

هلال بدا من خلال الدجنه   إمام زمان من النار جنه

وجعل هذه القصيدة جوابا لقصيدة تميم بن المعز التى مطلعها :

أسرب مها عَنَّ أم سربُ جنه   حكيتهن ولستن هنه

وفى قصيدة المؤيد يعرض بتميم بقوله :

سينعت فضلك منى اللسان   إذا نعت الغير توريد وجنه
وغير مديحك لهو الحديث   ومدحك دين وفضل وفطنه
فخذها جوابا لنجل المعز   «أسرب مها عن أم سرب جنه»

فكأن المؤيد ذهب إلى أن مديح تميم لا يليق بالإمام ، لأن الأمير تميما مدح إمامه بالطريقة التى كان يمدح بها القدماء فى الابتداء بالغزل ، ونعت الممدوح

(١) ديوان تميم ، السابق ذكره .

بالجمال وورد وجنتيه إلى غير ذلك من الصفات ، على حين أن المديح عند المؤيد هو من صميم الدين .

وأنشد على بن منصور المعروف بابن القارح قصيدة على وزن منهوكة أبى نواس يمدح فيها الحاكم بأمر الله ، منها قوله :

إن الزمان قد نضر   بالحاكم الملك الأغر
فى كفه عضب ذكر   فقد عدا على القصر
من غره على الغرر   يمضى كما يمضى القدر
فى سرعة الطرف نظر   أو السحاب المنهمر
بادر إنفاق البدر   بدر إذا لاح بهر(١)

وقال محمد بن القاسم عاصم المعروف بصناجة الدوح فى مدح الحاكم ، وقد حدثت زلزلة فى مصر :

بالحاكم العدل أضحى الدين معتليا   نجل العلى وسليل السادة الصلحا
ما زلزلت مصر من كيد يراد بها   وإنما رقصت من عدله فرحا(٢)

فأنت تقرأ هذه القصائد فلا تجد معنى من المعانى الباطنية ، ولا تجد أثرا لصفات العقل الأول التى اعتاد شعراء الفاطميين أن يمدحوا بها أئمتهم .

إذن نحن أمام لونين من المديح الذى قيل فى الأئمة ، اللون الأول هو ذلك الشعر الذى مدح فيه الشعراء الأئمة بصفات هى من خصائص الفاطميين ، وفى هذا الشعر يظهر أثر الفاطميين . أما اللون الثانى من المديح فهو ذلك المديح الذى اعتاد الشعراء أن ينشدوه فى الملوك والأمراء ، وهذا اللون لا يظهر فيه إلا فن الشاعر فقط ، وقل أن نجد فيه أثرا للبيئة التى تحيط بالشاعر إلا من ناحية واحدة ، وهى الظروف التى أنشد فيها هذا الشعر . ولذلك نرى الشعراء الذين وفدوا على مصر ومدحوا الأئمة الفاطميين ينشدون شعرهم فى مصر كما كانوا ينشدونه فى أى بلد آخر من البلاد الإسلامية .

وكان الشعراء ينشدون الأئمة مدائحهم فى المواسم والأعياد التى كثرت فى العصر الفاطمى ، وكثيرا ما كانت هذه الأيام ، وكثيرا ما كانت المناسبات

(١) معجم الأدباء ج ١٥ ص ٨٥ (طبعة رفاعى) .
(٢) المغرب ص ٨٥ ويقال إن الشاعر أنشدها فى كافور .

التى ينشد فيها الشعراء مدائحهم . ففى يوم فتح الخليج مثلا كان صاحب الباب يستأذن على حضور الشعراء للخدمة ، فيؤمر بتقديمهم واحدا بعد واحد ، وكان لهم منازل على مقدار أقدارهم ، فالواحد يتقدم الواحد بخطوة فى الإنشاد(١) ، ومما أنشد فى هذه المناسبة قول ابن جبر :

فتح الخليج فسال منه الماء   وعلت عليه الراية البيضاء
فصفت موارده لنا فكأنه   كف الإمام فعرفها الإعطاء(٢)

ومن الطريف أن المؤرخين يذكرون أن المصريين بلغوا فى ذلك الوقت درجة كبيرة من دقة الحس وتذوق الشعر ونقده ، فإنهم لما سمعوا هذه الأبيات انتقدوه فى قوله : « فسال منه الماء » وقالوا : أى شىء يخرج من البحر غير الماء ؟ وأن الشاعر أضاع ما قاله بعد ذلك المطلع .

وفى هذه المناسبة أيضا أنشد مسعود الدولة وكان مقدم الشعراء فى عصره :

ما زال هذا السد ينظر فتحه   إذن الخليفة بالنوال المرسل
حتى إذا برز الإمام بوجهه   وسطا عليه كل حامل معول
فجرى كأن قد ديف فيه عنبر   يعلوه كافور بطيب المندل

ولكن هذه القصيدة أيضا لم تعجب السامعين إذ انتقدوا عليه أيضا قوله فى البيت الثانى وقالوا : « أهلك وجه الإمام بسطوات المعاول عليه !! (٣)» .

وأنشد الشاعر أبو العباس أحمد فى مناسبة فتح الخليج قوله :

لمن اجتماع الخلق فى ذا المشهد   للنيل أم لك يابن بنت محمد
أم لاجتماعكما معا فى موطن   وافيتما فيه لأصدق موعد
ليس اجتماع الخلق إلا للذى   حاز الفضيلة منكما فى المولد
شكروا لكل منكما لوفائه   بالسعى لكن ميلهم للأجود
ولمن إذا اعتمد الوفاء ففعله   بالقصد ليس له كمن لم يقصد
هذا يفى ويعود ينقص تارة   وتسد أنت النقص ان لم يزدد

(١) المقريزى ٢ ص ٣٦٥ .
(٢) المصدر السابق
(٣) المصدر السابق

وقواه إن بلغ النهاية قصرت / وإذا بلغت إلى النهاية تبتدى
فالآن قد ضاقت مسالك سعيه / بالسد فهو به بحال مقيد
فإذا أردت صلاحه فافتح له / ليرى جنابا مخصبا وثرى ندى
وأمر بفصد العرق منه فاشكا / جسم فصح الجسم إن لم يفصد
واسلم إلى أمثال يومك هكذا / فى عيش مغبوط وعز مخلد(١)

فشعر المناسبات كثير جدا فى العصر الفاطمى ، حتى إن الخليفة الحافظ مل طول الشعر وكثرته فأمر أن يختصر الشعراء مدائحهم ، فلم يعجب ذلك الشعراء فقال أبو العباس أحمد بن مفرج الشاعر يخاطب الخليفة ويمدحه :

أمرتنا أن نصوغ المدح مختصرا / لم لا أمرت ندى كفيك يختصر
والله لا بد أن تجرى سوابقنا / حتى يبين لها فى مدحك الأثر(٢)

فكان الشعر ينشد فى مواسمهم وأعيادهم وحفلاتهم التى كانت تقام لأى حادثة صغرت أم كبرت ، فإذا تم عمل شمسية للبيت الحرام مثلا أنشد الشعراء ، من ذلك قول الأمير تميم وقد تم عمل هذه الشمسية فى عهد المعز لدين الله :

إليك مدت رقابها العرب / والملك ماء عليك منسكب
وأنت فى دوحة النبوة لا / تألف إلا عداتك الريب
ألست من يرهب الإله ولا / يصده عن حدوده سبب
وكلما قال بدء عزمته / بمذهب لم يخالف العقب
فهكذا يصدع الملوك إذا / صالت، وتنفى الضلالة الشهب
ويزدهى الدين بالمعز لدين الله / والمرهفات واليلب
وكل رحراحة عزائمه/دلا / صها ، والرماح والقضب
وهذه الدولة التى ذخرت / فلم يسعها الزمان والحقب
يا حبذا دهرك الزلال إذا / أمر دهر ، وعصرك الشنب
وحبذا الشمسة التى نصبت / يقصر عنها المديح والخطب
فآيست العيد وهى حلته / وأخفت اليوم وهو منتصب
ينهب ياقوتها العيون فما / يكمل الأمر حيث ينتهب

(١) المصدر السابق .
(٢) الجريدة ورقة ١٠٩ ب وابن ميسر ص ٨٥ .

دوائر احدقت بغرتها / أهلة لا تحفها السحب
كأنما درها وجوهرها / نجوم ليل سماؤها ذهب
نظمتها للهدى ولبته / وإن سخطن الكواعب العرب
فى كبد المسجد الحرام بها / شوق، وللبيت نحوها طرب
فلا تمسى بأهله زمن / إلا بما تشتهى وترتقب
عليك صلى الإله ما طلعت / شمس، وما انهل عارض لجب(١)

فبالرغم من أن المناسبة التى قيلت فيها هذه القصيدة هى مناسبة دينية ، وأن الممدوح إمام المذهب لم يشأ الأمير تميم أن يلم بشىء من العقائد الفاطمية فى هذه القصيدة ولكنه أنشد الشعر للمناسبة فقط ، فإذا تصفحنا ديوان الأمير تميم نجد هذا الشاعر أنشد أكثر قصائده فى مدح أبيه المعز أو أخيه العزيز لمناسبات مختلفة فإذا فصد الإمام مدحه الشاعر ، وإذا شكى من مرض مدحه ، وإذا سافر ، مدحه ، وإذا أهداه شيئا مدحه ، وذلك كله بجانب القصائد التى قيلت بمناسبة الأعياد .

على أن من المصريين من كان ينظر إلى الأئمة الفاطميين بعين الريبة ، فلم يستجب لدعوتهم وانتسابهم إلى الرسول الكريم ، وظل محافظا على مذهبه معترفا بخلافة العباسيين ، وظهر هذا فى الشعر المصرى ، فقد قيل إن العزيز بالله وجد بطاقة على المنبر فيها :

إنا سمعنا نسبا منكرا / يتلى على المنبر فى الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقا / فاذكر أبا بعد الأب الرابع
وإن ترد تحقيق ما قلته / فانسب لنا نفسك كالطائع
أوفدع الأنساب مستورة / وادخل بنا فى النسب الواسع
فإن أنساب بنى هاشم / يقصر عنها طمع الطامع(٢)

وقول الآخر فى الحاكم ، وقيل بل فى العزيز :

بالظلم والجور قد رضينا / وليس بالكفر والحماقة

(١) ديوان الأمير تميم ورقة ١٢٢ ا (نسخة خطية بمكتبتى) .
(٢) ابن خلكان ج ٣ ص ٥٤ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٦ .

إن كنت أعطيت علم غيب ... فقل لنا كاتب البطاقة

وقد رأينا الشاعر الحسن بن بشر الدمشقى ، وقد هجا رجال القصر وعرض بالعزيز بالله ، وسنرى كيف كان المصريون يهجون النصارى واليهود ممن كان إليهم بعض الدواوين فى العصر الفاطمى ، فالفاطميون بالرغم من اتخاذهم الدين وسيلة لتوطيد سلطانهم ونفوذهم وادعائهم العصمة للأئمة . فإن بعض الشعراء لم يأبه بذلك ، وعرض بهذه العقائد وسخر بهؤلاء الأئمة .

الأمير تميم بن المعز :

والآن نتحدث عن الأمير تميم الشاعر الذى ذكرناه مرارا وسنذكره مرارا فهو الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمى وهو الشاعر الذى يقرن دائما بالشاعر ابن المعتز العباسى ، لما بينهما من تشابه ، فكلا الشاعرين من بيت خلافة. وكلا الشاعرين من شعراء البديع ، وكلاهما ممن أكثر من الوصف والمجون وكلاهما دافع عن عقيدته وحق ذويه فى الخلافة ، فهما متشابهان فى أمور كثيرة جعلت مؤرخى الأدب العربى يقرنون بينهما دائما .

ولد الأمير تميم بالمغرب وفيها نشأ مع إخوته عبد الله ونزار وعقيل ، وكان تميم أكبرهم سناً ، فلم يشك الناس فى أن ولاية العهد ستكون له ، ولكن المعز لدين الله صرفها عنه إلى أخيه عبد الله ، ولعل السبب الذى من أجله صرف تميم عن إمامة الفاطميين هو ما عرف عن تميم من مجون وفجور ، فكان يشاع عنه وعن سيرته السيئة ما حدا بأمير صقلية أحمد بن الحسن الكلابى أن يستأذن المعز فى أن يقتل أحد أبنائه لأنه كان يساير الأمير تميما ويشاركه فى لهوه وفسقه ويحدثنا صاحب سيرة الأستاذ جوذر أن المعز أرسل إلى أمير صقلية رد خطابه وفى هذا الخطاب ألم المعز وغضبه لما عرف عن تميم من فسق وفجور (١) . ولما

---

(١) نص ما ورد فى سيرة جوذر ص ١٧٥ وما بعدها (نسخة خطية بمكتبتى) .
ولما وصل احمد بن الحسن من صقلية ، وكان واجدا على ولده طاهر لصحبته مع الأمير تميم وما شنع من القول عنهما فأراد قتل ولده طاهرا هذا الا أنه استأمر الأستاذ (أى جوذر) على ذلك وشاوره فيه ، فلم يجد الأستاذ بدا من أن يرفع ذلك إلى أمير المؤمنين (أى المعز) فصرف إليه الجواب وهو :
« ياجوذر كثر الله من أوليائنا مثل أحمد فوالله ما كان يشينه عندنا ويصوره بغير صورته ، إلا بعض أتباعه الذين زينوا لهذا الصبي الشقى ولده صحبة من كان سبب شقوته . ووالله إن توجعنا =

فتحت مصر انتقل الأمير تميم إليها مع أبيه وباقى أسرته ، وفى مصر توفى عبد الله (ولى العهد) فجعل المعز ولاية عهده إلى ابنه الثالث نزار الذى لقب بالعزيز ، ولعل هذا هو السر فيما نراه من حزن دفين ظهر فى شعر الأمير تميم إذ كان يمدح أخاه الصغير العزيز بالله ، ولكنه لم يستطع أن يخفى ما فى نفسه من آلام وشعور بحنق وغيظ ، كان يحاول إظهار تجلده وصبره ، ولكن عاطفته فى الشعر هى عاطفة القانط الحاقد ، فهو يقول مثلا من قصيدة فى مدح العزيز :

تهون على صغار الأمور ... ويصغر عنى جميع الورى
أنا ابن المعز سليل العلى ... وصنو العزيز إمام الهدى
وما احتجت قط إلى ناصر ... ولا رحت يوما ضعيف القوى
ولم أستشر فى ملم يئوب ... مشيراً أرى منه ما لا أرى
ولست بوان إذا ما أمر ... زمان ، ولا فرح إن حلا (١)

فهذه الأبيات تظهر فيها قوة الفخر بنفسه وبنسبته للأئمة الفاطميين وعدم مبالاته بصروف الدهر ، ولكن يستشف منها دخيلة نفس الشاعر تلك النفس الناقمة الحاقدة ، ويقول يفتخر أيضا :

ليس من ساد عن وراثة جد ... أو لحظ من الحظوظ مباح
يستحق الثنا ويستوجب الشكر ويحوى مدائح المداح
إنما السيد المعلى المفدى ... من علا للعلى صدور الرماح
ورمى ليل كل خطب بهيم ... بذكاء أضوا من المصباح

= به كتوجعنا بمن لنا ، لكن ابن أحمد رجى فيما يستقبل من الزمان ، ومدبرنا نحن لا يرجى إذ كان الخطة التى يرفع الله عز وجل بها أولادنا هى خطة الطهارة . ومن عدمها كان كلا على مولاه . والحمد لله على ماساء وسر ، فأما ما أراد أن يفعله أحمد بولده فامنعه وتشفع له عنده ، وعرفه أن الصواب إصلاح كل فاسد من غير ظاهر شنعة يلحقه عارها ويبقى ذكرها مع الأيام فما يخفى عليه أن ذلك يبقى فى الأعقاب فليمسك ويعمل ما يصلح فيما يستقبله فكونه بين أيدينا يصلح فساد كل فاسد كان يسعى به بينهما ونحن نداوى عللهم ، فمن أطاعنا لم يشق ، والله لقد نكس الله رءوس كل من كان انتصب للشماتة بهم ، لما رأوه من فضلنا عليهم وانفاقه ، وكذا نحب أن يكونوا ما بقوا فى نمو وزيادة ، لا فى النقص ورجوع القهقرى فعرفه ذلك ليعمل به ، ولا يحدث فى الصبى شيئا من المكروه إن شاء الله .

(١) ديوان الأمير تميم نسخة خطية بمكتبتى .

واقتنى العز بالظبا والعوالى   واشترى الحمد بالثنا والسماح
فكذا تنتمى المكارم والمجـــد   ويستبعد العدو الملاحى
لا كمن قد جرى برجل سواه   وسما طائرا بغير جناح
لا ألفت العـــلى ولا ألفتنى   إن توشحت دونها بوشاح
أو ترفهت أو تشاغلت عنها   بأباطيل قينـــة أو براح
لا ولا ابيض لى سنى المجد إن لم   أستجد غسله بنزف الجراح
وألاقى العداة عنه بعزم   علوى يفل حد الصفاح
وببطش يفرى الجماجم والأعنا   ق فرى المدى لحوم الأضاحى
أنا فرد النهى ورب المعالى   وحسام الكفاح يوم الكفاح
أنا مفتاح قفل كل نوال   يوم يغدو الندى بلا مفتاح
أنا كالجد فى الأمور إذا ما   كان عيشى فيهن مثل المزاح
لا كراض من العلا بادعاء   وبعرض مجرح مستباح
فسل المجد عن صباحى وليلى   ومقيلى وغدوتى ورواحى
هل يسر العلا مقالى وفعلى   وارتياحى لكسبها واقتراحى
هاكها كالصهيل فى حلبة الفخر   إذا كان غيرها كالنباح (١)

ويخيل إلى أن بعض الوشاة سعوا بينه وبين أخيه العزيز مما جعل العزيز يغضب على الشاعر ، وجعل الشاعر يتنصل من وشاية الواشين ، فأخذ الشاعر يتلمس الأعذار ، ويقدم الاعتذار ، ويذكر الإمام بأنهما شقيقان . وأن على الإمام ألا يستمع إلى أمثال هؤلاء الوشاة . فأكثر قصائد المدح التى فى الديوان تتحدث عن هؤلاء الذين يسعون بالفساد بين الملك الصغير وأخيه الأمير الكبير .

ومن شعر الديوان نستطيع أن نعرف أن الأمير نفى مرة إلى عين شمس ، ونفى مرة أخرى إلى الرملة بفلسطين ، فكان يرسل إلى إخوانه وأصدقائه مقطوعات من الشعر يبثهم فيها شوقه إليهم ، ويشكو غربته التى اضطر إليها اضطرارا . فقد أنشد فى عين شمس :

أما كفى الحب شوق موجع وأسى   مبرح يقطع الأحشاء والكبدا

(١) ديوان الأمير تميم .

حتى رمى البين بالتفريق ألفتنا   وحل من وصلنا ما كان قد عقدا
فآه من لوعة مشبوبة وجوى   فى الصدر لم يبق لى صبرا ولا جلدا
قالت وعبرتها مخلوطة بدم   تجرى وأنفاسها مرفوعة صعدا
لا تطلب النطق منى بالسلام فما   أبقى فراقك لى روحا ولا جسدا
فظلت ملتثما من صحن وجنتها   وردا ، ومرتشفا من ثغرها بردا
وطاويا فى الحشى منها رسيس هوى   لا أحسب الدهر يبلى عهده أبدا

وأنشد وهو فى الرملة وأرسل بها إلى بعض أهله فى القاهرة :

أنتم فى المنام حلمى وأنتم   فى انتباهى سؤلى وأنتم مرادى
كل عضو منى إليكم مشوق   زائد شوقه على الأبعاد
لم أفارقكم ولكن جسمى   بان عنكم وحل فيكم فؤادى
فهنيئا لكم وفائى عليكم   وهنيئا للعين طول السهاد
كلما حثنى اشتياقى إليكم   قلت لبيك أنت نعم المنادى

وكان الأمير تميم فى مصر يشارك المصريين لهوهم ويخرج إلى متنزهاتها ، ويعبث فى أديرتها ، وأنشد فى ذلك كله شعرا — سنتحدث عنه فى فصل آخر من هذا الكتاب — وشعره إن دل على شىء فانما يدل على رقة شعوره ، ورقة العاطفة وصدقها . وتوفى هذا الشاعر سنة ٣٧٤ هـ .

الفصل الثالث

الشعر والوزراء

كان العزيز بالله أول خليفة فاطمى اتخذ له وزيراً ، وكان الوزير يعقوب ابن كلس أول وزير فى الدولة الفاطمية فى رمضان سنة ثمان وستين وثلثمائة لقبه العزيز بالوزير الأجل ، وأمر ألا يخاطبه أحد ولا يكاتبه إلا بهذا اللقب ، فعظمت مكانته حتى كتب اسمه على الطرز وفى الكتب (١) ، فكان هذا المركز الخطير الذى شغله ابن كلس فى هذه الدولة الفتية إذ ذاك من الأسباب التى جعلت الشعراء يسعون إليه وينشدون الشعر فى مدحه ، وقد رأينا من قبل كيف كان ابن كلس أحد العلماء المبرزين ، وكيف كان يلقى علوم الدعوة وغيرها على الناس ، وكيف كان يؤم مجلسه عدد من القضاة والفقهاء والشعراء ورجال الدولة يستمعون إلى دروسه ، ويتناقشون بين يديه ، أضف إلى ذلك كله أنه كان كريم اليد، يعطى ويجزل العطاء ، فلا غرو أن كان الشعراء يلتفون حوله ويكثرون من مدحه. مدحه أبو الرقعمق وعبد الله بن محمد بن أبى الجوع ، والأمير تميم بن المعز وكثير غيرهم من شعراء عصره الذين فقد شعرهم وضاعت أسماؤهم مع ما ضاع من الأدب الفاطمى ، وقد ذكرنا أن الشعراء الذين رثوه بلغوا مائة شاعر ، فمن هم هؤلاء الشعراء ؟ وأين شعرهم ؟ الجواب عن ذلك أولا : عند رجال الدولة الأيوبية الذين عملوا على محو كل أثر علمى أو أدبى للفاطميين لخلاف مذهب الدولتين ، وثانيا: عند المؤرخين والكتاب من أهل المشرق الذين كانوا يدينون بالطاعة للعباسيين فأبوا أن يرووا شيئاً من شعراء مصر الفاطمية ، وثالثا : عند الأتراك الذين دان لهم العالم الإسلامى مدة طويلة فأطاحوا بحضارتين من أرقى الحضارات التى شاهدها العالم وشاهدها تاريخ الفكر البشرى وهما الحضارة البيزنطية والحضارة الإسلامية ولم يستطع الأتراك أن يقيموا حضارة أخرى تقوم مقام

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٨ وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٣ .

هاتين الحضارتين ، وكان الأتراك شديدى التعصب للمذهب السنى فأنزلوا نقمتهم على كل ما هو شيعى ، أضف إلى ذلك كله المجاعات الكثيرة والاضطرابات العديدة التى سببت محنا عديدة لمصر ووصفها المقريزى فى كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » فقد كانت من أشد العوامل فى ضياع كتب كثيرة من كتب علماء الفاطميين ودواوين شعر شعرائهم ، وهكذا تضافرت قوى عديدة لإبادة العلوم والآداب فى العصر الفاطمى ، حتى إن الذى بقى من هذا كله أصبح ضئيلا تافها بالنسبة لما كان فى عهدهم الزاهر . فقد بقى لنا جزء من قصيدة لأبى الرقعمق فى مدح ابن كلس وهى :

لم يدع للعزيز فى سائر الأر	ض عدوا إلا وأخمد ناره
فلهذا اجتباه دون سواه	واصطفاه لنفسه واختاره
لم تشد له الوزارة مجداً	لا ولا قيل رفعت مقداره
بل كساها وقد تخرمها الدهر	جلالا وبهجة ونضاره
كل يوم له على نوب الدهر	وكر الخطوب بالبذل غارة
ذو يد شأنها الفرار من البخـ	ـل وفى حومة الوغى كراره
هى فلت عن العزيز عداه	بالعطايا وكثرت أنصاره
هكذا كل فاضل يده تمسى	وتضحى نفاعة ضراره
فاستجره فليس يأمن إلا	من تفيا بظله واستجاره
فاذا ما رأيته مطرقا يعـ	ـمل فيما يريده أفكاره
لم يدع بالذكاء والذهن شيئا	فى ضمير الغيوب إلا انارة
لا ولا موضعا من الأرض إلا	كان بالرأى مدركا أقطاره
زاده الله بسطة وكفاه	خوفه من زمانه وحذاره(١)

فالشاعر فى هذه الأبيات يمدح الوزير ، ولكنه كان يذكر الإمام الفاطمى كلما وسعه فنه ومواهبه فى الشعر فهو لم يستطيع أن يغفل الإمام من قصائده ، وذلك لقوة الإمام والخلافة الفاطمية إذ ذاك والوزير نفسه لم يكن ليصدر أمرا قبل أن يطالع الإمام به ويستأذنه فيه . وعرف الشعراء ذلك فكانوا يتقربون

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٣٩

للوزير حتى يتقربوا به للإمام ، فمدح الوزير كان وسيلة لغايتهم وهى الاتصال بالإمام ، هكذا كان أمر الشعراء مع جميع الوزراء فى القسم الأول من العصر الفاطمى ، وهو القسم الذى كان الأئمة فيه يسيرون مرافق البلاد ، ويختارون الوزراء لمساعدتهم فى تنفيذ ما كانوا يصدرونه من أحكام وقوانين ، وكان أكثر وزراء ذلك العهد من رجال القلم أمثال الجرجرائى واليازورى وابن المغربى والبابلى وغيرهم من الكتاب ، ليس معنى ذلك أن الشعراء أفنوا أنفسهم فى الوزراء وفى مدحهم فمن الشعراء من هجا الوزراء كالذى رأيناه من هجاء ابن كلس.
وهجاه أبو محمد القاسم الرسى بقوله .

توق معز الدين شؤم ابن كلس ... ولا تقبلن منه مقال مدلس
فإنا أردناه لكافور شربة ... فزاد على تقريرنا ألف مجلس(١)

وكذلك روى أن الشاعر جاسوس الفلك هجا الوزير على بن أحمد الجرجرائى وزير الظاهر لاعزاز دين الله ، وكان هذا الوزير أقطع اليدين بسبب خيانة ظهرت عليه أيام الحاكم . فلما ولى الوزارة استعمل العفاف والأمانة ولكن ذلك لم يمنع الشاعر من أن يقول فيه :

يا أحمقا إسمع وقل ... ودع الرقاعة والتحامق
أأقمت نفسك فى الثقا ... ت ، وهبك فيما قلت صادق
فمن الأمانة والتقى ... قطعت يداك من المرافق(٢)

وقال الشاعر الحسن بن خاقان فى هجاء الوزير الفلاحى وزير المستنصر .

حجاب وإعجاب وفرط تصلف ... ومد يد نحو العلا متكلف
فلو كان هذا من وراء كفاية ... عذرنا ولكن من وراء تخلف(٣)

ونحن نعلم أن الفلاحى كان يهوديا وأسلم ، وأن أبا سعد التسترى مدبر الدولة إذ ذاك كان يهوديا ولذلك قال أحد الشعراء :

يهود هذا الزمان قد بلغوا ... غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ... ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إنى نصحت لكم ... تهودوا قد تهود الفلك(٤)

(١) اليتيمة جـ ١ ص ٢٣٠ (٢) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٦٧ .
(٣) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٥٣ . (٤) المصدر نفسه

ولكن بعد أن ضعفت الخلافة الفاطمية فى عهد المستنصر ، وحلت بالبلاد نكبة الشدة العظمى ، اضطر المستنصر إلى أن يستعين برجال السيف وأن يتخذ منهم وزراء له ، وأول هؤلاء الوزراء السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبو نجم بدر الجمالى ، تولى هذه المراتب سنة ٤٦٦ هـ ولكنه لم يلبس خلعة الوزارة إلا سنة ٤٦٨ هـ ، وصار صاحب الكلمة النافذة فى البلاد التى كانت خاضعة للفاطميين ، وأصبح الإمام الفاطمى شبه أسير فى يدى الوزير ، وظل بدر الجمالى فى منصبه إلى أن توفى سنة ٤٨٧ هـ قبل المستنصر الفاطمى بأشهر ، فتولى الوزارة بعده ابنه القاسم شاهنشاه الأفضل ، وفى عهده بلغت قوة الوزارة وسلطانها أعلى الذرى حتى إنه بعد وفاة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ لم يعبأ بعقيدة من أهم عقائد الفاطميين فى الإمامة ، وهى النص على من يلى الإمامة ، إذ الإمام لا بد أن ينص قبل وفاته على خليفته ، وأن يبلغ ذلك إلى حجته وحجج الجزائر ، ولكن الأفضل بن بدر الجمالى أبى أن يجعل الإمامة إلى صاحب النص وهو نزار بن المستنصر وجعلها إلى المستعلى بالله وهو ابن أخته وكان صغير السن ، وبذلك انقسمت الدعوة إلى فرعيها النزارية والمستعلية ، وكان هذا الانقسام من أهم الأسباب التى أدت إلى ضعف الدولة الفاطمية ، والخلافة الفاطمية ، وأضعفت هيبة الإمام بين الناس وشك فى إمامته بعض الأتباع والأشياع ، ومهما يكن من شىء فقد أصبحت الوزارة هى القوة المحركة للبلاد كلها فاتجه الشعراء إلى الوزراء يمدحونهم ويأخذون هباتهم وصلاتهم ، وتشبه الوزراء فى بذخهم بالأئمة فأسرفوا فى كل ما يجلب لهم الشهرة والسرور معا ، وأحاطوا أنفسهم بهالة من أبهة الملك وألقابه ، واتخذوا لأنفسهم حاشية هى أشبه شىء بحاشية الملوك والسلاطين ، وعقدوا مجالس للشعراء على نحو ما كان يفعله خلفاء بنى العباس والأئمة الفاطميون إبان قوتهم وسلطانهم ، فانتقل أكثر الشعراء من مدح الأئمة إلى مدح الوزراء .

وكان من الوزراء من ينشد الشعر ، فالأفضل بن بدر الجمالى كان شاعرا ، ومن شعره قوله فى غلامه تاج المعالى :

أقضيب يميس أم هو قد ... وشقيق يلوح أم هو خد
أنا مثل الهلال سقما عليه ... وهو كالبدر حين وافاه سعد(١)

(١) أخبار مصر لابن ميسر ص ٦٠ .

ومن قوله أيضا فى جارية له أمر بضرب عنقها لأنه رآها تتطلع إلى الطريق ، وكان شديد الغيرة على نسائه ، فلما جىء له برأسها قال :

نظرت إليها وهى تنظر ظلها   فنزهت نفسى عن شريك مقارب
أغار على أعطافها من ثيابها   حذاراً ومن مسك لها فى الذوائب
ولى غيرة لو كان للبدر مثلها   لما كان يرضى باجتماع الكواكب(١)

فهذه الأبيات التى بقيت لنا من شعر الأفضل تدل على رقة شعور وقدرة على التعبير عما يخالج النفس من عاطفة شديدة .

وكان الملك الصالح طلائع بن رزيك جيد الشعر ، وكان يثيب على شعر الشعراء(٢) وكان شاور وولده الكامل وضرغام ممن ينشدون الشعر — وسنتحدث عنهم جميعا بعد قليل — فهؤلاء الوزراء الشعراء استطاعوا أن يكونوا لأنفسهم حاشية من الشعراء هى أشبه بحاشية الأئمة الفاطميين إبان سلطانهم الفعلى ، فكل الشعراء من مصريين ووافدين اتصلوا بهم ومدحوهم .

فممن وفد على مصر الشاعر علقمة بن عبد الرزاق العليمى ، وفد على بدر الجمالى ، ويقول علقمة : قصدت بدر الجمالى فرأيت أشراف الناس وكبراءهم وشعراءهم على بابه قد طال مقامهم ، فلم يصلوا إليه ، فبينما أنا كذلك إذ خرج بدر يريد الصيد فخرجت فى أثره وأقمت معه حتى رجع من صيده ، فلما قاربنى وقفت على تل من الرمل ، وأومأت برقعة فى يدى ، وأنشدت :

نحن التجار وهذه أعلاقنا   در ، وجود يمينك المبتاع
قلّب فتشها بسمعك إنها   هى جوهر تختاره الأسماع
كسدت علينا بالشآم وكلما   قل النفاق تعطل الصناع
فأتاك يحملها إليك تجارها   ومطيها الآمال والأطماع
حتى أناخوها ببابك والرجا   من دونك السمار والبياع
فوهبت ما لم يعطه فى دهره   هرم ولا كعب ولا القعقاع
وسبقت هذا الناس فى طلب العلا   والناس بعدك كلهم أتباع
يا بدر أقسم لو بك اعتصم الورى   ولجوا إليك جميعهم ما ضاعوا(٣)

(١) ابن ميسر ص ٦٠   (٢) النكت ص ٥٥   (٣) ابن ميسر ص ٣٠ .

الأفضل وشعراؤه

ويعد عهد الأفضل بن بدر الجمالى من أزهى العصور الأدبية التى شاهدتها مصر الإسلامية ، فقد اتصل به عدد كبير من الشعراء ، نذكر منهم مسعود الدولة وأبا على حسن بن زبيد ، والقاضى ابن النضر المعروف بالأديب ، والناجى المصرى ، وسالم بن مفرج بن أبى حصينة ، ومحمود بن ناصر الإسكندرانى ، ومروان بن عثمان اللكى ، وابن البرقى ، وظافر الحداد ، وأمية بن أبى الصلت ، وغيرهم من شعراء الخريدة . ومن الشعراء الذين ذكرهم أمية فى رسالته الموسومة «بالرسالة المصرية» . وقد ذكرنا كيف كان الأفضل يجزل العطاء للشعراء ، ويجلس إليهم يستمع إلى أشعارهم ورواياتهم للشعر ، ولعل «الرسالة المصرية» من أقوم الكتب التى تعطينا صورة صحيحة عن تلك الحياة الأدبية التى كانت بمصر فى عهد الأفضل ، ومؤلف هذه الرسالة هو أمية بن أبى الصلت .

أمية بن أبى الصلت ورسالته المصرية :

لم يكن أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت مصريا ، إنما هو أندلسى وفد على مصر فى عهد الآمر بأحكام الله ، واستطاع أمية أن يتصل بالأفضل ، وكان سبب هذه الصلة هو الأمير مختار تاج المعالى — وكان فى منزلة قريبة جداً من الوزير — فاتصل به أمية مادحا وقربه الأمير مختار وكان أمية يخدمه أيضا بصناعتى الطب والنجوم ، فأنس به تاج المعالى كما آنس منه العلم والفضل ، وكان جمهور المثقفين من المصريين قد التفوا حول أمية يأخذون عنه العلم والآداب ، فقدمه تاج المعالى إلى الوزير وأثنى عليه ، وذكر للوزير ما سمعه من أعيان العلماء وإجماعهم على تقدمه وتميزه عن كتاب وقته ، واشتدت صلة أمية بالوزير ، ولكن الحساد من الكتاب المقربين للوزير أبوا أن تستمر علاقة أمية بالأفضل ، فأخذوا يتحينون الفرص للإيقاع بأمية حتى واتتهم الفرصة ، ذلك أن الوزير قلب ظهر المجن لتاج المعالى واعتقله ، فوجد الكتاب السبيل للنيل من أمية فوشوا به لدى الأفضل فحبسه بالإسكندرية مدة ثلاث سنين وشهر ، إلى أن شفع فيه بعض وجوه المصريين ، فأطلق سراحه وسار إلى المغرب واتصل بالمرتضى أبى طاهر يحيى بن تميم

صاحب القيروان وحظى عنده وحسن حاله إلى أن توفى بالمهدية سنة ٥٢٩ هـ(١) .

استطاع أمية أثناء إقامته بمصر أن يدرس مصر والمصريين ، وأن يعرف أحوالهم وطبقاتهم وطبائعهم ، وأن يتحدث عن ذلك كله فى الرسالة التى عرفت « بالرسالة المصرية » ، وصف فيها مصر جغرافيا ، وعرض لبعض المدن المصرية ، وتحدث عن النيل ومنابعه وزيادته ونقصانه ، وروى شيئا مما قيل فى النيل من شعر ، وما أنشد فى مهرجان الخليج مما قاله القدماء ومعاصروه ، فنستطيع أن نعدّ هذه الرسالة القيمة من الكتب القليلة الممتعة التى وصلتنا عن هذا العصر ، كما أنها مجموعة لأشعار بعض من اتصل بهم أمية فى مصر أو من حفظ لهم شيئا من الشعر من المصريين . أضف إلى ذلك كله أن أمية ذكر فى هذه الرسالة بعض علماء أهل مصر فى ذلك الوقت ، ولا سيما من كانوا يتعاطون صناعتى الطب والتنجيم ، يقول أمية عن المصريين : والمصريون أكثر الناس استعمالا لأحكام النجوم وتصديقا لها وتعويلا عليها وشغفا بها وسكونا إليها ، حتى إنه بلغ من زيادة أمرهم فى ذلك إلى أنه لا يتحرك حركة من حركاتهم الجزئية التى لا تحصر فنونها ولا تحصل أجزاؤها وأنحاؤها ولا تضبط جهاتها ولا تقيد غاياتها ولا تعدد ضروبها إلا فى طوالع يختارونها(٢) . ويقول عن أطباء مصر فى ذلك العصر : « وأكثر أطبائها المزبرقين نصارى أو يهود » ، وفى ذلك يقول بعضهم :

أقول للمسلمين طرا   تبغون فى طبها اشتهارا
هيهات حاولتم محالا   كونوا إذن هودا ، او نصارى(٣)

ويحدثنا عن بعض الشعراء الذين كانوا بعيدين عن الحضرة فقال عن القاضى على أبى الحسن بن النضر : المعروف بين أهالى الصعيد الأعلى بالأديب ، ذو الأدب الجم ، والعلم الواسع ، والفضل البارع ، وله فى سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى ، والرتبة الأولى ، وقد كان ورد الفسطاط يلتمس من وزيرها الأفضل تصرفا وخدمة ، فخاب فيه أمله ، وضاع رجاؤه ، فقال يعاتب الزمان :

(١) راجع ترجمته فى عيون الأنباء ج ٢ ص ٥٢ ومعجم الأدباء ج ٢ ص ٣٦١ وابن خلكان ج ١ ص ٨٠ .
(٢) الرسالة المصرية نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية   (٣) المصدر السابق .

بين التعزز والتذلل مسلك   بادى المنار لعين كل موفق
فاسلكه فى كل المواطن واجتنب   كبر الأبى وذلة المتملق
ولقد جلبت من البضائع خيرها   لأجل مختار وأكرم متق
ورجوت خفض العيش تحت ظلاله   لابد أن نفقت وإن لم تنفق
ظنا شبيها باليقين ولم أقل   إن الزمان بما سقانى مشرق
ولعائبى بالحرص قول بين   لو كنت شمت سحابة لم تطرق
ما ارتدت إلا خير مرتاد ولم   أصل الرجاء بحبل غير الأوثق
وإذا أبى الرزق القضاء على امرئ   لم تغن فيه حيلة المسترزق
ولعمرو عادية الخطوب وإن رمت   حظى بسهم تشتت وتفرق(١)

ويذكر شعراء آخرين من أهل الصعيد مثل أبى شرف الدجرجاوى المنسوب إلى قرية دجرجا بالصعيد ، والشاعر أبى الحسن على بن البرق من أهل قوص وغيرهما ، فالسيرة المصرية مرآة صادقة للحياة الأدبية فى مصر فى أوائل القرن السادس للهجرة .

كان أمية أستاذاً لبعض المصريين ، وذكر ياقوت أن من تلاميذ أمية الذين تلقوا عنه العلم ورووا شعره أبو عبد الله الشامى الذى ظل مخلصا لأستاذه ، وكان يتردد عليه إبان نكبته وسجنه ، وينقل ياقوت عن أبى عبدالله الشامى : وكنت أختلف إليه إذ ذاك فدخلت إليه يوما فصادفته مطرقا . فلم يرفع رأسه إلىّ على العادة ، فسألته فلم يرد الجواب ، ثم قال بعد ساعة : اكتب . وأنشدنى :

وكان لى سبب قد كنت أحسبنى   أحظى به ، فإذا دائى هو السبب
فما مقلم أظفارى سوى قلمى   ولا كتائب أعدائى سوى كتبى

فكتبت عنه رسالته فقال : إن فلانا تلميذى قد طعن فىّ عند الأمير الأفضل(٢) . ويروى ياقوت أيضا أن الشيخ سليمان بن الفياض الإسكندرانى كان ممن أخذ العلم عن أمية وروى عنه(٣) ، وكان لأمية عدد من الأصدقاء فى طليعتهم ظافر الحداد الشاعر الذى صادقه بالإسكندرية وحزن لسفره وبعده عن مصر ، فأرسل إليه قصيدة يشكو فراق الصديقين ويذكر أمية بالأيام التى قضياها معا ، والقصيدة هى :

(١) الرسالة المصرية   (٢) ياقوت ج ٢ ص ٣٦١   (٣) ياقوت ج ٢ ص ٣٦٥

ألا هل لدائى من فراقك إفراق … هو السم لكن فى لقائك ترياق
فياشمس فضل غربت ، ولضوئها … على كل قطر بالمشارق إشراق
سقى العهد عهدا منك عمر عهده … بقلبى عهد لا يضيع وميثاق
نجدده ذكر يطيب كما شدت … وريقاء كنتها من الأيك أوراق
لك الخلق الجزل الرفيع طرازه … وأكثر أخلاق الخليقة إخلاق
لقد ضاء لتنى ياأبا الصلت مذنأت … ديارك عن دارى هموم وأشواق
إذا عــزنى إطفاؤها بمدامعى … جرت ولها ما بين جفنى إحراق
سحائب يحدوها زفــير يجره … خلال التراقى والترائب تشهاق
وقد كان لى كنز من الصبر واسع … فلى منه فى صعب النوائب إنفاق
وسيف إذا جردت بعض غراره … لجيش خطوب صدها منه إرهاق
إلى أن أبان البين أن غــراره … غرور، وأن الكنز فقر وإملاق
أخى، سيدى، مولاى. دعوة من صفا … وليس له من رق ودك إعتاق
لئن بعدت ما بيننا شقة النوى … ومطرد طامى الغوارب خفاق
وبيد إذا كلفتها العيس قصرت … طلائح أنضاها زميل وإعناق
فعندى لك الود الملازم مثل ما … يلازم أعناق الحمائم أطواق
ألا هل لأيامى بك الغر عودة … كعهدى ، وثغر الثغر أشنب براق
ليالى يدنينــا جواب أعادنا … من القرب كالصنوين ضمهما ساق
ومابيننا من حسن لفظك روضة … بها حسدت منا المسامع أحداق
حديث ، حديث كلما طال ، موجز … مفيد ، إلى قلب المحدث سباق
يزجيه بحر من علومك زاخر … له كل بحر فائض اللج رقراق
معان كأطواد الشوامخ جزلة … تضمنها عذب من اللفظ غيداق
به حكم مستنبطات غــرائب … لأبكارها الغر الفلاسف عشاق
فلو عاش رسطاليس كان له بها … غرام وقلب دائم الفكر تواق
فياواحد الفضل الذى العلم قوته … وأهلوه مشتاق يشم وذواق
لئن قصرت كتبى فلا غرو إنه … لعائق عذر والمقادير أوهاق
كتبت وآفات البحار تردها … فإن لم يكن رد على فإغراق
بحار بأحكام الرياح فإنهــا … مفاتيح فى أبوابهن وأغــلاق

ومن لى ان أحظى إليك بنظرة … فيسكن مقلاق ويرقأ مهراق(١)

فهذه القصيدة التى بعث بها ظافر الحداد إلى صديقه أمية بن أبى الصلت إن دلت على شيء فانما تدل على مبلغ ما كان يكنه ظافر لصديقه من وفاء وإخلاص وود ، وما كان عليه أميــة من علم وفضل ، وما كان عليه الصديقان من صفاء ووفاء .

أما علاقة أميـة بالوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، فيقول القفطى : « ودخل مصر فى أيام أفضلها فلم ينل منها إفضالا ، وقصده للنيل فلم يجد لديه منوالا »(٢) ؛ ولكنى أشك فى قول القفطى وأزعم أن الأفضل قرب أمية إليه . وأجزل له العطاء . فأشعار أمية فى الأفضل أكبر دليل على أن الشاعر كان يميل إلى الأفضل، وكان الأفضل يجزل له النوال . فمن شعر أمية فى الأفضل قصيدته التى أنشدها يذكر تجريده العساكر إلى الشام لمحاربة الصليبيين بعد انهزام عسكره فى الموضع المعروف بالبصة ، وكان قد اتفق فى أثناء ذلك أن قوما من الأجناد وغيرهم أرادوا الفتك بالأفضل، فوقع على خبرهم، وقبض عليهم وقتلهم، والقصيدة هى :

هى العزائم من أنصارها القــدر … وهى الكتائب من أشياعها الظفر
جردت للدين والأسياف مغمدة … سيفا تفل به الأحداث والغير
وقمت إذ قعد الأملاك كلهم … تذب عنــه وتحميه وتنتصر
بالبيض تسقط فوق البيض أنجمها … والسمر تحت ظلال النقع تشتجر
بيض إذا خطبت بالنصر ألسنها … فمن منابرها الأكباد والقصر
وذبل من رماح الخط مشرعة … فى طولهن لأعمار العدى قصر
يغشى بها غمرات الموت أسد شرى … من الكماة إذا ما استنجدوا ابتدروا
مستلثمين إذا سلوا سيوفهم … شبهتها خلجا مرت بها غدر
قوم تطول ببيض الهند أذرعهم … فما يضر ظباها أنهــا بتر
إذا انتضوها وذيل النقع فوقهم … كالشمس طالعة والليل معتكر
ترتاح أنفسهم نحو الوغى طربا … كأنما الدم راح والظبا زهر
وإن هم نكصوا يوما فلا عجب … قد يكهم السيف وهو الصارم الذكر

(١) عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٥٤ (طبعة مصر ١٨٨٢ م) .
(٢) أخبار الحكماء ص ٥٧ (الطبعة الأولى بمصر ١٣٢٦ هـ) .

العود أحمد والأيام ضامنة   عقبى النجاح ووعد الله ينتظر
وربما ساءت الأقدار ثم جرت   بما يسرك ساعات لها أخر
الله زان بك الأيام من ملك   لك الحجول من الأيام والغرر
لله بأسك والألباب طائشة   والخيل تردى ونار الحرب تستعر
وللعجاج على صم القنا ظلل   هى الدخان وأطراف القنا شرر
إذ يرجع السيف يندى خده علقا   كصفحة البكر أدمى خدها الخفر
وإذ تسد مسد السيف منفردا   ولا يصدك لا جبن ولا خور
أما يهولك ما لاقيت من عدد   سيان عندك قل القوم أو كثروا
هى السماحة إلا أنها سرف   هى الشجاعة إلا أنها غرر
الله فى الدين والدنيا فما لهما   سواك كهف ولا ركن ولا وزر
ورام كيدك أقوام وما علموا   أن المنى خطرات بعضها خطر
هيهات أين من العيوق طالبه   لو كان سدد منه الفكر والنظر
إن الأسود لتأبى أن يروعها   وسط العرين ظباء الربرب العفر
أمر نووه ولو هموا به وقفوا   كوقفة العير لا ورد ولا صدر
فاضرب بسيفك من ناواك منتقما   إن السيوف لأهل البغى تدخر
ما كل حين ترى الأملاك صافحة   عن الجرائر تعفو حين تقتدر
ومن ذوى البغى من لا يستهان به   وفى الذنوب ذنوب ليس تغتفر
إن الرماح غصون يستظل بها   وما لهن سوى هام العدى ثمر
وليس يصبح شمل الملك منتظما   إلا بحيث ترى الهامات تنتثر
والرأى رأيك فيما أنت فاعله   وأنت أدرى بما تأتى وما تذر
أضحى شهنشاه غيثا للندى غدقا   كل البلاد إلى سقياه تفتقر
الطاعن الألف إلا أنها نسق   والواهب الألف إلا أنها بدر
ملك تبوأ فوق النجم مقعده   فكيف تطمع فى غاياته البشر
يرجى نداه ويخشى عند سطوته   كالدهر يوجد فيه النفع والضرر
ولا سمعت ولا حدثت عن أحد   من قبله يهب الدنيا ويعتذر
ولا بصرت بشمس قبل غرته   إذا تجلى سناها أغدق المطر
يا أيها الملك السامى الذى ابتهجت   به الليالى وقر البدو والحضر

جاءتك من كلم الحاكى محبرة   تطوى لبهجتها الأبراد والحبر
هى اللآلىء إلا أن ناظمها   طى الضمير ومن غواصها الفكر
تبقى وتذهب أشعار ملفقة   أولى بقائلها من قولها الحصر
ولم أطلها لأنى جد معترف   بأن كل مطيل فيه مختصر
بقيت للدين والدنيا ولا عدمت   أجياد تلك المعالى هذه الدرر(١)

ويذكر المؤرخون أن أمية أرسل وهو فى سجنه بقصيدتين إلى الأفضل يمدحه بهما . الأولى لامية مطلعها :

الشمس دونك فى المحل   والطيب ذكرك بل أجل

والثانية بائية مطلعها :

نسخت غرائب مدحك التشبيبا   وكفى بها غزلا لنا ونسيبا(٢)

وفى هاتين القصيدتين يتحدث الشاعر عن أيامه مع الأفضل، وأيادى الأفضل عليه ، ومدائح أمية فيه ، ويعتذر إليه من أقوال الوشاة والحاسدين الذين أغروا الوزير به حتى سجنه من غير جرم ارتكبه ، فمثل هذه الأبيات التى أنشدها أمية فى الاعتذار عن وشاية الواشين ، تدل على أن صلة الوزير بالشاعر كانت صلة قوية ، وأن الشاعر كان مقربا للوزير تحسده الناس ، وأن الشاعر مدح الوزير فأعطاه الوزير صلات ، ومع ذلك نرى القفطى يدعى أن الوزير لم يعط الشاعر شيئا ، ويخيل إلى أن القفطى اتهم الأفضل بذلك لأنه حبس الشاعر مدة طويلة.

ومهما يكن من شىء فقد مكث أمية عدة سنوات فى مصر ، اتصل فيها بالحياة المصرية . وشارك المصريين فى أعيادهم وحفلاتهم . وأنشد فى ذلك شعرا حفظ بعضه وضاع أكثره . فما حفظ من ذلك قوله فى النيل من قصيدة كتبها إلى الأفضل ليلة المهرجان :

أبدعت للناس منظرا عجبا   لازلت تحيى السرور والطربا
ألفت بين الضدين مقتدرا   فمن رأى الماء خالط اللهبا !!
كأنما النيل والشموع به   أفق سماء تألقت شهبا
قد كان من فضة فصار سما   وتحسب النار فوقه ذهبا(٣)

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٥٦ .
(٢) طبقات الأطباء ج ٢ ص ٥٢ .
(٣) الرسالة المصرية .

وخرج إلى المتنزهات المصرية كما كان يفعل غيره من أهل مصر عامة والشعراء خاصة، ووصف بعضها بالنثر وبالشعر ، فمن ذلك قوله فى بركة الحبش :
« واتفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش ، فافترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق ، وطلعت علينا من زجاجات الأقداح شموس فى خلع البدور ، ونجوم بالصفاء تنور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء ، فقال فى ذلك بعضنا (ويقصد نفسه) :

لله يومى ببركة الحبش   والأفق بين الضياء والغبش
والنيل تحت الرياح مضطرب   كصارم فى يمين مرتعش
قد نسجتها يد الغمام لنـا   فنحن من نسجها على فرش
ونحن فى روضة مفوفة   دبج بالنَّور عطفها ووشى
فعاطنى الراح إن تاركها   من سورة الهم غير منتعش
واسقنى بالكبار مترعة   فهن أشفى لشدة العطش
فأثقل الناس كلهم رجل   دعاه داعى الصبا فلم يطش(١)

وبالرغم من هذه الأبيات التى تدل على أن أمية نعم فى مصر بطبيعتها ولهوها، وقدره المصريون لعلمه وأدبه ، فحظى بصداقة عدد كبير منهم ، فإنه خرج من مصر غاضبا يهجو مصر والمصريين، شأنه فى ذلك شأن دعبل الخزاعى ، وأبى تمام والمتنبى وغيرهم من ذوى الأطماع التى لا تقف عند حد ، فهؤلاء الشعراء وفدوا على مصر لقصد النوال والعطاء من أمراء مصر، فأغدق هؤلاء عليهم ما وسعهم ، ولكن هؤلاء الشعراء لا يعرفون إلا العطاء السخى ، وويل لمصر والمصريين إذا لم يصلوا إلى مطامعهم ، فها هو ذا أمية يهجو المصريين جميعا بقوله :

وكم تمنيت أن ألقى بها أحـدا   يسلى من الهم أو يعدى على النوب
فما وجدت سوى قوم إذا صدقوا   كانت مواعيدهم كالآل فى الكذب(٢)

نعم هكذا زعم أمية ، كما زعم دعبل وأبو تمام والمتنبى من قبل ، فمصر التى أكرمت هؤلاء الشعراء فدحوها هى مصر التى هجوها بعد أن رحلوا عنها .

(١) الرسالة المصرية ، وخطط المقريزى ج ٢ ص ١٥٥ ومعجم الأدباء .
(٢) القفطى ص ٥٧

أبو على الأنصارى :

قلنا إن عددا كبيرا من شعراء مصر اتصل بالأفضل بن بدر الجمالى ، وأنشدت القصائد الكثيرة فى مدحه فى الأعياد والمواسم ، فمن هؤلاء الشعراء أبو على حسن ابن زبيد الأنصارى الذى أثنى عليه القاضى الفاضل بقوله : « إنه فى فنه لم يسمح الدهر بمثله(١) » ، ويقول عنه صاحب الخريدة : وله قصيدة فى مدح أفضلهم يصف خيمة الفرح، يدل إحسانه فيها على أن بحره طامى اللجج، ودره نامى البهج » واقتبس منها قوله :

مجدا فقد قصرت عن شأوك الأمم   وأبدت العجز منها هذه الهمم
أخيمة ما نصبت الآن أم فلك   ويقظة ما نراه منك أم حلم ؟
ما كان يخطر فى الأفكار قبلك أن   تسمو علوا على أفق السها الخيم
حتى أتيت بها شماء شاهقة   فى مارن الدهر من تيه بها شمم
إن الدليل على تكوينها فلكا   أن احتوتك وأنت الناس كلهم
عد من فى بلاد الصين ناظره   حتى ليبصر علما أنها علم
ترى الكناس وآرام الظباء بها   أضحت تجاورها الآساد والأجم
والطير قد لزمت فيها مواضعها   لما تحققن منها أنها حرم
لديك جيش ، وجيش فى جوانبها   مصور ، وكلا الجيشين مزدحم
إذا الصبا حركتها ماج موكبها   فمقدم منهم فيها ومنهزم
أخيلها خيلك اللاتى تغير بها   فليس تنزع عنها الحزم واللجم
علمت أبطالها أن يقدموا أبدا   فكلهم لغمار الحرب مقتحم
آمنتهم أن يخافوا سطوة لردى   فقد تسالمت الأسياف والقمم
كأنها جنة ، فالقاطنون بها   لا يستطيل على أعمارهم هرم
علت نخلنا لها سرا تحدثه   للفرقدين وفى سمعيهما صمم
إن أنبتت أرضها زهرا فلا عجب   وقد همت فوقها من كفك الديم
يا خيمة الفرح الميمون طائرها   أصبحت فألا به تستبشر الأمم

ومنها يقول فى مدح الأفضل :

ما قال لا قط مذ شدت تمائمه   وكم له نعم فى طيها نعم

(١) الخريدة ص ١١١ .

لوكنت شاهد شعرى حين أنظمه ... إذن رأيت المعالى فيك تختصم
آزرتك اليوم من فكرى محبرة ... فى ناظر الشمس من لألائها سقم
ترى النجوم للفظى فيك حاسدة ... تود لو أنها فى المدح تنتظم

ولكن هذا الشاعر النابه ، والكاتب المتقدم فى ديوان المكاتبات، لقى حتفه بسبب حسد الشعراء له ، ذلك أن ابن قادوس الشاعر أنشد بيتين فى هجاء حسن ابن الحافظ ونسبهما إلى ابن زبيد الأنصارى ودسهما فى رقاعه ثم سعى به إلى ابن الحافظ ، فلما وجد حسن بن الحافظ البيتين بين رقاع الأنصارى أمر بقتله ، ولم يشفع له جودة شعره التى بلغ بها درجة رفيعة بين الشعراء ، ولا طول خدمته فى ديوان المكاتبات ، فإن هذه الأبيات التى رويناها له فى وصف الخيمة ومدح الأفضل إن دلت على شيء فإنما تدل على أن للشاعر خيالا محلقا ومقدرة مطاوعة للقريض مع حسن ديباجة .

كان الشعراء فى ذلك الوقت يتجهون بمدائحهم إلى الوزراء ، والويل كل الويل للشاعر الذى لا يجعل شعر مدحه لهم ، فهو يبعد ولا يلتفت إليه ، مهما ارتفع شعره وأجاد الشاعر ، وهذا ما حدث مع الشاعر المعروف بابن مكنسة أبى طاهر إسماعيل بن محمد ، فقد انقطع هذا الشاعر إلى مدح عامل من النصارى يعرف بأبى مليح ، وأكثر أشعاره فيه ، ولما توفى هـذا العامل رثاه الشاعر بقوله :

طويت سماء المكرمات ... وكورت شمس المديح
ماذا أرجى فى حياتى ... بعد موت أبى مليح
ما كان بالنكس الدنى ... من الرجال ولا الشحيح
كفر النصارى بعد ما ... عقدوا به دين المسيح

فلما ولى الأفضل الوزارة أراد هذا الشاعر أن يتقرب إليه ويتصل به ، ولكن الأفضل لم ينس شعر ابن مكنسه فى أبى مليح ، فلم يقبل مدائحه ، حتى يئس الشاعر فأرسل إلى الوزير يقول :

مثلى بمصر وانت ملك ... يقال ذا شاعر فقير
عطاؤك الشمس ليس يخفى ... وإنما حظى الضرير

وبالرغم من أن هذا الشاعر كان من القلائل الذين مدحهم أمية بن أبى الصلت

فى رسالته المصرية وأثنى عليه بقوله: « ومن شعرائها المشهورين أبو طاهر إسماعيل ابن محمد المعروف بابن مكنسة ، شاعر كثير التصرف ، قليل التكلف ، يفتن فى نوعى جد القريض وهزله ، وضارب بسهم فى رقيقه وجزله »(١) ، فمع ذلك كله لم يوفق إلى أن ينال حظوة عند الأفضل ، فظل بعيدا عن شعراء الوزارة .

ولعل ابن مكنسة كان أحسن حظا من الشاعر على بن عباد الإسكندرى ، فقد كان هذا الشاعر منقطعا لمدح الوزير أبى على بن الأفضل عند ما كان هذا الوزير مستبدأ بالبلاد وبالخليفة ، بل حبس الخليفة الحافظ ، حتى بلغ استبداده حدا لا يطاق ، واستطاع الحافظ أن يتمكن منه وأن يقتله فى الميدان ، وتتبع كل من كانوا على صلة بهذا الوزير الطاغية فقتلهم ومنهم هذا الشاعر ، ويروى العماد أن هذا الشاعر مدح ابن الأفضل بقصيدة مطلعها: « تبسم الدهر لكن بعد تعبيس » وعرض فيها بالخلفاء الفاطميين ولا سيما فى قوله :

وقد أعاد إليه الله خاتمه ... فاسترجع الملك من صخر بن إبليس (٢)

فكانت هذه القصيدة سبب مقتله ، ويقول ابن ميسر إن الحافظ أمر بإحضار الشاعر ، فلما امتثل بين يديه قال له : أنشدنى قصيدتك . فأخذ الشاعر فى إنشادها حتى قال منها فى بيت :

« ولا ترضوا عن أنجس المناجيس »

يعنى الحافظ وآباءه ، فأمر حينئذ أن يلكمه الغلمان حتى مات بين يديه (٣) ، بل كانت هذه القصيدة سببا فى قتل القاضى ابن ميسر سنة ٥٣١ هـ ، فقد روى أن القاضى عند ما سمع الشاعر ينشد القصيدة بين يدى ابن الأفضل قام وألقى عرضيته طربا ، فلما قتل الوزير صرف القاضى عن عمله وقتل (٤) . وعن هذا الشاعر يقول ابن فضل الله : « على بن عباد الإسكندرى ، شاعر كان يجلو غرر المدائح ، وكانت منن الوزراء تستعطف أعنة قصائده فيرد عليهم مسردها »(٥) .

وكان بين شعراء الأفضل من نقم عليه فهجاه ، ومن هؤلاء الشاعر الملقب بالناجى المصرى الذى ذكره أمية فى رسالته المصرية ، فقد هجا الأفضل بقوله :

---

(١) الرسالة المصرية .   (٢) الخريدة ورقة ٩٨
(٣) ابن ميسر ص ٨١   (٤) المصدر نفسه .
(٥) مسالك الأبصار ج ١٢ ص ٢١٨٩ (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

قل لابن بدر مقال من صدقه　　لا تفرحن بالوزارة الحلقه
إن كنت قد نلتها مراغمة　　فهى على الكلب بعدكم صدقه

فأمر الأفضل بنفيه إلى الواحات فأقام بها عند علم الدولة المقرب بن ماضى(١).

ظافر الحداد :

على أن عصر الأفضل لم يشاهد شاعرا مثل ظافر الحداد بالرغم من كثرة الشعراء وتفوقهم جميعا فى هذا الفن ، لكن شعراء ذلك العصر كانوا على حظ من الثقافة والعلم ، وكان أكثرهم من كتاب الدواوين ، أما ظافر فكان حدادا بالإسكندرية ولم يتلق من العلوم وألوان المعرفة إلا بمقدار ، وبلغت به شاعريته إلى أن يضعه النقاد ومؤرخو الأدب فى مصاف أكبر شعراء عصره ، واستطاع بشعره أن يجالس العلماء والشعراء وأن يستمع إلى حوارهم وأحاديثهم ، ويأخذ من ذلك كله ما وسعته ذاكرته فيزيد بها مداركه وثقافته ، فقد رأيناه صديقا لأمية بن أبى الصلت ، ويحدثنا ابن خلكان أن الحافظ أبو طاهر السلفى وغيره من الأعيان كانوا يروون عن ظافر الحداد(٢) . واتصل ظافر برجال الدولة فأعجبوا به وبشعره ، ولا سيما أن مثل هذا الشعر صدر عن رجل من عامة الشعب فى حالة متواضعة من العيش . ويروى ابن خلكان قصة تدل على ذلك كله ، تلك هى أن القاضى أبا عبد الله محمد بن الحسين الآمدى دخل على والى الإسكندرية الأمير السعيد بن ظفر فوجده يقطر دهنا على خنصره ، فسأله القاضى عن سببه فذكر ضيق خاتمه عليه وأنه ورم بسببه ، فأشار عليه القاضى بقطع حلقة الخاتم قبل أن يتفاقم الأمر فيه ، فاستدعى ظافرا الحداد فقطع الحلقة ، وأنشد بين يدى الوالى :

قصر عن أوصافك العالم　　وكثر الناثر والناظم
من يكن البحر له راحة　　يضيق عن خنصره الخاتم

فاستحسن الأمير الشعر ووهب لظافر الحلقة وكانت من الذهب . ويخيل إلى أن الأمير أراد أن يستوثق من شاعرية ظافر ، وأن ظافرا الحداد أدرك ما كان يجول بخاطر الأمير ، فاغتنم فرصة وجود غزال مستأنس قد ربض بين يدى

(١) الخريدة ١٣٠ ا　　(٢) ابن خلكان ج ١ س ٢٤١ .

الوالى وجعل رأسه فى حجره ، فارتجل ظافر :

عجبت لجرأة هذا الغزال　　وأمر تخطى له واعتمد
وأعجب به إذ بدا جاثما　　وكيف اطمأن وأنت الأسد

فزاد الحاضرون فى الاستحسان ، وكأنى بظافر وقد طمع فى أن يعترف الحاضرون بسرعة بديهته وقدرته على الارتجال ، فقد التفت حوله فى قاعة المجلس ، فوجد شيئا كان على الباب ليمنع الطير من دخولها ، فأنشد :

رأيت ببابك هذا المنيف　　شباكا فأدركنى بعض شك
وفكر فيما رأى خاطرى　　فقلت البحار مكان الشبك(١)

فهذه القصة إن دلت على شىء فإنما تدل على أن الشاعر كان على موهبة لنظم الشعر ، وأن شعره طبيعى لا تكلف فيه ، وأنه كان يرتجل الشعر ببديهته ، مما جعل الناس فى عصره يحبونه ويعجبون به ، وها هو ذا العماد الأصفهانى يحدثنا عنه بقوله : « ظافر بحظه من الفضل ظافر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر ، وما أكمله لولا أنه من مداح المصرى والله له غافر ، حداد لو أنصف لسمى جوهريا ، وكان باعتزائه إلى نظم اللآلىء حريا ، أهدى بروى شعره الروى للقلوب الصادية ريا ، فيا له ناظما فصيحا مفلقا جريا(٢) » ويجمع المؤرخون على أن شعر ظافر الحداد جمع فى ديوان كبير ، ولكن هذا الديوان فقد ، ولم يبق من شعره إلا أبيات من قصائد . من ذلك قوله :

لو كان بالصبر الجميل ملاذه　　ما سح وابل دمعه ورذاذه
ما زال جيش الحب يغزو قلبه　　حتى وهى وتقطعت أفلاذه
لم يبق فيه مع الغرام بقية　　إلا رسيس يحتويه جذاذه
من كان يرغب فى السلامة فليكن　　أبدا من الحدق المراض عياذه
لا تخدعنك بالفتور فإنه　　نظر يضر بقلبك استلذاذه
يا أيها الرشأ الذى من طرفه　　سهم إلى حب القلوب نفاذه
در يلوح بفيك ، من نظامه　　خمر به قد جال من نباذه ؟
وقناة ذاك القد كيف تقومت　　وسنان ذاك اللحظ ما فولاذه

(١) ابن خلكان ج ١ س ٢٤٢　　(٢) الخريدة ورقة (١٦٠ ا)

رفقا بجسمك لا يذوب فإننى ... أخشى بأن يجفو عليه لاذه
هاروت يعجز عن مواقع سحره ... وهو الإمام فمن ترى أستاذه
تالله ما علقت محاسنك امرأ ... إلا وعز على الورى استنقاذه
أغريت حبك بالقلوب فأذعنت ... طوعا وقد أودى بها استحواذه
مالى أتيت الحظ من أبوابه ... جهدى فدام نفوره ولواذه
إياك من طمع المنى فعزيزه ... كذليله وغنيه شحاذه

ومنها أيضا :

دالية ابن دريد استهوى بها ... قوم غداة نبت به بغداذه
دانوا لزخرف قوله فتفرقت ... طمعا بهم صرعاه أو جذاذه
من قدر الرزق السنى لك إنما ... قد كان ليس يضره إنفاذه(١)

فمن هذه الأبيات وغيرها مما حفظ لنا من شعر ظافر نستدل على أن شعره سهل طبيعى ليس به تكلف غيره من الشعراء الذين كانوا يصنعون الشعر صناعة ، وقد لاحظ العماد أن ظافرا الحداد كان لحنة ، واستشهد بقصيدته الزائية الشهيرة :

حكم العيون على القلوب يجوز ... ودواؤها من دائهن عزيز
كم نظرة نالت بطرف ذابل ... ما لا ينال الذابل المهزوز
فحذار من تلك اللواحظ غرة ... فالسحر بين جفونها مكنوز
يا ليت شعرى والأمانى ضلة ... والدهر يدرك صرفه ويجيز
هل لى إلى زمن تصرم عهده ... سبب فيرجع ما مضى فأفوز
وأزور من ألف البعاد وحبه ... بين الجوانح والحشا مركوز
ظبى يناسب فى الملاحة شخصه ... فالوصف حين يطول فيه وجيز
والبدر والشمس المنيرة دونه ... فالحسن منه يروق والتمييز
لو لا تثنى خصره فى ردفه ... ما خلت إلا أنه مغروز
تجفو غلالته عليه لطافة ... فبجسمه من جسمها تطريز
من لى بدهر كان لى بوصاله ... سمحا ووعدى عنده منجوز
والعيش مخضر الجناب أنيقه ... ولأوجه اللذات فيه بروز
والماء يبدو فى الخليج كأنه ... أيم لسرعة سيره محفوز

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٤٢ ومعجم الأدباء لياقوت ج ١٢ ص ٣١ (طبعة رفاعى)

والروض فى حلل النبات كأنما ... فرشت عليه ديابج وخزوز
والزهر يوهم ناظريه كأنما ... ظهرت به فوق الرياض كنوز
فأقاحه ورق ، وساقط طله ... درر ، ونور بهاره إبريز
وكأنما القمرى ينشد مصرعا ... من كل بيت ، والحمام يجيز
وكأنما الدولاب يزمر كلما ... غنت، وأصوات الضفادع شيز
يا رب غانية أضر بقولها ... أنى بلفظة معدم منبوز
فأجبتها : ما عازنى نيل الغنى ... لكن مطالبة الحميد تعوز
ما خاب من هضم التفضل ماله ... كرما ووافر عرضه محروز

فأخذ عليه العماد قوله «عازنى» والصحيح «أعوزنى» وأخذ عليه قوله «تعوز» والصحيح «تعوز» وأخذ عليه قوله «محروز» والصواب «محرز»(١). ولكن نسى العماد أن الشاعر مصرى ، وقد ذكرنا فى كتاب أدب مصر الإسلامية صورا من اللحن الذى وقع فيه كتاب مصر وشعراؤها ، وقلنا : إن المصريين لا يراعون قواعد الصرف والنحو مراعاة إخوانهم فى البلاد الإسلامية الأخرى لهذه القواعد ؛ ونحن لا نستطيع أن نؤاخذ ظافراً الحداد بهذه الألفاظ التى لم يرع فيها قواعد الصرف، فقد كان أبو عبيدة معمر بن المثنى اللغوى مع معرفته إذا أنشد بيتا من الشعر لم يقم بإعرابه(٢) . ومن يتتبع شعراء مصر الإسلامية حتى عصرنا الحديث فسيجد عدم عناية المصريين بهذه الناحية الهامة التى هى من مقومات الشعر .

ومهما يكن من شىء فإن حياة ظافر الحداد غامضة ، لعدم وجود ما يكشف عنها ، وقد أجمع المؤرخون على أنه توفى سنة ٥٤٦ ه .

شعراء بنى رزيك حتى آخر الدولة الفاطمية

قتل الخليفة الظافر فى المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، فكتب خدام القصر إلى طلائع بن رزيك والى قوص وأسوان والصعيد يخبرونه بقتل الخليفة ويستنجدونه على القاتل، وأرسل نساء القصر بشعورهن إليه، ولعب الشعر دورا

(١) الخريدة ورقة ١٨٧ ا وكتاب روضة الأدب فى طبقات شعراء العرب للشهاب الحجازى ص ٧٥ (طبع بمباى بالهند) .
(٢) الفهرست لابن النديم ٧٩

وخمسين وخمسمائة قبل أن يموت بثلاث ليال بعد قيامه من السماط ، ولم أكن رأيته من أول الشهر بليلة ، فأمر لى بذهب وقال : لا تبرح . ودخل ثم خرج إلى وفى يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما فى تلك الساعة ، وهما :

نحن فى غفلة ونوم وللمو ... ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا إلى الحمام سنينا ... ليت شعرى متى يكون الحمام

ثم قال لى : تأملهما وأصلحهما إن كان فيهما شىء . قلت هما صالحان (١) .
فالملك الصالح كان يستعين بفحول الشعر فى عصره لإصلاح شعره ، وليس فى ذلك ما ينقص من قدرته فى الشعر ، والمؤرخون يحدثوننا أن بعض فحول شعراء العرب كانوا يعرضون شعرهم على غيرهم من الشعراء ، فمروان بن أبى حفصة شاعر هرون الرشيد الرسمى كان يعرض شعره على بشار بن برد ، وكان البحترى يعرض شعره على أبى تمام ، وكان أكثر الشعراء يعرضون شعرهم على الأصمعى أو غيره من اللغويين ، فإذا كان الملك الصالح طلائع بن رزيك قد استعان بالمهذب أو بعمارة أو بغيرهما من شعراء ذلك العصر لإصلاح شعره ، فإن ذلك يدلنا على أن هذا الوزير كان يعرف قيمة الشعر ، فلم يستبح لنفسه أن يعرض شعره على الناس قبل أن يتأكد من قوة هذا الشعر وصلاحه ، ولكن ياقوت ذكر فى معجم الأدباء فى حديثه عن ابن الزبير : «وقيل إن أكثر الشعر الذى فى ديوان الصالح إنما هو عمل المهذب بن الزبير (٢) » ولا أدرى من أين استقى ياقوت هذا الخبر ، وربما اشتبه عليه الأمر ، فظن أن ابن الزبير هو صاحب الشعر الذى فى ديوان ابن رزيك بدلا من أنه كان يثقف هذا الشعر ، وقد انتهت إلينا قطعة من قصيدة لابن الزبير يتحدث فيها عن شعر الملك الصالح ، منها :

ولنار فطنته تريك لشعره ... عذبا يروى غلة الظمآن
وعقود در لو تجسم لفظها ... ما رصعت إلا على التيجان
وتنزهت عن أن يرى أفرادها ... لمواضع الأقراط والآذان
من كل رائقة الجمال زهت بها ... بين القصائد غرة السلطان
سيارة فى الأرض لا يعتاقها ... فى سيرها قيد من الأوزان (٣)

(١) النكت ص ٤٩ (٢) معجم الأدباء ج ٩ ص ٤٧ .
(٣) الخريدة ص ١٤١ .

فابن الزبير هنا يصف شعر الصالح بهذه الصفات ، وإن كان ابن الزبير قد غالى فى وصفه له ، ولكنه كان يمدح صاحب الملك . ومهما يكن من شىء فإن المؤرخين أجمعوا على أن الملك الصالح كان مكثرا من قول الشعر ، حتى جمع شعره فى ديوان من جزأين ، ولكن الذى بقى لنا من هذه المجموعة مقطوعات صغيرة ، من ذلك قوله يتغزل :

ومهفهف ثمل القوام سرت إلى ... أعطافه النشوات من عينيه
ماضى اللحاظ كأنما سلت يدى ... سيفى غداة الروع من جفنيه
قد قلت إذ خط العذار بمسكه ... فى خده ألفيه لا لاميه
ما الشعر دب بعارضيه وإنما ... أهدابه نفضت على خديه
الناس طوع يدى وأمرى نافذ ... فيهم وقلبى الآن طوع يديه
فاعجب لسلطان يعم بعدله ... ويجور سلطان الغرام عليه
والله لولا اسم الفرار وأنه ... مستقبح لفررت منه إليه (١)

ويحدثنا العماد فى الخريدة أن أبا الحسن على بن قيصر أنشد فى الملك الصالح قصيدته التى أولها :

لا فرق بين خياله ووصاله ... فى سرد ماطله وفى تحقيقه

والتى منها :

والله ما للشمس فى إشراقها ... وضياء بهجته كبعض شروقه
لا تجعل الهجران بعض عقوبتى ... فكلف السلوان غير مطيقه
بلغ إلى الملك الهمام أمانة ... تبليغها للحر من توفيقه
حتام حظى فى الحضيض وإنه ... فى الفضل عند الناس فى عيوقه
مثلى بمصر وأنت مالك رقه ... مثل العقاب مفردا فى نيقه
ولقد أشاع الناس أنك فى الورى ... من ليس ينفق باطل فى سوقه
أبطل بنور العقل سلطان الهوى ... واعمل بكل الجهد فى تطليقه

فأجابه الصالح بقصيدة منها :

نفق التأدب عندنا فى سوقه ... وبدا اليقين لنا بلمع بروقه

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٣٨

أهدى لى القاضى الفقيه عرائسا ... فيها بديع الوشى من تنميقه
فاجلت طرفى فى بديع رياضه ... من ورده وبهاره وشقيقه
فكأنما اجتمع الأحبة فانبرت ... يد عاشق تهوى إلى معشوقه
أدب سعى منـه إلى غاياته ... وأتى فسد عليه من طريقه
ولقد علمت بأن فضلك سابق ... يعتد من جاراه من مسبوقه
فلذا اقتصرت ولم أر الإمعان فى ... شأو امرىء أصبحت غير مطيقه
وأرى الزمان جرى على عاداته ... فى جمعه طوراً وفى تفريقه
والشوق فى قلبى تضرم وهجه ... فمتى أراه يكف عن تحريقه
والدمع من عينى سح، فهل يرى ... من بحره يوما نجاة غريقه
نزهت فى بستان نظمك ناظرى ... لحظيت من زهر الربا بأنيقه
أنت امرؤ من قال فيك مقالة الـ ... غالى فكل الخلق فى تصديقه
وأنا أرى تقديم حاجة صاحبى ... من دون حاجاتى أقل حقوقه
وكذا الكريم فمهمل لأموره ... لا مهمل أبدا أمور صديقه
هذا النجاح فكل ماقد رمته ... قد عم فانظر منه فى تحقيقه (١)

وهكذا نستطيع من هذه المقطوعات للتى بقيت لنا من شعر الصالح أن ندرك ان الصالح كان من شعراء مصر الذين يهتمون بالمعانى اكثر من عنايتهم باللفظ ، وأنه لم يكن من الشعراء الذين يكثرون من التشبيهات والاستعارات ، ولكن التشبيهات تأتى فى شعره بسيطة عادية من غير تكلف ولا تصنع ، ولم يكن الصالح شاعراً فحسب، بل كان من علماء المذهب،ويقول المقريزى : إن له قصيدة سماها الجوهرة فى الرد على القدرية ، وإنه صنف كتابا سماه « الاعتماد فى الرد على أهل العناد » جمع له الفقهاء وناظرهم عليه ، وهو كتاب يبحث فى إمامة على بن أبى طالب والأحاديث النبوية التى وردت فيه (٢). وتوفى الملك الصالح سنة ٥٥٦ هـ وتولى الوزارة بعده ابنه الملك الناصر رزيك بن الصالح وكان شاعرا مثل أبيه ، ناقدا للشعر عارفا بجيده من رديئه،ويقول عمارة عنه : وأما فهمه فكان يعرف جيد الشعر ويستحسنه ويثيب عليه (٣) .

(١) الخريدة ورقة ٦٩ب .
(٢) خطط ج ٤ ص ٨٢ .
(٣) النكت ص ٥٥ .

وفى رثاء عمارة للصالح ومدح الناصر قال:

لا يقولن جاهل بالقوافى ... ذهب الناقد السميع البصير
فالمرجى أبو شجاع عليم ... بمقادير أهلهن خبير (١)

ولكن عمارة أثنى عليه الثناء كله ، لأن الناصر استخدم القاضى الفاضل ، يقول عمارة: «ومن محاسن أيامه وما يؤرخ عنها، بل هى الحسنة التى لاتوازى، واليد البيضاء التى لاتجازى،خروج أمره إلى والى الإسكندرية بتسيير القاضى الأجل الفاضل أبى على عبد الرحيم بن على البيسانى إلى الباب واستخدامه . (٢) فكأن دقة إحساس الملك الناصر ، وتذوقه للشعر والكتابة الفنية . ومعرفته للجيد من الشعر والنثر جعلت الناصر يكتشف مواهب القاضى الفاضل الأدبية فيرفعه إلى مرتبة الخدمة فى ديوان الجيش بالحضرة ، ولولا ذلك لظل القاضى الفاضل مغمورا مثل كثير من الأدباء والشعراء الذين لم تتح لهم تلك الحظوة فجهلهم الناس وغمطت مواهبهم . فلا غرو أن رأينا عمارة اليمنى يرفع من شأن هذا الكشف ويعده « الحسنة التى لا توازى واليد البيضاء التى لا تجازى » ولو كان يعلم عمارة ما ستأتى به الأيام له ، وموقف القاضى الفاضل منه، لجعل هذه اليد البيضاء سوداء ، وتلك الحسنة سيئة .

لم تمهل الأيام الملك الناصر إذ قتل سنة ٥٥٨ هـ . وبموته بدأت المنازعات على الوزارة بين شاور وضرغام . وأدى الأمر إلى تدخل جيوش نور الدين زنكى فى أمر هذه المنازعات وإلى تدخل جيوش الصليبيين لاحتلال مصر ، ثم إلى تولية أسد الدين شيركوه ثم صلاح الدين الأيوبى الوزارة ، إلى أن استطاع صلاح الدين أن يقضى على الدولة الفاطمية فى المحرم سنة ٥٦٧ هـ .

ومع هذه الاضطرابات والفتن التى كانت فى مصر . لم ينس الوزراء الشعر والشعراء . فكان شاور يجلس ليستمع إلى مدائح الشعراء ، وكان ضرغام ينقد شعر الشعراء . ويذكر عمارة أنه أنشد الوزير ضرغاما قصيدة منها :

أوجبت فى ذمة الأشعار والخطب ... دينا أبا حسن يبقى على الحقب
أيامك البيض لاتحصى ، وأفضلها ... يوم خصصت به فى قاعة الذهب

(١) النكت ص ٥٢ .
(٢) المصدر نفسه ص٥٣

وقيت للصالح الهادى وقد غدرت   به الصنائع من ناء ومقترب

فقال ضرغام : لوقلت (بعدت) كان أصلح من (غدرت) . قلت : إنما أردت مقابلة الوفاء بالغدر . قال : وعلى مقابلتك تنسبنا إلى الغدر (١) ولعل هذه القصة ترينا مقدار فهم ضرغام للشعر ، ونفاذ بصيرته فى نقده . وفى هذه الأيام العجاف التى أودت بالدولة الفاطمية توفى كبار شعراء العصر. فالجليس توفى سنة ٥٦١ هـ وفى هذه السنة عينها توفى المهذب بن الزبير وتوفى الرشيد بن الزبير سنة ٥٦٢ هـ . ولم يعد الشعراء يتكسبون كما كانوا يتكسبون من قبل . فقد ذكر عمارة أنه أنشد شاور قصيدة مدحه بها بعد طرد الصليبيين من بلبيس إبان وزارته الثانية، ومن هذه القصيدة :

أسمع بذا الفتح المبين وأبصر   واقصر عليه خطا الهناء وأقصر
فتح أضاء به الزمان كأنه   وجه البشير وغـرة المستبشر
فتح يذكرنا وإن لم ننسه   ما كان من فتح الوصى لخيبر
فتح تولد يسره من عسرة   طالت ، وأى ولادة لم تعسر
حملت به الأيام إلا أنها   وضعته تمـا عن ثلاثة أشهر

ويقول فيها :

تلقـاه أول فارس إن أقدمت   خيل ، وأول راجل فى العسكر
هانت عليه النفس حتى إنه   باع الحياة فلم يجد من يشترى
ضجر الحديد من الحديد وشاور   فى نصر آل محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتين بمثله   حنثت يمينك يازمان فكـفر
يا فاتحا شرق البلاد وغربها   يهنيك أنك وارث الإسكندر

يقول عمارة : وكانت هذه الأبيات أحد الأسباب التى قوت عزمى على الاستعفاء من عمل الشعر، لأن الناس فيما تقدم كانوا يغنون الشعراء بما ليس يفوقها جودة . (٢) وبالفعل عندما قابل شاور بعد ذلك استعفاه عمارة من قول الشعر . وأمر أن ينقل الجارى على الخدمة راتبا على حكم الضيافة ، لأن التكسب بالشعر والتظاهر به أصبح نقيصة فى حقه. فسأله شاور : فما منعك أن تستعفى فى أيام الصالح

(١) النكت ص ١٤٦ .
(٢) المصدر نفسه ص٨٢ وما بعدها .

وابنه ؟ قال عمارة: كانت لى أسوة وسلوة بالشيخ الجليس بن الحباب وبابنى الزبير الرشيد والمهذب ، وقد انقرض الجيل والنظراء ، قال: تعنى ، ثم أمر بانشاء سجل باعفائه (١) ومع ذلك لم يستطع عمارة ألا ينشد شعرا فى الحوادث التى كانت فى هذه الأيام، ولا سيما عندما تولى صلاح الدين الأيوبى الوزارة، فقد أنشد عدة قصائد يهنئه فيها بانتصاره على الصليبيين وبنصره لآل بيت الرسول ، ويشبه جيوش صلاح الدين بأنصار النبى (ص) فهو يقول مثلا :

لك الحسب الباقى على عقب الدهر   بل الشرف الراق إلى قمة النسر
كذا فليكن سعى الملوك إذا سعت   بها الهمم العليا إلى شرف الذكر
نهضتم بأعباء الوزارة نهضة   أقلتم بها الأقدام من زلة العثر
كشفتم عن الإقليم غمته كما   كشفتم بأنوار الغنى ظلمة الفقر
حميتم من الإفرنج سرب خلافة   جريتم لها مجرى الأمان من الذعر
ولما استغاث ابن النبى بنصركم   ودائرة الأنصار أضيق من شبر
جلبتم إليه النصر أوساً وخزرجا   وما اشتقت الأنصار إلا من النصر
كتائب فى جيرون منها أواخر   وأولها بالنيل من شاطئ مصر
طلعتم فأطلعتم كواكب نصرة   أضاءت مكان الدين ليلا بلا فجر
وآبت إليكم يابن أيوب دولة   تراسلكم فى كل يوم مع السفر
حمى الله فيكم عزمة أسدية   فككتم بها الإسلام من ربقة الأسر
أخذتم على الإفرنج كل ثنية   وقلتم لأيدى الخيل مرى على (مرى)
لئن نصبوا فى البر جسرا فإنكم   عبرتم ببحر من حديد على الجسر
طريق تقارعتم عليها مع العدى   ففزتم بها والصخر تقرع بالصخر
وأزعجه من مصر خوف يلزه   كما لز مهزوم من الليل بالفجر
وكم وقعة عذراء لما افتضضتها   بسيفك لم تترك لغيرك من عذر
وأيديكم بالبأس كاسرة العدى   ولكنها بالجود جابرة الكسر
أبوك الذى أضحى ذخيرة مجدكم   وأنت له خير النفائس والذخر
ومن كنت معروفا له فاستفزه   بمثلك تيه فهو فى أوسع العذر

(١) المصدر نفسه ص ٨٦ .

توقره وسط الندى كرامة ... وتحمل عنه ما يؤود من الوقر
وتخلفه حرباً وسلما خلافة ... تؤلف أضدادا من الماء والجمر
وكم قمت فى بأس وجود ورتبة ... بما سره فى الخطب والدست والثغر
ولو أنطق الله الجمادات لم تقم ... لنعمتكم بالمستحق من الشكر
يد لا يقوم المسلمون بشكرها ... لكم آل أيوب إلى آخر الدهر
بكم آمن الرحمن أعظم يثرب ... وآمن أركان الثنية والحجر
ولو رجعت مصر إلى الكفر لانطوى ... بساط الهدى من ساحة البر والبحر
ولكن شددتم أزره بوزارة ... غدا لفظها يشتق من شدة الأزر
فهنيتم فتحا تقدم جله ... وبشر أن الكل يتلو على الإثر
وما بقيت فى الشرك الا بقية ... تتمتها فى ذمة البيض والسمر
وعند تمام الملك آتى مهنئا ... وملتمسا أجر الكهانة والزجر
ولولا اعتقادى أن مدحك قربة ... أرجى بها نيل المثوبة والأجر
لما قلت شعرا بعد إعفاء خاطرى ... ولى سنوات منذ تبت عن الشعر
فأوص بى الأيام خيرا فانها ... مصرفة بالنهى منك وبالأمر
وجائزتى : تسهيل إذنى عليكم ... وملقاكم لى بالطلاقة والبشر (١)

ولما قتل شاور وتولى شيركوه ثم صلاح الدين الوزارة وجدنا بعض الشعراء يعرضون فى أشعارهم بالوزير المقتول ، بل يهجونه أقبح هجاء ، فالشاعر حسان عرقلة — ولم يكن مصريا إنما وفد مع صلاح الدين إلى مصر وأنشد شعرا فى الحوادث التى جرت فى هذه الأوقات — قال لما قتل شاور وتولى شيركوه قال :

لقد فاز بالملك العظيم خليفة ... له شيركوه العاضدى وزير
كأن ابن شاذى والصلاح وسيفه ... على لديه شبير وشبير
هو الأسد الضارى الذى جل خطبه ... وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى حتى لقد قال قائل ... على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره ... ولا زال فيها منكر ونكير

(١) كتاب الروضتين جـ١ ص ١٦٣ (طبعة مصر سنة ١٢٨٧) .

وقال فى قصيدة أخرى :

إن أمير المؤمنين الذى ... مصر حماه وعلىّ أبوه
نص على شاور فرعونها ... ونص موساها على شيركوه (١)

وما كادت تدول هذه الدولة الفاطمية حتى انبرى شعراء الأيوبيين يمدحون ملوكهم ويقدحون فى الدولة الفاطمية ويرمونها بالكفر، وسنتحدث عن ذلك فى كتابنا عن الأيوبيين ، ويكفى أن نأتى الآن بمثال لهذه الأشعار، فقد قال أحد الشعراء يمدح الأيوبيين :

ألستم مزيلى دولة الكفر من بنى ... عبيد بمصر ، إن هذا هو الفضل
زنادقة سبعية باطنية ... مجوس وما فى الصالحين لهم أصل
يسرون كفرا يظهرون تشيعا ... ليستتروا شيئا وعمهم الجهل (٢)

وهكذا كان الأمر فى الشعر لدى الوزراء . فالشعراء كانوا يلتمسون الأحداث ليمدحوا الوزراء ويتقربوا إليهم حتى دالت الدولة الفاطمية .

المهذب بن الزبير:

هو الحسن بن على بن إبراهيم بن الزبير المعروف بالقاضى المهذب، كان من أهل أسوان من أصل عربى ينتمى إلى قبيلة غسان. وكان المهذب وأخوه الرشيد من أكبر شعراء ذلك العصر ، رحلا من أسوان إلى القاهرة ، وما زالا يرتقيان فى مناصب الدولة حتى بلغا مرتبة القضاء وجالسا الوزراء والأمراء.. أما المهذب فقد قدمه القاضى الجليس إلى الملك الصالح طلائع بن رزيك فحظى عنده وحصل له من الملك مال جم لم ينل غير المهذب منه أحد مثله ، وأوفد المهذب فى سفارة من مصر إلى بلاد اليمن، وهناك أتيحت له فرصة جمع كتب الأنساب اتخذها مصدرا لكتاب كبير صنفه فى عشرين مجلدا هو «كتاب الأنساب» اطلع ياقوت الحموى على بعض أجزاء منه فوصفه بقوله «فوجدته مع تحقيق هذا العلم ، وبحثى عن كتبه ، غاية فى معناه لامزيد عليه، يدل على جودة قريحة مؤلفه وكثرة اطلاعه، إلا أنه حذا فيه حذو أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى وأوجز فى بعض أخباره عن البلاذرى ، إلا أنه إذا ذكر رجلا ممن يقتضى الكتاب ذكره لا يتركه حتى

(١) الروضتين جـ ١ ص ١٥٧ . (٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٠٢ .

يعرفه بجهده من إيراد شيء من شعره وخبره»(١) لجمع ابن الزبير بين العلم والشعر.
وقد ذكرنا في حديثنا عن الملك الصالح أنه كان يعرض شعره على ابن الزبير لتقويمه وإصلاحه قبل عرضه على الناس. ووصف العماد شعره بقوله «محكم الشعر كالبناء المشيد وهو أشعر من أخيه وأعرف بصناعته وإحكام معانيه .. ولم يكن في زمانه أشعر منه، وله شعر كثير، ومحل في الفضائل أكثر»(٢).
ووصف المهذب شعره مرة وهو يعرض بابن الصياد الملقب بالمفيد الشاعر:

فيا شاعرا قد قال ألف قصيدة ... ولكنها عن بيته ليس تبرح
لهنك، لا هنيت، أن قصائدي ... مع النجم تسرى أو مع الريح تسرح

وقال مرة أخرى يمدح الوزير الصالح بن رزيك، وكان الوزير يغري الشعراء بعضهم ببعض ويسر للاستماع إلى نقائض الشعراء وأهاجيهم:

يا أيها الملك الذي أوصافه ... غرر تجلت للزمان الأسفع
لا تطمع الشعراء في فإنني ... لو شئت لم أجبن ولم أتخشع
إن لم أكن ملء العيون فإنني ... بالقول يابن الصيد ملء المسمع
فليمسكوا عني فلولا أنني ... أبقى على عرضي إذن لم أجزع
وأهم من هجوي لهم مدح الذي ... رفع القريض إلى المحل الأرفع
ولو أنه ناجى ضميري في الكرى ... طيف الخيال بريبة لم أهجع
وإذا بدا لي الهجر لم أر شخصه ... وإذا يقال لي الخنا لم أسمع
والناس قد علموا بأني ليس لي ... مذ كنت في أعراضهم من مطمع(٣)

فنحن أمام شاعر عف اللسان، محترم لنفسه بابتعاده عما يعرضه إلى هجاء زملائه، وإذا عرض لأحد الشعراء فإنما يعرض له من ناحية واحدة هي ناحية فن الشعر، فقد كان المهذب شاعرا من فحول شعراء العربية. ولا أغالي إذا قلت إن مصر الاسلامية منذ دخلها العرب، ومنذ عرفت الشعر العربي، لم تنجب من أبنائها شاعرا له شاعرية المهذب وقوة شعره وحسن ديباجته، وقد وصلت إلينا عدة قصائد له تدلنا على ذلك كله، فمن ذلك قصيدته التي أرسلها إلى داعي

(١) معجم الأدباء ج٩ ص ٤٩ (٢) الخريدة ورقة ١٣٨ ا.
(٣) المصدر نفسه ورقة ٤٣ ب.

اليمن عند ما قبض على أخيه الرشيد، يمدحه ويستعطفه، حتى أطلق سراح أخيه، ففيها يقول:

يا ربع أين ترى الأحبة يمموا ... هل أنجدوا من بعدنا أم أتهموا
رحلوا وقد لاح الصباح وإنما ... يسرى إذا جن الظلام الأنجم
وتعوضت بالأنس روحي وحشة ... لا أوحش الله المنازل منهم
لولاهم ما قمت بين ديارهم ... حيران أستاف الديار وألثم
أمنازل الأحباب أين هم وأيـ ... ـن الصبر من بعد التفرق عنهم
يا ساكني البلد الحرام وإنما ... في الصدر مع شحط المزار سكنتم
يا ليتني في النازلين عشية ... بمنى، وقد جمع الرفاق الموسم
فأفوز إن غفل الرقيب بنظرة ... منكم إذا لبى الحجيج وأحرموا
إني لأذكركم إذا ما أشرقت ... شمس الضحى من نحوكم فأسلم
لا تبعثوا لي في النسيم تحية ... إني أغار من النسيم عليكم
إني امرؤ قد بعت حظي راضيا ... من هـذه الدنيا بحظي منكم
فسلوت إلا عنكم وقنعت إلا ... منكم وزهدت إلا فيكم
ورأيت كل العالمين بمقلة ... لو ينظر الحساد ما نظرت عموا
ما كان بعد أخي الذي فارقته ... ليبوح إلا بالشكاية لي فم
هو ذاك لم يملك علاه «مالك» ... كلا ولا وجدي عليه «متمم»
أقوت مغانيه وعطل ربعه ... ولربما هجر العرين الضيغم
ورمت به الأهوال همة ماجد ... كالسيف يمضي عزمه ويصمم
يا راحلا بالمجد عنا والعلا ... أترى يكون لكم إلينا مقدم
يفديك قوم كنت واسط عقدهم ... ما إن لهم مذ غبت شمل ينظم
لك في رقابهم وإن هم أنكروا ... منن كأطواق الحمام وأنعم
جهلوا فظنوا أن بعدك مغنم ... لما رحلت وإنما هو مغرم
فلقد أقر العين أن عداك قد ... هلكوا ببغيهم وأنت مسلم
لم يعصم الله ابن معصوم من الآ ... فات، واخترم اللعين الأخرم(١)

(١) الأخرم هو صاحب الدعوة الدرزية التي ظهرت أيام الحاكم ونادت بألوهيته.

واعتضت بعدهم بأكرم معشر ... بدءوا لك الفعل الجميل وتمموا
فلعمر مجدك إن كرمت عليهم ... إن الكريم على الكرام مكرم
أقيال بأس خير من حملوا القنا ... وملوك قحطان الذين هم هم
متواضعون ولو ترى ناديهم ... ما اسطعت من إجلالهم تتكلم
وكفاهم شرفا ومجدا أنهم ... قد أصبح الداعى المتوج منهم
هو بدر تم فى سماء علاهم ... وبنو أبيه بنو رويع أنجم
ملك حماه جنة لعفاته ... لكنه للحاسدين جهنم
أثنى عليك بما مننت وأنت من ... أوصاف مجدك يا مليكا أعظم
فاغفر لى التقصير فيه وعده ... مع ما تجود به على وتنعم
مع أننى سيرت فيك شواردا ... كالدر بل أبهى لدى من يفهم
تغدو وهوج الذاريات رواكد ... وتبيت تسرى والكواكب نوم
وإذا المآثر عددت فى مشهد ... فبذكرها يبدأ المقال ويختم
وإذا تلا الراوون محكم آيها ... صلى عليك السامعون وسلموا
وكفى برأى إمام عصرك ناقضا ... ما أحكم الأعداء فيك وأبرموا (١)

فهذه القصيدة تدلنا على أن الشاعر المهذب بن الزبير كان من الشعراء الذين أعادوا إلينا ذكرى الشعر العربى الرصين وإشراق ديباجته، وأنه كان من الشعراء الذين لم يخدعوا ببهرج اللفظ، ولم تبهرهم زينته، حقيقة قد لم ببعض مقابلات بديعية ولكنه لم يسرف فيها إسراف غيره من الشعراء الذين أعجبوا بالصنعة البديعية، فأفرطوا فيها إفراطا جعلهم يخرجون الشعر عن طبيعته وسلامته، وأخلوا بالمعنى فى سبيل اللفظ؛ ولنأخذ مثلا آخر من قصيدة لهذا الشاعر فى مدح الملك الصالح طلائع بن رزيك، لنستدل بها على أن فن الشاعر قريب من فن شعراء فحول الأمويين والعباسيين :

أقصر فديتك عن لومى وعن عذلى ... أو لا، فخذ لى أمانا من يد القتل
من كل طرف مريض الجفن تنشدنا ... ألحاظه «رب رام من بنى ثعل»
إن كان فيه لنا، وهو السقيم، شفا ... «فربما صحت الأجسام بالعلل»

(١) معجم الأدباء ج ٩ ص ٥٠ .

إن الذى فى جفون البيض إذ نظرت ... تطريا فى جفون البيض والخلل
كذاك لم يشتبه فى القول لفظهما ... إلا كما اشتبها فى الفعل والعمل
وقد وقفت على الأطلال أحسبها ... جسمى الذى بعد بعد الظاعنين بلى
أبكى على الرسم فى رسم الديار فهل ... عجبت من طلل يبكى على طلل
وكل بيضاء لو مست أناملها ... قميص يوسف يوما قد من قبل
تغنى من الدر والياقوت لبستها ... لحسنها فلها حلى من العطل
بالخد منى آثار الدموع كما ... لها على الخد آثار من القبل
كأن فى سيف سيف الدين عن خجل ... من عزمه ما به من حمرة الخجل
هو الحسام الذى يسمو بحامله ... زهوا فيفتك بالأسياف والدول
إذا بدا عاريا من غمده خلعت ... غمد الدماء عليه هامة البطل
وإن تقلد بحرا من أنامله ... رأيت كيف اقتران الرزق بالأجل
من السيوف التى لاحت بوارقها ... فى أنمل هى سحب العارض الهطل

ومنها :

أفارس المسلمين اسمع فلا سمعت ... أعداك غير صليل البيض فى القلل
مقال ناء غريب الدار قد عدم الأ ... نصار لولاك لم ينطق ولم يقل
يشكو مصائب أيام قد اتسعت ... فضاق منها عليه أوسع السبل
يرجوك فى دفعها بعد الإله وقد ... يرجى الجليل لدفع الحادث الجلل
فما تخاف الردى نفس، وكم رضيت ... بالعجز خوف الردى نفس فلم تبل
إنى امرؤ قد قتلت الدهر معرفة ... فما أبيت على بأس ولا أمل
إن يرو ماء الصبا عودى فقد عجمت ... منى طروق الليالى عود مكتهل
تجاوزت بى مدى الأشياخ تجربتى ... قدما وما جاوزت بى سن مقتبل
وأول العمر خير من أواخره ... وأين ضوء الضحى من ظلمة الأصل
دونى الذى ظن أنى دونه فله ... تعاظم لينال المجد بالجبل
والبدر يعظم فى الأبصار صورته ... ظنا ويصغر فى الأفهام عن زحل
ما ضر شعرى أنى ماسبقت إلا ... أجاب دمعى وما الداعى سوى طلل
فإن مدحى لسيف الدين تاه به ... زهوا على مدح سيف الدولة البطل (١)

(١) الخريدة ورقة ٣٩ .

ولعلك تلاحظ فى هذه القصيدة كيف ضمن الشاعر فى البيت الثانى إشارة أمرىء القيس إلى بنى ثعل وقول امرىء القيس:

رب رام من بنى ثعل   مخرج كفيه من ستره

وكيف ضمن ابن الزبير فى البيت الثالث عجز بيت للمتنبى من قوله :

لعل عتبك محمود عواقبه   فربما صحت الأجسام بالعلل

والشاعر فى هذه القصيدة ، بل فى كل قصائده التى وصلت إلينا من ديوانه الذى فقد ، يظهر شاعرية فحول الشعراء ، تلك الشاعرية الطبيعية التى يصدر عنها هذا الشعر الجزل الرصين الذى لا نجد له مثيلا بين شعر مصر الفاطمية ، ولعل ذلك يرجع الى أن المهذب بن الزبير لم ينشأ فى القاهرة أو الفسطاط ، ولكنه نشأ فى أسوان ، وتطبع هناك بالبيئة التى أحاطت به ، فهى محافظة أكثر من بيئة القاهرة ، وهى إلى البداوة أقرب ، لبعدها أولا عن بقية بلاد القطر ، ولبيئتها الجغرافية التى جعلت منها بلدا يتميز بجو خاص ، وتربة هى مزيج من أقسام صحراوية وأخرى صخرية وثالثة خصبة ، فالذين يعيشون فى هذا البلد أو ينشأون فيه يمتازون بأنهم أقرب الى البداوة منهم الى الحضر ، فلعل هذا هو السبب فى أن نرى شعر المهذب وشعر أخيه الرشيد رصينا جزلا لا نجد فيه طراوة شعر أهل القاهرة والفسطاط ، ولا نعومة شعر الأمير تميم أو إبراهيم الرسى أو حيدرة العقيلى ، ولا شعبية شعر ظافر الحداد .

أصيب هذا الشاعر فى أواخر أيامه إبان وزارة شاور بمحنة كان بريئا منها فقد حبسه شاور ظلما بسبب اتصال أخيه الرشيد بصلاح الدين يوسف بن أيوب إبان حصار الاسكندرية ، فأخذ المهذب يستعطف شاور ، ويرسل اليه الأشعار فى مدح ابنه الكامل بن شاور ، فمن ذلك قوله :

إذا أحرقت فى القلب موضع سكناها   فمن ذا الذى من بعد يكرم مثواها
وإن نزفت ماء العيون بهجرها   فمن أى عين تأمل العيس سقياها
وما الدمع يوم البين إلا لآلىء   على الرسم فى رسم الديار نثرناها
وما أطلع الزهر الربيع وإنما   رأى الدمع أجياد الغصون فحلاها
ولما أبان البين سر صدورنا   وأمكن فيها الأعين النجل مرماها

عددنا دموع العين لما تحدرت   دروعا من الصبر الجميل نزعناها
ولما وقفنا للوداع وترجمت   لعينى عما فى الضمائر عيناها
بدت صورة فى هيكل فلواننا   ندين بأديان النصارى عبدناها
وما طربا صغنا القريض وإنما   جلا اليوم مرآة القرائح مرآها
ليالى كانت فى ظلام شبيبتى   سراى وفى ليل الذوائب مسراها
تأرج أرواح الصبا كلما سرى   بأنفاس ريا آخر الليل رياها
ومهما أدرنا الكأس باتت جفوننا   من الراح تسقينا الذى قد سقيناها

ومنها :

ولو لم يجد يوم الندى فى يمينه   لسائله غير الشبيبة أعطاها
فيا ملك الدنيا وسائس أهلها   سياسة من قاس الأمور وقاساها
ومن كلف الأيام ضد طباعها   فعاين أهوال الخطوب فعاناها
عسى نظرة تجلو بقلبى وناظرى   صداه فإنى دائما أتصداها(١)

فأطلقته هذه الأشعار من سجنه ، واصطنعه الكامل بن شاور لنفسه .

وكان المهذب مثل أخيه الرشيد يذم الزمان ، ويتألم لأخلاق الناس حوله ، فهم سواسية فى اللؤم . وكان يتطلع إلى المجد ، فهو يفخر بنفسه ، ويفخر بشعره ، فهو يقول فى إحدى قصائده :

تشابه الناس فى خلق وفى خلق   تشابه الناس والأصنام فى الصور
ولم أبت قط من خلق على ثقة   إلا وأصبحت من عقلى على غرر
لا تخدعنى بمرئى ومستمع   فما أصدق لا سمعى ولا بصرى
وكيف آمن غيرى عند نائبة   يوما إذا كنت من نفسى على حذر
تأبى المكارم والمجد المؤثل لى   من أن أقيم وآمالى على سفر
إنى لأشهر فى أهل الفصاحة من   شمس وأسير فى الآفاق من قمر
وسوف أرمى بنفسى كل مهلكة   تسرى بها الشهب إن سارت على خطر
إما العلا وإليها منتهى أملى   أو الردى فإليه منتهى البشر(٢)

(١) معجم الأدباء ج ٩ ص ٦١ .
(٢) الجريدة ٤٩ ب .

ويقول مرة أخرى :

ومن نكد الأيام أنى كما ترى   أكابد عيشا مثل دهرى أنكدا

أمنت عداتى ثم خفت أحبتى   لقد صدقوا إن الثقات هم العدا(١)

وقد توفى هذا الشاعر سنه ٥٦١ هـ .

القاضى الرشيد بن الزبير :

أما ثانى المهذبين الأخوين الشاعرين فهو أحمد بن على بن إبراهيم بن الزبير الغسانى ، وكان الرشيد أعلم من أخيه ، وأخوه أشعر منه ، فقد ضرب الرشيد بسهم وافر فى الفقه واللغة والنحو والتاريخ والمنطق والهندسة والطب والموسيقى والنجوم ، كما كان جيد النثر ، وله تصانيف منها : كتاب « منية الألمعى ، وبلغة المدعى » وكتاب المقامات . ولعل أشهر تصانيفه هو كتاب « جنان الجنان ، وروضة الأذهان » الذى تحدث فيه عن شعراء مصر ومن طرأ عليها ، وجعله ذيلا على يتيمة الدهر للثعالبى ، وهو الكتاب الذى أخذ عنه العماد الأصفهانى أكثر مادة القسم الخاص بمصر من كتابه الخريدة . وللرشيد عدة كتب أخرى منها كتاب « الهدايا والطرف » وكتاب « شفاء الغلة فى سمت القبلة » ومجموعة رسائله ، وديوان شعره ، فهو على هذا النحو عالم شاعر أفاد المصريين وغيرهم ، ويحدثنا العماد أن محمد بن عيسى اليمنى أخذ عن الرشيد باليمن علم الهندسة(٢) ، ولكن الرشيد عرف بالشعر أكثر مما عرف بهذه العلوم ، حتى قيل إن سبب تقدمه فى الدولة أنه جاء القاهرة بعد مقتل الخليفة الظافر ، وحضر المأتم مع الشعراء ، فقام آخرهم وأنشد قصيدته التى مطلعها :

ما للرياض تميل سكرا   هل أسقيت بالمزن خمرا

إلى أن وصل إلى قوله :

أفكربلاء بالعراق   وكربلاء بمصر أخرى

فضج القصر بالبكاء ، وانثالت عليه العطايا ، ومن ثم بدأت صلته بالقصر والوزراء ، ثم أوفد مبعوثا إلى اليمن ، ولا ندرى الأمر الذى من أجله أوفد إليها ، وإن كان صاحب كتاب الفترات والقرانات يشير إلى أن الرشيد لم يكن

(١) الخريدة ٤٩ ب .   (٢) الخريدة ١٣٦ ا.

رشيدا فى بعثته ، ولعل هذه إشارة إلى ما روى أن الرشيد قلد قضاء اليمن ولقب هناك « بقاضى قضاة اليمن وداعى دعاة الزمن » وأنه مكث هناك عامين ، فقيل إنه مدح الأمير على بن حاتم الهمدانى بقصيدة منها :

لقد أجدبت أرض الصعيد وأقحطوا   فلست أنال القحط فى أرض قحطان

وقد كفلت لى مأرب بمآربى   فلست على أسوان يوما بأسوان

وإن جهلت حقى زعانف خندف   فقد عرفت فضلى غطارف همدان

فحسده داعى عدن وكتب بهذه الأبيات إلى مصر ، فكانت هذه الأبيات سببا فى غضب أولى الأمر بمصر عليه ، كما غضب أولو الأمر بعدن، فأخذ الرشيد وحبس ثم صفح عنه . وقيل بل إن السبب غير ذلك ، وذلك أن نفسه سمت إلى مرتبة الخلافة فى اليمن فسعى فيها ، وأجابه قوم وسلم عليه بها ، وضربت له السكة فنقش على وجه « قل هو الله أحد ، الله الصمد » وعلى الوجه الآخر : « الإمام الأمجد أبو الحسن أحمد » فقبض عليه وأرسل إلى مصر مكبلا ، ثم أفرج عنه . ولعل الرواية الأولى أصح من الثانية ، فان الرشيد وقد علمنا ما كان عليه من علم وعقل لا يبلغ به الأمر إلى أن يدعى الإمامة فى الوقت الذى أنكرت فيه إمامة الحافظ والفائز والظافر والعاضد ، ودعى فيه للامام المستور ولقائم القيامة ، ثم إن مركز الدعوة للامام المستور انتقل من مصر إلى اليمن منذ مقتل الآمر بأحكام الله ، فكيف يدعى الرشيد الإمامة فى اليمن ، وجميعهم يعرفون شروط الإمامة وأهمها أن يكون الإمام من نسل النبى ، وأن يكون الإمام قبله قد نص عليه ، ولعل القائمين بأمر مصر فى ذلك الوقت لم يكونوا من الغباء والبله لدرجة العفو عن مثل هذا الرجل الدعى ، ولاسيما فى إبان حكم الملك الصالح طلائع بن رزيك وقد عرفناه من أشد وزراء ذلك العصر تعصبا للمذهب والإمامة ، لهذا كله أرى أن الرشيد إنما أمسك وسجن بسبب حقد داعى عدن عليه . وقد رأينا قصيدة أخيه المهذب التى أرسل بها إلى داعى اليمن حينما قبض على الرشيد ؛ فلم نجد فى هذه القصيدة إشارة إلى ادعاء الرشيد الخلافة ، وقد علم الرشيد بأمر هذه القصيدة ، فأجاب أخاه بقصيدة هى :

يا ربع ، أين ترى الأحبة يمموا   رحلوا ، فلا خلت المنازل منهم

وسروا ، وقد كتموا الغداة مسيرهم   وضياء نور الشمس ما لا يكتم

وتبدلوا أرض العقيق من الحمى   روت جفونى أى أرض يمموا
نزلوا العذيب ، وإنما فى مهجتى   نزلوا ، وفى قلب المتيم خيموا
ما ضرهم ، لو ودعوا من أودعوا   نار الغرام ، وسلموا من أسلموا
هم فى الحشا إن أعرقوا أو أشأموا   أو أيمنوا أو أنجدوا أو أتهموا
وهم مجال الفكر من قلبى وإن   بعد المزار فصفو عيشى معهم
أحبابنا . ماكان أعظم هجركم   عندى ، ولكن التفرق أعظم
غبتم فلا والله ماطرق الكرى   جفنى ولكن سح بعدكم الدم
وزعمتم أنى صبـــور بعدكم   هيهات لا لقيتم ما قلتم
وإذا سئلت عن أهيم صبابة   قلت : الذين هم الذين هم هم
النــازلين بمهجتى وبمقلتى   وسط السويدا والسواد الأكرم
لا ذنب لى فى البعد أعرفه سوى   أنى حفظت العهد لما خنتم
فأقمت حين ظعنتم وعدلت لمـــا جرتم وسهدت لما نمتم
يا محرقا قلبى بنار صدودهم   رفقا ففيــه نار شوق تضرم
أسعرتم فيــه لهيب صبابة   لا تنطفى إلا بقرب منكم
يا ساكنى أرض العذيب سقيتم   دمعى إذا ضن الغمام المرزم
بعدت منازلكم وشط مزاركم   وعهودكم محفوظة مـــذ غبتم
لا لوم للأحباب فيما قد جنوا   حكمتهم فى مهجتى فتحكموا
أحبـــاب قلبى أعمروه بذكركم   فلطالما حفظ الوداد المسـلم
واستخبروا ريح الصبا تخبركم   عن بعض ما يلقى الفؤاد المغرم
كم تظلمونا قادرين ، وما لنا   جرم ولا سبب ، لمن نتظلم
ورحلتم . وبعـــدتم ، وظلمتم   ونأيتم . وقطعتم ، وهجرتم
هيهات لا أسلوكم أبداً وهل   يسلو عن البيت الحرام المحرم
وأنا الذى واصلت حين قطعتم   وحفظت أسباب الهوى إذ خنتم
جار الزمان على لما جرتم   ظلما . ومال الدهر لما ملتم
وغدوت بعد فراقكم وكأننى   هدف يمـــر بجانبيه الأسهم
ونزلت مقهور الفؤاد ببلدة   قل الصديق بها وقل الدرهم
فى معشر خلقوا شخوص بهائم   يصدا بها فكر اللبيب ويبهم

إن كورموا لم يكرموا ، أو علموا   لم يعلموا ، أو خوطبوا لم يفهموا
لا تنفق الآداب عندهم ولا الإ   حسان يعرف فى كثير منهم
صم عن المعروف حتى يسمعوا   هجر الكلام فيقدموا ويقدموا
فالله يغنى عنهم ، ويزيد فى   زهدى لهم ، ويفك أسرى منهم(١)

فهذه القصيدة التى أجاب بها عن قصيدة أخيه ، والتى قالها الرشيد وهو أسير فى اليمن ، تؤيد ما ذهبنا اليه من أن قصة دعوته الإمامة لنفسه إنما هى قصة موضوعة ، فالرشيد لم يشر إليها ولم يعتذر عنها ، وإنما يتحدث عن أعدائه الذين لم يقدروا شعره ، فلم تنفق الآداب عندهم ، ولم يقدروا إحسانه إليهم ، فهم صم عن المعروف ، وهم « شخوص بهائم » . فالرشيد لم يكن بالرجل الذى يطلب الإمامة لنفسه ، ثم يقول مثل هذا القول .

كان الرشيد كما وصفه ياقوت : على جلالته وفضله ومنزلته من العلم والنسب قبيح المنظر أسود الجلدة جهم الوجه سمج الخلقة ذا شفة غليظة وأنف مبسوط كخلقة الزنوج قصيرا (٢) فكان ذلك سببا فى تهكم شعراء مصر به ، فقد قيل : إن الرشيد ولى على المطبخ ، فقال الشريف الأخفش يخاطب الملك الصالح بن رزيك :

يولى على الشىء أشكاله   فيصبح هــذا لهذا أخا
أقام على المطبخ ابن الزبير   فولى على المطبخ المطبخا (٣)

ومما يروى فى ذلك أنه اجتمع ليلة عند الملك الصالح هو وجماعة من الشعراء والفضلاء ، فألقى الصالح مسألة فى اللغة فلم يجب عنها بالصواب سوى الرشيد ؛ فأعجب به الصالح ، فقال الرشيد : ماسئلت قط عن مسألة إلا وجدتنى أتوقد فهما . فارتجل الشاعر ابن قادوس :

إن قلت : من نار خلقـــت ، وفقت كل الناس فهما
قلنا : صدقت ، فما الذى   أطفاك حتى صرت فحما

وهجاه ابن قادوس مرة أخرى بقوله :

ياشبه لقمان بلا حكمة   وخاسرا فى العلم لا راسخا
سلخت أشعار الورى كلها   فصرت تدعى الأسود السالخا

(١) معجم الأدباء ج ٤ ص ٦٢ .
(٢) معجم الأدباء ج ٤ ص ٥٨
(٣) الخريدة .

وتروى عنه قصة هى أشبه بقصة الجاحظ مع المرأة التى أرادت نقش صورة الشيطان على الخاتم. ولعل سواده ودمامته وقصره كانت من الأسباب التى جعلته يكثر من ذم الدهر والناس، وأن يظهر فى شعره سمة حزن لعدم وفاء الإخوان وغدرهم به، فقد أنشد وهو فى اليمن:

لئن خاب ظنى فى رجائك بعد ما   ظننت بأنى قد ظفرت بمنصف
فإنك قد قلدتنى كل منة   ملكت بها شكرى لدى كل موقف
لأنك حذرتنى كل صاحب   وأعلمتنى أن ليس فى الأرض من يفى (1)

وأنشد مرة أخرى وهو فى مصر:

تواصى على ظلمى الأنام بأسرهم   وأظلم من لاقيت أهلى وجيرانى
لكل امرئ شيطان جن يكيده   بسوء ولى دون الورى ألف شيطان (2)

اتصل الرشيد بن الزبير بآل رزيك ثم بالوزير شاور وابنه، وولى سنة ٥٥٩ هـ النظر على الدواوين السلطانية بالاسكندرية، ثم اتصل بصلاح الدين الأيوبى أثناء محاصرته بالإسكندرية، فكان ذلك سبب غضب شاور عليه، فاختفى الرشيد بالإسكندرية، وفى أيام اختفائه أرسل اليه ابن قلاقس هذه الأبيات:

تدانيت دارا والوصول نسوع   نخالك ذو الود الوصول قطوع
حجبت ولم تحجب محاسنك التى   تأنق منها يا غمام ربيع
وضيعت فى صون فنمت وهكذا   يصان فتيت المسك وهو يضوع
وإنك والبيت الذى قد عمرته   لكالقلب قد ضمت عليه ضلوع
وما أنت إلا العضب لازم جفنه   لينضى بكف إذ يروق يروع
سيفتق عن زهر بديع كمامه   فما ذاك من صنع الإله بديع
وتسفر عن صبح شريق دجنة   ولا سيما قد كان منه طلوع
كأنى بها يا بن الكرام مغيرة   لها فوق هاتيك الربوع ربوع
بحيث تريك البر كالبحر ذبل   وبيض وبيض أشرقت ودروع
وفرسان حرب لا البعيد عليهم   بعيد ولا العالى الرفيع رفيع
بذلك لا تعجب، فإنى قائل   وإنك فى الشهر الأصم سميع (3)

(1) الخريدة ورقة ٣٦ ب
(2) المصدر نفسه
(3) ديوان ابن قلاقس ص ٦٥

وظل الرشيد مختفياً إلى أن قبض عليه وأشهر على جمل وعلى رأسه طرطور ووراءه من ينال منه، فكان الرشيد ينشد وهو على هذه الحال:

إن كان عندك يا زمان بقية   مما تهين به الكرام فهاتها

ثم صلب شنقا ودفن حيث شنق. ومن غريب الاتفاق أن يدفن شاور بعد أيام قليلة فى نفس المكان الذى دفن فيه الرشيد. ورثى الجليس بن الحباب صديقه القاضى الرشيد بقوله:

ثروة المكرمات بعدك فقر   ومحل العلا ببعدك قفر
بك تجلى إذا حللت الدياجى   وتمر الأيام حيث تمر
أذنب الدهر فى مسيرك ذنبا   ليس منه سوى إيابك عذر (1)

القاضى الجليس:

هو أبو المعالى عبد العزيز بن الحسين بن الحباب المعروف بالقاضى الجليس السعدى ولقب بأمين الدين (2)، وهو أحد الشعراء الثلاثة الذين كان يقتدى بهم عمارة اليمنى فى مدح الملك الصالح طلائع بن رزيك، والاثنان الآخران هما ابنا الزبير المهذب والرشيد، ولكن يخيل إلى أن الجليس كان أقل الثلاثة جودة فى الشعر، وأقلهم انتاجا فى القريض. وربما كان عمله فى ديوان الإنشاء مع الموفق بن الخلال أيام الفائز (3)، جعله لا يهتم بالشعر اهتمام زميليه ابنى الزبير، وقد رأينا كيف كانت قصيدته فى استدعاء الملك الصالح من الصعيد للأخذ بثأر الخليفة الظافر، والقدماء يذكرون أن الجليس له المعانى المبدعة فى شعره، ومثلوا لذلك بقوله:

ومن عجب أن الصوارم فى الوغى   تحيض بأيدى القوم وهى ذكور
وأعجب من ذا أنها فى أكفهم   تأجج نارا والأكف بحور (4)

ولا أدرى ما الذى أعجب القدماء فى هذه الصورة التى أتى بها فى البيت الأول، فإنى لا أعجب بها كإعجاب القدماء، وإن كنت أعجب بالبيت الثانى. ومن مقطوعاته التى حفظت لنا قوله يتهكم بطبيب:

(1) ابن خلكان ج ١ ص ٥١.
(2) مسالك الأبصار لابن فضل الله ج ١٢ ص ٢١٨٧ نسخة خطية بدار الكتب المصرية
(3) فوات الوفيات ج ١ ص ٣٧٨
(4) النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٣٧١

وأصل بليتي من قد غزاني ... من السقم الملح بعسكرين
طبيب طبه كغراب بين ... يفرق بين عافيتي وبيني
أتى الحمى وقد شاخت وباخت ... فعاد لها الشباب بنسختين
ودبرها بتــدبير لطيف ... حكاه عن سنان أو حنين
وكانت نوبة فى كل يوم ... فصيرها بحذق نوبتين[1]

ثم قوله فى مدح طبيب :

يا وارثا عن أب وجد ... فضيلة الطب والسداد
وحاملا رد كل نفس ... همت عن الجسم بالبعاد
أقسم لو قد طببت دهرا ... لعاد كونا بلا فساد[2]

وكان الجليس من كبار رجال الدولة ، ولقب بالجليس لانه كان جليس الخلفاء مقربا إليهم،فلا غرو أن رأينا شعراء عصره يلوذون به،وينشدونه مدائحهم فيه ، فقد مدحه ابن قلاقس بعدة قصائد منها قوله :

عفا طربى إلى عافى الرسوم ... فــلا روى الغمام ربى الغميم
وكنت أبا المنازل والغوانى ... فصرت أخا المدامـــة والنديم
أميل إلى سلافة بنت كرم ... وأدنو من سوالف أم ريم
هدتنا للسرور نجوم راح ... بهـــا قذفت شياطين الهموم
وكف الصبح يلقط ما تبدى ... بجيد الليل من درر النجوم
فإن توجت راحى كأس راح ... فشرب الإثم أولى بالأثيم
ولمـــا أقفرت أوكار وفرى ... عمرت بعزمتى أكوار كومى
إلى القاضى الجليس استنجدتها ... أزمة نجدة وحـــدات خيم
فقال لهـــا لسان الدهر : هذا ... تمام الفضل أودع فى تميم
تقسم بين شمس ضحى وبحر ... هداية قاصد وغنى عديم
وجلى ظلمتى خطب وجدب ... برأى مجرب وندى عميم
وملك حاسـديه لجاذبته ... خلائقه إلى الطبــع الكريم

(١) فوات الوفيات جـ ١ ص ٣٧٨ — (٢) المصدر نفسه
(٣) الخطط جـ ٢ ص ٢٢٦

عجبت لوجهــه ولراحتيه ... سنا شمس تبدى فى غيوم
ومطلب مداه كبا فقلنا ... ألم العيش أولى باللئيم
وقافيـــة أهز بها إذا ما ... نطقت معاطف الطرب الرميم
تسير وإن أقام بها ثناه ... وأعجب ما ترى سفر المقيم[1]

ومدحه رضى الدولة أبو سليمان داود بن مقدام الذى أنشد قصيدة فى وصف حاله ومدح فيها الجليس ، ومنها :

وقد بكرت تلوم على خمولى ... كأن الرزق يجلبه خيالى
تقدر أننى بالحرص أحوى الـ ... ـثراء وذاكم عين المحال
تقول إذا رأت إرشاد قولى ... هبلت ألا تهب إلى المعالى
ومن لم يعشق الدنيا قديما ... ولكن لا سبيل إلى الوصال
ولو أدليت دلوك فى دلاء ... متحت به من الماء الزلال
وكم أدليتُ من دلو ولكن ... بلا بلل يرد على قذالى
ولا أنا بالكفاف النزر راض ... ولا أنا عن طلاب الكثر سال
ولكن ذاك من قبل اعتمادى ... على عبد العزيز أبى المعالى[2]

كما مدحه الشاعر عمارة اليمنى بعدة قصائد .

ولكن الشاعر أبا القاسم هبة الله بن البدر المعروف بابن الصياد كان مولعا بهجاء القاضى الجليس ، كثير التهكم بأنفه الكبير ، حتى قيل إن ابن الصياد أنشد أكثر من ألف مقطوعة فى أنف الجليس[3] ، إلى أن انتصر له الشاعر أبو الفتح ابن قادوس الذى هجا ابن الصياد بقوله :

يا من يعيب أنوفنا الشـ ... ـم التى ليست تعاب
الأنف خلقـــة ربنا ... وقرونك الشم اكتساب[4]

وتوفى الجليس سنة ٥٦١ هـ قبل المهذب بن الزبير بشهر واحد ، وقيل إنه لما مات ابن الحباب شمت به المهذب ومشى فى جنازته بثياب مذهبة فاستقبح الناس

(١) ديوان ابن قلاقس ص ١٠٠ — (٢) الخريدة ورقة ٩٩ ب
(٣) فوات الوفيات جـ ١ ص ٧ — (٤) المصدر نفسه

فعله ونقص بهذا السبب[1] ، ورثى الجليس عدد من الشعراء منهم ابن قلاقس ؛ فمن قوله يرثى الجليس ويمدح ابنيه :

علمنا ، وقد مات الكمال ، التساويا ... فيا حسنات الدهر عدن مساويا
وقمنا نرجى فى المصاب مواسيا ... فأعوزنا لما عدمنا موازيا
ومما شجا أن المعالى تجــدلت ... ولم تنتصر فيها الكماة العواليا
سألت ، فقالوا مصرع لو علمته ... فأيقنت لكنى خدعت فؤاديا
فحين احتوت كف المنون على المنى ... تقلص عن يأسى جناح رجائيا
ومن يسأل الركبان عن كل غائب ... فلا بد أن يلقى بشيراً وناعيا
ولما سرى بى نحوه الوجد قاعداً ... ولم أستطع عقرا عقرت القوافيا
وسيرت منها بالنوادى نوادبا ... شوائد بالذكر الجميل شواديا
وعضب جدال فلل الدهر حده ... وما كان إلا قاضب الحد قاضيا
ونور هدى أسرى به خابط الهوى ... فلما خبت أضواؤه عاش عاشيا
لمنعاه قام الرعــد بالجو نائحا ... وبالبرق ملطوما وبالغيث باكيا
وأسبلت الظلماء نور غدائر ... إلى أن أشاب الصبح منها النواصيا
تخرمه الدهر الخاتل صائدا ... فخلف حتى الرى فى الماء صاديا
ولو رامه شاكى السلاح محسدا ... لراح كما لا يشتهى عنه شاكيا
وهيهات جر الدهر من قبل «جرهما» ... وشد على «عاد» و «شداد» عاديا
وكدر ندمانى «جذيمة» بعــد ما ... أقاما زمانا يشربان التصافيا
جليس أمير المؤمنين أقمتها ... لفقدك فاسمع صالحات بواقيا
وقد كنت أجلوها عليك تهانئا ... فوا أسفاً كيف استحالت تعازيا
ولولا سليلاك اللذان توارثا ... حلاك ملأت الخافقين مراثيا
هما ألبسانى عنك ثوب تصبر ... وأعلاق قلبى باقيات كما هيا
سقى الرائح الغادى ضريحك صوبه ... وإن كان يسقى الرائحات الغواديا
ولا برحت فيك القلوب عقيرة ... تسيل بأسراب الدماء المآقيا[2]

(١) المصدر نفسه ص١٢٤ .

(٢) ديوان ابن قلاقس ص ١١٥ .

عمارة اليمنى

هو الشاعر الذى يقرن اسمه بأسماء فحول شعراء العصر الفاطمى ، بالرغم من أنه لم يكن مصريا ، ولكنه وفد على مصر فى ربيع الأول سنة ٥٥٠ هـ برسالة من أمير مكة قاسم بن هاشم ، فأدخل عمارة قاعة الذهب بقصر الخليفة ، وأنشد قصيدته التى مطلعها :

الحمد للعيس بعــد العزم والهمم ... حمدا يقوم بما أولت من النعم

فأعجب الخليفة الفائز ووزيره الملك الصالح ورجال القصر بقصيدته ، فأغدقوا على الشاعر نعمهم وعطاياهم ، فأمر الوزير بأن يحضر عمارة مجلسه الذى يضم كبار رجال الأدب والعلم بمصر أمثال الجليس وابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء وابن قادوس والمهذب بن الزبير وغيرهم ، ومكث عمارة بمصر حتى شوال سنة ٥٥٠ هـ ثم عاد إلى مكة ومنها رحل فى صفر سنة ٥٥١ هـ إلى وطنه الأصلى اليمن ، وفى هذه السنة نفسها ذهب لتأدية فريضة الحج ،فطلب منه أمير مكة أن يسفر بينه وبين الملك الصالح مرة أخرى ، فجاء إلى مصر حيث أمضى ما بقى من سنى حياته .

اتصل عمارة بمصر بالأحداث التى مرت عليها منذ وزارة الملك الصالح طلائع ابن رزيك حتى انقرضت الدولة الفاطمية، لصلته الوثيقة برجال الدولة إبان هذه الحقبة من الزمان ، ويعد شعر عمارة من السجلات والوثائق التى تطلعنا على تاريخ مصر إبان هذه السنوات المضطربة التى أدت إلى زوال الدولة الفاطمية ، فان الجزء الذى بقى لنا من شعر عمارة يدل على أنه أنشد فى كل حادثة ألمت بمصر فى هذه السنين ، فقد كان يمدح الوزراء الذين كان بيدهم مقاليد الأمور ، وكان يمدح الأمراء الذين هم كبار رجال الدولة، فوجد من الحوادث مناسبات لهذه المدائح ، كما أنه وجد منها مادة لكتابه « النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية » وهو أوثق المصادر عن تاريخ هذه الأيام من أيام مصر الفاطمية ، كما أنه شارك شعراء مصر فى الإشادة بالأعياد المصرية وأيام المواسم . ونحن نعلم أن عمارة كان سنى المذهب ، بل كان متعصبا لمذهبه ، ولم يتحول عن هذا المذهب بالرغم من محاولة الوزراء والأمراء معه لكى يعتنق مذهب الفاطميين ، ومع ذلك كله فإن عمارة تأثر بما كان يجرى فى مصر ، وأسهم مع غيره من شعراء مصر فى الإشادة بعقائد الفاطميين ، وقد ذكرنا طرفا من ذلك فيما قبل . ونستشهد الآن بقصيدته

النونية التى قالها فى رثاء أهل البيت فى عاشوراء ، وضمنها مدحا للملك الصالح ، وهى القصيدة التى أولها :

شأن الغرام أجل أن يلحانى ... فيه ، وإن كنت الشفيق الحانى
أنا ذلك الصب الذى قطعت به ... صلة الغرام مطامع السلوان
ملئت زجاجة صدره بضميره ... فبدت خفية شأنه للشانى
غدرت بموثقها الدموع فغادرت ... سرى أسيرا فى يد الإعلان
عنفت أجفانى فقام بعذرها ... وجد يبيح ودائع الأجفان

وفيها يقول عمارة :

يا صاحبى وفى مجانبة الهوى ... رأى الرشاد فما الذى تريان
قبضت على كف الصبابة سلوة ... تنهى النهى عن طاعة العصيان
أمسى وقلبى بين صبر خاذل ... وتجلد قاص وهم دان
قد سهلت حزن الكلام لنادب ... آل الرسول نواعب الأحزان
فابذل مشايعة اللسان ونصره ... إن فات نصر مهند وسنان
واجعل حديث بنى الوصى وظلمهم ... تشبيب شكوى الدهر والخذلان
غصبت أمية إرث آل « محمد » ... سفها وشنت غارة الشنآن
وغدت تخالف فى الخلافة أهلها ... وتقابل البرهان بالبهتان
لم تقتنع أحلامها بركوبها ... ظهر النفاق وغارب العدوان
وقعودهم فى رتبة نبوية ... لم يبنها لهم « أبو سفيان »
حتى أضافوا بعد ذلك أنهم ... أخذوا بثأر الكفر فى الإيمان
فأتى « زياد » فى القبيح زيادة ... تركت « يزيد » يزيد فى النقصان
حرب بنو « حرب » أقاموا سوقها ... وتشبهت بهم بنو « مروان »
لهفى على النفر الذين أكفهم ... غيث الورى ومعونة اللهفان
أشلاؤهم مزق بكل ثنية ... وجسومهم صرعى بكل مكان
مالت عليهم بالتمالىء أمة ... باعت جزيل الربح بالخسران
دفعوا عن الحق الذى شهدت لهم ... بالنص فيه شواهد القرآن
ماكان أولاهم به لو أيدوا ... بالصالح المختار من « غسان »

أنساهم المختار صدق ولائه ... كم أول أربى عليه الثانى(١)

فهذه القصيدة من شعر عمارة تدل على أن الشاعر جارى القوم فى عاداتهم ، وفى أشعارهم ، فهو لم يتشيع ، ولكنه لم يستطع أن يتخلف عن غيره من شعراء مصر فى رثاء أهل البيت فى أيام مآتمهم ، وشارك المصريين فى احتفالاتهم ، فله عدة قصائد فى كسر الخليج ، من ذلك ما أنشده سنة تسع وخمسين وخمسمائة فى مدح العاضد :

سجودا فهذا صاحب الركن والحجر ... ووارث علم النمل والنحل والحجر

وفيها يقول :

تمل أمير المؤمنين مواسما ... تزورك من صوم شريف ومن فطر
يواصلها سعد بجدك مقبل ... فعام إلى عام وشهر إلى شهر
ركبت إلى كسر الخليج وإنما ... ركبت إلى جبر الرعايا من الكسر
ولما رأيت البر بحرا من الظبا ... تعجبت من بحر يسير إلى نهر
غدوت بفتح السد فى زحف أرعن ... يسد هبوب الريح بالأسل السمر
يرد ظلام النقع فجرا كأنما ... أسنته مطبوعة بسنا الفجر
كأن على البيداء منه صحيفة ... كتائبها سطر يضاف إلى سطر
إذا خفقت أعلامه وبنوده ... رأيت عليها غرة العز والنصر
وقد خلع التأييد فوقك حلة ... تطرز بالإحسان والعدل والبر
أوارث مجد الحافظ بن محمد ... وحافظ حكم الله فى محكم الذكر
إذا ما استجاب الله صالح دعوة ... فمتعك الرحمن بالناصر الذخر(٢)

وهكذا اضطر هذا الشاعر السنى إلى أن يتأثر بما كان فى مصر فى العصر الفاطمى ، وأن يتأثر بعقائد الفاطميين فأكثر منها فى شعره ، بل بلغ به تأثره بالفاطميين إلى أنه يرثيهم ويثنى عليهم فى الوقت الذى تخلى عنهم جميع المصريين وشمت بهم أعداؤهم الأيوبيون وجمهور أهل السنة . فعمارة اليمنى السنى المذهب كان وفيا لهم الوفاء كله . فأنشد قصيدته التى مطلعها :

رميت يا دهر كف المجد بالشلل ... وجيده بعد حسن الحلى بالعطل

وفيها يقول ، بعد أن وصف أيامهم وذكر أعيادهم ومنشآتهم :

(١) النكت ص ٣٦٣ ومابعدها
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٥

والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم ... ولا نجا من عذاب الله غير ولى
ولا سقى الماء من حر ومن ظمأ ... من كف خير البرايا خاتم الرسل
ولا رأى جنة الله التى خلقت ... من خان عهد الإمام العاضد بن على
أئمتى وهداتى والذخيرة لى ... إذا ارتهنت بما قدمت من عملى
تالله لم أوفهم فى المدح حقهم ... لأن فضلهم كالوابل الهطل
ولو تضاعفت الأقوال واتسعت ... ما كنت فيهم بحمد الله بالخجل
باب النجاة هم دنيا وآخرة ... وحبهم فهو أصل الدين والعمل
نور الهدى ومصابيح الدجى ومحل ... الغيث إن ربت الأنواء فى المحل
أئمة خلقوا نورا فنورهم ... من محض خالص نور الله لم يغل
والله ما زلت عن حبى لهم أبدا ... ما أخر الله لى فى مدة الأجل(١)

فكانت هذه القصيدة، وما قيل من أنه اشترك مع نفر من الأوفياء للفاطميين لإعادة ملكهم بتولية ابن العاضد سببا فى القبض عليه معهم وصلبه سنة تسع وستين وخمسمائة، واتهمه الفقهاء بالكفر، وقال فيه تاج الدين الكندى الشاعر:

عمارة فى الإسلام أبدى خيانة ... وبايع فيها بيعة وصليبا
فأمسى شريك الشرك فى بغض أحمد ... فأصبح فى حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى إن عجمته ... تجد منه عودا فى النفاق صليبا
سيلقى غدا ما كان يسعى لأجله ... ويسقى صديدا فى لظى وصليبا(٢)

وهكذا أصاب عمارة ما أصاب الفاطميين الذين حبوه بأموالهم وعطاياهم وأكرموه الإكرام كله، فقابل ذلك كله بوفاء الوفى الأمين.

ابن قلاقس

أبو الفتح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن على بن عبد القوى بن قلاقس اللخمى الاسكندرى، ولقب بالقاضى الأعز، ولد بالاسكندرية سنة ٥٣٢ ه. وبها نشأ وتثقف فأخذ عن الحافظ أبى طاهر السلفى وعن غيره، ثم رحل عن مصر إلى اليمن فدخل عدن سنة ٥٦٣ ه متكسبا بشعره فمدح بها ياسر بن بلال، ثم سافر إلى صقلية سنة ٥٦٥ ه، ومدح بها القائد أبا القاسم بن الحجر، وصنف باسمه كتابا سماه «الزهر الباسم فى أوصاف أبى القاسم» وشاء العودة إلى مصر

(١) الخطط ص ٣٩٣   (٢) النكت ص ٣٩٧

فتوفى بعيذاب سنة ٥٦٧ ه(١). فالشاعر كان يتجر بشعره ويرحل إلى الممدوحين بقصد الكسب، مع أنه اتصل ببعض رجالات مصر وأخذ نوالهم. مدح الخليفة الفاطمى بقوله:

فى مرتقى الوحى تعلو مرتقى الأمل ... فافسح رجاءك واطلب فسحة الأجل
لا تنتجع للأمانى بعده دولا ... فقد تأملت منه واهب الدول
وانظر إلى صفوة الخلق التى ظهرت ... للناس أيامه عن صفوة الرسل
لو عاد ينطح ذو القرنين صخرته ... لعاد واهى قرون الرأس كالوعل(٢)

ومدح الوزير شاور، وعرض بشيركوه بقوله:

عارض الصفح فى يديك الصفاحا ... ورأى البأس أن تطيع السماحا
فرفعت الجناح عن جارم الذ ... نب بعفو خفضت منه الجناحا
ووضعت السلاح حين أراك الـ ... عزم والرأى إن وضعت السلاحا
أى ثغر سما إليه أبو الفتـ ... ـح فلم يبتدر إليه افتتاحا
بخيول طارت بأجنحة النصـ ... ـر فراحت بها تبارى الرياحا
وكماة غر قد اقتطعوا الليـ ... ـل وساقوه فى العجاج صباحا
ورماح تجنى فتجنيك فى الحر ... ب شقيقا ما كان قبل أقاحا
وظبى تقطع الترائب مهما ... ألقحت بالضراب حبا لقاحا
شاركت شيركوه فى النفس والما ... ل وصاحت به فصاحا فصاحا
طلب الأمن فاستجيب وما يعـ ... ـرف منك الطلاب إلا النجاحا
بعد ما ضيق الحمام عليه ... سبلا غودرت لديه فساحا
وأقامته كالجذور حماة ... ضربت بالقنا عليه القداحا
فليطل بعدها الفخار فقد را ... ح طليقا لبيضكم حيث راحا
يا معل الظبا البواتر ضربا ... ترك المجد والمعالى صحاحا
فيك لله والخليفة سر ... أوضحاه لمبصر إيضاحا
ذاك أعطاك آية النصر تصريـ ... ـحا وهذا أعطاك ملكا صراحا(٣)

(١) راجع معجم الأدباء ج ١٩ ص ٢٢٦ وابن خلكان ج ٢ ص ١٥٦
(٢) ديوان ابن قلاقس ص ٨٨
(٣) ديوان ابن قلاقس ص ٢٥

ومدح الكامل بن شاور والقاضى الجليس والقاضى بن خليف والحافظ السلفى وابن مصال والقاضى الفاضل وغيرهم من رجال مصر ، فمن مدائحه للكامل ابن شاور قوله :

حمد السرى من كنت وجه صباحه   من بعد ذم غدوه ورواحه
ورأى النجاح مؤمل ألحقته   من حسن رأيك فيه ظل جناحه
وأما وعزمك وهو أنهض فاتك   لقد انبرى والصفح تلو صفاحه
وبديع مدحك وهو أينق متجر   لقد اغتدى والعز من أرباحه
فالدهر بين فريده وفرنده   متقلد بنجاده ووشاحه
بأس تورد فى خدود شقيقه   وندى تبسم فى ثغور أقاحه
والكامل المسعود فى آفاقه   بدر جلا الإمساء عن إصباحه
بمناقب سمت النجوم لنيلها   فاستخدمتها فى رءوس رماحه
ومواهب عان السحاب معينها   فاستغرقته فى بحور سماحه
يا آل شاور أنتم دون الورى   للملك كالأرواح فى أشباحه
وإلى معاليكم إشارة خرسه   وعلى أياديكم ثناء فصاحه
لم لا يكون الشكر عندك منتجا   ونداك قوام بأمر لقاحه (١)

ولكنه كان مولعا بالأسفار وركوب البحر ، ولذلك يقول :

والناس كثر ولكن لا يقدر لى   إلا مرافقة الملاح والحادى (٢)

ويقول : فى مدح ياسر بن بلال الداعى بمدينة عدن ، وكان قد فارقه ، ولكن سفينته غرقت فعاد إليه مرة أخرى ، وأنشده هذه القصيدة يصف فيها غرقه ، ويتحدث عن ولعه بالأسفار :

سافر إذا ما شئت قدرا   سار الهلال فصار بدرا
والماء يكسب ما جرى   طيبا ويخبث ما استقرا
وبنقلة الدرر النقيـ   ـة بدلت بالبحر نحرا
وصلا إذا امتلأت يداك   فإن هما خلتا فهجرا
فالبدر أنفق نوره   لما بدا ثم استسرا
حركات عيشك ما أردت   مهاد عيشك أن يقرا

(١) المصدر نفسه ص ٢٧   (٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٥٧

إما تريني شاحب الـ   ـوجنات قد ألبست طمرا
فوقائع الأيام تخـ   ـرج أهلها شعثا وغبرا
مدت إلى الأربعـو   ن يدا وقد قهرت عشرا
واستحدثت فى لمتى   نقطا فهلا كن حبرا
ما قلت أف فإنها   شرر بأف يعود جمرا
وكفاك أنى إن نظر   ت لها نظرت النجم ظهرا
كان الشباب الغض ليـ   ـلا فاستنار الشيب فجرا
ولئن تقلب بى الزما   ن كما اشتهى بطنا وظهرا
فبما قتلت صروفه   وقتلته جلدا وخبرا
غاض الوفاء وفاض ما   ء الغدر أنهارا وغدرا
فانظر بعينك هل ترى   عرفا ، وليس تراه نكرا
خلق جرى من آدم   فى نسله وهلم جرا
ومروعى بالبحر يحـ   ـسب أننى أرتاع بحرا
أوما درى أنى بتسـ   ـهيل المصاعب منه أدرى
أعددت نظرة «ياسر»   نحوى ، وسوف تعود يسرا
من صرف الأقدار فى   أيامه كسرا وجبرا
واستخدم الأيام فى   أحكامه نهيا وأمرا
وانتاشنى فى نظرة   أولى سيتبعها بأخرى
فالسحب ترشح إذ جرت   فى إثره بالجهد قطرا
والرعد رجع جاهدا   أنفاسه تعبا وبهرا
غرس الصنائع فى الرقا   ب فأنبتت حمداً وشكرا
يقظان إن نبهته   عمرا أو استنجدت عمرا
ولرب طرة معرك   سوداء أعدته طرا
أسرى إلى أبطالها   فأبادهم قتلى وأسرى
من كل متشح على   نهر الدلاص الرعف نهرا
جروا الذوائب والذوا   بل خلفهم بيضا وسمرا
فالسيف يقرع بينهم   بشقيقه ، والضيف يقرى

يا راويا عن شخصه   خبرا ولم يعرفه خبرا
والثم بنان يمينه   وقل السلام عليك بحرا
وغلطت فى تشبيهها   بالبحر ، أللهم غفرا
أو لست نلت بذا ندى   جما ، ونلت بذاك فقرا
بنوافذ ترنو الريا   ح لها بطرف الحقد شزرا
لا زال ينظر عودها   بنداه لدن المتن نضرا[1]

وهذا الشاعر الرحالة كان يميل إلى الإكثار من المحسنات البديعية فى شعره ، بخلاف بعض الشعراء الذين عاصروه أمثال المهذب والرشيد والجليس وغيرهم ، وإن كان هؤلاء الشعراء قد ألموا بالمحسنات البديعية ، ولكنهم لم يتعمدوها كما تعمدها ابن قلاقس الذى كان يجهد نفسه على ما يظهر لنا فى الإتيان بهذه المقابلات والتوريات وغيرها من ألوان الزينة اللفظية .

* * *

من هذا الفصل نستطيع أن ندرك كيف كان للوزراء أثر فى حياة الشعر ، فى العصر الفاطمى ، وكيف اجتمع الشعراء حول الوزراء يمدحونهم ويأخذون عطاياهم ، أسوة بما كان يحدث لدى الخلفاء أنفسهم إبان سطوتهم وقوة ملكهم ، ونحن نأسف أن يضيع أكثر شعر هؤلاء الشعراء ، فلم يصلنا منه إلا هذه القطع المتفرقة أو القصائد الناقصة ، ومع ذلك فالذى بقى لنا من الشعر يدلنا على أن نهضة الشعر كانت قوية ، وأن تياره كان جارفا ، وأن عدد الشعراء المجيدين تضاعف بحيث يخيل إلينا أن كل مثقف فى ذلك العصر كان ينشد الشعر ، وأن كتاب الدواوين والقضاة كانوا من الشعراء ، ويكفى أن نلقى نظرة على مجاميع الشعر ، أمثال اليتيمة والدمية والخريدة ، أو كتب التراجم ، لندرك أن عدداً كبيراً جداً من المصريين أنشد الشعر ، وأن الشعر كان من الجودة بحيث استطاعت مصر أن تبز غيرها فى مضمار القريض .

(١) ابن خلكان ج ٢ س ١٥٧ وديوان ابن قلاقس س ٣٨ .

الفصل الرابع

الشعر والحروب الصليبية

يخيل لكل من يقرأ تاريخ الفاطميين فى مصر أن مصر فى هذا العهد كان يسودها الأمن ، وأن المصريين كانوا يعيشون فى دعة ولين ، ألم يتحدث المؤرخون عن النعيم الذى كان فى العصر الفاطمى ، والترف الذى كان يرفل فيه المصريون ، والحياة الناعمة اللينة التى كان يحياها الناس ؟ ولكن المؤرخين أنفسهم تحدثوا أيضا عن لون آخر من الحياة ، هى حياة الاضطرابات والحروب الكثيرة التى كان يشنها أعداء الفاطميين على بلادهم وممتلكاتهم منذ أقام الفاطميون دولتهم فى شمال إفريقية ، فقد كان أعداؤهم يحيطون بممتلكاتهم من كل جانب ، ويتحينون الفرص للإيقاع بهذه الدولة الفاطمية التى قامت لتثل عرش العباسيين فى المشرق والأمويين فى المغرب ، كما كان أمام الفاطميين عدو المسلمين العتيد — أعنى الروم — ودول جنوب أوربا التى كان يهددها الفاطميون من صقلية ومستعمراتهم فى إيطاليا ، حتى إذا كان النصف الثانى من القرن الخامس للهجرة رأينا الفاطميين يشتبكون فى حروب صعبة المراس ، هى التى عرفت فى التاريخ بالحروب الصليبية . أضف إلى ذلك كله ما ذكره المؤرخون أيضا من قيام خوارج على الدولة الفاطمية فى مصر وفى ممتلكاتها ، وحروب بين الأمراء لتولى الوزارة . فكل هذه الاضطرابات والحروب اضطلعت بها مصر بعد أن أصبحت عاصمة الإمبراطورية الفاطمية ، وسجل الشعراء هذه الحروب فى أشعارهم ومدائحهم ، فالأمير تميم مدح أخاه الإمام العزيز بالله عند ما هزم هفتكين الشرابى التركى — مولى معز الدولة البويهى — فى دمشق ، ثم طلب العفو من العزيز ، فوصف تميم هذا الحادث بقوله :

وإنا لقوم نروع الزمان   ولسنا نراعَ إذا ما سطا
ومنا الإمام العزيز الذى   به عاد سيف الهدى منتضى
سعى للشآم وقد أصبحت   بها الحرب نزاعة للشوى

فكشف من ليلها ما سجا … وقوّم من زيغها ما التوى
ولما تقابلت الجحفلان … وعاد كجنح الظلام الضحى
ولم يبق فى الصف من قائل : … هلم ، ولا من مجيب : أنا
وقد ولغت فى الصدور الرماح … وصلت لبيض السيوف الطلى
وغنت على البيض بيض الذكور … غناء يعيد الفرادى ثنى
كأن الرماح سكارى تجو … ل بها الخيل فى النقع قب الكلا
فلولا الإمام العزيز الذى … تداركها وهى لا تصطلى
فسكن عارض شؤبوبها … وأمسك من سجله ما انهمى
بدا لهم دارعا فى العجاج … كصبح بدا طالعا فى الدجى
يكر ويبسم فى موقف … عبوس الكماة به قد بدا
ولم يخذل السيف منه يدا … ولم يسكن الروع منه حشا
يقود إلى الحرب من جنده … أسود رجال كأسد الشرى
فلو فدت الحرب قوما ، إذن … لفدتك صارخة بالعدا
فلم تصدر الرمح حتى انثنى … ولم تغمد السيف حتى انفرى
ولم يحمل الموت حتى حملت … ولولاك ما خاب ذاك اللظى
فما انفرجت عنك إلا وأنت … بها الفارس الملك المتقى
فجاءك منهم ملوك الرجال … وفدتك منهم ذوات اللمى
ولاذوا بعفوك مستأمنين … ولم يجدوا غيره ملتجا
ولما رأى فتحها هفتكين … عليه وأخلافه ما رجا
تولى لينجو وخفت به … جيوشك واستوقفته الربا
ولو طلب العفو قبل الهروب … لكنت له غافراً ما مضى
ولكنه اعتاد فيها الإباق … وليس الفتى كل يوم فتى
ورام الخلاص وكيف الخلاص … وقد بلغ الماء أعلى الزبى
ولم يك كفؤك فى حربه … وإن كان فى بأسه المنتهى
وقد هزم الأسد حتى انتهاك … فلما رآك غدا لا يرى
فراح وحشو حشاه أسى … وقد ملئت مقلتاه عمى
أريتهم وقعات تزيد … على وقعات الدهور الألى

ببغداد من ذكره جولة … تذوّده عن المارقين الكرى
فأنفس ديلمها تغتدى … وتمسى على مثل جمر الغضى
إذا سمعوا بالإمام العزيز … أساءوا الظنون وحلوا الحبا
يخافون من بأسه وقعة … تدور عليهم بقطب الرحى
ينادى « بويه » بنيه بها … وينديهم وهو رهن البلى(١)

ونحن مضطرون إلى أن نترك هذه الحروب الكثيرة التى خاضها الفاطميون وأن نمر بالأشعار التى أنشدها شعراؤهم فى وصف تلك المعارك ، لنتحدث عن شعر الفاطميين فى هذه الحروب الطاحنة التى شغلت العالم الإسلامى عدة قرون ، وكانت مصر هى الدولة الإسلامية الكبرى التى أوقفت مواردها ورجالها للذود عن البلاد الإسلامية وعن الدين الإسلامى ، ووقفت أمام مسيحى أوربا تكافح وتناضل طوال هذه القرون ، حتى أدخلت اليأس فى قلوب الأوربيين ، وجعلت آمالهم وأحلامهم قصوراً بنيت فى الهواء .

ظهرت الحرب الصليبية الأولى سنة ٤٩٠ هـ فى عهد المستعلى ووزيره الأفضل ابن بدر الجمالى ، وليس لنا فى هذا البحث أن نعرض لهذه الحروب الصليبية من الناحية التاريخية ، ونكتفى بأن نذكر أن الأفضل استهان بأمر هذه الحركة فى أول الأمر ، ولم يدرك الأخطار التى نجمت عن تخاذله وتهاونه ، بيد أنه بدأ يدرك خطأ تقديره بعد أن استولى الصليبيون على أنطاكية ومعرة النعمان سنة ٤٩١ هـ وواصلوا زحفهم إلى بيت المقدس ، فاضطر حينئذ إلى أن يعبىء جيوشه ويرسلها إلى فلسطين من طريق البحر والبر ، ولكن جيوشه هزمت أمام الصليبيين سنة ٤٩٢ هـ بجوار بيت المقدس ، واضطرت إلى الانسحاب إلى عسقلان ثم إلى العودة إلى مصر . على أن شعراء الأفضل ذكروا لنا أن سبب عودة هذه الجيوش المصرية لم يكن هزيمتها أمام الصليبيين ، بل سببها ثورة بعض الجنود على الأفضل وتآمرهم للفتك به ، ولعل (قصيدة أمية بن أبى الصلت) التى رويناها من قبل تدلنا على أن الشعراء أخذوا يعتذرون عن الأفضل وعن انهزامه فى هذه الحرب الصليبية الأولى . وفى هذه القصيدة إشارة إلى مؤامرة الجنود ، كما أن الشاعر يصرح بأن وزير مصر هو الوحيد الذى قام بالذود عن الدين ونصرة

(١) ديوان الأمير تميم .

المسلمين ، على حين ظلت البلاد الإسلامية الأخرى لاهية عن هذا الخطر الذى دهمهم ، فهو يقول :

جردت للدين ، والأسياف مغمدة ... سيفا تفل به الأحداث والغير

وبعد أن تحدث الشاعر عن شجاعة الأفضل وإقدامه فى الحروب ، أخذ فى الاعتذار عن هزيمته ، وتوعد الصليبيين بعودة الأفضل إليهم والانتصار عليهم:

وإن هم نكصوا يوما ، فلا عجب ... قد يكهم السيف وهو الصارم الذكر
العـود أحمد والأيام ضامنة ... عقبى النجاح ووعد الله ينتظر
وربما ساءت الأقدار ثم جرت ... بما يسرك ساعات لها أخر

ونقل المقريزى عن ابن الطوير أن الأفضل قصد استنقاذ الساحل من يد الفرنج، فوصل إلى عسقلان ، وزحف عليها بذلك العسكر، فخذل من جهة عسكره، وهى نوبة النصة ، وعلم أن السبب فى ذلك من جنده ، وكان عند الفرنج شاعر منتجع إليهم ، فقال يخاطب صنجل ملك الفرنج :

نصرت بسيفك دين المسيح ... فلله درك من صنجل
وما سمع الناس فيما رووه ... بأقبح من كسرة الأفضل

فتوصل الأفضل إلى ذبح هذا الشاعر (١) .

وعاد الأفضل إليهم ، وكانت جيوشه تصاب بهزائم منكرة، ولكنه لم ييأس من الظفر ، واضطربت أمور مصر من بعده حتى ولّى الملك الصالح طلائع بن رزيك ، فأخذ يرسل الجيوش المصرية لمحاربة الفرنج ، فكان ينتصر حينا وينهزم حينا آخر ، وسجل شعراؤه هذه الحروب ، فمن ذلك قول شرف الدولة ابن جبر أبو محمد يحي بن حسن فى إحدى المعارك التى خاضها ابن رزيك ضد الفرنج :

أطفى ابن رزيكٍ لهيب ضرامه ... والبيض تخطب فى الرءوس فتسمع
وكتائب للشرك كنت إزاءها ... متعرضا فانفض ذاك المجمع
ولكم صرعت من الفرنج سميدعا ... بلقائه لك قيل : أنت سميدع (٢)

وقال المهذب بن الزبير فى حروب ابن رزيك، ولم يذكر العماد الواقعة التى كانت سبب هذه القصيدة ولا تاريخها :

(١) المقريزى ج ٢ ص ٣١٠ (٢) الخريدة ١٢

وتلقى الدهر منه بليث غاب ... غدت سمر الرماح له عرينا
تخال سيوفه إما انتضاها ... جداول والرماح لها غصونا
وتحسب خيله عقبان دجن ... يرحن مع الظلام ويغتدينا
إذا قدحت بجنح الليل أورت ... سنا يغشى عيون الناظرينا
وإن صبحت مع الإصباح عدواً ... أثارت للعجاج به دجونا
كأن الشمس حين تثير نقعا ... تحاذر من سطاه أن تبينا
وما كشفت بدور الأفق إلا ... أسى إذ ابصرت منه الجبينا
وما اضطربت رماح الخط إلا ... مخافة أن يحطمها مبينا
وما تندق يوم الروع حتى ... يدق بها الكواهل والمتونا
عجبت لها تصافح من يديه ... وتوصف بالظما ، بحراً معينا
ويوردها ولا تحظى برى ... نطافا من دروع الدارعينا
وهل يشفى لها أبدا غليل ... وقد شربت دماء الكافرينا
إذا لقيت عيون الروم زرقا ... حسبت نصالها تلك العيونا
تخال البحر مد به خليج ... إذا ما مد بالقضب اليمينا (١)

ومرة أخرى ذكر العماد أن الملك الصالح أرسل أسطوله سنة ٥٥٣ هـ لحرب الصليبيين ، وانتصر الأسطول ، فأنشد المهذب يمدح الصالح ويصف الأسطول . ومن هذه القصيدة ندرك أن الموقعة كانت بالقرب من العريش :

أعلمت حين تجاوز الحيان ... أن القلوب مواقد النيران
لما أبوا ما فى الجفان قريتهم ... بصوارم سلت من الأجفان
وثللت فى يوم العريش عروشهم ... بشبا ضراب صادق وطعان
ألجأتهم للبحر لما أن جرى ... منه ومن دمهم معا بحران
مدح الورى بالبأس إذ خضبوا الظبا ... فى يوم حربهم من الأقران
ولأنت تخضب كل بحر زاخر ... بمن تجاوب بالنجيع القانى
حتى يرى دمهم وخضرة مائه ... كشقائق نثرت على الريحان
وكأن بحر الروم خلق وجهه ... وطفت عليه منابت المرجان
ولقد أتى الأسطول حين غزا بما ... لم يأت فى حين من الأحيان

(١) الخريدة ص ٣٨ .

أحبب إلى بها شوانى أصبحت   من فتكها ولها العداة شوانى
شبهن بالغربان فى ألوانها   وفعلن فعل كواسر العقبان
وقرتها عدد القتال فقد غدت   فيها القنا عوضا من الأشطان
حرب عوان حكمتك من الغدى   فى كل بكر عندهم وعوان
وأعدت رسل ابن القسيم إليه فى   شعبان كيا يلأم الشعبان
والفأل يشهد باسمه أن سوف يغ   دو الشام وهو عليكما قسمان
وأراك من بعد الشهيد أبا له   وجعلته من أقرب الأخوان
وهو الذى مازال يفعل فى العدا   ما لم يكن ليعد فى الإمكان
قتل البرنس ومن عساه أعانه   لما عسا فى البغى والعدوان
وأرى البرية حين عاد برأسه   مر الجنا يبدو على المران
فليهنه أن فاز منك بسيد   أوفى برتبته على كيوان(١)

ولعل هذه القصيدة تبين لنا ناحية تاريخية هامة لم يذكرها المؤرخون فى كتبهم ، ولم يتحدث عنها المؤرخون من الغربيين ، تلك هى علاقة الملك الصالح ابن رزيك بنورالدين زنكى إبان الحروب الصليبية ، فالشاعر هنا يذكر نورالدين، مرة يذكره (بابن القسيم) أى ابن قسيم الدولة أتابك زنكى ، ويذكره مرة ثانية باللقب الذى عرف به وهو (الشهيد)، ويتحدث الشاعر عن الاتفاق الذى كان بين الملك الصالح وبين نور الدين ، ويقضى هذا الاتفاق على أن يواصلا الحرب ضد الصليبيين حتى يتركوا الشام ، فتقسم حينئذ بين مصر ونور الدين ، هذا الاتفاق الذى أشار إليه المهذب فى هذه القصيدة لم يذكره أحد من المؤرخين ، ويغلب على ظنى أنه لولا هذه الصلة الوثيقة التى كانت بين الشاعر والملك الصالح لما استطاع الشاعر أن يعرف مثل هذا الاتفاق الذى كان بين العاهلين .

وفى عهد الملك الصالح طلائع بن رزيك ، كان الصليبيون يمعنون فى شن غاراتهم على حوران وما حولها من البلدان ، ووردت الأنباء بأن عسكر المصريين استولوا على عسقلان ، وقتلوا ما بها من عسكر الفرنج ، وسر المصريون بذلك الانتصار سرورا عظيما نلمح أثره فى قصيدة الملك الصالح التى أرسلها إلى أسامة

(١) الخريدة ورقة ٤٠ وما بعدها .

ابن منقذ صاحب حصن شيزر وأحد الأمراء الذين كانوا يساعدون نور الدين زنكى فى حروبه ضد الصليبيين :

ألا هكذا فى الله تمضى العزائم   وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارم
وتستنزل الأعداء من طول عزهم   وليس سوى سمر الرماح سلالم
وتغزى جيوش الكفر فى عقر دارها   ويوطا حماها والأنوف رواغم
ويوفى الكرام الناذرون بنذرهم   وإن بذلت فيها النفوس الكرائم
نذرنا مسير الجيش فى صفر فما انـ   ثنى حتى انثنى وهو غانم
بعثناه من مصر إلى الشام قاطعا   مفاوز وخد العيس فيهن دائم
فما هاله بعد الديار ولا ثنى   عزيمته جهد الظما والسمائم
يبارى خيولا ما تزال كأنها   إذا هى ما انقضت نسور قشاعم
يسير بها « ضرغام » فى كل مأزق   وما يصحب الضرغام إلا الضراغم
وواجههم جمع الفرنج بحملة   تهون على الشجعان فيها الهزائم
وما زالت الحرب العوان أشدها   إذا ما تلاقى العسكر المتضاجم
وعادوا إلى حز السيوف فقطعت   رءوس وحزت للفرنج غلاصم
فلم ينج منهم يوم ذاك مخبر   ولا قيل : هذا وحده اليوم سالم
فقولوا «لنورالدين» لا فل حده   ولا حكمت فيه الليالى الغواشم
تجهز إلى أرض العدو ولا تهن   وتظهر فتورا إن مضت منك (حازم)
فما مثلها تبدى احتفالا به ولا   يعض عليها للملوك الأباهم
فعندك من ألطاف ربك ما به   علمنا يقينا أنه بك راحم
أعادك حيا بعد ما زعم الورى   بأنك قد لاقيت ما الله حاتم
بوقت أصاب الأرض ما قد أصابها   وحلت بها تلك الدواهى العظائم
وخيم جيش الكفر فى أرض شيزر   فسيقت سبايا واستحلت محارم
فقم واشكر الله الكريم بنهضة   إليهم فشكر الله للخلق لازم
فنحن على ما قد عهدت نروعهم   ونحلف جهدا أننا لا نسالم
وغاراتنا ليست تفتر عنهم   وليس ينجى القوم منا الهزائم
فأسطولنا أضعاف ما كان سائرا   إليهم فلا حصن لهم منه عاصم(١)

(١) الروضتين ج ١ ص ١١٥ .

ومرة أخرى يرسل الملك الصالح إلى أسامة :

يا سيدا يسمو بهمـ ... ـته إلى الرتب العليه
أنت الصديق وإن بعد ... ت وصاحب الشيم الرضيه
يهنيك أن جيوشنا ... فعلت فعال الجاهليه
سارت إلى الأعداء من ... أبطالها ماتتا سريه
فتغير هذى بكرة ... وتعاود الأخرى عشيه
فالويل منها للفرنج ... فقد لقوا جهد البليه
جاءت رءوسهم تلوح ... على رءوس السمهرية(١)

وفى قصيدة للشاعر ابن الصياد حديث عن موقعة بين الملك الصالح والصليبيين وعن قتل مقدم خيل الفرنج الذى سماه ابن الصياد « بأرناط » ، واسمه الصحيح « رينولد » Renauld .

قال ابن الصياد :

عن سيف دين الله سل « أرناطا » ... حيث المنية كأسها يتعاطى
والمشرفية قد حكت فى جيشه ... فى العل والنهل القطا الفراطا
قد سام طير الكفر منه منسرا ... أشغى وعاين مخلبا عطاطا
هو ملبس جيش العدا فى الحرب من ... حلل النجيع مجاسدا ورياطا
لجياده تشكو مزاحمة القنا ... وترد خرصان الرماح سياطا
هو فارس الإسلام يحفظ بالظبا ... من دينه الأطراف والأوساطا
كم قد أثار من الأسنة أنجما ... لما أثار من العجاج عطاطا
فتخاله ملكا رمى بشهابه ... فى الروع شيطان الحروب نشاطا(٢)

ويحدثنا عمارة اليمنى فى النكت أن فى وزارة الملك الصالح غزا الصليبيون مصر ووصلوا إلى إقليم الحوف ، فأرسل الوزير الجيوش بقيادة ابنه العادل الناصر خلفهم ، وطاردهم إلى أبى عروق من إقليم فلسطين ، وعاد بجيوشه منتصرا إلى بلبيس ، ففرق فى الجيش مالا كثيرا ، وخلع على الأعيان . ويذكر عمارة أن له ولغيره من شعراء مصر شعرا فى هذه الموقعة ، ولكن لم يصل إلينا من هذا الشعر إلا مقطوعة من قصيدة لعمارة منها قوله :

(١) الروضتين ج ١ ص ١١٦ . (٢) الخريدة ورقة ٦٧ .

أنت الذى يعقد الإسلام خنصره ... عليه إن جل خطب أو طرا وطر
متوج تشرق الدنيا بطلعته ... وتخجل الشمس مهما لاح والقمر
إذا أقامت على ثغر صوارمه ... فللنوائب عن سكانه سفر

ومنها قوله :

أغاث أعمال « بلبيس » وأمنها ... من بعد ما غالها الإشفاق والحذر
وحين أبليت عذرا فى اللحاق بهم ... والنصر يقسم لا فاتوك والظفر
وقال : عزمك لما أن ألح ولم ... تلح له منهم عين ولا أثر
إلا ينج منها « أبو نصر » فمن قدر ... نجا وكم قدرة قد عاقها القدر
وعدت نحو مقر العزم فى عصب ... يفنى بها الأكثران : الرمل والمطر
وللصوارم فى أجفانها أسف ... تكاد من حره الأجفان تستعر(١)

هذا الشاعر الذى مدح الوزير بانتصاره على الصليبيين يحدثنا أن ابن الوزير نجا من هذه الموقعة (عن قدر) ، فهذا البيت إنما يدل على أن الحرب بين الفريقين كانت عسيرة شاقة كاد يقتل فيها ابن الوزير ، ولكن القدر فقط هو الذى أنجاه من خطر محقق . ومع ذلك فقد وصلت إلينا قصيدة أخرى من شعر عمارة فى مدح الملك الصالح ، وفيها ذكر لهذه الموقعة ، منها قوله :

تيقنت الإفرنج أنك إن ترد ... ديارهم لم ينجهم منك مهرب
وخافتك إن لم تعطها الأمن منعما ... فجاءتك يا ليث الشرى تتغلب
وأهدوا رجال السلم آلة حربهم ... ومن بعض ما أهدوا مجن ومقلب
وذلك فأل صادق أن عزمهم ... بسيفك يا سيف الهدى سوف يسلب(٢)

وهذه الموقعة هى إحدى الغلطات الثلاث الذى كان يعدها الصالح نفسه ، إذ يروى ابن خلكان أن ثالث هذه الغلطات خروج الملك الصالح إلى بلبيس بالعساكر ورجوعه بعد أن أنفق فيهم أكثر من مائتى ألف دينار ، حيث لم يتم زحفه إلى بلاد الشام ويفتح بيت المقدس ويستأصل شأفة الفرنج (٣) . وفى هذه الموقعة نفسها قال عمارة أيضا فى مدح الملك الناصر بن الصالح :

(١) النكت ص ٥٤ وما بعدها و ص ٢٤٧ . (٢) المصدر نفسه ص ١٧٦ .
(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٢٢٠ .

رأيتك لم تقنع بمنصبك الذى ... علا فنجوم الأفق عنه سفال
فباشرت مكروه الوغى فى مواطن ... حرام المنايا بينهن حلال
وهل يفخر الصمصام إلا بقطعه ... وإن راق منه جوهر وصقال
كأنك خلت السلم نقصا على العلى ... وليس لها غير القتال كمال
ولما تشكى الخوف حيفا على الهدى ... وكاد الهوى يسطو عليه ضلال
نهضت إلى الإفرنج تزجى كتائبا ... تغل بها أعناقهم وتغال
فولوا وقد أبقت عليهم نفوسهم ... سباسب حالت دونهم ورمال
وأتبعتهم ركضا على كل سابح ... إذا الريح كلت لم يصبه كلال(١)

والمؤرخون يذكرون قصة شاور واستنجاده بالصليبيين ضد أسد الدين شيركوه وصلاح الدين ، فى موقعة بلبيس التى انتصر فيها شاور والفرنج قال عمارة يمدح شاور ويعرض بالغز :

ولقد دفعت إلى ثلاث نوائب ... كادت تشيب لهولها ولدانها
من معشر تغدو السماحة والندى ... فيما حوت أجفانها وجفانها
فعصابة غــزية غادرتها ... وأجل ما ترجوه منك أمانها
وعصابة رومية عاشرتها ... فتأدبت وتهذبت أذهانها
وعصابة مصرية بك أصبحت ... فوق البرية راجحا ميزانها
وتداركت بلبيس منك عواطف ... يسع الزمان وأهله غفرانها
أقسمت لولا حسن رأيك لاغتدى ... الناقوس فى بلبيس وهو أذانها
بلد لو انهدمت قواعد سوره ... بيد النصارى لم يعد بنيانها
أبقيتها للمسلمين وإنه ... ليعز بعد خرابها عمرانها(٢)

فهو هنا يمدح شاور باتفاقه مع الصليبيين ، ولولا هذا الاتفاق لاستولى الفرنج على بلبيس ، ولدثر الدين فى هـذا البلد ، ولذلك لم يهج الصليبيين فى هذا الشعر وإن كان عرض بهم تعريضا خفيفا ، ونستطيع أن نعرف رأى عمارة فى الإفرنج إذا قرأنا مقطوعة أخرى له لم يقصد بها مدح الوزير ، بل هى أبيات صادرة عن عاطفة الشاعر نحو هذه الأحداث والنكبات التى جرتها سياسة شاور على البلاد ، فهو يقول :

(١) النكت ص ٣٠٧ . (٢) النكت ص ٣٦٩

يا رب إنى أرى مصرا قد انتهت ... لها عيون الأعادى بعد رقدتها
فاجعل بها ملة الإسلام باقية ... واحرس عقود الهدى من حل عقدتها
وهب لنا منك عونا نستجير به ... من فتنة يتلظى جمر وقدتها(١)

وفى مديحه لصلاح الدين وذكر وقعة الجسر بالجيزة التى انتصر فيها على الصليبيين بقيادة مرى، يقول عمارة :

حمى الله منكم عزمــة أسدية ... فككتم بها الإسلام من ربقة الكفر
لئن نصبوا فى البر جسرا فإنكم ... عبرتم ببحر من حديد على الجسر
طريق تقارعتم عليها مع العدى ... ففزتم بها والصخر يقرع بالصخر
أخذتم على الإفرنج كل ثنية ... وقلتم لأيدى الخيل مرى على «مرى»
وأزعجه من مصر خوف يلزه ... كما لز مهزوم من الليل بالفجر(٢)

وهكذا نرى شعراء مصر يشيدون بالحروب الصليبية التى شغلت العالم الإسلامى عدة قرون ، ولم ير العصر الفاطمى منها سوى زهاء نصف قرن فقط ، ومع ذلك فإن هذه الحروب جعلت الشعراء المصريين ينشدون أشعارا حماسية يمدحون شجاعة جنود مصر الذين أخذوا على عاتقهم طرد الصليبيين من فلسطين ، على حين بقيت الدويلات الإسلامية تنظر إلى هذه الحروب نظرة عدم اكتراث ، وقد سجل المصريون فى هـذه الحروب جهودا كثيرة سجلها الشعراء الفاطميون فى شعرهم ، كما سجلها شعراء الدولة الأيوبية وشعراء المماليك فى العصور التالية لهذا العصر الذى نؤرخه الآن .

(١) النكت ص ١٩٠ (٢) النكت ص ٢٧٠

الفصل الخامس

الفكاهة والمجون

رأينا فى كتاب « أدب مصر الإسلامية » كيف تطورت الحياة فى مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين ، وكيف كثر المجون واللهو بتأثير التطور الذى حل بالبلاد ، ولكن مصر فى العصر الفاطمى تطورت تطورا آخر ، فقد كانت حياة المرح واللهو على أشدها بالرغم مما ألم بمصر فى هذا العصر من كوارث ونكبات ، وكانت أعياد الفاطميين ومواسمهم التى ابتدعوها تزيد فى لهو الشعب ومجونه . أضف إلى ذلك ما كان يحدث فى مصر فى أعياد الأقباط التى شارك المسلمون فى إحيائها والاحتفال بها ، فقد كان الفاطميون يحتفلون « بعيد الميلاد » ويفرقون فيه على أرباب الرسوم من الأستاذين المحنكين والأمراء المطوقين وسائر الموالى من الكتاب وغيرهم الجامات من الحلاوة القاهرية والمثارد التى فيها السميد وقربات الجلاب وطافير الزلابية والسمك المعروف بالبورى[1] . وينقل المقريزى عن المسبحى أنه فى سنة ٣٨٨ كان الغطاس فضربت الخيام والمضارب والأسرة فى عدة مواضع على شاطىء النيل ، ونصبت أسرة للرئيس فهد بن إبراهيم النصرانى كاتب الأستاذ برجوان ، وأوقدت له الشموع والمشاعل ، وحضر المغنون والملهون وجلس مع أهله يشرب إلى أن كان وقت الغطاس فغطس وانصرف[2] . وقال : إنه فى سنة ٤١٥ هـ نزل أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين الله بقصر جده العزيز بالله فى مصر لنظر الغطاس ومعه الحرم ، وأمر أمير المؤمنين بأن توقد النار والمشاعل فى الليل وكان وقيدا كثيرا[3] . ونقل المقريزى عن ابن المأمون أنه فى غطاس سنة ٥٢٧ هـ فرق أهل الدولة ما جرت به العادة لأهل الرسوم[4] . وفى خميس العدس كانت تضرب خمسمائة دينار فتعمل خراريب تفرق فى أهل الدولة [5]

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٥ . (٢) المصدر نفسه ص ٢٧ . (٣) المصدر نفسه .
(٤) المصدر نفسه . (٥) المصدر نفسه .

وفى يوم النوروز كان اللعب بالماء ووقود النيران ، ويقول ابن زولاق فى نوروز سنة ٣٦٤ هـ : وطاف أهل الأسواق وعملوا فيه وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم ولعبوا ثلاثة أيام أظهروا فيها السماجات[1] . ويروى ابن المأمون أنه حل موسم النوروز فى سنة ٥٢٧ هـ ووصلت الكسوة المختصة بالنوروز من الطراز من ثغر الإسكندرية مع ما يتبعها من الآلات المذهبة والحريرى والسوادج ، وأطلق جميع ما هو مستقر من الكسوات الرجالية والنسائية والعين والورق وجميع الأصناف المختصة بالموسم[3]. فالفاطميون كانوا يشاركون المسيحيين فى أعيادهم ومواسمهم ويحتفلون بذلك احتفالا يكاد يكون رسميا ، فلا شك أن الشعب كان يحتفل بذلك كله ؛ مع ما كان للمسلمين من أعياد خاصة بهم . كما كان فى مصر أيام ليست دينية ، إنما هى مصرية يساهم فيها المسلمون وغير المسلمين مثل يوم فتح الخليج مثلا ، وقد وصف الرحالة ناصرى خسرو ما شاهده فى هذا اليوم ، وختم حديثه بقوله : « وفى هذا اليوم يخرج جميع سكان مصر والقاهرة للتفرج على فتح الخليج وتجرى فيه أنواع الألعاب العجيبة »[3] . ووصف المسبحى ما كان فى يوم الثلاثاء لخمس بقين من المحرم سنة خمس عشرة وأربعمائة وكان ثالث الفتح « أى فتح الخليج » بقوله : فاجتمع بقنطرة المقس عند كنيسة المقس من النصارى والمسلمين فى الخيام المنصوبة وغيرها خلق كثير للأكل والشرب واللهو ، ولم يزالوا هناك إلى أن انقضى ذلك اليوم ، وركب أمير المؤمنين — يعنى الظاهر — فى مركبه إلى المقس وعليه عمامة مشرب مفوطة بسواد وثوب ديبقى من شكل العمامة ، ودار هناك طويلا وعاد إلى قصره سالما ، وشوهد من سكر النساء وتهتكهن وحملهن فى قفاف الحمالين سكارى واجتماعهن مع الرجال أمر يقبح ذكره[4] . فكل هذه الأعياد التى كانت فى العصر الفاطمى أدت بمصر إلى الاندفاع نحو حياة كلها فرح وحبور . أضف إلى ذلك كله ما كان عليه ثراء مصر فى هذا العصر وبذخ الخلفاء والأمراء . وقد لمس ناصرى خسرو هذا الثراء فذكر أن أهل مدينة مصر (ويقصد الفسطاط) كانوا فى غنى عظيم حين كنت هناك[5] ، فهذا الثراء جعل المصريين يتأنقون فى ملبسهم ومسكنهم

(١) المصدر نفسه ص ٣١ . (٢) المصدر نفسه .
(٣) سفر نامه (ترجمة يحيى الخشاب) ص ٥٥ . (٤) الخطط ج ٣ ص ٢٣٥
(٥) سفر نامه ص ٦٢ .

وما كلهم ، ويتباهون بذلك كله ويتنافسون عليه. وقد حدثنا المؤرخون عن ذلك كله بصور مختلفة هى أقرب إلى الصور التى تحدثنا عنها القصص. ومع ذلك فإن ما بقى لنا من آثار الفاطميين يدل على أن ما ذكره المؤرخون لم يكن من وحى الخيال إنما كان من الواقع المشاهد (١) .

كانت هذه الحياة المرحة فى مصر وثراء المصريين من أشد العوامل على تطور الحياة فى مصر الفاطمية ، وذلك أن حياة اللهو انتشرت واشتد تيارها ، فخاض غمارها المصريون ، وقد وصف «أبو الصلت» أخلاق المصريين التى شاهدها فقال: «أما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات والانهماك فى اللذات» (٢) .

وفى حديث المقريزى عن خزانة البنود قال عن الظاهر لإعزاز دين الله: «وكانت أيام الظاهر هذا سكونا وطمأنينة، وكان مشتغلا بالأكل والشرب والنزه وسماع الأغانى، وفى زمانه تأنق أهل مصر والقاهرة فى اتخاذ الأغانى والرقاصات، وبلغ من ذلك المبالغ العجيبة (٣)» .

ويحدثنا المقريزى أيضا أن الحاكم ألزم الناس بالوقيد ، فاستكثروا منه فى الشوارع والأزقة ، وزينت القياسر والأسواق بأنواع الزينة ، وصار الناس فى القاهرة ومصر طول الليل فى بيع وشراء ، وأكثروا أيضا من وقود الشموع العظيمة ، وخرج سائر الناس بالليل للتفرج ، وغلب النساء الرجال على الخروج بالليل ، وعظم الازدحام فى الشوارع والطرقات ، وأظهر الناس اللهو والغناء وشرب المسكرات فى الحوانيت وبالشوارع من أول المحرم سنة إحدى وتسعين وثلثمائة (٤) .

ويروى المقريزى: قال إبراهيم بن الرقيق فى تاريخه : حدثنى محمد الكهينى ، وكان أديبا فاضلا قد سافر ورأى بلدان الشرق ، قال: ما رأيت قط أجمل من أيام النوروز والغطاس والميلاد والمهرجان وعيد الشعانين وغير ذلك من أيام اللهو التى كانوا يسخون فيها بأموالهم رغبة فى القصف والعزف ، وذلك أنه لا يبقى صغير ولا كبير إلا خرج إلى بركة الحبش متنزها ، فيضربون عليها المضارب

(١) راجع كتاب كنوز الفاطميين للدكتور زكى حسن
(٢) الخطط ج ١ ص ٧٧ (٣) الخطط ج ٢ ص ٢٧٨
(٤) الخطط ج ٣ص١٧٦

الجليلة والسرادقات والقباب والشراعات ، ويخرجون بالأهل والولد ، ومنهم من يخرج بالقينات المسمعات المماليك والمحررات ، فيأكلون ويشربون ويسمعون ويتفكهون وينعمون (١) .

وظهر أثر ذلك كله فى الشعر ، وكان شعر مصر الفاطمية أصدق مرآة لهذه الحياة الصاخبة الماجنة ، فوصف الشعراء مجالس الشراب واللهو ، وتغزلوا بالمذكر حيناً وبالمؤنث حيناً آخر ، وتهادوا الجوارى والغلمان ، ودعا بعضهم بعضا للاستمتاع بلحظات يختلسونها للهوهم ومجونهم ، وخرجوا إلى الأديرة ينتهبون فيها اللذات ، واشترك الشعراء فى ذلك كله حتى لا نستطيع أن نجد شاعرا لم يأخذ بنصيب من حياة المجون ، إلا إذا استثنينا المؤيد فى الدين الذى لم يعرف عنه فحش فى القول ، ولم يسهم فى هذه الحياة مثل غيره من الشعراء ، بل هو القائل:

قد شيبت منى العذار العفه   مازلت من ميزانها فى الكفه
ما شاق قلبى وتر أو زهر   ولم تدب فى عروقى خمر
عبادتى كل الزمان عادتى   ماملكت يد الهوى مقادتى (٢)

أما غير المؤيد من الشعراء فقد كانوا جميعا يشتركون فى المجون واللهو . وهاهو ذا الشاعر أبو الرقعمق يعرض فى مجونه بالمذاهب الدينية ، ويصرح بأجزاء من الجسم فى قصيدة يمدح بها الإمام العزيز :

أظن ودادها من غير نيته   وهل هى فيه إلا مدعيه
فتاة لا تمل عذاب قلبى   ولا تخليه وقتا من أذيه
ولا ذنب لى إلا التوافى   لمن فى الحب ليست بالوفيه
ويعجبنى التمنع والتشاجى   من الخود الممنعة الشجيه
فوا أسفا على حر يعزى   أخا رزء على عظم الرزيه
وذلك أن أيرى فيه رطل   وما فى حرها إلا وقيه
ومن بعث المدام فليس بد   ولا تك غير بكر بابليه
فثم هناك حر شافعى   عظيم الشأن واست مالكيه
ونفسى غير مائلة إليها   لأحوال مقبحة بذيه

(١) الخطط ج ٣ ص ٢٥١ .
(٢) القصيدة المسمطة من ديوان المؤيد فى الدين .

وجملة أمرنا أني بغي ... وأيضا فهي فاجرة بغيه
أحب دنوها وتحب قربي ... وهذا لا يكون بلا بليه
وما لاقيتها إلا تلاق ... مبالاتي بإسقاط التقيه
وهذا الرأي لا رأي سواه ... فلا تحفل بأقوال الرعيه
ولا عيش سوى تقليب بظر ... وثقب من صبي او صبيه
على أني أقول بكل شيء ... سوى نيك العجوز القرملية
ولا ألوي على أحد يراني ... بعين النقص والحال الدنيه
ولكني أقول بمدح قرم ... تفرد بالعلا دون البريه (١)

ويستمر أبو الرقعمق في مدح العزيز بعد أن قدم للمدح بهذا المجون ، وربما كان أبو الرقعمق من أشد الشعراء إمعانا في الخلاعة والفحش في الشعر ، فقد اتخذ لنفسه هذه الطريقة العجيبة في الشعر حتى عرفت به ، فهو يشبه ابن الحجاج في هذه الناحية ، ولكن أبا الرقعمق إذا شاء أن يترك هذه الحماقات في الشعر ، وأن يعود إلى الجد ، فهو يأتي بشعر جيد لا يأباه السمع ولا يزوي عنه أهل الفضل ، فهو يقول مثلا :

ليلي بتنيس ليل الخائف العاني ... تفني الليالي وليلي ليس بالفاني
أقول إذ لج ليلي في تطاوله ... ياليل أنت وطول الدهر سيان
لم يكف أني في تنيس مطرح ... مخيم بين أشجان وأحزان
حتى بليت بفقدان المنام فما ... للنوم إذ بعدوا عهد بأجفاني
ما صاعد البرق من تلقاء أرضهم ... إلا تذكرت أيامي بنعمان
ولا حننت إلى نجران من طرب ... إلا تكنفني شوق لنجران
لا تكذبن فما مصر وإن بعدت ... إلا مواطن أطرابي وأشجاني
ليالي النيل لا أنساك ما هتفت ... ورق الحمام على دوح وأغصان
أصبو إلى هفوات فيك لي سلفت ... قطعتهن وعين الدهر ترعاني
مع سادة نجب غر غطارفة ... في ذروة المجد من ذهل بن شيبان
وذي دلال إذا ما شئت أنشدني ... وإن أردت غناء منه غناني

(١) اليتيمة ج ١ ص ٢٤١ .

سقيته وسقاني فضل ريقته ... وجاد لي طرفه عفواً ومناني
مازلت أجني بلحظي ورد وجنته ... وأستغير على تفاح لبنان
ما زال يأخذها صفراء صافية ... حتى توسد يسراه وخلاني
الله يعلم ما بي من صبابته ... وما عليّ جناه طرفه الجاني
كم بالجزيرة من يوم نعمت به ... على تصاحب نايات وعيدان
سقيا لليلتنا بالدير بين ربا ... باتت تجود عليها سحب نيسان
والطل منحدر والروض مبتسم ... على أصفر فاقع أو أحمر قاني
والنرجس الغض منهل مدامعه ... كأن أجفانه أجفان وسنان (١)

فإذا قارنا بين هذه القصيدة وبين قصائده الأخرى التي يظهر فيها الحمق نجد أن الشاعر كان له لونان من الشعر ، ذلك اللون الذي يظهر فيه مجونه وحماقته ، ولون آخر هو الذي يظهر فيه الجد ، ولكن أبا الرقعمق عرف بالمجون أكثر مما عرف بالجد ، وقد ذكرنا لونا من شعره الماجن في مقدمة المدح ، وله في ذلك عدة قصائد منها القصيدة الرائية المعروفة التي مطلعها :

كتب الحصير إلى السرير ... أن الفصيل ابن البعير

وفي أشعاره الماجنة يتحدث الشاعر عن تصافع الشعراء الماجنين ، وهذه ظاهرة بدأت في الشعر المصري في العصر الإخشيدي واستمرت إلى أوائل العصر الفاطمي ، فقد كان الشعراء يذكرون في قصائدهم هذا اللون من المزاح بينهم ويتنادرون به ، وكان أكثرهم ذكراً للتصافع هو الشاعر كشاجم وأبو الرقعمق ، فأبو الرقعمق يقول في إحدى قصائده يذكر التصافع بين الشعراء الماجنين :

ولكم بتنا على طرب ... ورءوس القوم تستلب
وكئوس الصفع دائرة ... ملؤها اللذات والطرب
وانتخبناها وهامهم ... وأكف القوم تصطخب
وكأن الصفع بينهم ... شعل النيران تلتهب (٢)

ويقول في قصيدة أخرى :

ولا أترك في مصر ... لذكر الحمق من أثر

(١) اليتيمة ٢٦٠ . (٢) المصدر السابق ص ٢٤٦ .

فمن بعدى ليطيبـه   فى النظم وفى النثر
ومن يلعب فى الرأس   من العصر إلى العصر
ومن من شدة الصفع   له رأس بلا شعر
ومن هامتـه أقوى   على الصفع من الصخر
إذا أمرانى الصفع   تجشأت من الدبر
وهيهات ترى صفعاً   لغيرى أبداً يمرى (١)

ويقول فى قصيدته الرائية المشهورة :

لا تنكرن حماقاتى لأن بها   لواء حمقى فى الآفاق منشور
ولست أبغى بها خلا ولا بدلا   هيهات غيرى بترك الحمق معذور
لاعيب فى سوى أنى إذا طربوا   وقد حضرت يرى فى الرأس تفجير
والأخدعان فما زالا يرى بهما   لكثرة المزح توريم وتحمير
وذا الفعال مع الأعراض مطرد   صفع ونقع وتيسير وتعسير (٢)

فالشاعر فى هذه المقطوعات يظهر حماقاته ومجونه ؛ وهذا المزاح الثقيل الذى كان بين الماجنين ظهر فى العصر الأخشيدى وأوائل العصر الفاطمى ، ويخيل إلى أن هذا المزاح أتى به الشعراء الوافدون على مصر ، فكشاجم أحد أبطال التصافع لم يكن مصريا ، وأبو الرقعمق لم يكن مصريا ، ولم أجد فى شعر المصريين الذى وصلنا هذا النوع من المزاح ، ولكن كشاجم وأبا الرقعمق تحدثا عنه فى أشعارهما التى أنشداها فى مصر ، ولعلهما كانا يعبثان فى شعرهما بذكر هذا المزاح ، وإذا ذكر شعراء مصر الصفع فإنما يكون ذلك فى الهجاء ، فالشاعر صالح بن مؤنس الذى كان يعيش فى عصر أبى الرقعمق هجا زميله الشاعر ابن أبى الجوع فقال :

وقال قوم قد غدا شاعرا   والشعر لا يعرف المفحم
فقلت لا لوم على مثله   من أخذ الصفع قفاه حمى
أنا الذى ألبسته حسرة   بما جرى من ذكره فى فمى
والله لا يجهل من بعدها   وفى قفاه للردى ميسمى
أبين به من ميسم واضح   يضىء كالغرة فى الأدهم (٣)

(١) اليتيمة ج ١ ص ٢٤٥ .   (٢) المصدر نفسه ص ٢٤٩ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢١٠ .

فالصفع فى هذه الأبيات ليس للمزاح كالذى رأيناه فى شعر كشاجم أو فى شعر أبى الرقعمق ، إنما هو فى معرض الهجاء .

كان أبو الرقعمق أستاذا لمدرسة فى شعر الهزل والمجون ، وسنرى أن صريع الدلاء وابن مكنسة وغيرهما ساروا على نهجه .

وفى هذا العصر الذى كان فيه أبو الرقعمق ، عاش عدة شعراء مثلوا فى مصر جماعة أبى نواس فى العراق ، فقد كان هؤلاء الشعراء يجتمعون وينشدون أشعارهم ويتبارون فى النشيد وهم يقصفون ويلهون ، فجماعة كانت تضم صالح بن رشدين وعبد الله بن أبى الجوع ومحمد بن الحسن اليمنى والحسن بن محمد الشهواجى وصالح ابن على بن مؤنس وابن أبى الزلازل وأبا تميم سليمان بن جعفر وأحمد بن عبد الله ابن أبى العصام وغيرهم من شعراء ذلك العصر . وكانت هذه الجماعة على صفاء أحيانا وفى خصام أحيانا أخرى . وكان أكثر هؤلاء الشعراء يتغزلون فى صالح ابن رشدين ، أحد أئمة الكتاب فى الديوان ، ولقى المتنبى فى مصر ، وروى شعره ، كما كان شاعرا بارعا جيد المعانى ، ففيه يقول صالح بن مؤنس :

بك يا صالح أرضى   عن زمانى حين أسخط
فأدم لى الوصل إنى   بك فى العالم أغبط
أنت والرحمن مذ كنـت   على قلبى مسلط
ومصيب أنا فى الحـب   ومن بعدى يغلط
يا جواداً فى لهاه   بنداه أتبسط (١)

وفيه يقول محمد بن الحسن اليمنى :

فاضح الغصن النضير   كاسف البدر المنير
أنت عذرى فى حياتى   ومماتى ونشورى
ما سرور غاب عنه   (صالح) لى بسرور (٢)

وأنشد فيه ابن أبى الجوع :

يا أطيب الناس ريحا   وأطيب الناس راحا
ومن به أتصدى الأ   طراب والأفراحا

(١) المصدر السابق ص ٣٠٧ .   (٢) اليتيمة ص ٣١٣ .

هات اسقنى ، أو ترانى   لا أعرف الأقداحا
واحفظ على فؤادى   من أن يطير ارتياحا
لو كنت كاسمك يا صا   لح ، اعتمدت الصلاحا
لكن أبى الله إلا   أن تفسد الأرواحا (١)

ويطول بى الأمر لو ذكرت كل الأشعار التى بقيت لهذه الجماعة فى صالح ابن رشدين ، وكان هؤلاء الشعراء يقصفون ويلهون ويدعو بعضهم بعضا على الشراب والقصف وسماع الموسيقى والغناء ، ويتهادون الجوارى . وقد روى الثعالبى أن القائد أبا تميم سليمان بن جعفر كتب إلى صالح بن رشدين رسالة يستدعيه فيها إلى الشراب فامتنع عليه ، وكتب له هذه الأبيات :

يا أيها القائد الجليل ومن   أصبح بالمكرمات يفتخر
آليت لا أشرب المدام وإن   كانت ذنوب المدام تغتفر
يكفى أخا العقل أن سورتها   تجنى على عقله ويعتذر

فكتب إليه القائد أبو تميم :

أبا على حاشاك يا أملى   من أن أراك الغداة تعتذر
قلبى إذا غبت ساعة قلق   يكاد شوقا إليك يستعر
فسر إلينا فوقتنا حسن   ساعد فيه السحاب والمطر (٢)

ويروى أيضا أن ابن رشدين قال : حضرت عند القائد أبى تميم فى ضيعة له فلما عمل فينا الشراب نظرت إلى جارية له تسمى عبدة ذاهبة جائية ، فحملنى النبيذ أن أخذت رقعة وكتبت فيها إليه :

صالح لا يزال يطلب عبده   من كريم يصفى الأخلاء وده
قد بثثت الغداة وجدى وحبى   من ولى يولى لمولاه مجده
فإذا شئت أن أرى لك عبداً   فتفضل أبا تميم بعبده

فقرأها ، وأمسك ، وتماديت فى الشرب معه ، ثم نهضت إلى منزل أنزلنى فيه بقربه ، فلما استقر بى أنفذ لى الجارية ومعها درج فيه طيب كثير وعليها ثياب رفيعة حسنة ورقعة فيها شعر :

قد بعثنا أبا على بعبده   وقضينا بذاك حق المودة

(١) المصدر السابق ص ٣١٤ .   (٢) المصدر السابق ص ٣١٩ .

وحمدناك إذ خطبت إلينا   أسأل الله أن يهنيك حمده
فاتخذها فأنت أكرم كفء   وهى ما عشت كاسمها لك عبده (١)

ويروى ابن سعيد فى المغرب أن أبا على أحمد بن صدقة الكاتب أرسل إلى صالح بن رشدين :

بالله يا صالح قم مسرعا   إلى عقار ادركت تبعاً
وساعد الليلة فى شربها   وخذ من السكر لها مصرعا
فقد بذلنا لك أرواحنا   كما رأيناك لها موضعا

فجاوبه صالح :

ياسيدا يسمع ما قد دعا   خذنى كما ألزمته مسرعا
منادما ماشئت أعمالها   كأسا ترينا للسنا مطلعا
نشربها حتى ترى الهم لا   يهدى ولا يدرى لنا موضعا (٢)

ومن الجماعات التى كانت فى أوائل العصر الفاطمى جماعة الأمير تميم والرسى والعقيلى وغيرهم ، وكلهم عرف بالمجون والفحش ، وقد ذكرنا أن المعز منع الإمامة من ابنه الأكبر الأمير تميم لمجونه وفسقه ، انظر إليه وهو يقول :

وشادن شرط الصبا مرهف   قرة عين من تمناه
كأنما الحسن رأى وجهه   إليه محتاجا فأغناه
وانتشرت بالغنج ألفاظه   وانكسرت باللحظ جفناه
ولاح برق الثغر من مبسم   المسك والقهوة مجناه
وبتل الأرداف فاستثقلت   وأرهف الخصر وأضناه
زرنا به منزل خمارة   والليل فى صبغ برياه
وقد علا الأفق هلال بدا   كعطفة الحاجب محناه
حتى إذا الخمار أصغت إلى   صحبتنا فى المشى أذناه
قام إلينا عجلا شاغلا   بالراح يمناه ويسراه
ماسل من إبريقه قهوة   أشرق منها ليل مغناه
حتى إذا سمناه فى بيعها   قطب غيظا حين سمناه

(١) المصدر السابق ص ٣٢٠ .   (٢) المغرب ص ٨٧ .

وقال ماأستام بها ماجد … قبلكم فيما علمناه
دونكموها وزنوا مثلها … درا وتبرا ، ووزناه
فغاب عن ألحاظنا ساعة … ثمت وافانا ودناه
فقام بالكأس هضيم الحشى … لولا قتناه لشربناه
كأنه فى كفه حده … لكنها فى السكر عيناه
إذا سقى ندمانه كأسه … ألثمه فاه وغناه
ولم تنسكه غير ألحاظنا … ياكاشحا قد زاد معناه
فإن تداخلك بنا ظنة … فقد على رغمك نكناه
ولم نزل فى بيت خمارها … نشربها شهرا ومثناه
إذا أشاب الصبح رأس الدجى … وهزنا الساقى أجبناه
نحنو إذا نادى إليه كما … يحنو إلى الوالد أبناه
وإن بدا من صاحب بعض ما … يأتى به السكر عذرناه(١)

ثم اقرأ قوله وفيها يذكر مجونه فى دير القصير :

ولى صاحب لا يمرض العقل جهله … ولا تتأذى النفس منه ولا القلب
إذا قلت: «لا» فى قصة لم يقل : «بلى» … وإن قلت: أصبو، قال: لابد أن أصبو
وإن قلت هاك الكأس ، قال مبادرا … ألا هاتها ، طاب التنادم والشرب
سريع إذا لبى ، صبور إذا دعا … يهون عليه فى رضى خله الصعب
غدوت به يوما إلى بيت حانة … وللغيم دمع ما يكف له سكب
وقد نفحت ريح الصبا بمنافس … عبيرية الأنساب طاب لها الترب
فأفضى بها الإدلاج بعد تعسف … إلى زولة شمطاء منزلها رحب
مدثرة ، أما أبوها فقيصر … وحسبك ملك جده قيصر حسب
قصيرية ديرية هرقلية … تقاصر منها الخط واحدودب الصلب
فلما قرعنا بابها ابتدرت لنا … وفى يدها نجم يحيط به قعب
فقالت لنا : أهلا وسهلا ومرحبا … وقل لكم منى البشاشة والرحب
من انتم ؟ فقلنا عصبة من بنى الصبا … دعاهم إليك القصف والعزف واللعب
فقالت : على اسم الله حطوا رحالكم … فعندى الفتاة الرود والأمرد الرطب

(١) ديوان الأمير تميم (مخطوط) .

وراح نفى اقذاءها طول عمرها … فجاءت كما يذرى مدامعه الصب
أرق إذا رقرقتها فى زجاجة … وألطف من نفس تداولها الحب
كأن سراجا فى ترائب دنها … إذا أقبلت من كيلة الدن تنصب
فقلنا لها : كيلى لنا وتعجلى … ولا يك فيما قلت خلف ولا كذب
فجاءت تجر الزق نحوى كأنه … على الأرض زنجى بلا هامة يحبو
فلما مزجناها بدا فوق رأسها … حباب كما ينساب من سلكه الحب
وطافت بها هيفاء مهضومة الحشا … ملاطفها سلم وألحاظها حرب
تمايل ردفاها وأدرج خصرها … ليانا ولطفا مثل ماتدرج الكتب
شكا كشحها الزنار مما يجيعه … وضاق بها الخلخال وامتلأ القلب
أغار على أعطافها كلما انثنت … مع الكأس، أوقذى ملاحتها الشرب
أحلت لى الصهباء تقبيل وجهها … وما كان قبل السكر فى لثمه عتب
كأنى وقد أضجعتها وعلوتها … من الشكل رفع تحت ضمته نصب
وما فض لامى صادها بجناية … سوى قولها إن المسيح لها رب
فلما أغاظتنى بإظهار كفرها … ذببت عن الإسلام إذ أمكن الذب
وضرجت فخذيها دما بمصمم … تقر له البيض المهندة القضب
فما برحت حتى أنابت وأسلمت … فهل لى فى فتكى بها بعد ذا ذنب؟
أبا حسن ، هات المدامة واسقنى … فقد شاب رأس الشرق واحلولك الغرب
كأن الثريا فى ملاءة فجرها … مصابيح ، إلا أنها قد بدت تخبو
سلام على دير القصير ومرحبا … به فله منى التخصص والقرب
فكم لذة فيه قضيت وغلة … شفيت ولا واش علينا ولا شغب
منازل يستن الصبا فى عراصها … ويعذب فيها ماء ديمته العذب(١)

والأمير تميم هو الذى يقول فى إحدى مقطوعاته :

دع مقال العاذلات … واله عن سعى السعاة
واشرب الراح وشبها … بالثنايا العطرات
وانتقل إن شئت تفا … ح رياض الوجنات
أنا ما بين نداما … ى وراحى وسقاتى

(١) ديوان الأمير تميم (مخطوط) .

ثمل لا أعرف الصحـــو ولا وقت الصلاة
فإذا نومني السكر على تلك الهبات
لم ينبهني سوى حسن مثاني الغانيات
وغناهن سحيراً : « اسقنيها بحياتي »(١)

فهذا الشاعر الماجن لم يتورع عن التهكم بالدين المسيحي طوراً وبالدين الإسلامي طوراً آخر ، حتى يخيل إلينا من شعره الذي وصلنا في المجون أنه رجل عاش للذاته وفجوره ، ولم يفكر إلا في قصفه ولهوه ، حتى إنه في شعره الذي كان يمدح فيه أباه الإمام المعز أو أخاه الإمام العزيز كان يقدم لمدائحه بالغزل حينا وبشعر ماجن حينا آخر ، مع أنه كان يمدح شخصا أخص ما يمتاز به هو صفته الدينية ، ولكن نجد في ديوان تميم بعض قطع في الزهد والنسك لا تقل روعة وصدق إيمان عن شعر اشد الشعراء تمسكا بالدين وأشدهم خوفا من عذاب الآخرة ، فهو يقول مثلا :

يا عجبا للناس كيف اغتدوا   في غفلة عما وراء الممات
لو حاسبوا أنفسهم لم يكن   لهم على أخذ المعاصي ثبات
من شك في الله فذاك الذي   أصيب في تمييزه بالسبات
يحييهم بعد البلى مثل ما   أخرجهم من عدم للحياة(٢)

ويقول مرة أخرى :

أفنيت دهرك تتقي فيه الحوادث والمصائب
ولو اتقيت معاصي الرحمن فيما أنت راكب
لأمنت من نار الجحيم وفي الحياة من المعائب
إن لم تراقب من له حكم عليك فمن تراقب (٣)

فالأمير تميم شأنه في مجونه وزهده شأن كثير من بني البشر الذين يعصون الله، ولكنهم في الوقت نفسه يخافون عقابه ، فهؤلاء لهم شخصيتان : شخصية الماجن اللاهي وشخصية الزاهد المتعبد ، ولكن الأمير تميم كان يغلب عليه المجون حتى عرف به .

(١) ديوان الأمير تميم . (٢) المصدر نفسه . (٣) المصدر نفسه .

أما أصدقاؤه الذين كان يقصف ويلهو معهم ، فلعل أشدهم صلة به هم ولدا الرسي : أبو إسماعيل الرسي وأبو عبد الله الحسين بن إبراهيم الرسي ، وهؤلاء جميعا من الأشراف العلويين الذين وفدوا على مصر قبل العصر الفاطمي واستقروا بها ، وكان لبيت الرسي نقابة الطالبيين في مصر في عهد الطولونيين والإخشيديين ، وكان هؤلاء جميعا من شعراء مصر ، ويتحدث صاحب المغرب عن الحسين بن إبراهيم الرسي فيقول : « وهذا الشريف الرسي هو الذي كان بينه وبين تميم بن المعز مجاوبات بالنظم، وكان يكثر التنزه معه في بساتينه وفرجه » (١)

ويروي الثعالبي للرسي أبياتا في الدعوة إلى اللهو منها :

شم النسيم لذيذاً من قبل ألا تشمه
واصرف عن القلب ما استطعت بالمسرة همه
وغالط الدهر إن كنت لست تملك حكمه
وقد نصحتك جهدي فلا تصم وتكمه (٢)

وهذا الشاعر هو الذي كتب إليه الأمير تميم يصفه بقوله :

يا شاعراً جل عن أن   يقاس به بالشعراء
و يا ظريفا بليغا   أربى على البلغاء
قد جاء شعرك يشفي   قاريه من كل داء
كالقرب بعد بعاد   والوصل بعد جفاء
وأنت للنفس أشهى   من الغنى والبقاء

كان بنو الرسي يكاتبون الأمير تميم بالشعر كلما بعد عنهم . وكانوا يكاتبونه يستهدونه بعض النارنج أو يدعونه إلى الشراب ، ويصرح الأمير تميم في إحدى قصائده إلى الحسين بن ابراهيم الرسي أن الإخاء بينهما قوي وثيق لأنهما متفرعان من أسرة واحدة :

وليس الإخاء الذي بيننا   ببدع إذا ما استوى وانعقد
لأنا إلى والد واحد   تفرعنا حين ندعى وجد

وكان إذا تأخر الرسي عن مكاتبته يرتاع الأمير تميم ويسأل عن سبب هذا الانقطاع ويرسل إليه يعاتبه ، من ذلك قول تميم من قصيدة طويلة :

أبا عبد الإله ووجه ودي   مزال عن أسرته القناع

(١) المغرب ص ٨٠ . (٢) اليتيمة ج ١ ص ٣٣١ .

علام وأنت فيما صح عندى ... صديق ما لخلته انصداع
تأخرت الرسائل منك عنى ... وأبطت عن تعاهدى الرقاع
أسهوا يا ابن إبراهيم عنى ... فأسهو أم أعاتب أم أراع
ومثلك لا يبيع أخا ببخس ... على حال ومثلى لا يباع
ولسنا نلتقى لقيا اجتماع ... فيغنينا عن الكتب اجتماع
ولكن تعرب الأقلام عنا ... إذا افترقت بشخصينا البقاع
وأكثر حظنا فى البعد أنا ... أمنا أن يروعنا الوداع

فأجابه الرسى بقصيدة منها :

عدلت عن المقال إلى السماع ... يضيق عن الجواب مدى ذراعى
أميرى ظلت فى نعم جسام ... رتاع أو شبيهات الرتاع
أعهدى كالسراب لدى الموالى ... وقطر مودتى حلف انقشاع
عتبت على يا ترب المعالى ... لتأخيرى موالاتِ الرقاع
وعادتك التى سلفت إلينا ... ستنسبنى إلى حسن الطباع

ابن وكيع التنيسى

أما هذا الشاعر الماجن فهو أبو محمد الحسن بن على بن أحمد بن محمد المعروف بابن وكيع التنيسى أصله من بغداد ومولده بتنيس(١) ، وذكره الثعالبي فى اليتيمة وقال فى حقه : شاعر بارع وعالم جامع قد برع على أهل زمانه ، فلم يتقدمه أحد فى أوانه ، وله كل بديعة تسحر الأوهام، وتستعبد الأفهام .(٢) ويضيف ابن خلكان إلى ما رواه عن الثعالبي أن لابن وكيع ديوان شعر جيد ، وكتابا بين فيه سرقات أبى الطيب المتنبى سماه « المنصف » ولم يعرف عن ابن وكيع انه اتصل بأمير أو أنه تكسب بشعره ، وكل شعره الذى وصلنا فى وصف الطبيعة وفى المجون ، فمن قوله فى المجون والطبيعة معا :

جانبت بعدك عفتى ووقارى ... وخلعت فى طرق المجون عذارى
ورأيت إيثار الصبابة فى الذى ... تهوى النفوس محق الأعمار
لا تأمرنى بالتستر فى الهوى ... فالعيش أجمع فى ركوب العار
إن التوقر للحياة مكدر ... للعيش فهو تهتك الأستار

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٧ . (٢) اليتيمة ج ١ ص ٢٨١ .

من تابعت أمر المروءة نفسه ... فنيت من الحسرات والأفكار
لا تكثرن على إن أخا الحجا ... برم بقرب الصاحب المهذار
خوفتنى بالنار جهدك دائبا ... ولججت فى الإرهاب والإنذار
خوفى كخوفك غير أنى واثق ... بجميل عفو الواحد القهار
أقررت أنى مذنب ، ومحرم ... تعذيب ذى جرم على الإقرار
انظر إلى زهر الربيع وما جلت ... فيه عليك طرائف الأنوار
أبدت لنا الأمطار فيه بدائعا ... شهدت بحكمة منزل الأمطار
ما شئت للأزهار فى صحرائه ... من درهم بهج ومن دينار
وجواهر لولا تغير حسنها ... جلت عن الأثمان والأخطار
من أبيض يقق وأصفر فاقع ... مثل الشموس قُرن بالأقمار
ناحت لنا الأطيار فيه فأرهجت ... عرس السرور ومأتم الأطيار
دار لو اتصل البقاء لأهلها ... لم يحفلوا بنعيم تلك الدار
فانهض بنا نحو السرور فإنه ... ما زال يسكن حانة الخمار
فاشرب معتقة كأن نسيمها ... مسك تضوعه يد العطار
أخفى دبيبا فى مفاصل شربها ... وأدق إلطافا من المقدار
أحكامها فى العقل إن هى حكمت ... أحكام صرف الدهر فى الأحرار
يرضى على الأقدار شاربها الذى ... ما زال ذا سخط على الأقدار
وكأنها والكأس ساطعة بها ... ذوب تحلل فى عقيق جارى
لا سيما من كف أغيد شادن ... يسبى العقول بطرفه السحار
فضل الغصون لأنها من غرسنا ... عند التأمل وهو غرس البارى
قد غيب الزنار دقة خصره ... حتى ظنناه بلا زنار
متنصّر قويت على أسلامنا ... بالحسن منه حجة الكفار
قالوا : أيصنع مثل هذا ربكم ... ويرى فساد صنيعه بالنار
مع مسمع حلفت له أوتاره ... ألا تنافر رنة المزمار
فطن يحرك كل عضو ساكن ... تحريكه لسواكن الأوتار
شدو إذا الحلماء زار حلومهم ... باعوا بطيب السخف كل وقار
والشدو أحسنه الذى لم يستمع ... إلا أطار العقل كل مطار

ذا العيش لا نعت المهامه والفلا   وسؤال رسم الدار والأحجار
لا فرج الرحمن كربة جاهل   يبكى على الأطلال والآثار(١)

فالشاعر هنا يتهكم بالأديان أيضا ، ولكنه فى الوقت نفسه يظهر قدرة الرحمن فى وصفه لأزهار الطبيعة ، وينعى على الناس أنهم لم يأبهوا بالطبيعة ومناظرها البهيجة ويختم شعره بأن الحياة هى فى المجون والتمتع بالرياض ، وليس فى وصف صحراء وما فيها من رسوم وأطلال ، بل يلعن هؤلاء الذين يكتفون بالبكاء على الأطلال والآثار . فنحن أمام شاعر يختلف عن شعراء المجون الذين رأيناهم من قبل ، لأن المجون عند ابن وكيع مذهب فى الحياة ، فهو ليس بحمق أبى الرقعمق ولا فسق تميم وجماعة صالح بن رشدين ، إنما ابن وكيع يمتاز بهذا اللون من فلسفة خاصة فى الحياة ، فهو يدعو إلى المجون ، ولكن فى الوقت نفسه يتأمل الطبيعة ويفكر فيها طويلا . وقد يستهويه جمالها فتمتلئ بها نفسه ، فيخلع عليها هذه الصفات ، ويصورها بهذه الصور الملونة ، فيزداد سروراً ، فإذا به يدعو إلى الشراب فيصف الخمر ودبيبها فى المفاصل وسلطانها على شاربها ، ويصف الساقى وجماله ومجلس الغناء والموسيقى . تحدث عن كل ذلك فى صور متلاحقة متتابعة وهذه هى الحياة عنده .

وفى قصيدة أخرى يحبذ هذه الحياة التى اختارها لنفسه ، ودعا إليها فهو يقول :

علل فؤادك ، والدنيا أعاليل   لا يشغلنك عن اللهو الأباطيل
ولا يصدنك عن أمر هممت به   من العواذل لا قال ولا قيل
تخير يوميك يوم أنت فيه إذا   ميزت فى الناس محمود ومعزول
وإن اتوك فقالوا كن خليفتنا   فقل لهم إننى عن ذاك مشغول
فإن ذلك أمر مع نفاسته   ونبله بفناء العمر موصول
وارض الخمول فلا يحظى بلذته   إلا امرؤ خامل فى الناس مجهول
ولا تبع عاجل الدنيا بآجل ما   ترجو ، فذلك أمر شأنه الطول
واسفك دم القهوة الصهباء تحى به   روحى فإن دم الصهباء مطلول
يا خائف الإثم فيها حين يشربها   لا تقنطن فعفو الله مأمول
قم فاسقنى النص مما حرموه ولا   تعرض لما كثرت فيه الأقاويل
من قهوة عتقت فى دنها حقبا   كأنها فى سواد الليل قنديل

(١) اليتيمة ج ١ ص ٢٩٦ .

عروس كرم أتت تختال فى حلل   صفر على رأسها للمزج إكليل
كأنها بأكف القوم إذ جليت   ذوب من الذهب الإبريز محلول
فى فتية جعلوا للهو طاعتهم   فما لهم عن طريق اللهو معدول
جليسهم ليس يروى من حديثهم   يوما وبعض حديث القوم مملول
لا كالذين إذا ما كنت حاضرهم   ففى سكوتهم المأمول والسول
ترى مجالسهم مملوءة لجبا   وكل ذاك فضول عنك معزول(١)

وعلى هذا النحو يسير الشاعر فى وصف حياته التى اختارها لنفسه . ولعل قصيدته المربعة التى وردت فى اليتيمة تدلنا على أن الشاعر كان ماجنا خليعا ، وقد شهد على نفسه بأنه « شيخ الملاهى والغزل » وذلك بقوله فى ختام قصيدته المزدوجة التى أنشدها فى وصف فصول السنة :

دونك هذى صفة الزمان   مشروحة فى أحسن التبيان
فأصغ نحو شرحها كى تسمعا   ولا تكن لحقها مضيعا
وارض بتقليدى فيما قلته   فإننى أدرى بما وصفته
ولا تعارضنى فى هذا العمل   فإننى شيخ الملاهى والغزل(٢)

الشريف العقيلى : شاعر الطبيعة والخمر(٣) .

أما الشاعر الذى خلف ابن وكيع التنيسى فى وصف الطبيعة والخمر معا ، فهو الشريف أبو الحسن على بن الحسين بن حيدرة العقيلى من ولد عقيل بن أبى طالب من رجال النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، فهو شاعر حباه الله بسطة فى الرزق ، فلم يكلف نفسه مشقة الوقوف على أبواب الأمراء والخلفاء يستجدى عطاءهم ، ولم يشتغل بخدمة سلطان ، ووهبه الله دقة حس ورقة شعور . فأولع بجمال الطبيعة ، وجرى على لسانه شعراً رقيقا هو ذلك الشعر الذى يصدر عن عاطفة قوية وإحساس عميق . وقد أكثر من تنسيق متنزهاته بجزيرة الفسطاط ، ولا أشك فى أنها كانت آية من آيات عبقريته المحبة للفن والجمال ، كان يزور هذه المتنزهات ويمتع ناظريه بما حوته من أزهار وجداول مياه ، ويشرف على هذه المناظر الممتعة ، ويصف مجالسه هذا بشعر جمع فى ديوان لم يقدر له أن يصل إلينا ،

(١) اليتيمة ج ١ ص ٢٩٤ .   (٢) المصدر نفسه ص ٢٩٠ .
(٣) راجع المغرب فى حلى المغرب ص ٥٢ وما بعدها .

ولكن صاحب المغرب أخذ من ديوان ابن حيدرة العقيلي عدة مقطوعات وقال عن ذلك: «ثم وقع لي ديوان شعره، فنقلت منه مايشهد بعلو قدره، وهو من أئمة المشبهين». فمن قول ابن حيدرة:

ألا رب خمار طرقت فناءه   وزهر الدياجي مثل در مبدد
فقام وقد أقلقته من منامه   إلى الباب يمشي كالأسير المقيد
ينادي: من الساري إلى ومزعجي   فقلت: جواد ذو محل وسؤدد
حسام على الأعداء ماض غراره   وملك لدى ذى الخلة المتودد
أتيتك أطوى الأرض شرقا ومغربا   على ضامر الأحشاء كالبرق أجرد
فقال: وما تبغي؟ فقلت: مدامة   تشتت شمل الهم عن كل مكمد
فقال: نعم عندي سلافة كرمة   كوجنة معشوق الشمائل أغيد
وأبرزها عذراء أحلى من المنى   كشمس الضحى أو كاللظى المتوقد
إذا مزجت أبدت حبابا كأنه   من الدر طوق في غلالة عسجد
فسرت بها وهي الحياة لروضة   تروح عليها الغاديات وتغتدي
كأن البهار الغض فيها مداهن   من التبر صيغت في غصون وبرجد
كأن انتثار القطر والزهر زاهر   على الورد دمع فوق خد مورد
وأطيارها تغني النديم إذا شدت   على الأيك عن شدو الغريض ومعبد
ونرجسها بين الشقائق شاخص   يردد لحظ المستهام المسهد
فما زلت بالإبريق أقبض روحها   من الدن ما بين الربا بتمدد
وأشربها حتى انثنيت مجدلا   صريعا على شدو الحمام المغرد
أنا ذاك أعطى اللهو ماعشت مقودي   وأعدل عن تفنيد كل مفند(١)

وقوله من قصيدة أخرى:

وخمار دخلت عليه وهنا   وجنح الليل مسوّد الجناح
على هوجاء تنشر في الفيافي   لغاما في الغدو وفي الصباح
إذا وخدت تخال الريح تحتي   وإن كانت أخف من الرياح
فقال: من الفتى؟ فأجبت: ضيف   تسربل بالمكارم والسماح

(١) المصدر السابق ص ٦٤ .

فقال: وما تريد فدتك روحي   فقلت له: أرح روحي براح
فقام إلى دنان مترعات   معممة بكافور رباحي
وفض ختام أقدمها فلاحت   على الظلماء أنوار الصباح
وأبرز منه في الإبريق راحا   ألذ إلى الأسير من السراح
كأن حبابها طل تبدى   على ورد جنى في أقاح
وجاء بأهيف عذب الثنايا   دقيق الخصر غرثان الوشاح
تراه يتيه من أدب وظرف   ومن تيه على الغيد الملاح
يقول إذا رآه كل لاح: محبك ما عليه من جناح
هي الأيام تندرج اندراجا   وصرف الدهر ذو وجه وقاح
فصل قصفاً بقصف واغتباقا   بأفراح، ولهواً باصطباح(١)

فى هاتين المقطوعتين من شعر ابن حيدرة العقيلي نستطيع أن ندرك أن الشاعر كان يجمع بين وصف الطبيعة ووصف الشراب، ويأخذ من الطبيعة التي أحبها وهام بها صوراً يصور بها حباب الخمر في الكئوس، فهو في كل شعره الذي انتهى إلينا لا يصف الطبيعة دون أن يتحدث عن الخمر، ولا يتحدث عن الخمر إلا إذا تحدث عن الطبيعة، فهو يقول:

الروض في ديباجة خضراء   والجو في فرجية دكناء
والأرض قد نظم الربيع لجيدها   عقداً من الصفراء والحمراء
والراح ينثر في مذاب عقيقها   درر الفواقع جوهري الماء
فاقصد رضا رضوانها بالشرب إن   أحببت سكنى جنة السراء(٢)

وقد كان شعر هذا الشاعر سببا في أن يتهم المستنصر بالله الفاطمي بالمجانة والفسق، فقد روى المقريزي أنه كان من عادة الخليفة المستنصر بالله أبي تميم معد ابن الظاهر في كل سنة أن يركب على النجب مع النساء والحشم إلى جب عميرة — وهو موضع نزهة — بهيئة أنه خارج إلى الحج على سبيل اللعب والمجانة، وربما حمل معه الخمر في الروايا عوضا عن الماء ويسقيه من معه، وأنشده مرة الشريف ابن حيدرة العقيلي في يوم عرفات:

قم فانحر الراح يوم النحر بالماء   ولا تضح ضحى إلا بصهباء
أدرك حجيج الندامى قبل نفرهم   إلىّ من قصفهم مع كل هيفاء

(١) المغرب ص ٦٠ .
(٢) المصدر نفسه ص ٥٢ .

وعج على مكة الروحاء مبتكراً   فطف بها حول ركن العود والناء

ويضيف المقريزى نقلا عن ابن دحية : نخرج فى ساعته بروايا الخمر تزجى بنغمات حداة الملاهى وتساق، حتى أناخ بعين شمس فى كبكبة من الفساق ، فأقام بهاسوق الفسوق على ساق ، وفى ذلك العام أخذه الله تعالى وأهل مصر بالسنين(١) ولعل القصة وضعت على هذا النحو للطعن على الفاطميين ، فلم نعرف عن المستنصر أنه كان ماجنا فاسقا ، ولم نعرف أن الشريف ابن حيدرة اتصل بإمام من أئمة الفاطميين ، وقد تكون القصة أن المستنصر كان يخرج إلى جب عميره فى عيد الأضحى بقصد النزهة ، واتفق أن سمع ابن دحية بهذا الخبر وسمع أبيات ابن حيدرة السابقة ، فنسج خياله قصة لهو المستنصر وخروجه على هذا النحو الذى وصفه استهزاء بالحج ، ولكن تعصب المؤرخين ضد الفاطميين جعلهم يبدعون فى حياكة مثل هذه القصص عنهم. وهكذا كان شعر ابن حيدرة سببا فى هذه القصة.

وكان ابن حيدرة شاعراً يحب الدعابة ويجيد الفكاهة ، وله عدة مقطوعات منها قوله يداعب من خضب شيبه :

يا من يدلس شيبه بخضابه   إن المدلس لا يزال مريبا
هب ياسمين الشيب عاد بنفسجا   أيعود عرجون القوام قضيبا(٢)

وقال مرة أخرى :

قد هجونا وكان غير صواب   ورمينـا بعنبر فى تراب
وظلمنا الحسام وهو صقيل   إذ جعلناه فى أخس قراب
يا لها غلطة ، وإلا فماذا   ينفع الباز صيده للغراب

وقال :

سألت أبا يوسف حاجة   فقال : أجىء بها فى غد
فقد سلط السل من مطله   فأضنى به جسد الموعد

وبجانب شعره فى المجون والدعابة والطبيعة نرى لابن حيدرة شعراً فى الفخر بنسبه إلى آل أبى طالب ، فهو يقول :

من عندنا أتت الحكم   وبنا تأدبت الأمم
ولنا نوال هاطل   ينهل من سحب الهمم

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٨٣ .   (٢) المغرب ص ٥٥ .

قوم إذا استرفدتهم   تركوك من أهل النعم (١)

ويقول مرة أخرى :

نحن الذين غدت رحا أحسابهم   ولها على قطب الفخار مدار
قوم لغصن نداهم من رفدهم   ورق ومن معروفهم أثمار
من كل وضاح الجبين كأنه   روض خلائقه له أزهار(٢)

كان ابن حيدرة يمتاز بناحية خاصة فى فنه الشعرى هى تلك الناحية التى أشار اليها صاحب المغرب وقال : « إنه كان من أئمة المشبهين » وكأن صاحب المغرب أراد أن الشاعر كان من المكثرين من الزينة اللفظية والبيانية فى شعره ، ولعل هذه الأبيات القليلة التى رويناها له تدلنا على صدق ما ذهب اليه ابن سعيد .

القليوبى الكاتب

ومن يجرى فى حلبة ابن وكيع التنيسى وابن حيدرة العقيلى وغيرهما من شعراء المجون والطبيعة شاعر كان يكتب فى ديوان العزيز بالله الفاطمى والحاكم وتوفى أيام الظاهر ، ويروى ابن شاكر عن ابن سعيد أن ابن الزبير وصفه بالإجادة فى التشبيهات ، وأنه غلا فى ذلك فقال: إن أنصف لم يفضل عليه ابن المعتز(٣) ذلك الشاعر الكاتب هو على بن محمد بن أحمد بن حبيب القليوبى الكاتب . قيل إنه كان أحد الشعراء الذين مدحوا الأئمة والقواد والكتاب ، ولكن مدائحه ضاعت ولم يبق منها شىء ، بل قل إن شعره كله فقد ولم يبق منه إلا عدة أبيات ، منها قوله :

وصافية بات الغلام يديرها   على الشرب فى جنح من الليل أدعج
كأن حباب الماء فى وجناتها   فرائد در فى عقيق مدرج
ولا ضوء إلا من هلال كأنما   تفرق منه الغيم عن نصف دملج
وقد حال دون المشترى من شعاعه   وميض كمثل الزئبق المترجرج
كأن الثريا فى أواخر ليلها   تحيـة ورد فوق زهر بنفسج(٤)

واست أدرى ما الذى حدا بهذا الشاعر إلى أن يذكر أسماء الكواكب ويتحدث عن النجوم، وذلك فى كل المقطوعات التى بقيت لنا من شعره ، ولعل الشاعر

(١) المغرب ص ٧٨ .   (٢) ص ٦٩ .
(٣) فوات الوفيات ج ٢ ص ٦٩   (٤) المصدر نفسه .

كان من المشتغلين بالأرصاد فى عصر اهتمت الدولة بها ، فالشاعر يقول مثلا :

نجمت نجوم الزهر إلا أنها   فى روضــة فلكية الأنوار
وكأنما الجوزاء منها شارب   وكأنما المريخ كأس عقار

ويقول من قصيدة أخرى :

وصفراء من ماء الكروم كأنما   دجى الليل منها فى إزار معصفر
كأن حباب الماء فى وجناتها   من الدم إكليل لتاج مزعفر
قطعت بها ليلا كأن نجومه   إذا اعترضتها العين نيران عسكر
تراها بآفاق السماء كأنما   مطالعها منها معادن جوهر
ومنطقة الجوزاء تبدو كأنها   وسائط در فى قلائد عنبر
وبانت بعينى الثريا كأنما   على الأفق منها غصن ورد منور
فبت أراعى الفجر حتى تشمرت   ذيول الدجى عن مائه المتفجر(1)

قتيل الغوانى :

ولقب أيضا بصريع الدلاء ونبز بذى الرقاعتين ، ويسميه ابن خلكان بأبى حسن على بن عبد الواحد الفقيه البغدادى ، وسماه مرة أخرى بأبى الحسن محمد ابن عبدالواحد القصار البصرى ، ولم يحقق أحد الاسمين، واكتفى بقوله: « والله أعلم(2) » . أما ابن شاكر فاكتفى فى ذكر اسمه بأن قال : محمد بن عبد الواحد الملقب بصريع الدلاء وقتيل الغوانى(3) . ويرى السيوطى أن اسمه على بن عبدالواحد(4) ويخيل إلى أن اسمه محمد بن عبدالواحد، لأن ابن خلكان ذكر أنه قرأ ذلك فى نسخة ديوان شعره . لم يكن هذا الشاعر مصريا ولكنه وفد على مصر سنة اثنتى عشرة وأربعمائة من الهجرة ، ومدح الإمام الظاهر ، وعرف بمجونه ، وسلك فى شعره مسلك أبى الرقعمق فى هزله ومجونه ، ومن ذلك قصيدته التى عارض بها مقصورة ابن دريد ، وفيها يقول :

من لم يرد أن تنثقب نعاله   يحملها فى كفه إذا مشى
ومن أراد أن يصون رجله   فلبسه خير له من الحفا
من دخلت فى عينه مسلة   فاسأله من ساعته عن العمى
من أكل الفحم تسود فمه   وراح صحن خده مثل الدجا

(1) فوات الوفيات ص ٧٠ . (2) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٩ .
(3) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٣٧ . (4) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٣ .

من صفع الناس ولم يدعهم   أن يصفعوه فعليهم اعتدى
من ناطح الكبش يفجر رأسه   وسال عن مفرقه شبه الدما
من أكل الكرش ولم يغسله   سال على شاربه ذاك الدوا
من طبخ الديك ولم يذبحه   طار من القدر إلى حيث يشا
من شرب المسهل فى فعل الدوا   أطال ترداداً إلى بيت الخلا
من مازح السبع ولم يعرفه   مازحه السبع مزاحا بجفا
وألف حمل من متاع تستر   أنفع للمسكين من لقط النوى
والدرج يلفى بالنشا ملصقا   والسرج لا يلزق إلا بالغرا
والذقن شعر فى الوجوه نابت   وإنما الاست التى تحت الخصا
من فاته العلم وأخطاه الغنى   فذاك والكلب على حد سوا
فاستمعوها فهى أولى لكم   من زخرف القول ومن طول المرا

وقال فى آخرها مشيراً إلى ابن دريد :

فتلك كالدر يضىء لونها   وهذه فى وزنها مثل الحذا(1)

وهذا الشاعر هو الذى أشار إليه أبو العلاء المعرى فى قوله :

دعيت بصارع فتداركته   مبالغة فرد إلى فعيل(2)

ولكن هذا الشاعر لم يمكث طويلا فى مصر إذ توفى فى السنة التى وفد فيها .

* * *

وفى القرن السادس نرى عددا كبيرا من شعراء الفكاهة والمجون خلعوا على أنفسهم ألقابا فكاهية ، فالشاعر يحيى بن على الكتبى نبز «بالوضيع» وهو صاحب الأبيات التى يفخر فيها بنسبته إلى مذهب أبى نواس فى المجون :

أنا نائب الشرع النواسى   دعنى وباطيتى وكاسى
أهوى الغزالة كاعبـــا   وأهيم بالظبى الخماسى
من كل معتدل رشيق القـ   ـد القمشوق خــلاسى
متعكرش فإذا اختبر   ت وجدت منحل الأساس
لكن لإفلاسى جبيــ   ـت السامرى بلا مساس
لى منزل لا شىء فيـ   ـه كأنه كيسى وراسى(3)

(1) فوات الوفيات ج٢ ص٢٣٧ (2) ابن خلكان ج١ ص٣٥٩ (3) الخريدة ورقة ١٠٥

والشاعر الفقيه ، ونبز « بالنسناس » ، ومن شعره :

خلعت رداء التصابى المعارا وكان بفودى غراب فطارا
وكم خضت باللهو ليل الشباب إلى أن أرانى المشيب النهارا
لئن كدر الشيب صفو الشباب وبات برغمى ديارا ديارا
فلا بأس أن مذ لج البعاد فإن لكل مسيل قرارا (١)

والشاعر محمد بن إسماعيل وعرف « بالتاريخ » ، ومن مجونه :

ألا فاسقيانى ما تدير ثناياه وما أودعت من خمرها بابل فاه
ولا تنكرا سكرى بغير مدامة فسيان عندى ريقه وحمياه
إذا كان كاسى مترعا من رضابه ونقلى ما تبدى من الورد خداه
كفانى ريحانا وراحاسلاف ما حوى ثغره أو أنبته عذاراه
غزال ينابيع المدامع ورده وروض القلوب المستهامة مرعاه
سل البان عنه هل إلى البان أصله فربى جدياه ودوياه روياه
فلله ما أشجى فؤادا ملكته وأغراه بالبيض الحسان وأصباه (٢)

ومن شعره :

لاه بغانية وراح ناه لعاذلة ولاح
ما زال يشرب كأسه صرفا على ضرب الملاح
ما بين زمزمة البنود وبين وسواس الوشاح
حتى مضى مسك الدجى وأنار كافور الصباح (٣)

والشاعر الفقيه أبو محمد عبد الله بن أبى سعد ، نبز « بالكاسات » ، ووصفه ابن الزبير بقوله : « إنه كان خفيف الروح كثير المجون ، يضحك بنوادره وسخفه المحزون » (٤) ولكن فقد شعر هذا الشاعر الماجن ، ولم يبق له سوى أبيات فى المدح .

والقائد أبو طاهر إسماعيل بن محمد عرف « بابن مكنسة » وهو يعد من فحول الشعراء فى أواخر القرن الخامس ، وشهد القرن السادس ، وهو الشاعر الذى ذكرنا أن الأفضل هجره وأبعده لمدائحه فى أبى المليح النصرانى ، وهو أحد الذين

(١) الخريدة ورقة ١٠٦ . (٢) المصدر نفسه .
(٣) الخريدة ورقة ١٠٧ . (٤) المصدر نفسه .

أشاد بذكرهم أمية بن أبى الصلت فى رسالته المصرية ، وكان ابن مكنسة فى بعض هزله يذهب مذهب أبى الرقعمق فى الحماقة والمجون ، من ذلك قوله :

أنا الذى حدثكم عنه أبو الشمقمق
وقال عنى إننى كنت نديم المتقى
وكنت كنت كنت كنت من رماة البندق
حتى متى أبقى كذا تيسا طويل العنق
بلحية مسبلة وشارب محلق
يا ليتها قد حلقت من وجه شيخ خلق (١)

وفى مقطوعة أخرى يشكو كبره وضعفه :

عشت خمسين بل تزيد رقيعا كما ترى
أحسب المقل بندقا وكذا الملح سكرا
وأظن الطويل من كل شىء مدورا
قد كبر برْ بَبرْ بَبِرْ ت وعقلى إلى ورا
عجبا كيف كل شىء أراه تغيرا
لا أرى البيض صاريؤ كل إلا مقشرا
وإذا دق بالحجا ر زجاج تكسرا (٢)

وانظر إلى هذه المقطوعة فى وصف منزله وضيقه :

لى بيت كأنه بيت شعر لابن حجاج (٣) من قصيد سخيف
سابقتنى بنات وردان حتى أنا فيه كفأرة فى كنيف
أين للعنكبوت بيت ضعيف مثله ، وهو مثل عقلى الضعيف
وإذا هب فيه ريح السراويل فسلم على اللحى والأنوف
بقعة صد مطلع الشمس عنها فأنا مذ سكنتها فى الكسوف
وهو لو كان من حجيجى ونسكى صدنى بغضه عن التطويف (٤)

فابن مكنسة فى هذه الأبيات يتحامق كأستاذه أبى الرقعمق ، وذلك بجانب قصائده

(١) الخريدة ورقة ١٩٣ . (٢) المصدر نفسه ورقة ١٩٤ .
(٣) يقصد الحسين بن الحجاج الشاعر العراقى الماجن (٤) الخريدة ورقة ١٩٢ .

التى كان يجد فيها ، فلا نجد أثرا لهذه الحماقات وهذا الهزل وتلك الدعابة ، فهو يقول مثلا فى إحدى مدائحه:

ملك بكفيه وأسيافه   تقسم آجال وأرزاق
ذلت لنعماك نفوس كما   ذلت لأسيافك أعناق

ويقول فى إحدى مقطوعاته :

أقول ومجرى النيل بينى وبينكم   ونار الأسى مشبوبة بضلوعى
تراكم علمتم أننى لو بكيتكم   على النيل لاستغرقته بدموعى

وهكذا نرى الشاعر قد ضرب بسهم فى جد الشعر وهزله .

ومن شعراء المجون فى القرن السادس الشاعر أبو على حسن بن إسماعيل المعروف بالمكربل ، وكان شاعرا هجاء ، وصفه ابن الزبير بقوله : كان لسانه مقراض الأعراض، بلغ المائة من العمر ، ولم يسمع له فى المديح شعر إلا نزر يسير ، ولا قبل من أحد جائزة ، ولا امتد أمله إلى نيل رغبة (١) . ومقطوعاته كلها التى وصلت إلينا هى فى الهجاء المقذع،فمن ذلك قوله فى الشاعر ابن باقى الجزار، وكان فى مقدمة الشعراء فى عصره :

قالوا ابن باقى شاعر   مقدم فى الشعرا
قلت نعم قد قدمو   ه عنهم إلى ورا
كأنما يمضغ فى إنشا   ده الشعر خرا

وقوله فى ابن باقى الجزار أيضا :

لا تظنن أننى أهجوكا   قد كفانى بأن يعيش أبوكا

وقوله فى بعض علماء عصره :

فهل عندكم من مفخر أو فضيلة   سوى طول أجسام وعرض كمام
طوال بلا طول ، قصار عن العلى   عجبت لنقص منهم وتمام

وقوله :

قولوا لمن يكرمنى فى السلام   بهزة القامة لى والقيام
أشهى إلى النفس وأحلى من الـ   ـقيام يا سيدى أن تنام

وعلى هذا النحو كان هجاء هذا الشاعر المنبوز بالمكربل،وقد وجد المكربل من الشعراء من يقف له ويهجوه، فالشاعر ابن قتادة المعدل المصرى كان ينتظر إلى

(١) الخريدة ورقة ١٩٨ .

الرد عليه ، فكلما هجاه المكربل أجابه ابن قتادة ، فمن قوله فى المكربل :

مانال خلق فى الهجا   ما ناله المكربل
كل الهجاء آخر   وهو الهجاء الأول
لأنه يأخذ من   عرضه ويعمل (١)

ومن شعراء المجون فى آخر عصر الدولة الفاطمية الشاعر على بن حسن بن إسماعيل ، ففى إحدى مقطوعاته الماجنة يقول :

قم قبل تأذين النواقيس   واجلُ علينا بنت قسيس
عروس دن لم يدع عتقها   إلا شعاعا غير ملموس
تجلى علينا باسما ثغرها   فلا تقابلها بتعبيس
مذهبة اللون إذا صفقت   مذهبة للهم والبوس
لا غرو ما تأتيه من ريبة   لأنها عنصر إبليس
ليس لها عيب سوى أنها   حسرة أقوام مفاليس
فى روضة كانت أزاهيرها   كأنها ريش الطواويس
فاغتنم اللذات فى دولة   صافية من كل تمكيس (٢)

وقوله من مقطوعة أخرى :

وليلة كاغتماض الطرف قصرها   وصل الحبيب ولم تقصر عن الأمل
بتنا نجاذب أهداب الظلام بها   كف الملام وذكر الصد والملل
وكلما رام نطقا فى معاتبتى   سددت فاه بطيب اللثم والقبل
وبات بدر تمام الحسن معتنقى   والشمس فى فلك الكاسات لم تفل
فبت منها أرى النار التى سجدت   لها المجوس من الإبريق تسجد لى
راح إذا سفك الندمان من دمها   ظلت تقهقه فى الكاسات من جذل
فقل لمن لام فيها إننى كلف   مغرى بها مثلما أغريت بالعذل (٣)

ومن شعراء المجون أيضا الشاعر أبو الغمر الإسناوى محمد بن على الهاشمى المتوفى سنة ٥٤٧هـ الذى وصفه العماد بقوله: أشعر وقت زمانه، وأفضل أقرانه (٤)

(١) الخريدة ورقة ١٠ .   (٢) ورقة ١٣٥ .
(٣) ورقة ١٣٦ .   (٤) الخريدة ورقة ١٦١ .

ويروى له من شعره عدة مقطوعات تدل على رقة الشاعر وعذوبة شعره مع سهولة هذا الشعر، فمن ذلك قوله :

أيها اللائم فى الحـ   ب لحاك الله حسبى
لست أعصى أبداً   فى طاعة العذال قلبى

وقوله فى غلام لبس فى عاشوراء ثوبا من الصوف :

أيا شادنا قد لاح فى زى ناسك   فباح بمكنون الهوى كل ماسك
رويدك قد أدركت ما يعجز الظبا   وأضرمت نيران الجوى المتدارك
أنحن فتكنا بابن بنت محمد   فتثأر منا بالجفون الفواتك

وقوله وقد أفحش فى مجونه :

لى شادن هو أدنى   إلى مذ كان منى
فقد تعجلت قبل المسومات جنة عدن
به تعففت عما يصم بالعذل أذنى
لأنه صان عرضى   عن أن ألوط وأزنى
وزادنى فيه حبا   وصف يطابق فنى
لم يتسع خرقه لى   كلا ولا ضاق عنى
لخلقة الظهر منه   صيغت لإصبع بطنى

ومن قوله :

ألحاظكم تجرحنا فى الحشا   ولحظنا يجرحكم فى الخدود
جرح بجرح فاحسبوا ذا بذا   فما الذى أوجب جرح الصدود (١)

ومن قوله :

أيا ليلة زار فيها الحبيب   ولم يك ذا موعد ينتظر
وغاض إلى سواد الدجى   فياليت كان سواد البصر
وطابت ولكن ذممنا بها   على طيب رياه نشر الشجر
وبتنا من الوصل فى حلة   مطرزة بالتقى والخفر
وعقلى بها نهب سكر المدام   وسكر الرضاب وسكر الحور

(١) تنسب هذه الأبيات إلى الشاعرة الأندلسية ولادة بنت المستكفى .

وقد أخجل البدر بدر الجبين   وتاه على الليل ليل الشعر
وأعدى نحولى جسم الهوى   وأعداه منى نسيم عطر
فنى معتبر العاشقين   ومن حسن مغناه إحدى العبر
ومن سقمى وسنا وجهه   أريه السها ويرينى القمر

وله مقطوعة يذم الزمان ويبرم بالناس حوله :

زمان يخلط فى فعله   كأن به سكرة العاشق
وخلق إذا ما تأملتهم   جحدت بهم حكمة الخالق (١)

وقد ذكرنا شيئا عن دعابة ابن الصياد فى أنف ابن الحباب حتى بلغت مقطوعاته ألف مقطوعة، ولم نرده عنه سوى تعرض ابن قادوس له ، وذكرنا فكاهة الجليس فى الطبيب ، وها هوذا ابن قادوس يداعب رجلا كان يكبر كثيراً فى الصلاة ، فيقول :

وفاتر النية عنينها   مع كثرة الرعدة والهزه
يكبر سبعين فى مرة   كأنه صلى على حمزه

ويداعب آخر كان يلوم ابن قادوس على مجونه ، فيجيبه بقوله :

ولائم يلومنى   يريد منى توبتى
يقول لى الموت غدا   فقلت هذا حجتى

وانظر إلى هذه الدعابة الطريفة من ابن شمول المقرى :

تبسمت إذ رأتنى   وشيب رأسى يحوم
فقلت شعرى ليل   والشيب فيه نجوم
فاستضحكت ثم قالت   كما يقول الظلوم
يا ليتها من نجوم   غطت عليها الغيوم (٢)

ومما يروى أن الطبيب جرجيس الملقب كان بالفيلسوف ، كان يزور فصولا طبية فلسفية على الطبيب أبى الخير سلامة بن رحمون ، وكان يبرز هذه الفصول فى معارض ألفاظ القوم وهى لامعنى لها ، ثم ينفذها إلى من يسأل أبا الخير عن معانيها ويستوضحه أغراضها ، فيتكلم أبو الخير عليها ويشرحها دون تيقظ ولا تحفظ ، فيوجد فيها عنه ما يضحك ، ولذلك هجاه أحد الشعراء بقوله :

(١) الخريدة ورقة ١٦١ .   (٢) تاريخ ابن العبرى ص ٣٤٨ .

إن أبا الخير على جهله | يخف فى كفته الفاضل
عليله المسكين من شؤمه | فى بحر هلك ماله ساحل
ثلاثة تدخل فى دفعة | طلعته والنعش والغاسل (١)

وللشاعر محمود بن ناصر الإسكندرانى . وكان كاتب ابن حديد القاضى يداعب طبيبا :

صديقنا المستطب نادرة | قد أخذت منه أعين الناس
أنياب غول ومشفرا جمل | ورأس بغل وذقن نسناس (٢)

ونختم هذه الكلمة بقصيدة الشاعر رضى الدولة أبى سليمان داود بن مقدام ، وكان أحد الشعراء الذين عرفوا بالفكاهة وقال عنه ابن الزبير : إنه من أبناء الجند بأسفل مصر (أى بالوجه البحرى) إلا أن همته سمت به من الأدب إلى دوحة يقصر عنها أمثاله ، ولا يطمع فيها أضرابه وأشكاله ، وعضده على ذلك جودة الطبع ونفاذ القريحة ، حتى أدرك بعفو خاطره وسرعة بديهته ما لم يبلغ إليه كثير من أبناء عصره فى الدأب على اقتناء الأدب . وذكر ما معناه أنه كسدت سوقه ، وجحدت حقوقه (٣) ، وفى هذه القصيدة التى نذكرها له يصف حالة ولاة الأقاليم والجند وما كانوا عليه من ظلم وفساد ، ويصور حالة الرشوة التى كانوا يأخذونها من الناس وما كانوا يجبونه من الأسواق ، فهى قصيدة تهكمية ، ولكنها تصور حالة العصر أصدق تصوير ، فهو يقول فى الأمير ابن كازوك وكان والى الغربية :

أيها المخلص المكين ومن كفـ | ـاه فى كل أزمة تكفان
بان عنا أهل المحبة واعتضـ | ـنا بأهل البغضاء والشنآن
نحن أشقى بختا وأتعس حظا | إذ قضانا بصفقة الخسران
إذ رعانا بأبغض الخلق مذ كا | ن وكانوا لكل قاص ودان
رجل صيغ من حماشيب بالشر | ة خلطا والشؤم والخذلان
والرياء والبغاء والجهل والإفـ | ـك وسوء الطباع والبهتان
ما ظننا من قبله أننا نلـ | ـقى جميع السوءات فى إنسان

(١) الخريدة ورقة ١٢٩ (٢) الخريدة ١٢ (٣) الخريدة ورقة ٩٩ .

يتلقاك كالحا عابس الوجـ | ـه بقلب خال من الإيمان
وله إخوة وأفعالهم فى الما | ل فعل الذئاب بالحملان
حر قلبى على مثولى بالبا | ب وقولى لصاحب الديوان
أيها الألمعى أعوزك الرعيا | ن حتى استرعيت بالذئبان
أى شىء غال الكفاة من الكتـ | ـاب لولا عوائق الحرمان
صاحب الخيل والجواشن والبيـ | ـض وبيض الطلى وسمر اللدان
ما له والسكول عن سفر الشـ | ـام وصدم الأقران بالأقران
وطلاب المشارفات وتحقيـ | ـق بقايا العمال والخزان
ليس هذا إلا الأن الخراف الـ | ـبيض فى ريفنا بلا أثمان
والرحيق الذى عهدناه لا يـ | ـباع إلا بالنقد أو بالرهان
تجتلى فى الكئوس صرفا مع | الجان والمسمعات بالمجان
والإجابات المآدب أشهى | للفتى من إجابة الديوان
وطلاب الدليل بالرسم أو | لى من طلاب البراز للفرسان
فاتركونا معاشر الجند واعنوا | بدرور الأرزاق كل أوان
والولايات والحمايات والزمـ | وأخذ الأجعال من كل خان
والمعاصير والسواق وتسو | يغ الضياع المسورات الحسان
وارتعوا فى جزور ذى الدولة الهـ | امى نداها فى أطيب اللحمان
واشغلوا بها فيه يشغل الهر | لنفع أو خيفة العدوان
بالطحال المسدود أو طرف الر | ئة أو بالمعلاق والمصران
واغنموا هدية ، كتهوية الـ | ركب ، وقيتم بها من الحدثان (١)

(١) الخريدة ورقة ١٠ .

الفصل السادس

فى الغـــزل

لا أكاد أعرف شاعراً من شعراء مصر الفاطمية لم ينشد فى الغزل ، فجميع الشعراء الذين بلغنا شىء من شعرهم كانوا يتغزلون ، سواء أكان هذا الغزل فى المؤنث أو فى المذكر،شأنهم فى ذلك شأن شعراء العربية فى الأقطار الأخرى ، فكان شعراء المدح — الذين ألموا بالعقائد المذهبية فى شعرهم — يتبعون سنة الشعراء الأقدمين فى الابتداء بالغزل . ولما أراد العماد الأصبهانى أن يروى شيئا من شعرهم ، اكتفى بالمقدمات الغزلية التى افتتحوا بها قصائدهم ، وأبى أن يروى شيئا من مدح الأئمة .

وإذا نظرنا فيما بقى لنا من شعر الغزل فى هذا العصر رأينا المصريين كانوا يرددون فى أشعارهم هذه الصفات العديدة التى رددها الشعراء من قبل فى صفات المرأة وما تمتاز به المعشوقة من فتنة ودلال وسحر ، ولكن الشىء الذى يلفت نظرنا فى هذه الأشعار الغزلية أن الصور التى صاغ فيها المصريون هذه الصفات اختلفت باختلاف الحياة المصرية والبيئة المصرية ، انظر مثلا إلى قول أبى الحسن التنيسى الملقب برضى الدولة :

راح من خمر الصبا مغتبقا ثملا ، أحسن شىء خلقا
تفعل النشوة فى أعطافه فعل عينيه بأرباب التقى
رشأ قد أقسمت ألحاظه ليريقن دما من عشقا
من عذيرى من غزال كلما سئل الرحمة أبدى حنقا
ورأيت النرجس الغض وقد أخجل الورد بما قد أحدقا
ينهب الناهب من زهرته ويذود اللس عما بسقا
كم أناديه وذلى شافعى وفؤادى يتلظى حرقا
هكذا يجزى بكم من عشقا لاعجا يسرى وقلبا موبقا(١)

(١) الخريدة ورقة ٩ .

فالمعانى التى جاء بها الشاعر فى هذه المقطوعة والتى قدم بها للمدح ليست بجديدة فى الشعر العربى ، إنما الجديد فى هذه الأبيات هو هذه الصور المختلفة التى صاغ فيها هذه المعانى القديمة .

وانظر إلى قول الشاعر ابن قتادة المعدل ، وقد أتى بمعان لم يطرقها القدماء فى غزلهم :

نظرى إليك يزيد فى نظرى فعلام تحجبنى عن النظر
يا جملة الحسن التى اقتسمت منها المحاسنَ جملة البشر
لهواك بين جوانحى كتب قد عنونت بالدمع والسهر(١)

فهذه المعانى التى ألم بها الشاعر فى هذه الأبيات لم يطرقها — فيما أعرف — شاعر عربى من قبل، وإن كان القدماء قد أكثروا من ذكر الدمع والسهر ، ولكن الشاعر المصرى جعل لهوى المحبوب فى نفسه كتبا عنوانها الدمع والسهر .

ويتغزل الشاعر أبو الحسن على بن الحسن بن معبد القرشى الإسكندرى ، فيقول فى مقدمة إحدى قصائده :

ومهفهف طالت ذوائب فرعه كالليل فاض على الصباح المسفر
قصر الدلال خطاه فاعتلقت به لى مهجة عن حبه لم تقصر
وسنان كحلِ السحر حشو جفونه ففتورها عن مهجتى لم يفتر
ملك القلوب بدر سِمطَى لؤلؤ عذب اللمى فى غنج طرف أحور
وبوجنة رقم الجمال رياضها ببنفسج من فوق ورد أحمر
كتب العذار على صحيفة خده هذا بداية حـيرة المتحير
وهبت محاسنه الكمال فأصبحت فتن العقول وروض غير المبصر(٢)

ويقول مرة أخرى فى مقدمة قصيدة أخرى :

وإنى لأهوى رشأ ساحرا أعار فتور العيون الظبا
إذا ما تثنى فغصن نقا وبدر جلا شعره غيهبا
وزانت محيـاه خيلانه كما يتبع الكوكب الكوكبا
وبى أسمر ناسبته القنا يروقك خدا جلا مذهبا

(١) الخريدة ورقة ٢٩ . (٢) الخريدة ورقة ١٣ .

سقى روض خديه ماء الشبا ... ب ففتح زهرا به معجبا
تقلد من لحظه صارما ... أسال النفوس وما أذنبا
وملك من حسنه دولة ... أطاعتها كل قلب صبا(١)

فهذه الصور المختلفة التي رسمها الشاعر في هذه الأبيات ليس بها هذه الصور التي رأيناها في شعر القدماء ، ولكنها صور متحضرة ، لايذكر الشاعر جزءا من أجزاء الجسم إلا ليصور أثره في نفسه ، ويقرن بين هذه الصورة التي أتى بها وبين صورة أخرى أخذها الشاعر من الطبيعة التي حوله والحياة التي يحياها ، فالشاعر المصري في غزله لايأتي بأجزاء الجسم ليصفها وصفا واقعيا — إن صح هذا التعبير — إنما كان يتحدث دائما عن الناحية النفسية أكثر مما يتحدث عن الصفات الحسية ، وهنا نرى فرقا كبيراً بين شعراء العرب القدماء وبين شعراء مصر الفاطمية ، فالشاعر العربي كان ماديا في وصفه ، والشاعر المصري كان عاطفيا ، وإنما جاء هذا الخلاف من تحضر مصر الفاطمية ورقى عاطفة المصريين برقى حياتهم .

ناحية أخرى تراها فيما بقى لنا من شعر الغزل في مصر الفاطمية ، تلك أن المصريين بدأوا يتركون الأوزان الطويلة ، وينشدون غزلهم في أشعار إما مجزوءة أو منهوكة ، ويميلون إلى استخدام اللغة التي يصطنعها الشعب والتي لايزال أثرها باقيا في مصر إلى اليوم . انظر إلى قول الشاعر طلائع الآمري :

ملك الشوق مهجتى ... حبذا من تملكا
قد رماني بحبه ... ونهاني عن البكا
إنما راحة المحـ ... ـب إذا أن أو شكى
ما أرى السلو عنه ... ، وإن جاز ، مسلكا(٢)

فهذا الشاعر الدقيق الحس ، الرقيق الشعور ، وصف حالة المحب المضنى وقد تملكه الشوق فلم يجد راحة إلا إذا أن واشتكى ، بالرغم من أن المحب نهاه عن البكاء ، فاتخذ هذا الوزن الخفيف ، واصطنع هذه الألفاظ التي تكاد أن تكون من ألفاظ الشعب ، فهذه المقطوعة وغيرها هي التي سنرى مثلا لها بعد ذلك واضحة في شعر البهاء زهير . ثم انظر إلى قول الشاعر طلائع الآمري أيضا :

(١) المصدر نفسه ورقة ٢٨ . (٢) المصدر نفسه .

أنعموا لي بالوصال ... وارحموا رقة حالي
لا تذيبوا مهجتي بيـ ... ـن التجني والدلال
ليس عذري في هواكم ... قد بدا لي قد بدا لي
إنما قصدي رضاكم ... قد حلا لي قد حلا لي
وإن اخترتم عذابي ... لا أبالي لا أبالي(١)

أليست هذه المقطوعة أقرب إلى لغة الشعب المصري منها إلى لغة الشعراء الذين عودونا الجزالة في اللفظ مع حسن الديباجة ، ولكن الشاعر هنا كان شاعراً مصريا قبل كل شيء ، وكان يتغزل ، فاصطنع هذه الألفاظ السهلة والأوزان الخفيفة .

وليس معنى ذلك أن كل شعر الغزل على هذا النحو الذي رأيناه عند طلائع الآمري ، فقد كان للمصريين لونان من شعر الغزل ، اللون الأول الذي يختار فيه الشاعر ألفاظا جزلة ووزنا قويا طويلا ، أما اللون الآخر فهو الذي يترك الشاعر فيه نفسه على سجيتها بلا تصنع ، فلا ينتقي الألفاظ الجزلة بل ينشد ما يجرى به لسانه وما تمليه عاطفته ، وقد رأينا طلائع الآمري في المقطوعة الأولى السابقة يميل إلى اللون الثاني من ألوان الغزل ، ونراه مرة أخرى ينشد المعنى نفسه ولكن في صياغة أخرى تختلف تمام الاختلاف عما رأيناه له ، فهو يقول :

تريد الهوى صرفا من الضر والبلوى ... لعمرك ما هذى قضية من يهوى
إذا لم يكن طرف المحب مسهدا ... وأدمعه تجرى ، فهذى هي الدعوى
ولا حب إلا أن ترى كلفة الهوى ... ألذ من المن المنزل والسلوى
وحتى ترى القلب القريح من الهوى ... يمانعه الصبر الجميل من السلوى
رعى الله من أعطى المحبة حقها ... وإن لم يكن فيها من الأمر مايقوى(٢)

فالشاعر في هذه المقطوعة يختلف في غزله عن ما جاء به في مقطوعته الأولى ، فالشاعر حاول اللونين من شعر الغزل ، على أن أكثر شعر الغزل الذي انتهى إلينا هو من اللون الخفيف الذي يقرب من أسلوب العامة ، فالشاعر مروان بن عثمان اللكي تلمح في غزله أثر السهولة التي تتفق مع رقة الغزل وعاطفة الحب حين يقول مثلا:

(١) الجريدة ورقة ٢٩ . (٢) ورقة ٣٠ .

ما بال قلبك يستلين ... أبه غرام أم جنون
برح الخفاء بما يجن ... فأذهب الشكَّ اليقين
حتى متى بين الجوا ... نح والضلوع هوى دفين
وإلى متى قلبي المتيـ ... ـم فى يد البلوى رهين
يا ماطلى بديون قلـ ... ـبى آن أن تقضى الديون
شخصت له فيك العيون ... وتقسمت فيك الظنون
وسلبت ألباب الورى ... بلواحظ فيها فتون
وقوام أغصان الريا ... ض وأين تدركك الغصون
الحسن فى الأغصان فن ... وهو فى هذا فنون
من أين للأغصان ذا ... ك الغنج والسحر المبين
أم ذلك الورد الجنىّ ... بخده والياسمين(١)

ثم اقرأ هذه المقطوعة الأخرى من غزل ابن عثمان اللكى التى تظهر فيها عاطفة الشاعر فى أسلوب أهل مصر الآن ولا سيما فى البيت الثالث :

تمكن منى السقم حتى كأننى ... توهم معنى فى خفى سؤال
ولو سامحت عيناه عينى فى الكرى ... لأشكل من طيف الخيال خيالى
سمحت بروحى وهى عندى عزيزة ... وجدت بدمعى وهو عندى غالى
وقد خفت أن تقضى على منيتى ... ولم أقض أوطارى بيوم وصال
وهون ما ألقى من الوجد أنه ... صدود دلال لا صدود ملال (٢)

وها هو ذا الشاعر أحمد بن محمد المادرائى يتغزل :

يا حبيب العمر عطفا فإنى ... بهواكم على لظى أتقلى
إن وصلتم ، وصلتم مستهاما ... عن هواكم وحبكم ما تخلى
هو عبد الهوى ، وليس بباغى ... عتقه فى هوى ولومات قتلا (٣)

ويقول الشاعر إبراهيم بن إسماعيل الدمياطى :

ياهذه ، رقى على صب دنف ... صيره الهجر إلى حد التلف

(١) الخريدة ورقة ١٢٩ . (٢) ورقة ٧١
(٣) ورقة ٢٥

رق عليه ، وصلى حباله ... فإنه عن حبكم لا ينصرف (١)

وبالرغم من أن الشاعر أبا محمد هبة الله بن على بن عرام كان من إقليم أسوان فإن غزله كان متأثراً بالحياة اللينة التى عرفت بها مصر ، ولا سيا أنه وفد على القاهرة ومدح بها الوزير رضوان وغيره من رجال الدولة ، فأسهم مع غيره من شعراء مصر فى التغزل فى الأوزان السهلة الخفيفة والألفاظ والصور الشعبية ، فهو الذى يقول :

من معينى على اقتناص غزال ... نافر عن حبائلى رواغ
قلبه قسوة كجلمود صخر ... خده رقة كزهر الباغ
كلما رمت أن أقبل فاه ... لدغتنى عقارب الأصداغ

وقوله أيضا :

لدغتنى عقارب الصدغ منه ... فسلوه من ريقه درياقا
إننى عاشق له ، وهو مذ كا ... ن ظلوم لا يرحم العشاقا(٢)

وقوله :

يا لائمى فى غزال ... قلبى رهين يديه
لا تطمعن فى سلوى ... فلا سبيل إليه
كم لامنى فيه قوم ... وعنفونى عليه
حتى إذا أبصروه ... خروا سجودا لديه
فاحفظ فؤادك فالمو ... ت فى ظبا مقلتيه(٣)

أضف إلى ذلك أن القدماء لاحظوا أن للمصريين بعض المعانى المبتكرة ، من ذلك قول الأخفش فى العذار :

وكأن العذار فى حمرة الخد ... على حسن خدك المنعوت
صولجان من الزمرد معطو ... ف على أكرة من الياقوت(٤)

ولكن العماد أخذ على الشاعر أنه ذكر (الخد) مرتين فى البيت الأول ، مع اعترافه بأن المعنى مبتكر لم يسبق الشاعر إليه ؛
وكذلك قال القدماء : إن قول أبى الغمر الإسناوى فى العذار من المعانى المبتكرة

(١) الخريدة ورقة ٢٥ (٢) الخريدة ورقة ١٨١
(٣) ورقة ١٨١ (٤) ورقة ١٣١

وغزال خلعت قلبي عليه فهو باد لأعين النظار
قد أرانا بنفسج الشعر بدراً طالعا من منابت الجلنار
وقدت نار خده ، فسواد الشـ ـعر فيه دخان تلك النار (١)

وقول أبي الغمر الأسناوى أيضا :

وغزال أبدى لنا الله من بسـ ـتان خديه فى الحياة الجنانا
قدأرانا قداً ، وخداً ،وصدغا، وعذاراً ، وناظراً فتانا
غصنا يحمل البنفسج ، والنر جس ، والجلنار والريحانا(٢)

وقال القدماء أيضا إن قول أبي إسحق إبراهيم بن شعيب من المعانى المبتكرة فى التغزل بغلام أسمر :

ياذا الذى ينفق أمواله فى حب هذا الأسمر الفائق
ما الذهب الصامت مستنكرا ذهابه فى الذهب الناطق (٣)

وكذلك قول المهذب بن الزبير فى غلام تغرغرت عند الوداع عيناه :

ومرنح الأعطاف تحسب أنه رمح ، ولكن قد قلبي قده
إن قلت إن الوجه منه جنة أضحى يكذبنى هنالك خده
ولئن ترقرق دمعه يوم النوى فى الطرف منه وما تناثر عقده
فالسيف أقطع ما يكون إذا غدا متحيرا فى صفحتيه فرنده (٤)

وقول ابن الضيف الداعى فى أمرد التحى :

كنت حيا فى المرد حتى إذا ما عذرت جاء الممات والتعذير
مثل سطر العنوان يبدو وتطوى منه فى باطن الكتاب سطور(٥)

وقول الشاعر علم الدولة مقرب بن ماضى صاحب الواحات :

أهـدى إلى معللى ورداً ولم يك وقته
فسألته عنه فقا ل من الخدود قطفته
قبلته وكأننى فى خده قبلته(٦)

ومن الطريف أن العماد الاصفهانى عندما أراد أن يروى شيئا من شعر هذا

(١) الخريدة ورقة ١٣٠ (٢) المصدر نفسه
(٣) المصدر نفسه (٤) الخريدة ورقة ٤٤
(٥) المصدر نفسه ورقة ٥٧ (٦) المصدر نفسه ورقة ١٠٥

الشاعر قال « فمن شعره قوله وأنا أكبرها عنه » ثم روى هذه المقطوعة السابقة ، ولا أدرى ما الذى جعله يكبر هذه المقطوعة عنه . على حين أن ابن الزبير وصفه بقوله : « كان قمر الفواضل ، كثير الفضائل ، غمر النائل ، مغناه مرمى ذوى الآداب من المصريين ، ومرتع المسترفدين منهم والمنتجعين » .

وهكذا يستطيع الباحث أن يتتبع بعض المعانى المبتكرة فى الغزل فى الشعر المصرى ، وهى معان أخذت من الحياة المصرية التى بلغت شأوا بعيداً فى التقدم فى ألوان الحياة المختلفة .

ويقول القدماء إن بعض مقطوعات الغزل كان يتغنى بها المصريون ، ولا غرابة فى ذلك ، فان مقطوعات الغناء عند أكثر الشعوب هى مقطوعات غزلية ، وليست مصر بدعا فى ذلك ، ولكن القدماء أرادوا أن يعطونا صورة مما كان يتغنى به فى مصر الفاطمية ، فلنتبع القدماء على هذا النحو ، ونقدم عدة صور من مقطوعات الغزل التى كان يتغنى بها ، فمن ذلك قول ظافر الحداد :

عتبت ولكننى لم أع وأين ملامك من مسمعى
وما قدر عتبك حتى يزيـ ـل غراما تمكن من أضلعى
وما دام لومك إلا وأنـ ـت تقدر أن جنانى معى
مضى كى يودع سكانه غداة الفراق ، فلم يرجع
فؤادى فى غير ما أنت فيـ ـه خذ فى ملامته أودع (١)

وقول الشريف أبي الحسن على بن حيدرة العقيلى وفيه لحن من غنائه :

يا غزالا رضابه سلسبيل هل لعذرى إلى رضاك سبيل
فوحق الرسول ما قلت شيئا من جميع الذى حكاه الرسول
ما أرى خلة يخل بها الحسـ ـن فماذا يقال أنى أقول (٢)

وقوله أيضا وفيه لحن من غناء غيره :

أعطافه فتنة الفتون وقده غصن الغصون
ظبى ظبا لحظ مقلتيه لها جفون من الجفون
يقود إن قاده التثنى كل جنان إلى جنون
ما صد بعد الوصال إلا أجرى عيونا من العيون (٣)

(١) الخريدة ورقة ٨٢ (٢) المغرب ص ٧٤ (٣) المغرب ص ٨١

وقول ابن حيدرة العقيلي أيضا وفيه لحن من غنائه :

وعذول كان من قولي له   لست أستحسن أجفو الحسنا
قال : لو كنت أنا أنت لما   رضيت نفسي لجسمي بالضنا
قلت : دعني عنك ، واصنع ما تشا   ما أنا أنت ولا أنت أنا(١)

فهذه بعض صور من مقطوعات الغناء من شعر مصر الفاطمية كما حدثنا عنها القدماء من رواة شعر مصر ، وهي مقطوعات غزلية يظهر فيها لون من ألوان ذوق المصريين في المقطوعات الغنائية ، والعاطفة التي كانت تثار عند سماع هذه المقطوعات .

ولم يشأ شعراء مصر أن يقفوا في غزلهم على تصوير مختلف مشاعرهم عند رؤية الحبيب ، أو أن يتحدثوا عن جماله وصفاته ومايفعله ذلك كله في نفوسهم ؛ إنما صوروا من ناحية أخرى الشوق لرؤية المحبوب إذا بعد عن أنظارهم أو فارقهم إلى مكان آخر ، فالحديث عن الفراق أخذ حيزاً كبيراً من غزل شعراء مصر الفاطمية ، وفي حديثهم عن الفراق نرى لوعة المحب الذي أضناه البعاد وخشينا عليه من الهلاك .

وها هو الشاعر علي بن المؤمل بن غسان ينشد :

فُتنت بفاتن الحدق   وزاد بهجره أرقي
إذا ناديت من جزع   أخذت القلب في طلق
رويدك سوف تلقاني   بلا قلب ولا رمق(٢)

وأنشد ابن معبد الاسكندري :

يا حادي الركب رفقا بالحبيب فقد   طار الفؤاد وقل الصبر والجلد
لعل حِبي يرى ذلي فيرحمني   بنظرة علها تشفي الذي أجد
يا ويح من ظعنت أحبابه وغدا   مخلفا بعدهم أكباده تقد(٣)

وقال محمد بن وهب :

ولما تنادوا بالرحيل رأيتني   أكفكف دمع العين من كل جانب
وأسأل ربي أن تذم ركابهم   عن السير حتى أشتفي بحبائبي

(١) المغرب ص ٨٠   (٢) الخريدة ورقة ٩
(٣) المصدر نفسه ورقة ١٣

فلم تك إلا ساعة سار ركبهم   وسار فؤادي بين تلك الركائب
فلم أر يوم البين أعظم حسرة   وللبينُ عندي من كبار المصائب(١)

وأنشد طلائع الآمري :

ما لقلبي من لوعة البين راق   أتراني أحيا ليوم التلاقي
عزمة لم تدع لجفني دمعا   لا ولا في الحشا مكان اشتياق
أطمعوني حتى إذا أسروني   عذبوا مهجتي وشدوا وثاقي
واستلذوا الفراق حتى كأن لم   يعلموا أنه مرير المذاق
في سبيل الهوى نفوس أقامت   بعد وشك النوى على الميثاق(٢)

وقال طلائع أيضا :

ما أودعوك مع الغرام وودعوا   إلا ليتلف قلبك المشتاق
قف فاستلم إثر المطي تعللا   إن لم يكن لك نحوهن لحاق
وتنح عن دعوى هواك فإنه   إن لم تمت يوم الفراق نفاق(٣)

وإذن فالغزل في شعر مصر الفاطمية صورة أخرى من صور الحياة المصرية والعاطفة المصرية التي سمت فبعدت عن المادية التي عرفناها عند الشعراء الأقدمين ، وذلك لاختلاف بيئة مصر عن غيرها من الأقطار العربية .

(١) الخريدة ورقة ٢٤
(٢) المصدر نفسه ورقة ٢٨
(٣) المصدر نفسه

الفصل السابع

أغراض أخرى فى الشعر

التصوف والزهد :

تحدثنا فى الفصول السابقة عن بعض الأغراض التى قصد إليها الشعراء فى مصر الفاطمية ، ولكن هناك بعض أغراض أخرى لا تقل خطرا فى تصوير الحياة فى مصر فى ذلك العصر عن هذه الأغراض التى تحدثنا عنها من قبل ، فقد ذكرنا شيئا عن هذه الحياة الماجنة التى طغت على مصر حتى خيل لنا أن مصر لم تعرف إلا هذا اللون من ألوان العيش ، ولكن المصريين كان لهم لون آخر بجانب هذه الحياة الماجنة اللاهية ، وهذا اللون الآخر هو التفكير فى العالم الآخر ، وطبيعة مصر اضطرت المصريين منذ أقدم عصورهم التاريخية إلى أن يهتموا بأمور الآخرة اهتمامهم بأمور الدنيا ، فإذا المصرى منذ عرفه التاريخ مضطر إلى أن يعيش لونين من الحياة يناقض أحدهما الآخر أشد التناقض ، فهو يعبث فى حياته ويمجن ويمزح ماشاء له العبث والمجون والمزاح ، وهو فى الوقت نفسه حريص على أن يفكر فى آخرته فيتحدث عنها ويتذكرها ، ويظهر استمساكه بالدين وفرائضه وآدابه ، وقد رأينا تصوير الشعراء لحياة المجون ، أما الزهد أو التقشف فقد أكثر من الحديث عنه شعراء مصر أيضا ، حتى إن شعراء المجون أنفسهم كانوا ينشدون الشعر فى الحث على الزهد والتمسك بأهداب الدين وطلب سعادة الآخرة ، وها هو ذا الأمير تميم الذى عرف بمجونه حتى حرم ولاية إمامة الدعوة يقول فى الزهد :

أفنيت دهـرك تتقى فيه الحوادث والمصائب
ولو اتقيت معاصى الر حمن فيما أنت راكب
لأمنت من نار الجحيـم ، وفى الحياة من المعايب
إن لم تراقب من له حكم عليك ، فمن تراقب ؟[١]

(١) ديوان الأمير تميم

ويقول مرة أخرى :

يا عجبا للناس كيف اغتدوا   فى غفلة عما وراء الممات
لو حاسبوا أنفسهم لم يكن   لهم على أخذ المعاصى ثبات
من شك فى الله فذاك الذى   أصيب فى تمييزه بالشتات
يحييهم بعـد البلى مثل ما   أخرجهم من عدم للحياة[١]

فمثل هذه الأبيات لا تصدر من شاعر عرف عنه أنه من أشد الشعراء مجونا وعبثا ، ولكن طبيعة مصر اضطرته إلى أن يتحدث عن الآخرة وعن الحياة بعد الموت .

وها هو ذا الشاعر ابن حيدرة العقيلى الذى ذكرنا أنه شاعر الخمر فى العصر الفاطمى ، وأحد شعراء المجون ، ينشد فى الزهد ويدعو إلى التقى والورع :

قد لاح فى فَودك المشيبُ   ورث من عمرك القشيب
فكن لداعى التقى مجيبا   من قبل تدعى فلا تجيب[٢]

ونرى القاضى المعروف بالأديب أبى النضر ينشد :

النفس أكرم موضـعا   من أن تدنس بالذنوب
ما لذة الدنيا لهـا   ثمنا وإن مزجت بطيب
فاسبق إلى إعداد زا   دك هجمة الأجل القريب
والق الإله على التقى   والخوف مزرور الجيوب[٣]

ويقول مرة أخرى يحث على الزهد وجهاد النفس :

جهاد النفس مفترض فخذها   بآداب القناعة والزهاده
فإن جنحت لذلك واستجابت   وخالفت الهوى فهو الإراده
وإن جمحت بها الشهوات فاكبح   شكيمتها بمقمعة العبـاده
عساك تحلها درج المعالى   وترفعها إلى رتب السعاده[٤]

وهكذا نرى العاطفة الدينية تسير جنبا إلى جنب مع عاطفة حب المجون والشعر المصرى مملوء بالعاطفتين معا .

وقد ذكرنا فى كتاب « أدب مصر الإسلامية » أن مصر عرفت التصوف

(١) ديوان الأمير تميم
(٢) المغرب ص ٥٥
(٣) الخريدة ورقة ١٢٦
(٤) الخريدة ورقة ١٢٧

ووجدت فرقة عرفت بالصوفية كان لها أثر فى الحياة السياسية فى العصر العباسي وقد استمر تيار الصوفية فى العصر الفاطمى ، وكان الأئمة الفاطميون يرعون هذه الفرقة ، ويحدثنا المقريزى أن الآمر الفاطمى جدد قصر القرافة وعمل تحته مصطبة للصوفية ، وكان يجلس فى الطاق بأعلى القصر ، ويرقص أهل الطريقة من الصوفية والجمار بالألوية موضوعة بين أيديهم والشموع الكثيرة تزهر ، وقد بسط تحتهم حصر من فوقها بسط ، ومدت لهم الأسمطة التى عليها كل نوع لذيذ ولون شهى من الأطعمة والحلوى أصنافا مصنفة . وكان بين الحاضرين الشيخ أبو عبد الله بن الجوهرى الواعظ ومزق مرقعته وفرقت على العادة خرقا ، وسأل الشيخ أبو إسحق إبراهيم المعروف بالقارح المقرى خرقة منها ووضعها على رأسه ، فقال الخليفة الآمر بأحكام الله من طاق بالمنظرة : ياشيخ أبا إسحق . قال : لبيك يا مولانا . قال : أين خرقتى ؟ فقال مجيبا له فى الحال : ها هى على رأسى يا أمير المؤمنين . فاستحسن الآمر ذلك ، فأمر فى الساعة فأحضر من خزائن الكسوات ألف نصفية . ففرقت على الحاضرين وعلى فقراء القرافة ، ونثر عليهم متولى بيت المال من الطاق ألف دينار(١) .

ووفد على مصر فى هذا العصر سهل بن محمد بن الحسن الصوفى ، حدث بالعراق ودمشق وصور ، ثم توجه إلى مصر فظل بها إلى أن توفى سنة ٤٤٤ هـ وكان أديبا شاعراً على طريقة الصوفية ، ولكن شعره فقد ولم يبق منه سوى قوله :

إذا كنت فى دار يهينك أهلها   ولم تك محبوبا بها فتحول
وأيقن بأن الرزق يأتيك أينما   تكون ولو فى قعر بيت مقفل(٢)

وشاهد هذا العصر فرقة من فرق الصوفية عرفت « بفرقة الكيزانية » نسبة إلى شيخها أبي عبدالله محمد بن إبراهيم بن ثابت الأنصارى المعروف بابن الكيزانى الفقيه الشافعى الواعظ . ذكره العماد فى خريدته ووصفه بقوله : « فقيه واعظ مذكر ، حسن العبارة ، مليح الإشارة ، لكلامه رقة وطلاوة ، ولنظمه عذوبة وحلاوة ، مصرى الدار ، عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع ، مشهود له بألسنة القبول ، مشهور بالتحقيق فى علم الأصول ، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ، ومعرفة بالقديم مكون الحديث ، إلا أنه ابتدع مقالة

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٧٩ (٢) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥٣

ضل بها اعتقاده ، وزل فى مزلقها سداده ، وادعى أن أفعال العباد قديمة ، إلى أن قال « : أعاذنا الله من ضلة الحلم وزلة العلم وعلة الفهم ، واعتقد أن التنزيه فى التشبيه ، عصم الله من ذلك كل أديب أريب ونبيل نبيه »(١) وتوفى ابن الكيزانى صاحب هذه الفرقة سنة ٥٦٠ هـ ودفن عند قبر الإمام الشافعى ، واستمرت تعاليم هذه الفرقة حتى عصر الأيوبيين ، فقد ذكر العماد : « والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة »(٢) . وظهور هذه الفرقة فى مصر واشتهار أمرها على النحو الذى تحدث به العماد وابن سعيد فى كتابه المغرب يدلنا على مدى الضعف الذى طرأ على الدعوة الفاطمية فى مصر ، فإننا رأينا الفاطميين ينزهون الله عز وجل عن التشبيه أو التجسيم ، وهذه العقيدة هى أساس عقيدة الفاطميين وفلسفتهم ، ورأينا الدعاة يكفرون كل من دان بالتشبيه أو التجسيم ، ولكن جاءت فرقة الكيزانية تحت سمع الفاطميين وبصرهم وقالت بالتشبيه ، والتف عدد من المصريين حول شيخ هذه الدعوة دون أن يعبأوا بسلطان الفاطميين وعقائدهم التى انتشرت فى مصر زهاء قرنين .

كان ابن الكيزانى شاعرا من شعراء الصوفية بمصر ، ولكنه كان ضعيف الشعر حتى قال عنه ابن سعيد : ووقفت على ديوانه ، وهو مشهور عند الناس ، قريب من أفهام العامة، غير مرضى عنه عند صدور الشعراء وأصحاب غوص الكلام وفرسان النظام ، وقد ضجرت من اختياره ومطالعته ، ولم أكتب من ديوانه شيئا تهش النفس إليه ، وإنما أردت ترجمته لشهرة ذكره وديوانه ، وكثيرا ما يباع فى سوق الفسطاط وسوق القاهرة ؛ وكان من لا يعرف معانى الشعراء المستحسنة وألفاظه المستبدعة يحضنى على الوقوف عليه ، فلما وقفت عليه أنشدنى متمثلا : أنا المعيدى فاسمع بى ولا ترنى .(٣) ولعل ابن سعيد كان على حق فى أن يصف شعر ابن الكيزانى على هذا النحو ، بالرغم مما ذهب إليه العماد الأصفهانى من الإعجاب بشعر ابن الكيزانى ، فإن المقطوعات التى رويت فى الخريدة من شعر ابن الكيزانى تدل على أن الشاعر لم يكن من المتفوقين فى الشعر إذا قسناه بشعراء الصوفية الذين ظهروا بمصر فى العصور التى تلت العصر الفاطمى مثل ابن الفارض وغيره ،

(١) الخريدة ورقة ٨٩ وما بعدها (٢) المصدر نفسه
(٣) المغرب ص ٩٣ وما بعدها

أو الشعراء الآخرين الذين عاصروه ، وربما كان سبب ضعف شعر ابن الكيزانى أنه كان واعظاً يخاطب الشعب والدهماء ، فكان يضطر الى اصطناع اللغة التى يفهمها الشعب وتقرب إلى نفوسهم . فأثر ذلك فى أسلوبه ولغته ، فإذا بهما يقربان من الأسلوب الشعبى ولغة الشعب ، وقد يكون هذا السبب هو الباعث الذى من أجله أقبل العامة فى مصر على قراءة ديوان ابن الكيزانى .

وهو فى بعض شعره واعظ أكثر منه متصوفا . انظر إليه يقول :

إذا سمعت كثير المدح عن رجل ... فانظر بأى لسان ظل ممدوحا
فإن رأى ذاك أهل الفضل فارض لهم ... ما قيل فيه ، وخذ بالقول تصحيحا
أولا ، فامدح أهل الجهل رافعه ... وربما كان ذاك المدح مجروحا (١)

وهو فى بعض شعره متصوف يتحدث عن العشق ، ويجرى فى هذا الشعر مجرى شعراء الصوفية الذين نهجوا نهج رابعة العدوية فى الحب الإلهى ، فابن الكيزانى كان أحد هؤلاء المحبين العاشقين ، وله فى ذلك عدة مقطوعات، منها قوله :

سواء أن تلوما أو تريحا ... رأيت القلب لا يهوى نصيحا
أما لو ذقتما صرف الليالى ... إذن لعذرتما القلب القريحا
وكانت فرقة الأحباب ظنا ... فأصبح بينهم خبرا صريحا
ولو لم ينزلوا سلمات نجد ... لما استنشقت بالسلمات ريحا
ولا أهديت الأسماع يوما ... غناء من حمائمها فصيحا
وها أنا قد سمحت بدمع عينى ... وكنت بدمعها أبدا شحيحا
وأمكنت المحبة من قيادى ... وصنت مع النأى ودا صحيحا
وقد سكن الجوى قلبا صحيحا ... وقد ترك الهوى صدراً قبيحا (٢)

وقوله أيضا :

أسكان هذا الحى من آل مالك ... مسالمة ما بيننا وجميل
ألم تعدونا أن تزوروا تكرما ... فما بال ميعاد الوصال طويل
وحلتم عن الوعد الجميل ملالة ... وأنتم على نقض العهود نزول
وإنا لنستبقى المودة والهوى ... شهيد لنا إذ ليس عنه نزول

(١) الخريدة ورقة ٩٠
(٢) المصدر نفسه

ولا تحسبوا العتبى عليكم توجعا ... فيطمع واش أو يلح عذول
رضينا ، رضينا أن نبيع نفوسنا ... وما عاشق منا بذاك بخيل
كذاك الهوى ، هذا حبيب معزز ... وهذا محب فى هواه ذليل
ووجد وشوق وارتياع ولوعة ... وهجر وسقم دائم ونحول
دواعى الهوى محتومة فاصطبر لها ... وإن جار بين أو جفاك خليل
علمنا بوشك البين أول حاله ... وما حضرتنا للوداع عقول
إذا ما طمعنا أن تقر ديارهم ... تداركهم بعد الرحيل رحيل (١)

قلنا إن الفرقة الكيزانية استمرت مدة طويلة بعد العصر الفاطمى ، وكان لها أثر قوى فى الصوفية الذين ظهروا بعد انقراض الدولة الفاطمية ، وكذلك كان الناس يتداولون شعر ابن الكيزانى فكان له تأثير قوى فى شعراء الصوفية الذين كانوا فى عصر الأيوبيين، ففى شعر ابن الفارض مثلا بعض المعانى التى فى شعر ابن الكيزانى ، ولكن شتان بين شاعرية ابن الفارض وشاعرية ابن الكيزانى، وسأترك المقارنة بين هذين الشاعرين الصوفيين إلى البحث الذى سيكون فى كتابنا القادم « أدب مصر فى عهد الأيوبيين والمماليك » .

الوصف :

وهناك غرض آخر من أغراض الشعر فى العصر الفاطمى هو عندى أقرب أغراض الشعر إلى التصوف ، ذلك هو وصف الطبيعة ، فكلا الغرضين ضرب من ضروب التأمل فيما خلقه الله ، فكثيرا ما يؤدى بشعراء الوصف إلى التصوف، ولكن شعراء مصر لم يسيروا فى هذا المجرى ، بل اتخذوا وصف الطبيعة وسيلة إلى وصف قصفهم ، فقد رأينا شعراء مصر الفاطمية من تلاميذ مدرسة ابن وكيع التنيسى ينشدون شعرا فى الخمر والمجون والطبيعة معا ، وكيف كانوا يؤثرون الشراب فى الرياض والمتنزهات ، ويمزجون وصف الخمر بوصف الرياض والمتنزهات أو بوصف السماء وما فيها من نجوم وغيوم وسحب ، وتحدثنا عن خروج الشعراء إلى المتنزهات المختلفة التى كثرت فى هذا العصر ، ينعمون بطيب هوائها ويمتعون أبصارهم بتنسيقها وجمال زهورها المتنوعة التى تجب الرحالة

(١) الخريدة ورقة ٩٣

ناصرى خسرو من وجود عدد كبير منها فى وقت واحد ، فهو يقول : « رأيت فى يوم واحد هذه الفواكه والرياحين : الورد الأحمر والنيلوفر، والنرجس والترنج والنارنج والليمون والمركب والتفاح والياسمين والريحان الملكى والسفرجل والرمان والكمثرى والبطيخ والعطر والموز والزيتون والبليلج (الإهليلج) والرطب والعنب وقصب السكر . . » إلى أن قال :

«وكل من يفكر كيف تجتمع هذه الأشياء التى بعضها خريفى وبعضها ربيعى وبعضها صيفى وبعضها شتوى لايصدق هذا» (١) ، ويقول عن بساتين القاهرة : وفى المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار ، وفى قصر السلطان بساتين لانظير لها ، وقد نصبت السواقى لريها ، وغرست الأشجار فوق الأسطح فصارت متنزهات(٢) ، وطبيعة مصر اضطرت المصريين منذ أقدم العصور إلى التفكير والتأمل ، والأمثال العامية التى يصطنعها الشعب المصرى الآن والتى نقلت إلينا معربة عن قدماء المصريين تدل دلالة قاطعة على رقة شعور المصريين ودقة إحساسهم وهم يتأملون طبيعة مصر ويتحدثون عنها ، وآثار قدماء المصريين ملئت بالحديث عن السماء والأرض واختلاف الجو وغير ذلك من آيات تفكيرهم فى الطبيعة ، على أن الشعراء المصريين فى العصر الفاطمى لم يصفوا الطبيعة على أنها لون من ألوان الفلسفة الطبيعية ولم يتحدثوا عنها حديثا يؤدى بهم إلى معرفة الخالق ، بل تركوا ذلك كله لعلماء المذهب الفاطمى وإلى الفلاسفة . واتخذوا لأنفسهم مذهبا فنيا خالصا مصدره جمال الطبيعة ، فإذا بهم يسبغون على المناظر التى وصفوها ألوان الحياة التى يألفونها من ملبس ومأكل ومسكن ، ويحاولون أن ينتزعوا من الطبيعة صورا هى أقرب الى صور الحياة التى اعتادوها وألوان الزينة التى كان يتزين بها المصريون فى العصر الفاطمى ، وها هو ذا ابن حيدرة العقيلى يصور منظرا رآه فى احدى المنتزهات :

الغيم بين مزرر ومحلل	والقطر بين مسرح ومسلسل
والقضب بين مقرط ومطوق	ومدملج ومتوج ومكلل
والنبت بين مزعفر وممسك	ومخلوق ومعنبر ومصندل
ومدبج ومطرز ومصنف	ومعبرض ومرصع ومثقل
فاشرب على حلل لو امكن لبسها	كانت تكون من الطراز الأول (٣)

(١) سفر نامه ص ٦٠ (ترجمة يحيى الخشاب)

(٢) المصدر نفسه ص ٥٠ (٣) المغرب ص ٧٤

ويقول مرة أخرى :

أمهات الثمار بين الروابى	تائهات بلبس خضر الثياب
وبنات الكروم تجلى بما قد	صاغه الماء من عقود الحباب
فاله مادام للشقيق خلوق	تنشر السحب فيه مسك ضباب (١)

ويقول فى وصف الرياض وقد شبهها بفرش المجالس :

عرائس القضب تجلى	على كراسى الروابى
ومجلس الروض فيه	فرش من العتابى

فابن حيدرة العقيلى وهو من أشهر شعراء مصر الفاطمية الذين أولعوا بوصف الطبيعة كان يتخذ صوره فى الوصف مما كان يدور حوله فى الحياة اليومية ، وهذه الظاهرة ليست فى شعر ابن حيدرة فحسب ، بل نراها عند كثير من شعراء مصر الفاطمية ، فالشاعر تميم بن المعز وهو أحد شعراء الطبيعة وصف بركة الحبش وخليج بنى وائل فقال :

كأن البركة الغنــا إذا ما	غدت بالماء مفعمة تموج
وقد لاح الضحى ، مرآة قين	قد انصقلت، ومقبضها الخليج
ترى قمر الدجى ، قمرا حذاه	طلوعا ماله فيها بروج (٢)

ووصف روضة على شاطئ النيل فقال :

ويوم خدعت الدهر عنه فلم أزل	أعلل نفسى فيه بالراح مع صحبى
لدى روضة عالت رباها كرومها	وجاد عليها النيل من مائه العذب
كأن سحيق المسك خالط أرضها	فجالت به فيها الرياح مع الترب
كأن نبات النيل والريح تهمى	بهن طلى خيل مؤثلة شهب
وطورا تخال الماء فى رونق الضحى	متون سيوف لحن مصقولة القضب
وتحسبه إن محصته يد الصبا	قوارير ما يفترن من قلق اللعب (٣)

وقال ابن عباد أحد شعراء الخريدة :

كأنما الأرض من زبرجدة	بدت إليك على غب من السحب
والأقحوانة هيفا وهى ضاحكة	عن واضح غير ذى ظلم ولا شنب

(١) المغرب ص ٥٦ (٢) ديوان الأمير تميم

(٣) المصدر نفسه

كأنما شمسه من فضة حرست   خوف الوقوع، بسمار من الذهب

وقال مجير بن محمد الصقلي في يوم مطير:

أرأيت برقا بالأبارق قد بدا   في أفقه متبسما متوقدا
كيف اكتسى ثوب السحاب ممسكا   وإخاله شنف الرداء موردا
فكأنه في الجو كأس، كلما   فاتت نمير البرق صاح وعربدا
أو مرهف كشفت مداوس صيقل   عن متنه صدأ، لكي يروي الصدا
فاعجب إلى ودق اللجين يسيل من   أفق أحالته البوارق عسجدا
وللؤلؤ للغيث يأخذه الثرى   فيعيده نبتا يخال زبرجدا(١)

وقال ظافر الحداد في يوم برد:

ويوم برد عقوده برد   لها سلوك من هيدب المطر
ينثره الجو ثم ينظم منه الأرض بالزهر كل منتشر
فهو يحاكي الحبيب في اللون واللطف وعذب الرضاب والخصر
فالغيم يبكي والزهر يضحك والبروق تبدي ابتسام ذي خفر(٢)

ويقول ظافر أيضا في متنزهات خليج الإسكندرية:

وعشية أهدت لعينك منظرا   جاء السرور به لقلبك وافدا
روض كخضر العذار وجدول   نقشت عليه يد الشمال مباردا
والنخل كالغيد الحسان تزينت   ولبسن من أثمارهن قلائدا(٣)

وللشعراء المصريين جولات في وصف النجوم، وفي الحديث عن النهار والليل واختلاف الجو باختلاف فصول السنة، فمن ذلك منظومة ابن وكيع التنيسي التي أوردها الثعالبي في اليتيمة، والتي تحدث فيها الشاعر عن إحساسه وشعوره نحو فصول السنة وتقلبات الجو باختلاف هذه الأوقات، ويقول في مطلعها:

يا سائلي عن أطيب الدهور   وقعت في ذاك على الخبير
سألتني أي الزمان أحلى   وأيه بالقصف عندي أولى
عندي في وصف الفصول الأربعه   مقالة تغني اللبيب مقنعه
أما المصيف فاستمع ما فيه   من فطن يفهم سامعيه

(١) الخريدة ورقة ٢٢   (٢) الخريدة ورقة ٨٥
(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٥

فصل من الدهر إذا قيل حضر   أذكرنا بحره نار سقر
تبصر فيه النبت مقشعرا   والأرض تشكو حره المضرا
نهاره مقسم بين قسم   جميعها يعاب عندي ويذم
أوله فيه ندى مبغض   كأنه على القلوب يقبض
يلصق منه الجسم بالثياب   وتعلق الأذيال بالتراب

ويقول في الخريف:

حتى إذا زال أتى الخريف   فصل بكل سوءة معروف
أهوية تسرع في كل الجسد   وهو كطبع الموت يبسا وبرد
يخشى على الأجسام من آفاته   فأرضه قرعاء من نباته

ومنها في الشتاء:

حتى إذا ما أقبل الشتاء   جاءتك منه غمة غماء
أقبل منه أسد مزير   له وعيد وله تحذير
لو أنه روح لكان فدما   أو أنه شخص لكان جهما
يأتيك في إبانه رياح   ليس على لاعنها جناح

أما عن الربيع فقال:

جاء إلينا زمن الربيع   فجاء فصل حسن الجميع
لبرده وحره مقدار   لم يكتنف حدهما الإكثار
عدل في أوزانه حتى اعتدل   وحمد التفصيل منه والجمل
نهاره من أحسن النهار   في غاية الإشراق والإسفار
تضحك فيه الشمس من غير عجب   كأنها في الأفق جام من ذهب
لبدره فضل على البدور   في حسن إشراق وفرط نور
كجامة البلور في صفائها   أو غرة الحسناء في نقابها(١)

وهكذا يمضي ابن وكيع في وصف فصول السنة

ومن قول شعراء مصر في النجوم ما أنشده ظافر الحداد:

كأن نجوم الليل لما تبلجت   توقد جمر في خلال رماد

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٨٥

حكى فوق ممتد المجرة شكلها ،   فواقع تطفو فوق لجة وادى[1]

وقال محمد بن عاصم :

ترى صفحة الخضراء والنجم فوقها   ككف سدوسى بدا فيه درهم
ترى ، وعلى الآفاق أثواب ظلمة   وأزرارها منها شمال ومرزم[2]

وقال المهذب بن الزبير :

وترى المجرة والنجوم كأنها   تسقى الرياض بجدول ملآن
لو لم يكن نهراً لما عامت به   أبداً نجوم الحوت والسرطان[3]

وقال ابن وكيع التنيسى:

قم فاسقنى صافية   تهتك جنح الغسق
أما ترى الصبح بدا   فى ثوب ليل خلق
أما ترى جوزاءه   كأنها فى الأفق
منطقة من ذهب   فوق قباء أزرق[4]

وقال تميم بن المعز فى الصباح :

وكأن الصباح فى الأفق باز   والدجى بين مخلبيه غراب[5]

وقال ابن وكيع التنيسى فى التبشير بالصباح :

غرد الطير فنبه من نعس   وأدر كأسك فالعيش خلس
سل سيف الفجر من غمد الدجى   وتعرى الصبح من ثوب الغلس
وانجلى فى حلة فضية   ما بها من ظلمة الليل دنس[6]

أما نيل مصر فكان له شأن مع شعراء مصر الفاطمية ، فإنهم كانوا يكثرون من ذكره فى شعرهم ، ويفيضون عليه صورهم كلما فاض عليهم بمائه ، وها هو ذا الأمير تميم يقول :

يوم لنا بالنيل مختصر   ولكل يوم مسرة قصر
والسفن تجرى كالخيول بنا   صعدا وجيش الماء منحدر
وكأنما أمواجه عكن   وكأنما داراته سرر

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٣   (٢) المصدر نفسه ص ٣٤
(٣) ج ١ ص ٣٦   (٤) المصدر نفسه
(٥) ج ١ ص ١٤٤   (٦) المصدر نفسه

ويقول مرة أخرى :

أما ترى الرعد بكى واشتكى   والبرق قد أومض واستضحكا
فاشرب على غيم بصنع الدجى   يضحك وجه الأرض لما بكى
وانظر لماء النيل فى مده   كأنما صندل أو مسكا[1]

ويقول تميم عند زيادة النيل :

أنظر إلى النيل قد عبا عساكره   من المياه فجاءت وهى تستبق
كأن خلجانه والماء يأخذها   مدائن فتحت فاختارها الغرق
كأن تياره ملك رأى ظفرا   فكر إثر الأعادى محنق نزق
كأن ماء سواقيه لناظرها   شهب الخيول إذا ماحثها العنق
فاشرب مهنى فإن اللهو منبسط   واطرب ولذ ، فهذا منظر أنق

ويقول ابن قلاقس :

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة   وانظر لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وأبقت شعاعا منه يخلفها   كأنما احترقت بالماء فى الغرق
وللهلال فهل وافى لينقذها   فى إثرها زورق قد صيغ من ورق[2]

ولم ينس الشعراء أهرام مصر ، فالشاعر عبد الوهاب بن حسن بن جعفر الحاجب المتوفى سنة ٣٨٧ قال فى وصف الأهرام :

انظر إلى الهرمين إذ برزا   للعين فى علو وفى صعد
وكأنما الأرض العريضة قد   ظمئت لطول حرارة الكبد
حسرت عن الثديين بارزة   تدعو الإله لفرقة الولد
فأجابها بالنيل يشبعها   ريا وينقذها من الكمد
لكرامة المولى المقيم بها   خير الأنام مقوم الأود[3]

ويقول ظافر الحداد :

تأمل بنية الهرمين وانظر   وبينهما أبو الهول العجيب
كعماريتين على رحيل   لمحبوبين بينهما رقيب
وماء النيل تحتهما دموع   وصوت الريح عندهما نحيب[4]

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ١٠١   (٢) ديوان ابن قلاقس ص ٧٥
(٣) خطط المقريزى ج ١ ص ١٩٥   (٤) الخريدة ورقة ٨٥

وقول عمارة اليمنى :

خليلى ما تحت السماء بنية   تماثل فى إتقانها هرمى مصر
بناء يخاف الدهر منه ، وكل ما   على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزه طرفى فى بديع بنائها   ولم يتنزه فى المراد بها فكرى[1]

أما منشئات الفاطميين ومبانيهم فقد ذكرها الشعراء فى أشعارهم ، ومنها هذه القصيدة التى أنشدها عمارة اليمنى بعد أن دالت دولتهم والتى تحدثنا عنها من قبل ، وقد ضاعت أكثر هذه الأشعار ، ولم يبق إلا عدة مقطوعات قليلة فى وصف مبانى المصريين .

قول على بن يوسف الإيادى يذكر دارا بناها المعز العبيدى بمصر ، وسماها العروسين :

بنى منظرا يسمى «العروسين» رفعة   كأن الثريا عرست فى قبابه
إذا الليل أخفاه بحلكة لونه   بدا ضوءه كالبدر تحت سحابه
تمكن من سعد السعود محله   فأضحى ومفتاح الغنى فتح بابه
ولو شاده عزم المعز ورأيه   على قدره فى ملكه ونصابه
لكان حصى الياقوت والتبر مفرغا   على المسك من آجره وترابه[2]

وقال أمية فى وصف قصر بناه الأمير على بن الأمير تميم بن المعز :

لله مجلسك المنيف فبابه   بموطد فوق السماك مؤسس
موف على حبك المجرة تلتقى   فيه الجوارى بالجوارى الكنس
تتقابل الأنوار فى جنباته   فالليل فيه كالنهار المشمس
عطفت حناياه دوين سمائه   عطف الأهلة والحواجب والقسى
واستشرفت عمد الرخام وظوهرت   بأجل من زهر الربيع وأنفس
فهواؤه من كل قد أهيف   وقراره من كل خد أملس
فلك تحير فيه كل منجم   وأقر بالتقصير كل مهندس
فبدا للحظ العين أحسن منظر   وغدا لطيب العيش خير معرس
فاطلع به قمرا ، إذا ما أطلعت   شمس الخدود عليك شمس الأكوس

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ١٠٥   (٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٤٠٧

فالناس أجمع دون قدرك رتبة   والأرض أجمع دون هذا المجلس[1]

ووصف الشاعر على بن محمد النيلى باب زويلة فقال :

يا صاح لو أبصرت باب زويلة   لعلمت قدر محله بنيانا
باب تأزر بالمجرة وارتدى الشعرى   ولاث برأسه كيوانا
لو أن فرعونا رآه لم يرد   صرحا ولا أوصى به هامانا[2]

على أننا نلاحظ ما بهذه المقطوعات من غلو ومبالغة فى تفخيم المبانى والمنشآت.

وهكذا نستطيع أن نتتبع هذه الصور المختلفة التى صور بها شعراء مصر الفاطمية ما رأوه فى الطبيعة وفى المتنزهات ، وهى صور من الحياة المصرية التى كانت تلائم ما فى العصر الفاطمى من ترف ونعيم ، بل ذكر الشعراء الزينات المختلفة التى كان الفاطميون يتخذونها فى دورهم ومتنزهاتهم ويغالون فى إظهارها إمعانا فى الترف والبذخ ، وها هو ذا ابن قلاقس يصف نخلة عليها زينة من أنوار السرج ، كالذى يتخذه المترفون اليوم فى أيام الحفلات الخاصة :

ما عهدنا النخل لولا هذه   باسقات بثمار اللهب
هطل الغيث لها من فضة   فهى فى قنوانها من ذهب
تلعب السرج على حافاتها   وتحاكى أنمل المرتعب
ولقد أحسبها ألسنة   هزها للسكر خمر الطرب[3]

ونرى المصريين يصفون فى شعرهم كل ما وقع تحت أنظارهم ، فوصفوا الشمعة مثلا ، كما فى قول المهذب بن الزبير :

ومصفرة لاعن هوى غير انها   تحوز صفات المستهام المعذب
شجونا وسقما واصطبارا وأدمعا   وخفقا وتسهيدا وفرط تلهب
إذا جمشتها الريح كانت كمعصم   يرد سلاما بالبنان المخضب[4]

ويقول آخر فى الشمعة أيضا :

وصحيفة بيضاء تطلع فى الدجا   صبحا وتشفى الناظرين بدائها
شابت ذوائبها أوان شبابها   واسود مفرقها أوان فنائها
كالعين فى طبقاتها ودموعها   وسوادها وبياضها وضيائها[5]

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٤١١   (٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٥
(٣) ديوان ابن قلاقس ص ١٨   (٤) الخريدة ورقة ٤٩   (٥) المصدر نفسه ١٣٩

ووصف الشاعر أمير الدولة أبو محمد عبد الله بن خليل — أمير شعراء المستنصر — القلم والرمح بقوله :

يراعان هذا يملأ الطرس حكمة   وذاك يذيق الحتف ليثاً غضنفرا
وإن ظمئا ظنناهما يردا على   نفوس العدا من غير إذن ويصدرا
فيشرب هذا أسود الليل حالكا   ويشرب هذا قانى الدم أحمرا (١)

ويصف طلائع الآمرى الخيل بقوله :

جنائب إن قيدت فأسد وإن عدت   بأبطالها فهى الصبا والجنائب
أثارت بأكناف المصلى عجاجة   دجت وبدت للبيض منها الكواكب (٢)

ويقول ابن الضيف فى عدد الفرس :

كم سابح أعددته فوجدته   عند الكريهة وهو نسر طائر
لم يرم قط بطرفه فى غاية   إلا وسابقه إليها الحافر (٣)

ويطول بى الأمر لو ذكرت ما وصفه شعراء مصر الفاطمية ، فهم لم يتركوا شيئا دون أن يتحدثوا عنه فى أشعارهم ، ولعل ذلك يرجع إلى ما كانوا عليه من رقة الشعور ودقة الحس ومقدرة على القريض .

(١) الخريدة ورقة ٢٠   (٢) المصدر نفسه ورقة ٣٥
(٣) المصدر نفسه ورقة ٣٧ .



خاتمة القول فى الشعر

رأينا صوراً مختلفة من الشعر المصرى فى العصر الفاطمى ، وعرفنا موضوعاته المتنوعة المتشعبة ، فنحن نتساءل بعد أن رأينا ذلك كله : إلى أى حد وفق شعراء مصر فى التعبير عن شخصية مصر فى شعرهم ؟ وإلى أى حد نستطيع أن نميز الشعر المصرى فى هذا العصر من غيره من شعر الأقطار الإسلامية الأخرى ؟

قبل أن نجيب عن مثل هذه الأسئلة نرى أن نتحدث أولا عن بعض خصائص ظهرت فى الشعر العربى فى كل عصوره وبيئاته منذ عرف الشعر العربى إلى الآن ، بل ستظل هذه الخصائص موجودة فى الشعر العربى ماوجد الشعر العربى ، وهذه الخصائص هى التى تجعله — مهما اختلفت بيئاته وتطورت عصوره — وحدة يشبه بعضها بعضا ، فالحياة العربية تتطور وتختلف باختلاف الأقاليم التى تنشد الشعر بالعربية ، ولكن هذه الخصائص فى الشعر لم تتطور بتطور الحياة ولم تختلف باختلاف الأقاليم ، وبالتالى يتطور الشعراء فلا تتطور معهم هذه الخصائص ، بل ظلت مثلا عليا للشعراء جميعا دون أن يصيبها تغيير جوهرى .

فمثلا نجد الشعراء جميعا منذ العصر الذى اتفق المؤرخون على تسميته بالعصر الجاهلى إلى عصرنا هذا ينشدون أشعارهم فى ألفاظ عربية حاول النقاد أن يصفوها فى كتبهم وأبحاثهم بالرقة والعذوبة والجزالة والسلاسة ، إلى غير ذلك من هذه الصفات التى وصفت بها الألفاظ الشعرية ، فلا نكاد نجد شاعرا من شعراء العربية اصطنع ألفاظا توصف بصفات تختلف عن تلك التى تحدث عنها النقاد القدماء والمحدثون ، حقيقة حاول بعض الشعراء أن يتظرف فى الشعر باستعمال بعض ألفاظ أعجمية ، ولكننا نستطيع أن نقول إن ذلك كان قليلا جداً بحيث لانستطيع أن ندعى أن هذه ظاهرة يقف عندها الباحث فى تاريخ الأدب العربى ، ولذلك لم يأبه لها مؤرخو الأدب ، وإذن فقد اشترك الشعراء جميعا فى استعمال الألفاظ العربية فى أشعارهم مهما اختلفت عصورهم وتباينت بيئاتهم ، فلانستطيع أن نتخذ الألفاظ أساساً للتمييز بين شعر قطر من الأقطار التى أنشدت بالعربية من

شعر قطر آخر ، فالألفاظ مثل من المثل العليا لشعراء العربية جميعا ، لم يصبها تغيير ، ولن يصبها تغيير .

كذلك نقول عن هذه الأوزان التى جرى الشعر العربى على أوتادها وأسبابها ، والتى تحدث عنها علماء العروض فى كتبهم ، فشعراء العربية لم يعدلوا عن الأوزان التى عرفها القدماء ، وأغلب الظن أن شعراء العربية لن يعدلوا عن هذه الأوزان مهما بعد بهم الزمن عن الشعر القديم ، وتلونت حياتهم بألوان مختلفة . ورب معترض يقول إن الأندلسيين أوجدوا الموشحات والأزجال ، وإن المصريين اخترعوا البليق ، وأدخل شعراء الفرس الدوبيت والرباعيات فى الشعر العربى . وهذه كلها أوزان لم يعرفها القدماء ولكن أتى بها المولدون ، فكيف تكون الأوزان إذن مثلا من المثل العليا للشعر العربى فى كل العصور وكل البيئات ! فأجيب هؤلاء المعترضين بأن المولدين لم يعدلوا عن التفعيلات القديمة . ولم تخرج أوزانهم الجديدة عن الدوائر العروضية التى عرفت قبل اختراع هذه الألوان من الشعر ، وإنما الذى فعله هؤلاء المولدون أنهم غيروا بعض أشكال الشعر ، واحتفظوا بالوزن الأساسى وبلون من ألوان القافية ، أى أنهم فى تجديدهم هذا لم يستطيعوا أن يحيدوا عن المثل القديمة فى الشعر العربى ، ومع ذلك كله فلو ذهبنا — جدلا — إلى أن الموشحات الأندلسية والبليق المصرى والدوبيت الفارسى تجديد فى الوزن العربى — مع أننا لانوافق على هذا الرأى — فإن هذه الألوان من الشعر كانت جزءا يسيرا جداً بجانب الشعر الآخر الذى خلفه الأندلسيون والمصريون والفرس ، والذى حافظ فيه الشعراء على الأوزان القديمة ، وإذن فالوزن مثل آخر من المثل العليا لشعراء العربية جميعا لم يصبه تغيير إلى الآن .

وكذلك نقول عن القافية وعن الأساليب الشعرية العربية ، فهذه كلها مثل من مثل الشعر العربى التى اتبعها الشعراء فى كل العصور والبيئات وحافظ عليها الشعراء أشد المحافظة ، حتى هؤلاء الشعراء الذين نزعم أنهم أسرفوا فى التجديد ، فالشاعر أبو نواس مثلا الذى هاجم الأساليب القديمة وتهكم بها لم يستطع أن يغير هذه الأساليب ولا طرائقه فى التعبير ، وكذلك نقول عن المجددين اللفظيين من أصحاب البديع الذين أسرفوا فى التلاعب اللفظى واستخدام ألوان الزينة البديعية ، فهم لم يستطيعوا أن يعدلوا عن عمود الشعر القديم ، فلم يبتكروا

قافية غير القافية التى نهج عليها القدماء ، ولا تفعيلات غير التى عرفتها دوائر العروض ولم يستخدموا ألفاظا غير عربية .

معنى ذلك كله أن الشعر العربى فى كل عصوره وبيئاته يشترك فى هذه الخصائص التى أصبحت مثلا للشعراء ، فلا نستطيع إذن أن نقول إن مصر لم تظهر شخصيتها فى الشعر أو إن المصريين قلدوا العباسيين واتخذوهم مثلا لهم لأن شعراء مصر اتبعوا هذه الخصائص العامة ، وكذلك لانستطيع أن نقول إن الأندلس أظهرت شخصيتها بأن أوجدت الموشحات ، فالذين زعموا أن العباسيين كانوا مثلا عليا لشعراء العرب لم يدركوا فن الشعر العربى حق إدراكه ، ونظروا إلى الشعر نظرة خاطفة فتوهموا أن العباسيين كانوا مثلا للشعر العربى ، ألم يذهب القدماء إلى أن ابن هانىء الأندلسى كان يقلد المتنبى حتى لقب بمتنبى الغرب ؟ ألم يقل القدماء أيضا إن الأمير تميم بن المعز كان يقلد ابن المعتز وينهج نهجه ؟ فإذا كان القدماء ذهبوا إلى أن العباسيين كانوا أساتذة لشعراء مصر والمغرب والأندلس ، فلم لا يذهب هؤلاء أيضا إلى أن العباسيين كانوا مثلا عليا للشعر العربى ؟ الواقع أن العباسيين أنفسهم خضعوا لتقاليد الشعر العربى وخصائصه ، شأنهم فى ذلك شأن جميع شعراء العربية فى كل العصور وكل البيئات ، فلم يكن العباسيون مثلا عليا لغيرهم من شعراء الأقاليم العربية .

وإذا كان شعراء العربية اشتركوا جميعا فى هذه الخصائص فإنهم اختلفوا فى المعانى التى تحدثوا عنها باختلاف عصورهم وبيئاتهم ، فنحن إذا أردنا أن نبحث عن شخصية مصر فى الشعر ، فنحن لا نجدها فى الأوزان ولا فى القوافى ولا فى اللفظ ولا فى أساليب الشعر ، بل نجدها فى المعانى التى ذكرها الشعراء وفى الأخيلة الشعرية ، وهنا فقط نستطيع أن نقول إن الشعر المصرى صور البيئة المصرية والحياة المصرية أصدق تمثيل ، بحيث إنك إذا قرأت هذا الشعر المصرى لاتستطيع أن تنسبه إلى قطر غير مصر .

فمن ناحية الشعر السياسى يعتبر شعر مصر الفاطمية سجلا للأحداث التى جرت فى هذا العصر ، حقيقة ضاع جل هذا الشعر السياسى ، ولكننا نستطيع أن نحكم على ذلك بما بقى لنا من آثار هذا الشعر ، وقد ذكرنا شيئا عن شعراء القصر وشعراء الوزراء ، وأن هؤلاء الشعراء كانوا لسان الدولة فى مثل هذه الأحداث السياسية

وكذلك كان أمر غيرهم من الشعراء الذين كانوا ينشدون الخليفة أو الوزير ، ومن البديه أن ما كان ينشد من الشعر السياسى هو صورة لحياة مصر السياسية دون غيرها من الأقطار الأخرى .

ورأينا جانبا من الشعر المصرى فى الزهد والدين بجانب الشعر المصرى فى المجون والإباحة ، وهذان اللونان من ألوان الشعر المصرى يدلان دلالة صريحة على ناحية هامة من نواحى الحياة فى الشعب المصرى ، فقد ذكرنا أن الشعب المصرى شعب يميل إلى التمسك بأهداب الدين ، وأنه شعب يعمل لآخرته ، ولكننا فى الوقت نفسه نراه شعبا يميل إلى المجون فى حياته وأنه شعب يميل لدنياه فيأخذ بنصيب من متاع الدنيا ، فمصر على هذا النحو متناقضة مضطربة بين متاع النفس ومتاع الجسد ، وإذا الشعر المصرى يضطرب أيضا فيمثل الناحيتين من حياة هذا الشعب ، ولعل هذه الظاهرة لاتزال ماثلة إلى اليوم فى حياة المصريين وفى شعر المصريين ، والذين درسوا الشعب المصرى عجبوا للفكاهة والدعابة المصرية ، وكيف يرسل المصريون الفكاهة تلو الفكاهة ، والنادرة بعد النادرة ، وهم يضحكون على مسمع هذه الفكاهات والنوادر بأصوات عالية ، وذكر الكتاب أن الفكاهة المصرية تدل على ذوق المصريين وسرعة بديهتهم وعلى وعى شديد فى تذوقها ، وزعم بعض الكتاب أن المصريين أكثر الشعوب حبا للفكاهة وكلفا بإطلاقها وسماعها ، وأن الفكاهة تجرى فى دم كل مصرى . ولكن هذه الفكاهات المصرية أكثرها فى الحديث عن الناحية الجنسية ، وهى تتناول بعض أعضاء الجسم ، حتى إن أشد ألوان الفكاهة المصرية إضحاكا هى هذه الفكاهات التى تتحدث عن العلاقة الجنسية أو أعضاء الجسم ، وهذا يؤيد ما ذهبنا اليه من أن للمصريين لونين من الحياة لونا يميلون فيه إلى المجون ولونا آخر يميلون فيه إلى الدين ، فإذا الشعر المصرى فى كل عصوره يمثل هذين اللونين ، وقد رأينا صورا لها فى الشعر المصرى فى العصر الفاطمى .

ونضيف إلى ذلك كله أن مصر بما تمتاز به من هذا الجو البديع الذى تكاد تنفرد به ، وأرض خصبة تروى فى أوقات منتظمة جعلت المصريين شعبا يميل إلى الهدوء واللين فى كل شىء ، وظهر أثر ذلك فى التفكير عند المصريين ، فنحن لا نكاد نجد عند المصريين عمقا فى تفكيرهم وفى دراساتهم المختلفة ، ولعل هذا هو السبب فى أننا لا نجد فيلسوفا مصريا ولا نجد فلسفة مصرية لها أثرها فى تاريخ

الفكر البشرى ، ونحن نعجب لهذا الشعب العظيم الذى استطاع أن يهضم كل المدنيات التى ظهرت ، وعرف كل الدراسات المتنوعة ، بل استطاع أن يمصر الشعوب التى وفدت على مصر ، ومع هذه القوة الكامنة فى مصر لم ينتج المصريون فلسفة خاصة بهم . ورب معترض يقول إن مدرسة الإسكندرية أوجدت فلسفة تباين الفلاسفة الهلينية بعض التباين ، ولكن فاته أن فلاسفة مدرسة الإسكندرية لم يكونوا من المصريين بل كانوا من الغرباء الذين وفدوا على مصر لطلب العلم على أساتذة مدرسة الإسكندرية ، وقد ذهب بعض مؤرخى مدرسة الإسكندرية إلى أن فلوطين من صعيد مصر ، وأنه تأثر بالبيئة المصرية والحياة المصرية ، وظهر ذلك فى آرائه التى حاول فيها أن يقرب بين فلسفة اليونان والمسيحية واليهودية ، ولكن حياة أفلوطين لم تكن كلها فى مصر ، فقد وفد على الإسكندرية سنة ٢٣٣ وأقام إحدى عشرة سنة فى الاستماع إلى الفلسفة اليونانية ، ثم رحل عن مصر إلى سوريا والعراق ، وفى سنة ٢٤٥ م رحل إلى رومة حيث لبث بقية سنى حياته إلى أن توفى سنة ٢٧٠ م . فآراء أفلوطين لم تكن بتأثير البيئة المصرية ، ولكنها كانت بتأثير هذه الرحلات التى قام بها ، فمدرسة الاسكندرية بالرغم من استمرارها فى مصر عدة قرون لم تؤثر فى المصريين تأثيرا له خطره ، والذى قبله المصريون من دروسها هو شىء قريب إلى عقلية الشعب المصرى التى تميل إلى كل شىء بسيط لين ، ولذلك لم تمكث مدرسة الإسكندرية الفلسفية طويلا عقب الفتح العربى ، إذ انتقلت تعاليمها إلى الرها وحران وأنطاكية ونصيبين . إلى أن أعاد الفاطميون تعاليم المدرسة الاسكندرية مصبوغة بالصبغة الإسلامية ، ثم خرجت هذه التعاليم من مصر بانقراض الدولة الفاطمية ، ولم تعد إليها إلى الآن ، وأغلب الظن أنها لن تعود مرة أخرى إلى مصر ، وفى تاريخ الحياة الصوفية فى مصر لم نجد صوفيا له فكرة متميزة به ، وإذا قلنا إن ذا النون المصرى كان من أوائل الصوفية الذين لهم رأى فى وحدة الوجود فان تعاليمه لم تزدهر فى مصر ، وإنما الذين حملوا آراءه كانوا من غير المصريين ، وذلك كله لأن المصريين شعب يميل إلى الهدوء واللين فى حياتهم وفى تفكيرهم ، وذلك من تأثير البيئة المصرية .

وغلبت هذه الطبيعة المصرية على الشعراء فنراهم هادئين فى تفكيرهم ، وفى ميلهم إلى اتخاذ الأوزان الخفيفة الهادئة التى تلائم طبيعتهم ، وظهر فى وصفهم

للطبيعة تلك الصور الهادئة التى ليس بها تعقيد الفلاسفة ولا عمق المفكرين ، إنما كانت صورهم هى صور الحياة اليومية التى كان يحياها المصريون .

والمصرى عرف منذ القدم بشدة تعلقه ببيئته لايريد الابتعاد عن حياته التى عرفها منذ أدرك الحياة ، وإذا غاب عن بيئته فهو يحن إليها حنينا شديدا جدا ولا يلبث أن يعود اليها ، وفى شعر مصر الفاطمية نجد الشعراء يعنون بتصوير هذه البيئة ، ولم يحاول الشاعر المصرى أن يخرج فنه عن دائرة هذه الحياة التى حوله ، ومن هنا كان تصوير الشعر المصرى للبيئة المصرية وللحياة المصرية فى صور متلاحقة تكاد تكون حسية . فإذا قرأنا هذه الأشعار فى تصوير هذه البيئة لا نستطيع أن ننسبها إلى بيئة أخرى غير بيئة مصر ، ولا يصور الشاعر شعبا غير شعب مصر ، فليطمئن الذين زعموا أن مصر لم تنتج أدبا ، أو الذين يزعمون أن مصر لم تظهر شخصيتها فى الشعر ، إلى أن مصر كان لها شخصية ظاهرة واضحة فى الشعر المصرى فى العصر الفاطمى ، ثم العصور التى وليت هذا العصر ، وأن الشعر المصرى يصور حياة المصريين المتشعبة النواحى أصدق تمثيل .

أما أخيلة المصريين فى التعبير عن تصوير بيئتهم وألوان حياتهم ، فهى أخيلة مستمدة من بيئتهم ومن حياتهم أيضا ، فالفاطميون فى أشعارهم التى أوردنا بعض صورها استخدموا الألوان الحسية ، فاستعمال الجناس والطباق إلى غير ذلك من ألوان الفن تمثل لنا أخيلة شعراء العصر الفاطمى بأنها صور منتزعة من الحياة الفاطمية ، وأن توسع الشعراء الفاطميين فى استعمال هذه الألوان والمغالاة فى استخدامها هى ضرورة اضطرتهم إليها حياة العصر الفاطمى نفسه ، حقيقة نرى عند شعراء مصر قبل العصر الفاطمى هذه الألوان الحسية فى شعرهم وقد تحدثنا عنها فى كتابنا « أدب مصر الاسلامية » وأوردنا شيئا من شعر شعراء هذا العصر ، مما يدل على أن هذا اللون من الفن عرفته مصر الإسلامية ، ولكن مصر الفاطمية كانت تمتاز بالغلو فى كل شيء ، فقد رأينا غلو الفاطميين فى الدين ، وغلوهم فى اللهو ، وغلوهم فى التزين والتجمل ، وغلوهم فى الملبس والمسكن : غلو فى أعياد فرحهم ، وغلو فى ذكريات مآتمهم . فظهر هذا الغلو فى فن الشعر ظهوره فى نواحى الحياة المختلفة ، فأسرف الشعراء فى العصر الفاطمى فى استخدام ألوان الزينة البديعية حتى تلائم إسراف الفاطميين فى حياتهم ، فإن الحياة كانت تمد الشعراء بهذه الألوان

الحسية عن الزينة . ليس معنى ذلك أن الشعراء فى غير مصر الفاطمية لم يعرفوا الزينة البديعية أو أنهم لم يسرفوا فى استخدامها ؛ بل كانت الزينة البديعية فى الشعر العربى أقدم عهداً من الفاطميين ، وإن هذه الزينة عرفها شعراء العراق وغير العراق قبل أن تقوم دولة الفاطميين فى مصر ، فقد فتنت الزينة البديعية الناس جميعا فى كل البلاد العربية ، وأخذ الشعراء فى استخدامها فى شعرهم لإرضاء ذوقهم الفنى ، وإرضاء الجمهور الذى فتن بها ، وتبع شعراء مصر الفاطمية تيار الشعر العربى ، ولم يتخلفوا عنه ، وإنما أسرفوا فى استخدام هذه المحسنات البديعية ، فسبقوا غيرهم فى مضماره ، وذلك لما فى المصريين من دقة الحس ورقه الشعور وميل إلى الفكاهة وخفة الروح ، فإذا بك لاتشعر أن بالشعر المصرى هذا التكلف الذى يظهر عند غير المصريين من الشعراء ، ولا تلمس جهد الشاعر فى الحصول على هذه الصور الفنية التى ابتدعها فى شعره ، فالصور أمامهم وبين أيديهم ينتقون منها ما يشاءون دون جهد ، فأحسنوا التحدث عن هذه الصور وأحسنوا تعليلها ، وهى صور مصرية وتعليلات مصرية منتزعة من الحياة المصرية الحضرية .

وإذن فنستطيع أن نطمئن أيضا إلى أن أخيلة المصريين كانت مصرية أيضا ، لم يتبعوا فيها غيرهم من شعراء البلاد العربية . وهكذا ظهرت شخصية مصر فى الشعر بارزة واضحة .

الباب الثانى

فى النثر

الفصل الأول

ازدهار النثر

رأينا فى كتابنا «أدب مصر الإسلامية» كيف أسس ديوان الإنشاء بمصر فى عهد أحمد بن طولون، وأن أول من ولى هذا الديوان كان أحمد بن محمد بن مودود المعروف بابن عبدكان الكاتب، وعرفنا كيف استمر تلاميذ ابن عبدكان يعملون فى دواوين الطولونيين والإخشيديين. فازدهرت الكتابة فى مصر على أيديهم حتى بلغت درجة عالية من درجات فن الكتابة فى مصر، حتى إن القلقشندى روى أن أهل بغداد كانوا يحسدون أهل مصر على طبطب المحرر وابن عبدكان الكاتب، ويقولون: بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما (١) وكثر عدد الكتاب فى مصر فى عهد الطولونيين والإخشيديين أمثال الحسن بن رافع ويعقوب بن إسحق وأحمد بن أيمن والحسين بن مهاجر وعلى بن أحمد المادرائى وابن الداية وإسحق بن نصير العبادى وإبراهيم بن عبد الله النجيرمى ومحمد بن كلا والروزبارى وغيرهم من الكتاب الذين اتخذوا الكتابة فنا يتكسبون به، ومؤهلا لتعيين الكتاب فى خدمة الأمراء وأصحاب الشأن فى البلاد، فكثر تنافس الكتاب فى تجويد الكتابة وإتقان الصناعة حتى علا منارها وعظم شأنها

تولى الفاطميون أمر مصر، ونهضة الكتابة فيها قوية مزدهرة، فتضاعفت هذه النهضة فى العصر الفاطمى بما عمل الفاطميون على النهوض أولا بالعلم وإذكاء شعلته فى البلاد، حتى كان للحركة العلمية أثر قوى فى تيار الفكر الإسلامى عامة

---

(١) صبح الأعشى ج ٣ س ١٧ .

وفى مصر الفاطمية على وجه خاص، وقد تحدثنا عن ذلك من قبل. ومن ناحية أخرى ظفرت مصر الفاطمية بنهضة أدبية كان لها أثرها القوى فى ازدهار الشعر وازدهار الكتابة معا، فقد عنى الفاطميون بالكتاب عنايتهم بالشعراء، بل لا أغالى إذا قلت إن عناية الفاطميين بالكتاب كانت أشد من عنايتهم بالشعراء. ذلك أن اتساع ملكهم وتشعب نواحى حياتهم وسلطانهم اضطرتهم إلى أن يوجهوا همتهم إلى العناية بالدواوين المختلفة عناية خاصة تتناسب مع غلوهم فى إظهار مجدهم.

ويحدثنا المؤرخون عن هذه الدواوين وعن الكتاب الذين تولوها والتشريف الذى كان يجده هؤلاء الكتاب فى العصر الفاطمى. من ذلك أن صاحب ديوان المجلس كان يخلع عليه وينشأ له السجل، وله المرتبة والمسند والدواة والحاجب إلى غير ذلك (١)، ويذكر المقريزى أن أبا البركات بن أبى الليث متولى ديوان المجلس سنة ٥١٧ هـ كان له باسمه مياومة إدرارا من بيت المال والخزائن ودار التعبية والمطابخ وشون الحطب الشىء الكثير، فكان له من البقول والتوابل ما قيمته نصف دينار ومن الضأن رأس واحد ومن الحيوان ثلاثة أطيار ومن الحطب حملة واحدة ومن الدقيق خمسة وعشرون رطلا ومن الخبز عشرون وظيفة ومن الفاكهة ثمرة زهرة قصريتان وشمامة، كما كان له فى كل يوم اثنين وخميس من السماط بقاعة الذهب طيفور خاص وصحن من الأوائل وخمسة وعشرون رغيفا من الخبز المائدى والسميذ، وفى كل يوم أحد وأربعاء من الأسمطة مثل ذلك، وفى كل يوم سبت وثلاثاء من أسمطة الركوبات خروف مشوى وجام حلوى ورباعى عنب، وكان يحضر إليه فى كل يوم من الاصطبلات بغلة بركوب محلى وبغلة برسم الراجل وفراشين برسم خدمته؛ ولم يقتصر الأمر عليه وحده بل جعلوا لولده جاريا كل يوم مقداره ثلاثة أرطال لحم وعشرة أرطال دقيق وراتبا عشرة دنانير (٢).

ويقول المقريزى أيضا عن ديوان التحقيق إنه كان لا يتولاه إلا كاتب خبير وله الخلع المرتبة والحاجب (٣)؛ أما صاحب ديوان الإنشاء والمكاتبات فكان أول أرباب الإقطاعات وأرباب الكسوة والرسوم، وله حاجب من الأمراء

---

(١) خطط المقريزى ج ٢ س ٢٣٦ (٢) المصدر نفسه ج ٢ س ٢٢٩ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ س ٢٤٢ .

الشيوخ وفراشون وله المرتبة الهائلة والمخاد والمسند والدواة ، وهي من أخص الدوى ويحملها أستاذى الخليفة[١] ، ويحدثنا ياقوت أن رزق ابن خيران كاتب الإنشاء فى عهد المستنصر كان ثلاثة آلاف دينار فى السنة ، وكان له عن كل ما يكتبه من السجلات والعهودات وكتب التقليدات رسوم يستوفيها من كل شيء[٢] .

فهذا التشريف الذى جعله الفاطميون لكتاب دولتهم كان من أهم عوامل ازدهار الكتابة فى هذا العصر ، كما كان إغداق النعم على الكتاب على هذا النحو الذى رأينا صورته من أسباب كثرة الكتاب وإقبال الناس على التعلم وإجادة الكتابة ليصلوا إلى مرتبة الكتابة فى الدواوين ، فكثر عدد الكتاب وأصبح على المتأدب أن يأخذ عن الكتاب طرائقهم وفنهم ، ويحدثنا القاضى الفاضل أنه كان من عادة أرباب الدواوين فى تربية أبنائهم أنهم كانوا يرسلون هؤلاء الأولاد إلى ديوان المكاتبات ليتعلموا فن الكتابة ، قال القاضى الفاضل : كان فن الكتابة بمصر فى زمن بنى عبيد غضا طريا ، وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكانا وبيانا ، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانا ، وكان من العادة أن كلا من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وشدا شيئا من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع . فأرسلنى والدى وكان إذ ذاك قاضيا بثغر عسقلان إلى الديار المصرية فى أيام الحافظ ، وأمرنى بالمصير إلى ديوان المكاتبات ، وكان الذى يرأس به فى تلك الأيام رجل يقال له ابن الخلال ، فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبى رحب بى وسهل ، ثم قال : ما الذى أعددته لفن الكتابة من الآلات ؟ فقلت : ليس عندى شيء سوى أنى أحفظ القرآن العزيز وكتاب الحماسة . فقال : وفى هذا بلاغ . ثم أمرنى بملازمته ، فترددت عليه وتدربت بين يديه ، ثم أمرنى بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة فحللته من أوله إلى آخره ، ثم أمرنى أن أحله مرة ثانية فحللته[٣] .

فهذا النص يدلنا على مبلغ تعلق الناس بتعليم أبنائهم فن الكتابة ، فقد كان

---

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٤٤ (٢) معجم الأدباء ج ٤ ص ٥ (طبعة رفاعى)

(٣) الروضتين ج ١ ص ١٩٢

حفظ القرآن الكريم وأشعار العرب من عُدَد الكاتب فى هذا العصر ، وقد رأينا كيف طلب ابن الخلال من تلميذه الذى عرف بعد ذلك بالقاضى الفاضل أن ينثر كل الأشعار التى جمعها ديوان الحماسة تهيئة له فى الدخول فى سلك الكتاب. ولم تكن ملكة الكتابة وحدها تكفى أن تجعل الإنسان كاتبا ، بل كان لا بد له من آلات — على نحو ما عبر ابن الخلال — وهذه الآلات هى علوم العربية ، حتى يتسنى للكاتب أن يسير على نهج الأساليب العربية ، فلا يقع فى لحن نحوى أو لغوى ، أو يبتعد الكاتب عن سنن كتاب العربية فى أسلوبهم وتعبيراتهم : ولم يقنع الفاطميون بأن تكون كتابات الكتاب سليمة صحيحة ، بل حرصوا أشد الحرص على ذلك ، بأن جعلوا فى ديوان الإنشاء لغويين ونحويين لمراجعة ما كان يحرره الكتاب حتى تخرج كتاباتهم سليمة من الأخطاء ، فهذا الحرص على سلامة أساليب الكتابة كان من العوامل التى جعلت الكتاب أنفسهم يعملون جاهدين على أن تخرج كتاباتهم خالصة متفقة مع الأساليب العربية ، فلا غرو أن يقول القاضى الفاضل : « إن فن الكتابة بمصر فى زمن بنى عبيد كان غضا طريا » وان تصبو نفس كل متعلم إلى أن يكون كاتبا من كتاب الدواوين .

وقد يكون من عوامل ازدهار الكتابة فى العصر الفاطمى أن وزراء العصر الأول من الحكم الفاطمى كانوا من الكتاب ، وكانوا يعملون فى الدواوين قبل اختيارهم للوزارة ، فالفلاحى والجرجرائى واليازورى والبابلى وبنو المغربى وابن المدبر وابن الأنبارى وكثير غيرهم كانوا من الكتاب ، وقد بلغوا مرتبة الوزارة ، حتى إن المؤرخين لاحظوا أن وزراء الدور الأول كانوا من أصحاب الأقلام ، وأن وزراء الدور الثانى كانوا من أصحاب السيف . وليس معنى ذلك أن الكتابة ضعفت فى الدور الثانى ، أو أن الكتاب أصبحوا فى مكانة تقل عن مكانتهم الأولى ، بل ظل الكتاب يتمتعون بمثل المركز الرفيع الذى كانوا فيه فى الدور الأول ، ومنهم كان جلساء الإمام وحجابه وأصحاب مظلته ، ومنهم كان القضاة والدعاة . وهذه كلها كانت أكبر مناصب الدولة بعد الوزارة ، فالكتاب طوال العصر الفاطمى كانت لهم مكانتهم الممتازة ، والنعم العميمة ، والعطايا الجزيلة ، فلا غرابة إذن أن يقبل الناس على الكتابة ، وأن تزدهر فى هذا العصر : أضف إلى ذلك كله أن نظام الحكم الفاطمى كان من أشد العوامل على ازدهار

الكتابة ، فإن الفاطميين كانوا يسجلون كل دقيقة وعظيمة فى سجل يخرج من الديوان ، فتعيين الوزراء أو الكتاب أو القضاة أو الدعاة وغيرهم من أرباب وظائف الدولة كان يخرج به سجل خاص مطول، فيه الحض على تقوى الله وطاعة الإمام والتمسك بأهداب الدين الحنيف ، ثم الإشارة إلى المنصب الذى سيعين فيه الموظف ، وما يتطلبه ذلك المنصب من عمل ، إلى غير ذلك من ترغيب فى المنصب ومشورة فى تصريف العمل . وإذا خرج الخليفة لفتح الخليج أو لصلاة الجمعة أو العيد فيخرج السجل بذلك . وفى أعيادهم ومآتمهم كانت تصدر هذه السجلات أيضا ، حتى أصبحت هذه السجلات تأريخا للعصر الفاطمى كله . وكان الكتاب يفتنون فى إظهار مقدرتهم وكفاياتهم فى صياغة هذه السجلات ، ويتنافسون فى هذا الفن . فجاءت هذه السجلات الفاطمية صوراً رائعة من صور الكتابة العربية التى تمثل العصر الفاطمى أصدق تمثيل .

من ذلك نستطيع أن ندرك كيف ازدهرت الكتابة فى العصر الفاطمى ، وكيف أقبل المتعلمون على أن يلموا بفن الكتابة ، حتى يصبحوا كتابا فى دواوين الفاطميين . وأن ينالوا ما ناله الكتاب من تكريم وتقريب ونعم .

النثر والأئمة :

وكان الأئمة يجيدون فن النثر كما كانوا يعرفون بالشعر ، فقد كان الأئمة يلقون الخطب الدينية فى المسجد الجامع . ويقرأون ما يعرضه عليهم الدعاة من مجالس الحكمة ، وقد يبدلون بعض أجزاء هذه المجالس . فمن خطبة المعز لدين الله فى عيد الأضحى سنة ٣٤١ هـ .

« الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر الأعز الأقدر ، الخالق المدبر ، ذو الكبرياء والجبروت ، والعزة والملكوت ، الأحد الصمد ، الفرد المتفرد ، الأعلى القاهر ، الباطن الظاهر ، الأول الآخر ، مبدع السموات والأرض بالقدرة ، ومالكها بالعزة ، ومدبرها بالحكمة ، وخالقها بما فيها من عجائب الفطرة ، وبدائع التركيب والصنعة ، الذى كل شىء من موات وحى متوجه بالدعاء إليه ، والدلالة عليه ، والشهادة له بالتوحيد ، والتعظيم والتحميد ، فتكوينه الأشياء كلها من عدم شاهد بأن لاشىء قبله ، وانتهاؤها إلى الغايات دليل على أن لا

غاية له ، وإحاطته بحدودها منبىء بأن لا حد له ، فالضعف والعجز والفقر والنقص الذى لم يخل منه مخلوق أفصح ناطق وأصدق شاهد للخالق وحده — جل ثناؤه — بالإلهية والفردانية والقدرة والربوبية والتمام والكمال والأزل والدوام . تبارك الله رب العالمين ، أحسن كل شىء خلقه ، وكفل لكل حى رزقه ، ثم هدى بالعقل الذى قامت حجته ، ووجبت طاعته ، والكتب والرسل الذين تمت بهم حكمته . فصلى الله عليهم أجمعين، وعلى محمد سيد المرسلين، الذى رفع ذكره وأعلى قدره ، فأكرمه بالوسيلة ، واختصه بكل فضيلة ، وابتعثه هاديا للعباد ونوراً فى البلاد ، علم به من الجهل ، وهدى به من الضل ، وكثر به من القل ، وأعز به من الذل ، فألف به بعد الشتات ، ونور به دياجير الظلمات ، صلوات الله عليه وآله المهديين الأخيار الطيبين . يا أيها الناس إن الله لم يخلقكم عبثا ، ولم يهملكم سدى ، ولم يجعل عليكم فى الدين حرجا ، ولم يضرب الذكر عنكم صفحا ، للعبادة خلقكم ، وبطاعته وطاعة رسوله أمركم ، وجعل للطاعة أعلاما منصوبة ، وفروضا مكتوبة ، ومن أفضل أعلامها وأكرم أيامها يوم الحج الأكبر إلى البيت العتيق مبوأ إبراهيم خليل الله ، وقبلة محمد رسول الله ، فتقربوا إلى الله بما أمدكم به ورزقكم إياه من بهيمة الأنعام، مقتدين سنة محمد نبى الرحمة والهدى ، مستشعرين لله التقوى ، فإن الله عز وجل يقول : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم » فبالتقوى تقبل الأعمال ويدرك الأمل ، وكبروا الله على ماهداكم ، واشكروه على ما أولاكم ، ألا وإن خير الهدى الإبل ، وخير الإبل إناثها ، وكذلك من البقر ثم الفحول من الضأن ، وسلامة الضحايا سلامة العين والأذن ، وأن تكون من حلال الأموال ، نسأل الله لنا ولكم قبول العمل بامتنانه ، وبلوغ الأمل من رضوان الله ورحمته وإحسانه » .

وجلس ثم قام فى الثانية ينعى المنصور ويعلن موته ، بعد أن كان موته قد ظل مستوراً عدة أشهر :

« الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر شانا ، وأعظم سلطانا ، وأوضح آيات وبرهانا، عن أن تنكر العقول توحيده ، أو تروم تحديده ، خالق السموات والأرض ومالكهما ومدبرهما، الفرد الصمد ، الواحد الأحد ، الذى لا شريك له ولا ند ، الخالق القدير ، الرحمن الغفور ، النافذ قضاؤه ،

على من لم يعرفنا ، فكيف من لم يعرف إلا بنا ، ونحن نسعف جعفراً لسؤاله ما سأل فيه إن شاء الله »(١).

وكذلك نقول عن الأئمة الذين جاءوا بعد المعز ، فقد كانوا على ثقافة واسعة وعلم غزير جعلهم يهتمون بالكتابة ويميزون بين الجيد منها والردىء ، بل تنسب إلى بعضهم رسائل مثل مجموعة الرسائل التى تنسب إلى المستنصر الفاطمى والتى عرفت «بالرسائل المستنصرية»(٢). والتى قيل إنها الرسائل التى تبودلت بين المستنصر وبين على بن محمد الصليحى صاحب اليمن ، فمؤرخو الإسماعيلية يؤكدون أن هذه الرسائل من إنشاء المستنصر نفسه ، ولكنى — بعد أن اطلعت على هذه الرسائل — أستطيع أن أقول إن أسلوبها أقرب إلى أسلوب المؤيد فى الدين داعى الدعاة .

وكذلك نقول عن « رسالة الهداية الآمرية » (٣) التى ينسبها الإسماعيلية إلى الإمام الآمر بأحكام الله ، فقد شك الأستاذ آصف فيظى ناشر هذه الرسالة فى نسبتها إلى الإمام الآمر ، ورجح أن تكون من إنشاء أحد الكتاب الذين كانوا فى عصر الآمر .

ومهما يكن من شىء فإن الكتابة فى العصر الفاطمى قد ازدهرت بازدهار الحياة المصرية فى ذلك العصر ، ولشدة إقبال الناس على التماس العلم والنهل من منابعه التى كثرت ، وتعددت ألوانها وفنونها . وتطور الكتابة يتبع دائماً تطور الحياة العلمية ، فإذا ارتقت العلوم تبعها رقى فى الكتابة ، وإذا انحطت العلوم انحطت الكتابة .

(١) المصدر السابق .
(٢) مجموعة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن .
(٣) الرسالة الموسومة بالهداية الآمرية فى إبطال دعوى النزارية تحقيق الأستاذ آصف على أصغر فيظى (من مطبوعات جمعية الأبحاث الإسلامية بالهند) .

الفصل الثانى

كتاب ديوان الإنشاء

قال القلقشندى : « لما ولى الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتابه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع فى الآفاق ذكره ، وولى ديوان الإنشاء منهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمى »(١) هكذا وصف القلقشندى كتاب ديوان الإنشاء فى العصر الفاطمى ، وما بلغه هذا الديوان على أيدى الكتاب من رفعة القدر وشيوع الذكر ، ولا غرو فى ذلك إذ كان منصب ديوان الإنشاء لا يتولاه فى الدولة الفاطمية إلا أجل كتاب البلاغة(٢)، ولمكانته وكفايته كان يلقب بالشيخ الأجل وبصاحب الدست الشريف(٣) كما كان الخليفة يستشيره فى أكثر أموره ، ولا يحجب عنه متى قصد المثول بين يديه(٤)، وقد تحدث ابن منجب الصيرفى — أحد كتابهم — عن الصفات التى يجب أن يتحلى بها رئيس ديوان الإنشاء ، نلخص أهمها فيما يأتى :

١ — أن يكون ذا دين وورع وأمانة .

٢ — أن يكون دينه الإسلام .

٣ — أن يكون على مذهب الملك .

٤ — أن يكون من البلاغة والفصاحة إلى أعلى رتبة وأسنى منزلة ، وبحيث لا يوجد أحد فى عصره يفوقه فى هذا الفن .

٥ — أن يكون مضطلعا بفنون الكتابة ، عالما بأصولها وفصولها .

٦ — أن يكون حافظا لكتاب الله تعالى، وحافظا للأشعار راويا للكثير منها،

٧ — أن يكون أصيلا فى قومه ، رفيعا فى حسبه(٥) .

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٩٦ .
(٢) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٤٤ وصبح الأعشى ج ١ ص ١٠٢ .
(٣) المصدر السابق . (٤) المصدر السابق .
(٥) قانون ديوان الرسائل لابن منجب ص ٩٤ وما بعدها .

هذه أهم الصفات التى رأى ابن منجب أن يكون عليها رئيس ديوان الإنشاء ، فهل اتخذ الفاطميون هذه الصفات دستوراً لهم فى اختيار رؤساء هذا الديوان ؟ يؤسفنى أن أقول إن الفاطميين لم يأبهوا بهذه الشروط والصفات التى اقترحها أحد كتابهم فى كتاب قدمه لوزير من وزرائهم ، ولكن ابن منجب كان من كتاب القرن السادس للهجرة فى وقت بدأ فيه ضعف دولتهم وقوة أعدائهم ، ولا سيما قوة الصليبيين ، فلا غرابة أن نرى ابن منجب يشترط أن يكون الإسلام دين رئيس الديوان « وخاصة بحكم الوقت الحاضر ألا يطلع على أسراره من يخالف شريعة الإسلام لقرب دار العـــدو خذله الله وأباده » (١) . فان وجود الصليبيين فى بلاد الشام يناوئون الفاطميين جعل ابن منجب يضطر إلى أن يشترط أن يكون رئيس ديوان الإنشاء مسلما . أما قبل عهد الصليبيين ، ومنذ قامت دولة الفواطم فى مصر ، فقد كان يتولى ديوان الإنشاء بعض أهل الذمة ، كما كان يتولاه بعض المسلمين . ويذكر المؤرخون أسماء بعض من تولى هذا الديوان من أهل الذمة ، مثل أبى المنصور بن نسطوروس النصرانى كاتب العزيز والرئيس فهد ، كاتب الحاكم وغيرهما ، كما كان يكتب ابن أبى الدم اليهودى فى عهد الحافظ معنى هذا أن الفاطميين لم يأبهوا بمذهب الكاتب أو دينه ، بل لا أغالى إذا ذهبت إلى أن الفاطميين كانوا كثيرا ما يستعينون بالذميين فى دولتهم ، وهذه ظاهرة سجلها المؤرخون فى كتبهم عن الدولة الفاطمية ، ولكن ليس معنى ذلك أن الفاطميين أبعدوا المسلمين عن الدواوين ، فإن الكثرة الساحقة من كتاب الدواوين كانوا من المسلمين ، فاذا عرضنا أسماء رؤساء ديوان الإنشاء التى وردت فى صبح الأعشى رأينا أكثر الكتاب من المسلمين ، فقد جاء فى هذا الكتاب : « فكتب للعزيز بالله ابن المعز أبو المنصور بن نسطورس النصرانى ، ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات فى أيامه ، فكتب للحاكم القاضى أبو الطاهر النهركى ، ثم كتب بعده لابنه الظاهر ، وكتب للمستنصر القاضى ولى الدين ابن خيران ، ثم ولى الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله إلى الوزارة ، وأبو سعيد العميدى ، وكتب للآمر والحافظ الشيخ الأجل أبو الحسن على بن أبى أسامة الحلبى ، إلى أن توفى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، فكتب بعده ولده الأجل

(١) قانون ديوان الرسائل لابن منجب ، ص ٩٥ .

ابو المكارم إلى أن توفى فى أيام الحافظ ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرياسة أبو القاسم على بن سليمان بن منجب المعروف بابن الصيرفى ، والقاضى كافى القضاة محمود ابن القاضى الموفق أسعد بن قادوس وابن أبى الدم اليهودى ، ثم كتب بعد الشيخ أبى المكارم بن أبى أسامة المتقدم ذكره القاضى الموفق بن الخلال أيام الحافظ وإلى آخر أيام العاضد ، وبه تخرج القاضى الفاضل البيسانى ، ثم أشرك العاضد مع الموفق ابن الخلال فى ديوان الإنشاء القاضى جلال الملك محمود الأنصارى ، ثم كتب القاضى الفاضل بين يدى الموفق ابن الخلال قرب وفاته سنة ست وستين وخمسمائة فى وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكتب من إنشائه عدة سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم (١) .

ولكن هذه الأسماء التى جاءت فى صبح الأعشى ليست عرضا لرؤساء ديوان الإنشاء فى العصر الفاطمى كله ، كما أن الذى نراه فى كتب التراجم وفى المراجع العامة الأخرى يختلف بعض الاختلاف عما ورد فى صبح الأعشى ، إذ تحدثنا هذه المراجع أن الحسين بن جوهر القائد كان يلى ديوان الإنشاء فى عهد العزيز (٢) وأنه ظل فى منصبه إلى أيام الحاكم ثم استبدل به صالح بن على الروزبارى ، ثم جاء بعده الكافى ابن عبدون النصرانى ، ثم صرف وقرر بدله أحمد بن محمد القشورى الكاتب ، ثم زرعة بن عيسى بن نسطورس الكاتب النصرانى الملقب بالشافى ، وبعده حسين بن طاهر الوزان (٣) . ونفهم من كلام ابن زولاق مؤرخ مصر أن مالك ابن سعيد الفارقى كان له النظر أيضا فى المكاتبات فى عصر الحاكم (٤) ، وتولى ابن خيران كتابة السجلات للظاهر والمستنصر (٥) ، ويذكر المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى فى سيرته أنه ولى ديوان الإنشاء بمصر سنة ٤٤٣ هـ (٦) ، ويذهب المقريزى إلى أن الوزير ابن المغربى ولى ديوان الإنشاء بعد أن صرف عن الوزارة (٧) وأن سناء الملك أبا محمد الزبيدى الحسنى كان على رأس ديوان الإنشاء فى عهد الآمر (٨) ؛ وهكذا نستطيع أن نعرف عدداً آخر من الكتاب الذين

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٩٦ . (٢) خطط المقريزى ج ٣ ص ٢٠٢ .
(٣) اتعاظ الحنفا ص ٣٠٠ وما بعدها (٤) الولاة والقضاة ص ٦٠٦ .
(٥) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٨ .
(٦) السيرة المؤيدية (من مطبوعات دار الكاتب المصرى) .
(٧) خطط المقريزى ج ٣ ص ٢٥٧ . (٨) الخطط ج ٤ ص ٧٨ .

ولوا ديوان الإنشاء غير الذين ذكرهم القلقشندى ، كما نستطيع أن نستخرج أسماء عدد كبير من الكتاب الذين كانوا يعملون فى ديوان الإنشاء ، ولكننا لا نستطيع أن نعرف مذاهبهم الفنية فى الكتابة ، لأن آثارهم فقدت ولم يبق لنا إلا عدة رسائل وسجلات لا تكفى لأن نكون رأيا صحيحا عن كل كاتب من هؤلاء الكتاب ، ولكن هناك عدة خصال عامة اشترك فيها كل كتاب هذا العصر ، بحيث نستطيع أن نلمسها عند كل الكتاب الذين وصل إلينا شىء من فى كتاباتهم . فأول خصلة من هذه الخصال هى أن الكتاب جميعا التزموا السجع كتاباتهم ، نرى هذه الخصلة منذ ابتدأت الدولة الفاطمية إلى أن قوض صلاح الدين الأيوبى أركانها ، نراها فى رسالة المعز لدين الله إلى القرمطى (١) ، وفى رسالة العزيز بالله إلى عضد الدولة البويهى وهذه الرسالة كانت من إنشاء يعقوب بن كلس (٢) وفى السجلات الكثيرة التى كتبت فى عهد الحاكم (٣) وفى رسائل المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى وفى كتابات ابن خيران ، ونستمر فى إدراك هذه الخصلة عند الكتاب حتى نراها فى رسائل ابن الصيرفى وابن الشخباء ، ثم فى رسائل القاضى الفاضل .

وخصلة أخرى نراها فى فن هؤلاء الكتاب وهى الاقتباس من القرآن الكريم ، فكانوا أحيانا يضمنون رسائلهم وسجلاتهم بعض آيات من القرآن ، أو يقتبسون بعض معانى القرآن ، متأثرين بهذا كله تأثيراً واضحا فى جميع ما خلف لهم من كتابات .

وخصلة ثالثة هى المبالغة فى استخدام الزينة اللفظية والمعنوية فى كتاباتهم ، فهم يغرقون فى المبالغة حين يحاولون تشخيص المعانى ، ويولعون باستخدام الجناس ، ويكلفون فى تركيب جملهم بمراعاة النظير : فإذا بك تجد كتاباتهم عبارة عن جمل قصيرة فى الغالب ، والجملة تتبع الأخرى فى وزنها وموسيقاها ومعناها ، وينتقل بك الكاتب من معنى إلى آخر فى رقة وعذوبة ، فلا ينتقل بك انتقالا جفائيا ، مما يدل على فطنة الكاتب ومهارته ، كما يدل أيضا على أن الصنعة الفنية كانت تستهوى جميع الكتاب على أن هذه الخصال التى عرفت فى العصر الفاطمى

(١) اتعاظ الحنفا ص ٢٠١ . (٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢٤ .
(٣) الخطط ج ٣ ص ٣٣ .

عرفت أيضا فى رسائل ابن عبد كان ، فلا غرابة إذا قلنا إن أثر ابن عبد كان فى كتاب مصر كان قويا شديداً ، وإن فنه الذى عرف به فى العصر الطولونى قد ظهر واضحا فى العصر الفاطمى ، وإن كان كتاب الفاطميين قد بالغوا فى ذلك كله مبالغتهم فى كل شىء فى حياتهم . كما أن هذه الخصال نفسها هى التى عرفت بها كتابات القاضى الفاضل ، وما القاضى الفاضل إلا أحد تلاميذ كتاب الفاطميين وبهم تخرج ، والعجب حقا أن أرى بعض الزملاء يتوهم أن للقاضى الفاضل مذهبا خاصا عرف به فى الكتابة ، وأن له مدرسة تتميز بخصائصها وطرائقها عن مدرسة الكتاب الفاطميين ، وأخشى أن أذهب إلى أن هؤلاء الزملاء لم يدرسوا تطور الكتابة فى مصر دراسة كافية ، فقصورهم فى معرفة أسلوب كتاب مصر منذ أيام ابن عبد كان جعلهم ينسبون طريقة ابن عبد كان إلى القاضى الفاضل ، ونحن نلتمس لهؤلاء الزملاء بعض العذر فى حكمهم هذا ، لأنهم كانوا تبعا فى ذلك للقدماء الذين أشادوا بذكر القاضى الفاضل ، وتناسوا أساتذته وخصائص مذهبهم التى أخذها عنهم ، وجاء المحدثون يتبعون القدماء فى أحكامهم دون درس وبحث .

وخصلة أخرى تتميز بها رسائل كتاب الفاطميين ونجدها ظاهرة فى كل سجلاتهم ، تلك هى المقدمات التى كان يبدأ بها الكتاب رسائلهم وسجلاتهم ، فقد دفعتهم عقيدتهم الدينية وتمذهبهم بالمذهب الفاطمى إلى أن يبدأوا رسائلهم وسجلاتهم بالحمد لله ، ثم بالصلاة على النبى وعلى الوصى والأئمة من أهل البيت ، ويتعمدون دائما أن يذكروا أن محمداً جد الأئمة فكأنهم كانوا يحاولون إثبات نسبهم فى كل رسالة من رسائلهم وكل سجل من سجلاتهم ، وكأنهم أرادوا بتكرار هذه الناحية تأكيد ما حاول خصومهم نفيه ، أو كأنه رد على سجلات العباسيين فى دحض نسب الفاطميين ، هذه الظاهرة واضحة كل الوضوح فى كل رسائل الفاطميين منذ دخل جوهر مصر إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية . ولعل هذه الظاهرة هى التى تميز رسائل الكتاب الفاطميين عن غيرهم من كتاب الأقطار الأخرى التى لم تخضع لحكم الفاطميين ، بل أرى هذه الظاهرة فى رسائل أتباع مذهب الفاطميين إلى اليوم . وكما كانوا يبدأون كتاباتهم وسجلاتهم بالحمد والصلاة على النبى والأئمة ، كانوا يختمون هذه الكتابات والسجلات ، لم يشذ عن ذلك كاتب من كتابهم . ولعل هذه الخصلة تظهر فى سجلات الفاطميين أوضح من

ظهورها فى رسائلهم. والسبب فى ذلك أن السجلات الفاطمية كانت اقرب إلى البلاغات الرسمية التى تصدر عن ديوان جلالة مولانا الملك فى عصرنا الحديث، فهذه السجلات التى كانت تصدر عن ديوان الإنشاء تسجيل خطوات الإمام الفاطمى ، فاذا خرج للصلاة صدر بذلك سجل من الديوان ، وإذا خرج الإمام إلى فتح الخليج صدر السجل ، وإذا انتصرت الجيوش المصرية صدر السجل بالفتح وهكذا ، ففى كل هذه السجلات تظهر هذه الخصلة .

وكما تأثر الشعر بالعقائد الفاطمية تأثرت الكتابة بهذه العقائد تأثيراً يظهر فى السجلات التى تصدر فى الأعياد والمواسم أو فى تولية إمام أو أحد رجال الدولة من وزراء وقضاة ودعاة ، ففى مثل هذه السجلات كان الكتاب يلمون بالعقائد ويؤولون بعض آيات القرآن الكريم تأويلا يتفق مع مذهبهم الفاطمى، ويذكرون فى كتاباتهم رأى الفاطميين فى كل مناسبة وفى كل عيد ، فالسجلات التى صدرت فى عيد الغدير كانت تنصب على ولاية على بن أبى طالب والأئمة المنصوص عليهم من بعده ، وسجل مأتم عاشوراء كان فى الحسين بن على وما لاقاه أهل البيت من أهوال ، وسجل رؤية رمضان فى ذكر عقيدة الفاطميين فى هلال رمضان ، وهكذا كانت هذه السجلات حافلة بالمعتقدات الفاطمية التى لا يمكن أن تصدر عن دولة غير فاطمية المذهب .

ولعل أول قطعة نثرية وصلتنا عن الدولة الفاطمية هى ما كتبه القائد جوهر الصقلى فاتح مصر ، وتلك هى الأمان الذى قطعه على نفسه وعلى إمامه للمصريين ، وإن كان هذا الأمان من السجلات التاريخية فهو صورة من الصور الأدبية التى دبجتها يراعة هذا القائد، فقد كان جوهر كاتبا للمعز قبل أن يوليه قيادة جيوشه بالمغرب[1]، ويحدثنا المقريزى أن القائد جوهراً كان كاتبا بليغا ، ومن مستحسن توقيعاته فى رقعة رفعت إليه بمصر :

« سوء الاجترام ، أوقع بكم حلول الانتقام ، وكفر الإنعام ، أخرجكم من حفظ الذمام ، فالواجب فيكم ترك الإيجاب ، واللازم لكم ملازمة الاحتساب ، لأنكم بدأتم فأسأتم ، وعدتم فتعديتم ، فابتداؤكم ملوم ، وعودكم مذموم ، وليس بينهما فرجة إلا تقتضى الذم لكم ، والإعراض عنكم ، ليرى أمير المؤمنين صلوات الله عليه رأيه فيكم »[2] .

(١) سيرة الأستاذ جوذر (مخطوط) .   (٢) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٠٧ .

فتوقيع جوهر القائد على هذا النحو يدل على أن جوهراً كان على مقدرة وكفاية فى فن الكتابة كما كان على مقدرة وكفاية فى فنون الحرب . فهذه الجمل القصيرة المسجوعة ، وهذه المعانى المتسقة والمقابلات بين معنى الجملة والأخرى ترينا أن فن الكاتب هو نفس الفن الذى ساد العصر الفاطمى ، بل كاد يسود العالم الإسلامى ، فالزينة اللفظية فى هذه القرون كانت حلية الكتاب جميعا .

أما الأمان الذى هو أول نص حفظ لنا عن الدولة الفاطمية فقد جاء فيه : —

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه ، لجماعة أهل مصر الساكنين بها من أهلها ومن غيرهم : إنه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معى وهم أبو جعفر مسلم الشريف أطال الله بقاه ، وأبو إسماعيل الرسى أيده الله ، وأبو الطيب الهاشمى أيده الله ، وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزه الله ، والقاضى أعزه الله — وذكروا عنكم أنكم التمستم كتابا يشتمل على أمانكم فى أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم ، فعرفتم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وحسن نظره لكم : فلتحمدوا الله على ما أولاكم ، وتشكروه على ما حماكم ، وتدأبوا فيما يلزمكم ، وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم ، العائدة بالسعادة عليكم ، وبالسلامة لكم ، وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة ، والجيوش المظفرة، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم... الخ .. [1]ويستمر جوهر فى ذكر ما يجب على المصريين أن يتبعوه ، وما على الحكومة الجديدة من تعهدات نحو الشعب المصرى ، ويخيل إلى أن كاتب هذا النص لم يكن عنده الوقت الكافى لأن يظهر صناعته الفنية فى المزاوجة بين الجمل والتزام السجع فى كل فقراته ، وإن كان الكاتب حاول أن يرتفع بأسلوبه وأن يجعله أسلوبا أدبيا .

وإذا تركنا كتاب الأمان الذى كتبه جوهر رأينا رسالة أخرى للمعز أرسلها إلى الحسن بن أحمد القرمطى ، ونحن لا ندرى من الذى كتب هذه الرسالة عن المعز ، فالرسالة التى وصلت إلينا طويلة ولكنها ناقصة. ومع ذلك فنحن نستطيع أن نتخذها صورة للكتابة فى أول العصر الفاطمى ، حتى نستطيع أن نميز تطور الكتابة فى العصر الفاطمى كله ، فقد جاء فى هذه الرسالة :

(١) اتعاظ الحنفاء ١٤٨ (طبعة دار الفكر العربى) .

« من عبد الله ووليه ، وخيرته وصفيه ، معد أبي تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين ، وسلالة خير النبيين ، ونجل على أفضل الوصيين، إلى الحسن بن أحمد.

بسم الله الرحمن الرحيم ، رسوم النطقاء ، ومذاهب الأئمـــة والأولياء ، ومسالك الرسل والأوصياء السالف والآنف منا . صلوات الله علينا وعلى آبائنا ، أولى الأيدي والأبصار ، في متقدم الدهور والأكوار ، وسالف الأزمان والأعصار ، عند قيامهم بأحكام الله ، وانتصابهم لأمر الله ، الابتداء بالإعذار ، والانتهاء بالإنذار ، قبل إنفاذ الأقدار ، في أهل الشقاق والآصار ، لتكون الحجة على من خالف وعصى ، والعقوبة على من باين وغوى ، حسبما قال الله جل وعز : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » و « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وقوله سبحانه : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » و « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق » أما بعد أيها الناس ، فإنا نحمد الله بجميع محامده ، ونمجده بأحسن مماجده ، حمداً دائماً أبداً ، ومجداً عالياً سرمداً ، على سبوغ نعمائه ، وحسن بلائه ، ونبتغي إليه الوسيلة بالتوفيق والمعونة على طاعته ، والتسديد في نصرته ، ونستكفيه ممايلة الهوى ، والزيغ عن قصد الهدى ، ونستزيد منه إتمام الصلوات وإفاضات البركات ، وطيب التحيات ، على أوليائه الماضين ، وخلفائه التالين ، منا ومن آبائنا الراشدين المهديين المنتخبين ، الذين قضوا بالحق وكانوا به يعدلون . أيها الناس : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها » ليذّكر من يذكر ، وينذر من أبصر واعتبر . أيها الناس : إن الله جل وعز إذا أراد أمراً قضاه ، وإذا قضاه أمضاه ، وكان من قضائه فينا قبل التكوين أن خلقنا أشباحا ، وأبرزنا أرواحا ، بالقدرة مالكين ، وبالقوة قادرين ، حين لا سماء مبنية، ولا أرض مدحية ، ولا شمس تضيء ، ولا قمر يسرى ؛ ولا كوكب يجرى ، ولا ليل يجن ، ولا أفق يكن ، ولا لسان ينطق ، ولا جناح يخفق ، ولا ليل ولا نهار ، ولا فلك دوار ، ولا كوكب سيار ، فنحن أول الفكرة وآخر العمل بقدر مقدور ، وأمر في القدم مبرور ، فعند تكامل الأمر وصحة العزم وإنشاء الله جل وعز المنشآت ، وإبداء الأمهات من الهيولات ، طبعنا أنواراً وظلما ، وحركة وسكونا . وكان من حكمه السابق في علمه ، ماترون من فلك دوار

وكوكب سيار ، وليل ونهار ، وما في الآفاق من آثار معجزات ، وأقدار باهرات ، وما في الأقطار من الآثار ، وما في النفوس من الأجناس والصور والأنواع من كثيف ولطيف ، وموجود ومعدوم ، وظاهر وباطن ، ومحسوس وملموس ، ودان وشاسع ، وهابط وطالع ، كل ذلك لنا ومن أجلنا ، دلالة علينا ، وإشارة إلينا ، يهدى به الله من كان له لب سجيح ، ورأى صحيح ، قد سبقت له الحسنى ، فدان بالمعنى ... الخ » (١)

ولعل أول ما يلفت نظرنا في هـــذه الرسالة تلك الاصطلاحات الفاطمية والمعاني الباطنية. بحيث نستطيع أن نقول إنه لا يمكن أن تصدر مثل هذه الرسالة إلا من كاتب من كتاب الفاطميين ، حتى لو كان الكاتب لم يبدأ رسالته بأنها من إمام من أئمة الفاطميين ، فالاصطلاحات الفاطمية (الناطق) و (الوصى)، ثم حديثه عن خلق الأشباح أى الممثولات قبل خلق العالم ، وأن الأئمة أول الفكرة أى أنهم مثل للعقل الأول (المبدع الأول) وأن كل المخلوقات وجدت للدلالة على الأئمة الذين هم مثل للعقل . كل هذه من المعاني الباطنية التي يدين بها الفاطميون ، فالرسالة كلها مملوءة بمثل هذه العقائد ، فليست الرسالة من الرسائل التاريخية السياسية التي تفيد المؤرخ السياسي في معرفة العلاقة بين الفاطميين والقرامطة فحسب ، وليست رسالة أدبية تبين لنا صورة من صور الكتابة في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة ، بل هي من أهم الرسائل التي تتحدث عن العقائد الفاطمية وترينا تطور المذهب الفاطمي إذا قارناها بما جاء في كتب منصور اليمن الحسين ابن حوشب الذي وجد قبل عصر المعز ؛ أو كتب القاضي النعمان ، وجعفر بن منصور والمروزى الذين كانوا في عهد المعز ، ثم كتب الدعاة الكبار الذين كانوا بعد عصر المعز. فمؤرخ العقائد الفاطمية يجد مجالا للبحث في هذه الرسالة الهامة .

وأسلوب الرسالة هو ذلك الأسلوب الذي تحدثنا عنه من قبل ، وتظهر فيه كل خصائص الكتابة في العصر الفاطمي ، وكل خصائص مدرسة ابن عبد كان في الكتابة . انظر إلى هذه القطعة من تلك الرسالة :

فأما أنت أيها الغادر الخائن ، الناكث البائن ، عن هدى آبائه وأجداده، المنسلخ

(١) اتعاظ الحنفا ص ٢٥١ (طبعة دار الفكر العربي) .

عن دين أسلافه أنداده ، والموقد لنار الفتنة ، والخارج عن الجماعة والسنة ، فلم أغفل أمرك ، ولا خفى عنى خبرك ، ولا استتر دونى أثرك ، وإنك منى لبمنظر ومسمع ، كما قال الله جل وعز « إننى معكما أسمع وأرى » ، و « ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » . فعرفنا على أى رأى أصلت ، وأى طريق سلكت ، أما كان لك بجدك أبى سعيد أسوة ، وبعملك أبى طاهر قدوة ، أما نظرت فى كتبهم وأخبارهم ، ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم ، أكنت غائبا عن ديارهم وما كان من آثارهم . فأنت تقرأ هذه القطعة فتشعر أنك تقرأ رسالة ابن عبد كان التى كتبها إلى العباس بن أحمد بن طولون عند ما ثار على أبيه ، فهذه الجمل القصيرة المسجوعة ، والاقتباسات من القرآن الكريم ، وضم الجملة إلى ما يشاكلها ، كل هذه من خصائص فن ابن عبد كان ، ونقلها تلاميذه عنه ، واستمرت طوال العصر الفاطمى .

ووصلت إلينا رسالة كتبت فى عهد العزيز بالله ، كتبها إلى عامله بمصر يبشره بالفتح حين خرج إلى قتال القرامطة بالشام سنة ٣٦٧ ه ، ونحن لا نعرف أيضا كاتب هذه الرسالة ، ولكن لا شك فى أنها كتبت فى العصر الفاطمى ، لما فيها من الخصائص الفاطمية التى تحدثنا عنها من قبل ، سواء أكان ذلك من حيث العقائد أو من حيث الأسلوب الفنى . فقد جاء فى هذه الرسالة (١) :

« من عبد الله ووليه نزار أبى المنصور العزيز بالله أمير المؤمنين إلى حسين ابن القاسم . سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على جده محمد نبيه ورسوله ، صلى الله عليه وعلى الأئمة من عترته الأبرار ، الطاهرين المطهرين وسلم تسليما .

أما بعد ، فالحمد لله الملك العظيم ، العليم الحليم ، ذى الطول الكريم ، والمن الجسيم ، والعز المديد ، والمحال الشديد ، ولى الحق ونصيره . وماحق الباطل ومبيره ، المتكفل بالنصر والتمكين ، والتأييد والتحصين ، لأوليائه المتقين ، وخلفائه المصطفين ، الذابين عن دينه ، والقائمين بحقه ، والدالين على توحيده ، الحاكم بإعلاء كلمتهم ، وإفلاج حججهم ، وظهورهم على أعدائه المشاقين له ، الضالين عن سبيله ، الملحدين فى آياته ، الجاحدين لنعمائه ، المنزل رجزه وقوارع بأسه على

(١) الرسالة بأكملها فى صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٣٤ وما بعدها .

من عصاه لخاده ، وصد عنه فناده ، القاضى بالعواقب الحسنى ، والفوز والنعمى ، لمن أسلم وجهه له ، وتوكل عليه فى أمره ، وفوض إليه حكمه ، كل ذلك فضلا منه وعدلا ، وقضاء فصلا ، وهو الحكم العدل الذى لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون » .

فأنت ترى فى هذه القطعة كيف ذكر الكاتب أن محمدا جد الإمام العزيز ، وأن الأئمة هم صفوة الخلق المصطفون الذابون عن دين الله . فهذه كلها من المعانى الفاطمية التى لا يقول بها غيرهم ، فإذا مضينا فى قراءة الرسالة رأينا الجزء الأول منها يجرى هذا المجرى الذى رأيناه فى القطعة السابقة ، حتى إذا وصلنا إلى الغرض من الرسالة ، وهو الحرب مع القرمطى رأينا الكاتب يفصل حركات العزيز وانتقالاته إثر عدوه ، حتى قال الكاتب :

« فبعد ما طمع قاده الحين الغالب ، والقدر الجالب ، وما أراد الله عز وجل من استدراجه إلى موضع نكاله ، ومنهل وباله ، ورحل من بيسان رحيل من استعجلته البلية ، واستدعته الرزية ، فحل بموضع يعرف بكفر سلام ، كافرا بحدود الإسلام ، متجرئا على الله محاربا لنجل نبيه عليه السلام ، وأقام بها متلددا فى حيرته ، مترددا فى سكرته ، ثم استجره شؤمه ، وقاده حينه ولؤمه ، إلى أن رحل فنزل بكفر سابا البريد ، فأنبأه اسمها بما حل به من السبى المبيد ، والخزى الشديد ، ثم لم يلبث أن ضرب مضاربه المأكولة ، ونصب أعلامه المخذولة ، وأقام صفوفه المغلولة ، وأظهر آلة الحرب إقداما ، وأخفى عن اللقاء إحجاما . . . الخ .

وعلى هذا النحو من الأسلوب سار الكاتب فى هذه الرسالة ، التى لا تكاد تختلف فى أسلوبها عن أسلوب الرسالة السابقة .

وفى عهد الحاكم الذى عرف بنزعاته وتقلباته فى حكمه . كثرت السجلات والأمانات فى عهده ، وأصاب الكتاب من تقلباته أذى كثير ، ونقل المقريزى عن المسبحى صديق الحاكم وجليسه : « فى سنة خمس وتسعين وثلثمائة أمر (الحاكم) بعمل شونة مما يلى الجبل ملئت بالسنط والبوص والحلفا . فخامر قلوب الناس من ذلك جزع شديد ، وظن كل من يتعلق بخدمة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أن هذه الشونة عملت لهم ، ثم قويت الإشاعات ، وتحدث العوام فى الطرقات ، أنها للكتاب

وأصحاب الدواوين وأسبابهم ، فاجتمع سائر الكتاب وخرجوا بأجمعهم فى خامس ربيع الأول ومعهم سائر المتصرفين فى الدواوين من المسلمين والنصارى إلى الرماحين بالقاهرة ، ولم يزالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا إلى القصر ، فوقفوا على بابه يدعون ويتضرعون ، ويضجون ويسألون العفو عنهم[1] » . ويروى المقريزى أيضا أنه كتب فوق المائة سجل بأمان لأهل الأسواق[2] ومما أورده المقريزى صورة سجل أمان أصدره الحاكم وهو :

« هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبد الله . إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين وأمان ، جدنا محمد خاتم النبيين ، وأبينا على خير الوصيين ، وآبائنا الذرية النبوية المهديين صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين ، وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال ، والدم والمال ، لا خوف عليكم ولا تمد يد بسوء إليكم ، إلا فى حد يقام بواجبه ، وحق يؤخذ بمستوجبه ، فيوثق بذلك ، ليعول عليه إن شاء الله تعالى. وكتب فى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة والحمد لله ، وصلى الله على محمد سيد المرسلين ، وعلى خير الوصيين ، وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة وسلم وتسليما كثيرا[3] » .

كما ورد فى صبح الأعشى [4] سجل بتولية الحسين بن على بن النعمان القضاء فى عهد الحاكم بأمر الله ، وفى هذا السجل تظهر الصنعة الفنية التى نراها فى كتاب الأمان السابق . ومما جاء فى هذا السجل :

« أمره أن يتقى الله عز وجل حق التقوى ، فى السر والجهر والنجوى ، ويعتصم بالثبات واليقين والنهى ، وينفصم من الشبهات والشكوى والهوى ، فإن تقوى الله تبارك وتعالى موئل لمن وئل إليها حصين ، ومعقل لمن اقتفاها أمين ، ومعول لمن عول عليها مكين ، ووصية الله التى أشاد بفضلها ، وزاد فى سناها ، بما عهد أنه من أهلها ، فقال تبارك وتعالى : « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » » .

(١) خطط المقريزى ج ٣ س ٣٢ (٢) المصدر نفسه ج ٣ س ٣٣
(٣) المصدر نفسه (٤) صبح الأعشى ج ١٠ س ٣٨٥

ولا نستطيع أن نعرف الكاتب الذى سطر هذه السجلات وكتب الأمان التى صدرت فى عصر الحاكم ، لأن ديوان الإنشاء فى عهده تداوله عدد كبير منهم بحيث يصعب على المؤرخ أن يعرفهم أو يعرف كم أمضى كل كاتب منهم فى الديوان ، واستمر الأمر فى غموض ، ولعل أول كاتب فى هذا العصر المضطرب نستطيع الحديث عنه هو ولى الدولة ابن خيران .

ابن خيران :

أما هذا الكاتب فهو أبو محمد أحمد بن على بن خيران ولقب بولى الدولة ، ويذكر ياقوت أن ابن خيران ولى ديوان الإنشاء بعد أبيه فى عهد الظاهر [1] ، ونحن لا نعرف شيئاً عن أبيه سوى ما يرويه ياقوت : « كان أبوه أيضا فاضلا بليغا ، أعظم قدراً من ابنه وأكثر علماً »[2] كذلك لا نعرف متى ولى والده ديوان الإنشاء ، ومتى ولى الابن بعده ، ولكن المقريزى يحدثنا فى خططه أن أبا الحسن عمار بن محمد — وكان يلى ديوان الإنشاء واستوزره الحاكم وهو الذى تولى البيعة للظاهر — قتل فى ربيع الأول سنة اثنتى عشرة وأربعمائة ، فاستوزر بعده بدر الدولة أبا الفتوح موسى بن الحسين وكان يتولى الشرطة ثم ولى ديوان الإنشاء بعد ابن خيران [3] ، ويخيل إلى أن ابن خيران المذكور فى نص المقريزى هو الأب ، لأن ولى الدولة ظل فى منصبه حتى شاهد عصر المستنصر ، ومع ذلك فنص المقريزى يختلف عن نص ياقوت . إذ يذهب ياقوت كما رأينا إلى أن الابن حل محل أبيه فى ديوان الانشاء ، على حين يذهب المقريزى إلى أن أبا الفتوح موسى بن الحسين هو الذى ولى الديوان بعد ابن خيران ، ولا نستطيع أن نرجح إحدى الكفتين ، لأن المصادر التى بين أيدينا قليلة ولا تعطينا صورة دقيقة لرجال ذلك العصر .

ومهما يكن من شىء فإن ولى الدولة ابن خيران تقلد ديوان الإنشاء للظاهر ثم للمستنصر ، ويحدثنا المقريزى أنه فى سنة أربع عشرة وأربعمائة قرر الشريف الكبير العجمى والشيخ نجيب الدولة الجرجرائى والشيخ العميد محسن بن بدوس مع القائد معضاد ألا يدخل على الظاهر أحد غيرهم ، وكانوا يدخلون كل يوم

(١) معجم الأدباء ج ٤ س ٥ (طبعة فريد رفاعى) .
(٢) المصدر نفسه (٣) خطط المقريزى ج ٢ س ١٦٧

خلوة ويخرجون فيتصرفون فى سائر أمور الدولة ، والظاهر مشغول بلذاته ، وصار شمس الملوك مظفر صاحب المظلة وابن خيران صاحب الإنشاء وداعى الدعاة ونقيب نقباء الطالبيين وقاضى القضاة ربما دخلوا على الظاهر فى كل عشرين يوما مرة ومن عداهم لا يصل إلى الظاهر البتة » (١) وإذن فقد كان ولى الدولة ابن خيران صاحب ديوان الانشاء فى سنة ٤١٤هـ ؛ ويقول ابن خلكان عن الشاعر أبى الحسن على بن أحمد بن نوبخت أنه توفى بمصر فى شعبان سنة ست عشرة وأربعمائة وهو على حاله من الضرورة وشدة الفاقة ، وكفله ولى الدولة أبو محمد أحمد بن على المعروف بابن خيران الكاتب الشاعر ، وهذا ابن خيران كان متولى كتب السجلات عن الظاهر بن الحاكم» (٢) فهذا النص يدلنا على أن ابن خيران كان فى ديوان الانشاء سنة ٤١٦هـ .

ويروى المقريزى أن ابن خيران وقع عن الخليفة المستنصر : الفقر مر المذاق ، والحاجة تذل الأعناق ، وحراسة النعم بإدرار الأرزاق ، فليجروا على رسومهم فى الإطلاق ، ما عندكم ينفد وما عند الله باق » (٣) فابن خيران إذن كان صاحب ديوان الرسائل فى أواخر عهد الظاهر وفى عهد المستنصر أيضا ، ويروى ياقوت أن رزقه كان فى كل سنة ثلاثة آلاف دينار ، وله عن كل ما يكتبه من السجلات والعهودات ، وكتب التقليدات رسوم يستوفيها من كل شىء بحسبه ، وكان شابا حسن الوجه ، جميل المروءة ، واسع النعمة ، طويل اللسان ، جيد العارضة ، وسلم إلى أبى منصور بن الشيرازى رسول أبى كاليجار إلى مصر من بغداد جزأين من شعره ورسائله ، واستصحبهما إلى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضى أبى القاسم وغيره ممن يأنس به من رؤساء البلد ، ويستشير فى تخليدهما دار العلم لينفذ بقية الديوان والرسائل إن علم أن ما أنفذه منها ارتضى واستجيد » (٤) وبالرغم من أن شعره فقد ولم يبق منه إلا عدة مقطوعات قصيرة فاننا نستطيع أن نقول إن ابن خيران كان معجبا بنفسه ، يكثر الإشادة بشعره وبنثره . انظر إليه وهو يقول :

ولقد سموت على الأنام بخاطر ... الله أجرى منه بحرا زاخرا

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٦٨ — (٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٨
(٣) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٣٨ — (٤) معجم الأدباء ج ٤ ص ٥

فاذا نظمت نظمت روضا حاليا ... وإذا نثرت نثرت درا فاخرا (١)

ويقول مرة أخرى :

خلقت يدى للمكرمات ، ومنطق ... للمعجزات ومفرق للتاج
وسموت للعلياء أطلب غاية ... يشقى بها الغاوى ويحظى الراجى (٢)

وهو القائل أيضا :

قد علم السيف وحد القنا ... أن لسانى منهما أقطع
والقلم الأشرف لى شاهد ... بأننى فارسه المصقع (٣)

من هذه المقطوعات نستدل على أن ابن خيران قد فتن بشعره وبنثره إلى درجة أن وصف نفسه بأن منطقه يأتى بالمعجزات ، ويخيل إلى أن إعجابه بنفسه لم يكن فى الشعر أو فى النثر ، بل إن حياته كان يسيطر عليها هذا التيه والاعجاب بنفسه ، حتى لو كان فى ذلك ما يجازف فيه بحياته ، ولعل القصة التى أوردها ياقوت عنه تدل على ذلك كله ، قال ياقوت : كان ابن خيران قد خرج إلى الجيزة متنزها ، ومعه من أصحابه المتقدمين فى الأدب والشعر والكتابة ، وقد احتفوا به يمينا وشمالا ، فأدى بهم السير إلى مخاضة مخوفة ، فلما رأى إحجام الجماعة من الفرسان عنها ، وظهور جزعهم منها ، قنّع بغلته ، فولجها حتى قطعها ، وانثنى قائلا مرتجلا :

ومخاضة يلقى الردى من خاضها ... كنت الغداة إلى العدا خواضها
وبذلت نفسى فى مهاول خوضها ... حتى تنال من العدا أغراضها (٣)

وبالرغم من أن ابن خيران ظل مدة طويلة فى ديوان الانشاء ، وأن له رسائل كثيرة جمعها فى حياته ، فإنه لم يصل إلينا من نثره سوى هذه القطعة التى كتبها توقيعا عن المستنصر . ويروى ياقوت عن الرئيس هلال بن المحسن « أن الرسائل صالحة سليمة ، قد انتزعت من المنظوم على خلوة إلا من الوزن والقافية » . (٤)

وتوفى ابن خيران فى شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة من الهجرة .

وبعد ابن خيران تولى محمد بن أحمد بن محمد العميدى ديوان الانشاء للمستنصر ، فى صفر سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة من الهجرة ، وكان نحويا لغويا ، وصنف عدة

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٨ — (٢) المصدر السابق ج ٤ ص ١٠
(٣) المصدر السابق ج ٤ ص ١٢ — (٤) المصد السابق ج ٤ ص ٦

كتب منها كتاب تنقيح البلاغة فى عشر مجلدات ، وكتاب الإرشاد إلى حل المنظوم، وكتاب الهداية إلى نظم المنثور ، وكتاب انتزاعات القرآن ، وكتاب العروض ، وكتاب القوافى(١) فهذه المصنفات تدلنا على أن العميدى كان متأثراً بهذه الثقافة اللغوية النحوية . وأرجح أن كتابته فى رسائله كانت متأثرة أيضا بهذه الألوان من العلوم التى حذقها فصنف فيها هذه الكتب ، مضافا إليها خصائص الكتابة فى مصر التى تحدثنا عنها . وقد أورد ياقوت له بيتين من الشعر هما :

إذا ما ضاق صدرى لم أجد لى ... مقر عبادة إلا القرافه
لئن لم يرحم المولى اجتهادى ... وقلة ناصرى لم ألق رافه

ولعلك تلاحظ هذه الجناس بين «القرافه» و «ألق رافه» ، ولا تدرى مقدار استخدامه لهذه المحسنات البديعية فى كتابته لأننا لم نعثر على شىء منها ، ولم يعمر العميدى طويلا فى الديوان ، إذ توفى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ه .

ثم تولى الكتاب بعده على ديوان الإنشاء ، نذكر منهم أبا الفرج الذهلى ، وأبا الطاهر النهركى وولى الدولة موسى بن الحسن وغيرهم ، إلى أن ولى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ديوان الإنشاء سنة ٤٤٣ م ، وقد تحدثنا طويلا عن المؤيد فى الدين ، ونكتفى الآن بأن نعرض صورة من رسائله التى حفظها فى كتابه «السيرة المؤيدية» من ذلك رسالته إلى الوزير اليازورى إبان خروج المؤيد لمؤازرة البساسيرى فى حركته المعروفة .

رسالة من كتاب المؤيد :

« ووصل كتاب الحضرة العالية فاستفدت السرور بمطلعه ، والسكون إلى علم مودعه ، من ذكر شمول السلامة والسعادة ، جعلهما الله متصلتى الأسباب ، منهلتى السحاب وفهمته . فأما ماذكرجوابا عن قولى حين نهيت أن أرعى تاج الأمراء سمعى ، لقينى بوجه التفتير فى العزم ، أننى ما شاهدت تاج الأمراء ولا علم لى ما يكون منه فى ذلك ، فان خاطبنى على شىء منه خاطبنى بلسان كل الناس به ناطقون ، وعليه متفقون ، لوكان كلامهم فى ناجعا ، ومنى موقع القبول واقعا ، إن الحضرة العالية حرس الله عزها عارفة بمن يلقى ذلك إلى على جهة الإشفاق وهو غل ،

(١) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٢١٢

والنصيحة وهو غش ، وأنها لو شاءت ان تسميهم لى أو تصدر كتبهم إلى لفعلت وذكرت ورود مكاتباتهم يبذلون الخدمة فى هذا الوجه ، ولكنها حرس الله عزها تتجنب ما يوزع سرى ، فمن أجل ذلك تكف ، فقد عرفته ، ومسلم للحضرة العالية حرس الله عزها ثقوب الرأى والبصيرة والألمعية والمحاسن التى توحدها الله به . فأما علم الغيب فقد انتفى منه النبى صلى الله عليه وسلم بدليل الكتاب : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » ولعله نما إليها حرس الله عزها ذكر رجل أو رجلين تكلما بذلك هما قليل من كثير ناظرونى على ذلك وقبحوا على فعلى كيف استجبت له وأنا بالقاهرة المحروسة يومئذ ثم فى عامة الطريق . . . الخ » (١)

ولعلك تلاحظ من هذه القطعة من رسالة المؤيد فى الدين أنها لم تظهر فيها خصائص الكتابة فى مصر ، والسبب فى ذلك هو أن المؤيد فى الدين لم يكن مصريا ، إنما وفد على مصر بعد أن استكمل خصائصه الفنية فى الشعر والنثر ، فلم يتأثر بمدرسة الكتاب المصريين ، بالرغم من أن المؤيد كان يرى نفسه أقدر فى فن الكتابة من الذين ولوا ديوان الإنشاء قبله ، فهو يذكر أنه قال مرة للوزير اليازورى وقد جرى ذكر كتاب الإنشاء : « معلوم ما كان لمتولى هذا الديوان من الجاه الوسيع والرزق السنى الكثير ، ولئن كانت أشخاصهم مفقودة ، فإن آثارهم فى صناعتهم حاضرة موجودة ، وأنت كاتب تفرق بين الجيد والردىء ، والضعيف فى الصناعة والقوى ، وأريد أن تعتبر من انتصب هذا المنصب من خمسين سنة إلى اليوم مقايسة إلى ، فان كنت ممن يجرى فى حلبتهم فرسه ، ويطول نحو أمرهم باعه ، فأنزلنى منزلتهم من الجاه والمال ، وإلا فقل لى ما أنت مثلهم ، ولا فى آفاقهم ، فقد رضيتك حكما ، وجئت لحكمك مستسلما »(٢) ولكن لا ننسى أن الذى يقول ذلك هو المؤيد فى الدين الذى عرف بغروره وطموحه (٣)

وكان الذى ينوب عن المؤيد فى ديوان الإنشاء أثناء غيابه عن مصر وسفره إلى العراق فى حركة البساسيرى هو القاضى القضاعى الذى تحدثنا عنه فى فصل المؤرخين ، ولكن لم تصل إلينا كتاباته(٤) ، وناب عنه أيضا أبو الحسن على

(١) السيرة المؤيدية ص ١٠٥ (طبعة دار الكاتب المصرى)
(٢) السيرة المؤيدية ص ٩٤ — (٣) راجع مقدمة ديوان المؤيد فى الدين .
(٤) السيرة المؤيدية ص ١٠٣

ابن الأنبارى الذى ولى الوزارة بعد ذلك سنة ٤٥٧[١] . ثم اختلف على ديوان الإنشاء عدد من الكتاب لم تصل إلينا أسماؤهم ولم تحفظ آثارهم ، إلى أن نلتقى باسم اثنين من أكبر كتاب ذلك العصر ، أما الأول فهو أبو الفرج الموفق الذى وصفه العماد بقوله : « أحد كتاب مصر من الطبقة الأولى[٢] » . ولكن العماد لم يحدثنا بشىء عنه سوى هذه الجملة ، وأورد له ثلاثة أبيات من الشعر فى وصف ناعورة . أما الكاتب الثانى فكان معاصرا للموفق والمؤيد ، وكان بينه وبين الموفق بعض الرسائل وهو ابن الشخباء .

ابن الشخباء :

أبو على الحسن بن عبد الصمد بن الشخباء ، ولقب بالمجيد ذى الفضيلتين ، وصفه العماد بقوله « مجيد كنعته ، قادر على ابتداع الكلام ونحته ، له الخطب البديعة ، والملح الصنيعة[٣] » وقال ياقوت عنه : « أحد البلغاء الفصحاء الشعراء له رسائل مدونة مشهورة[٤] » . ووصفه ابن خلكان بقوله : « صاحب الخطب المشهورة والرسائل المحبرة ، كان من فرسان النثر وله فيه اليد الطولى[٥] » ، ويقول ابن بسام فى ذخيرته : « كان من البلغاء الأفراد ، وأبهر نجوم تلك البلاد ، طلوعا من ثنايا الأدب ، واجتناء لخبايا لسان العرب ، فقد كاشف حقائقها ، واستخرج دقائقها ، وأحرز مسبوقها وسابقها[٦] » . إذن تكاد تجمع هذه المصادر على علو كعبه فى صناعة الكتابة ، وكفايته فيها . حتى قيل إن القاضى الفاضل كان جل اعتماده على حفظ كلامه ، وأنه كان يستحضر أكثره[٧] ، وربما كان هذا هو السبب الذى من أجله قال بعض الذين كتبوا عن القاضى الفاضل : إنه تلميذ ابن الشخباء ، لأنه كان يحذو حذوه فى الصناعة . لم يكن ابن الشخباء مصريا بل كان من عسقلان ، وبالرغم من أن الحدود الجغرافية تجعل عسقلان بلدا فى فلسطين ، ولكن يجب ألا ننسى أن فلسطين كانت ولاية من ولايات مصر منذ العصر

(١) الاشارة إلى من نال الوزارة ص ٥٢ ، وأخبار مصر لابن ميسر ص ٣٣

(٢) الخريدة ورقة ٥ (٣) الخريدة ورقة ١٤

(٤) معجم الأدباء ج ٩ ص ١٥٣ (٥) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٣

(٦) الذخيرة القسم الرابع ورقة ١٨٣ (نسخة فتوغرافية بمكتبة الجامعة) .

(٧) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٣

الطولونى ، واستمرت تابعة لمصر ، خاضعة لتأثيرها السياسى والفكرى إلى عهد قريب ، فوحدة فلسطين مع مصر أشد وأقوى من وحدتها مع البلاد الأخرى . فلا غرو أن رأينا ابن الشخباء العسقلانى النشأة يتأثر بما تأثر به الكتاب الذين نشأوا وترعرعوا فى مصر بهذه الخصائص التى كانت تسود الكتابة المصرية . إلا أن ابن الشخباء استطاع بشخصيته أن يبرز ويتفوق فى هذا الفن ، وأن يبالغ فى استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية حتى بهر معاصريه بفنه ، وجعل المؤرخين يشيدون بفضله ، ويخيل إلى أن ابن الشخباء كان على علم تام بجل ما كان يحيط بالعرب فى الجاهلية والإسلام ، حافظا لأشعارهم وحكمهم ، متمكنا من لغتهم ، ويظهر ذلك فى رسالته التى أرسلها إلى أبى الفرج الموفق ، ففيها يقول :

« وصلت رقعة مولاى والصبح قد سل على الأفق مقضبه ، وأزال بأنوار الغزالة غيهبه ، فكانت بشهادة الله صبح الآداب ونهارها ، وثمار البلاغة وأزهارها ، قد توشحت بضروب من الفضل تقصر قاصية المدى ، ويجرى به فى مضمار الأدب مفردا .

فكأن روض الحسن تنثره الصبا فأطلت من قرطاسها أتصفح

فأما ما تضمنته من وصفى ، فقد صارت حضرته السامية تتسمح فى الشهادة بذلك مع مناقشتها فى هذه الطريقة ، وأنها لا توقع ألفاظها إلا مواقع الحقيقة ، فإن كنت قد بهرجت عليها فلتراجع نقدها تجدنى لا أستحق من ذلك الإسهاب فصلا ، ولا أعد لكلمة واحدة منه أهلا ، وبالجملة فالله ينهضنى بشكر هذا الإنعام الذى يقف عنده الثناء ويضلع ، ويحصر دونه الخطيب المصقع .

هيهات تعيي الشمس كل مرامق ويعوق دون منالها العيوق

وأما الفضل الذى أودعه الرقعة الكريمة من قوله « فأما فلان فيحل فى قومه ويفرح بالضيوف فرح حنيفة بابن الوليد . قدورة عمارية ، وعطسات جواريه أسدية ، ويهوين لو خلق الرجال خلق الضّباب ، يتضوعن النشر العبقسى ، ويرضعن مراضع ثعالة المجاشعى » وما أمرت حضرته السامية من ذكر ما عندى فيه ، فقد تأملته طويلا ، وعثر الخادم فيه بما أنا ذاكره ، راغبا فى الرضا بما بلغت إليه المقدرة ، وتحليل ذلك بسجوف الصفح . أما قوله « يفرح بالضيوف فرح حنيفة بابن الوليد » فيقع لى أنه أراد خالد بن الوليد المخزومى ، وذلك أن

مسيلمة الحنفى كان قد تنبأ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحديثه مشهور — فبعث إليه أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد المقدم ذكره فى جيش كثيف من المسلمين ، ففتح اليمامة وقتل مسيلمة وأباد جماعة كثيرة من بنى حنيفة.

وأما قوله : قدوره عمارية ، فإن هذا الفصل لما كان مبنيا على الذم ، وجب أن يتطلب لهذا السبب معنى يجب حمله عليه ، ولم نجد ماينسب إليه إلا قول الفرزدق :

لو أن قدرا بكت من طول ما حبست   عن الحقوق بكت قدر ابن عمار

ما مسها دسم مذ فض معدنها   ولا رأت بعد نار القين من نار

وأما قوله «عطسات جواريه أسدية» فيقوى فى وهمى أنه أراد قول الأول فى هجائه :

إذا أسدية عطست فنكها   فإن عطاسها طرق الوداق

وأما قوله «يهون لو خلق الرجل خلق الضِّباب» فإن الجاحظ ذكر فى كتاب الحيوان : أن للضب أيرين ، وللضبة حرين . وحكى أن أير الضب أصله واحد وإنما يتفرق فيصير أعلاه اثنين ، واستشهد على ذلك بقول الفرزدق :

رعين الدبا والبقل حتى كأنما   كساهن سلطان ثياب مراجل

سبحل له نزكان كانا فضيلة   على كل حاف فى البلاد وناعل

والنزك : اسم أير الضب . وأنشد الأصمعى لابن دزماء فيما رواه أبو خالد النميرى :

تفرقتم لازلتم قرن واحد   تفرق أير الضب والأصل واحد

ومن ههنا قالت حبى المدنية لما عذلها أبوها فى تزوجها ابن أم كلاب :

وددت بأنه ضب وأنى   ضبيبة كدية وجدت خلاء

وأما قوله «يتضوعن النشر العبقسى» فمن أمثال العرب : هو أخسر صفقة من شيخ مهو ، وهو بطن من عبد القيس بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد ابن نزار بن معد بن عدنان ، وكان من خبره أن إيادا كانت أفسى العرب ، فوفد وافدهم إلى الموسم بسوق عكاظ ومعه حلة نفيسة ، فقال : يا معشر العرب من يشترى منى مثلبة قوم لا تضره بحلتى هذه ؟ فقال الشيخ المهوى : أنا أشتريها . فقال الإيادى : أشهدكم يا معشر العرب أنى قد بعت فساء إياد لوافد عبد القيس بحلتى هذه ، وتصافحا وافترقا متراضيين ، وقد شهد عليهما أهل الموسم

فصارت عبد القيس أفسى العرب ، وقيل لابن مناذر : كيف الطريق إلى عبد القيس ؟ فقال . ثم ومر .

فإن عبد القيس من لؤمها   تفسو فساء ريحه تعبق

من كان لا يدرى لها منزلا   فقل له يمشى ويستنشق

وأما قوله : «أعطش من ثعالة المجاشعى» فمن أمثال العرب فيما ذكره الكلبى قال : هما رجلان من بنى مجاشع عطشا ، فالتقم كل واحد منهما أير صاحبه يشرب بوله ، فلم يغن عنهما شيئا ، وماتا عطشا ووجدا على تلك الحال ، قال جرير يهجو بنى دارم :

رضعتم ثم بال على لحاكم   ثعالة حين لم يجدا الشرابا

هذا ماوقع لى فى هذا الفصل ، وأرجو أن أكون قد ذهبت إلى ماقصده قائله»(١)

فى هذه الرسالة نرى كيف حاول ابن الشخباء أن يشرح بعض النصوص التى غمضت على أبى الفرج الموفقى ، فكان يستعين على هذا الشرح بما ورد فى كتب القدماء ، من التاريخ حينا ومن الشعر حينا آخر ، وبالأمثال مرة ، وبما رواه الجاحظ عن الحيوان مرة أخرى ، فهذا كله يدل على أن ابن الشخباء كان ملما بهذه الألوان من الثقافة والعلوم ، وأنه كان يستخدمها فى كتاباته بل فى شعره أيضا.

نرى ظاهرة أخرى فى هذه الرسالة ، وذلك أن ابن الشخباء كان يحلى كتاباته بأبيات من الشعر تناسب ماجاء فى نثره ، وهذه الظاهرة ليست جديدة على الكتابة المصرية ، ولكن ابن الشخباء أكثر منها بحيث لانكاد نرى رسالة من رسائله التى حفظت تخلو من هذه الظاهرة ، ولا سيما رسائله إلى إخوانه وأصدقائه ، فمن ذلك ما كتبه إلى صديق له :

«لما حديت ركاب مولاى أخذ صبرى معه ، وصحبه قلبى وتبعه .

فعجبت من جسم مقيم سائر   كمسير بيت الشعر وهو مقيد

وبقيت بعده أقاسى أمورا تخف الحليم ، وترعى الهشيم ، إن رجوت منها غفلة اقتحمت ، وإن رمت منها فرجة تضايقت والتحمت ، وأما الوحشة فقد اصطبحت منها كأسا مترعة ، وتجرعت من صابها أمر جرعة ، ورأيت فؤادى إذا مر ذكر مولاى يكاد يخرج من خدره ، ويرغب فى مفارقة صدره ، حنينا

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ٩ ص ١٠٧

يجدده السماع ، وصدودا تنتفض منه الأضلاع ، وزفرة يدمى فى غرارها ، ويطلع فى الترائب شرارها .

أدارى شجاها كى تخلى مكانها ... وهيهات ألقت رحلها واطمأنت

وأما ماأعانى بعد مسيره فأشياء : منها عبث الألم مرة ، وزوال الاستمتاع بما يعرفه من تلك المسرة ، ومنها اضطرارى إلى كثرة مكابرة من أعلم دخل سرائره ، واختلاف باطنه وظاهره ، وتكلف اللقاء له بصفحة مستبشرة ، وأخلاق غير متوعرة . . . الخ . (١)

ولعلك تلاحظ مما أوردناه من فن ابن الشخباء فى الكتابة أنه استخدم جميع الخصائص المصرية فى الكتابة ، فنجد الكتابة المسجوعة ، واستخدام التشخيص والتصوير ومراعاة النظير ، إلى غير ذلك من هذه المحسنات التى أكثر منها المصريون. وقد أصيب هذا الكاتب البارع بنكبة لاندرى سببها ، إذ حبس فى خزانة البنود ثم قتل سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة (٢) . ويذهب ابن ميسر أنه قتل سنة ست وثمانين وأربعمائة ، وأنه أنشد وهو فى سجنه :

أصبحت تخرجنى بغير جريمة ... من دار إكرام لدار هوان
كدم الفصاد يراق أرذل موضع ... أبدا ويخرج من أعز مكان
ثقلت موازين العباد بفضلهم ... وفضيلتى قد خففت ميزانى(٣)

وفى عهد المستنصر أيضا ولى أبو الفرج محمد بن جعفر المغربى ديوان الإنشاء بعد أن صرف عن الوزارة سنة ٤٥٢ هـ ، ولا أدرى كيف يقول المقريزى عنه : وكان الوزراء إذا صرفوا لم يتصرفوا ، فاقترح أبو الفرج ابن المغربى لما صرف أن يتولى بعض الدواوين ، فولى ديوان الإنشاء الذى يعرف اليوم بوظيفة كتابة السر ، وهو الذى استنبط هذه الوظيفة بديار مصر(٤) وواضح هذا التخبط الذى وقع فيه المقريزى ، فإن ديوان الإنشاء فى الديار المصرية أقدم عهدا من أبى الفرج ابن المغربى ، بل أقدم عهدا من الدولة الفاطمية ، وقد ذكرنا أن ديوان الإنشاء وجد بمصر منذ عهد أحمد بن طولون . ومهما يكن من شىء فان أبا الفرج أحد أفراد بنى المغربى الذين كان لهم شأن كبير فى الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز ،

(١) المصدر نفسه ص ١٥٤ . (٢) ابن خلكان جـ ١ ص ١٣٤
(٣) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٢٩ (٤) خطط المقريزى جـ ٣ ص ٢٥٧

ولكن نشاطهم كان سياسيا أكثر منه أدبيا ؛ حقا تحدث عنهم ابن القارح فى رسالته ، وتبودلت رسائل إخوانية بين أبى القاسم بن المغربى وبين أبى العلاء المعرى ، ولكن هذه الرسائل كانت إبان فرار بنى المغربى من مصر واستقرارهم فى العراق حينا وفى ديار بكر حينا آخر ، ولذلك آثرنا ألا نتحدث عنهم طويلا فى هذا البحث ، وكذلك لم تصل إلينا رسائل أبى الفرج بن المغربى الذى ولى ديوان الإنشاء سنة ٤٥٢ هـ

وتمر السنون على ديوان الإنشاء ، ويتعاقب عليه الكتاب ، حتى نلتقى بكاتب من أكبر كتاب الدولة الفاطمية ، ومن أحسنهم حظا ، فقد انتهت إلينا بقية صالحة من رسائله وسجلاته ، بل بقى لنا كتابان من كتبه الكثيرة التى صنفها ، ذلك الكاتب هو ابن الصيرفى المولود فى شعبان سنة ثلاث وستين وأربعمائة هـ

ابن الصيرفى :

قال ياقوت : الشيخ الفاضل على بن منجب بن سليمان الصيرفى : أحد فضلاء المصريين وبلغائهم ، مسلم ذلك له غير منازع فيه ، وكان أبوه صيرفيا واشتهى هو الكتابة فمهر فيها (١) ، ويحدثنا ابن ميسر أن ابن منجب الصيرفى أخذ صناعة الترسل على ثقة الملك أبى العلاء صاعد بن مفرج صاحب ديوان الجيش ، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء وبه سناء الملك أبو محمد الحسينى الزيدى (٢) ، ويذكر ياقوت أن الأفضل بن بدر الجمالى هو الذى استخدم ابن منجب فى ديوان المكاتبات ورفع من قدره وشهره ، ثم إنه أراد أن يعزل الشيخ ابن أبى أسامة عن ديوان الانشاء ويفرد ابن الصيرفى به ، واستشار فى ذلك بعض خواصه ومن يأنس به ، فقال له : إن قدرت أن تفدى ابن أبى أسامة من الموت يوما واحدا بنصف مملكتك فافعل ذلك ولا تخلى الدولة منه فانه جمالها (٣) . وقد وصف المقريزى ابن أبى أسامة بقوله : الشيخ الأجل أبو الحسن على بن أحمد بن الحسن ابن أبى أسامة صاحب ديوان الانشاء فى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله ، وكانت له رتبة خطيرة ومنزلة رفيعة وينعت بالشيخ الأجل كاتب الدست الشريف ، ولم

(١) معجم الأدباء جـ ١٥ ص ٧٩ (٢) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٨٧
(٣) معجم الأدباء جـ ٥ ص ٧٩

يكن أحد يشاركه فى هذا النعت بديار مصر فى زمانه (١) فنحن إذن أمام كاتب أخذ الصنعة عن عدد من شيوخ الكتابة فى مصر فى العصر الفاطمى ، فقد كان بين يدى الشريف سناء الملك الذى كان كاتبا فى أواخر أيام المستنصر ، وهو الذى كتب سجل تولية المستعلى (٢) وأصبح له ديوان الانشاء فى عهد الآمر ، ثم ولى الديوان بعده الشيخ ابن أبى أسامة حتى سنة ٥٢٢ هـ فأصبح الديوان لابنه أبى المكارم إلى أن توفى أيام الحافظ ، فولى ابن منجب الصيرفى الديوان بعده ، فهذه المدة الطويلة التى قضاها ابن منجب الصيرفى فى الديوان من أسباب شهرته فى الكتابة وذيوع عدد من رسائله وحفظها ، وبالرغم من أنه أصبح رئيسا لديوان الإنشاء فى عهد الحافظ فإنه هو الذى كتب سجل انتقال المستعلى وولاية الآمر سنة ٤٩٥ هـ (٣) ثم نراه يكتب سجلات كثيرة وهو لم يزل كاتبا فى الديوان ، منها ذلك السجل الذى كتبه فى شهر المحرم سنة ٥٠١ هـ الخاص بالخراج وتحويل السنة الخراجية . وقد جاء فى هذا السجل :

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذى ارتضى أمير المؤمنين أمينه فى أرضه وخليفته ، وألهمه أن يعم بحسن التدبير عبيده وخليقته ، وأورثه مقام آبائه الراشدين الذين اختصهم بشرف المفخر ، وجعل اعتقاد موالاتهم سبب النجاة فى المحشر ، وعناهم بقوله يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وأعلى منار سلطانه بمدبر أفلاك دولته ، ومبيد أعداء مملكته ، وأشرف من نصب للجند علما وراية ، ووقف على مصلحة البرية نظره ورأيه ، السيد الأجل الأفضل الذى نبه فى السياسة على ما أهمله من سبقه ، وأغفله من تقدمه ، وتتبع أحوال المملكة فلم يدع مشكلا إلا أوضحه وبين الواجب فيه ، ولا خللا إلا أصلحه وبادر بتلافيه ، إيثارا لعمارة الأعمال ، وقصدا لما يقضى بتوفير الأموال ، واعتناء برجال الدولة العلوية وأجنادها ، واهتماما بمصالحهم التى ضعفت قواهم عن ارتيادها ، ورعاية لمن ضمته أقطار المملكة من الرعايا ، وحملا لهم على أعدل السنن وأفضل القضايا . يحمده أمير المؤمنين على ما أعانه عليه من حسن النظر للأمة ، وادخره لأيامه من الفضائل التى ضفت بها ملابس النعمة ، ويرغب

(١) خطط المقريزى ج ٣ ص ١٤٠ (٢) ابن ميسر ص ٣٥

(٣) المصدر نفسه ص ٤٠

إليه بالصلاة على محمد الذى ميزه بالحكمة وفصل الخطاب ، وبين له ما استبهم من سبل الصواب ، وأنزل عليه فى محكم الكتاب : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين على بن أبى طالب كافيه فيما أعضل لما عدم المساعد ، وواقيه بنفسه لما تخاذل الكف والساعد ، وعلى الأئمة من ذريتهما العاملين برضا الله تعالى فيما يقولون ويفعلون ، والذين يهدون بالحق وبه يعدلون . . . الخ (١) »

فهذا السجل صورة من صور الكتابة التى تظهر فيها خصائص الكتابة فى مصر الفاطمية ، تلك الخصائص التى تحدثنا عنها من قبل ، وهى التى نجدها عند كل الكتاب تقريبا ، وهذه الخصائص تظهر فى كل الرسائل والسجلات التى انتهت إلينا عن ابن الصيرفى . من ذلك ما كتبه فى عيد النصر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة هـ ، وعيد النصر هذا من الأعياد التى ابتدعت فى القرن السادس للهجرة تذكارا لخلاص الخليفة الحافظ من سجنه ، فقد استبد وزيره أبو على بن الأفضل الملقب بكتيفات بالأمر وسجن الخليفة سنة ٥٢٤ هـ ، فلما قتل الوزير فى سادس عشر المحرم سنة ٥٢٦ هـ أخرج الخليفة من معتقله ، واتخذ هذا اليوم عيداً أسماه عيد النصر ، فى ذكرى هذا العيد كتب ابن منجب إلى بعض الخطباء للاستعداد لهذا العيد :

« عيد النصر وهو أفضل الأعياد وأسناها وأعلاها ، وأدلها على تقصير الواصف إذا بلغ وتناهى ، ونحن نأمرك أن تبرز فى يوم الأحد السادس عشر من المحرم سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة على الهيئة التى جرت العادة بمثلها فى الأعياد وتقرأ على الناس الخطبة التى سيرناها إليك قرين هذا الأمر بشرح هذا اليوم وتفصيله ، وذكر ما خصه الله به من تشريفه وتفضيله ، وتعتمد فى ذلك ما جرى الرسم فيه فى كل عيد ، وتنتهى فيه إلى الغاية التى ليس عليها مزيد . فاعلم هذا ، واعمل به إن شاء الله تعالى » .

ولم يكن ابن الصيرفى كاتبا من كتاب الرسائل فحسب ، بل كان مؤرخا ومصنفا ، ومن تصانيفه كتاب عمدة الحادثة وكتاب عقائل الفضائل وكتاب استنزال الرحمة

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٤٩

وكتاب منائح القرائح وكتاب رد المظالم وكتاب لمح الملح وكتاب فى السكر ، وله اختيارات كثيرة لدواوين الشعراء كديوان ابن السراج وأبى العلاء المعرى وغيرهما . وهذه الكتب كلها مفقودة الآن . وإنما وصل إلينا من كتبه كتابان :

الأول قانون ديوان الرسائل . والثانى كتاب الإشارة إلى من نال الوزارة .

أما الكتاب الأول « قانون ديوان الرسائل » فقد صنفه ابن منجب لكى يكون قانونا يعرف به من يجب أن يولى رياسة ديوان الرسائل ومن يجب أن يكون تلوه فى المنزلة من المستخدمين فيه من الكتاب واحداً واحداً من الخدام الذين لاغنى عنهم ، والصفات التى ينبغى أن يكون عليها كل واحد منهم ، التى إذا سلكت فى هذا الديوان أدت الى ضبط أموره ، وأمن معها من اختلال شىء منها وفساد يدخل عليها ، وسهل وجود ما يلتمس من علم أمور تقادم عهدها وبعدت أزمنتها (١) فكأنه أراد أن يجعل من كتابه هذا دستوراً لاختيار كتاب الرسائل ، وهو يصرح فى مقدمته أن السبب الذى من أجله صنف هذا الكتاب أنه « لما رأيت أولى الفطر الصحيحة والعقول الرجيحة قد سبقوا إلى النظر فى سائر العلوم ، ووضعوا فيها المصنفات ، ونظموا ذكرها فى الكتب والمؤلفات ، ثم انتقلوا عن ذلك الى قوانين الأشياء فقرروا فى كل منها ما كان أصلا يعتمد عليه ونهوا عما كان فساداً لنظامها أو أدى اليه ، وخالفوا بين أحكام تلك التصنيفات ، لاختلاف الأزمنة وتباين البلاد والأوقات ، فوجدتهم قد صنفوا فى كتابة الخراج كتبا كثيرة ، وعنوا بكتابة الجيش عناية كبيرة ، فألف كل من العراقيين والمصريين فى ذلك ما وصلت إليه طاقته ، واقتضاه ما أوجبه وقته ، والبلد الذى يحتله ، فأما صناعة الشعر وذكر بديعه وسائر أنواعه وتقاسيمه فقد أكثر كل منهم فيه المقال ، وتوسع فى تصنيفه وأطال ، ورأيتهم أهملوا الكلام فى الكتابة الجليلة قدراً ، النبيهة ذكراً ، الرفيعة شأنا ، العلية مكانا ، التى هى كتابة حضرة الملك المشتملة على الإنشاء الى ملوك الدول ، والمكاتبة عنه الى من قل من الأمم وجل وكيف يجب أن يكون متوليها وما يخصه من الأخلاق والأدوات ، وما يجب أن يكون فيه من الفضائل ، وأن يجتنبه من القبائح والرذائل . . الخ (١) هذا السبب الذى من أجله

(١) قانون ديوان الرسائل ص ٩١ (طبعة مصر سنة ١٩٠٥) .
(٢) المصدر نفسه ص ٨٨

ألف كتابه هذا ، ولكن هل حقيقة قصر المؤلفون فى الحديث عن الكتابة بحيث لم توضع كتب مثل قانون ديوان الرسائل ؟ من الحق علينا أن نقول إن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة ليست سهلة هينة ، فإن أكثر كتب القدماء فقدت وإن بقى أسماء بعضها ، وقد عرضت بعض المراجع العامة العربية التى تهتم بسرد كتب المؤلفين ، مثل الفهرست ومعجم الأدباء وكشف الظنون وغيرها ، فوجدت بعض المؤلفين وضعوا كتبا فى الكتابة والكتاب ، نذكر منهم عبد الحميد الكاتب الذى وضع رسالة الى الكتاب ، يتحدث فيها عن فضيلة الصناعة وما يجب عليهم أن يتبعوه حتى يجودوا صناعتهم (١) ، ووضع الصولى أدب الكتاب ، وألف ابن قتيبة أدب الكاتب .

ونذكر أحمد بن سهل البلخى صاحب كتاب فضل صناعة الكتابة (٢) وأحمد ابن محمد بن يوسف الأصفهانى صاحب كتاب طبقات البلغاء ، وكتاب أدب الكتاب (٣) ، وأحمد بن محمد بن الفضل الأهوازى مؤلف كتاب مناقب الكتاب (٤) وأحمد بن محمد النحاس المصرى المتوفى سنة ٣٣٧ هـ صاحب أدب الكتاب وصناعة الكتاب (٥) وغيرهم ، وأكثر هذه الكتب لم تصل إلينا ، فلم نعرف ما اشتملت عليه ، ولكن من أسمائها نستطيع أن نرجح أنها تختلف بعض الاختلاف عما أراده ابن منجب من كتابه « قوانين ديوان الرسائل » فإن كتابه فى الحديث عن الأحوال التى يجب أن يكون عليها رئيس ديوان الإنشاء وعن العلوم والمعارف التى يجب أن يكون حاصلا عليها وعن اختصاصه فى عمله ، ثم تحدث بعد ذلك عن معاونيه من الكتاب فى الديوان ، فجعل لكل عمل كاتبا خاصا له مميزات خاصة ، فمن يستخدم لتخريج الكتب الواردة له صفات خاصة ، ومن يستخدم برسم الإنشاء له خصائص ، ومن يكون ناسخا فى الديوان له مميزات ، وهكذا . فكتاب ابن منجب فى أغلب الظن يختلف عن الكتب التى وضعت فى الكتاب والكتابة ، لأنه يتحدث قبل كل شىء عن نظام ديوان الرسائل ثم عن موظفيه ، فهو صورة مختصرة جدا للكتاب الذى ألف بعد ذلك وهو كتاب صبح الأعشى للقلقشندى .

أما الكتاب الثانى الذى بقى لنا من كتب ابن منجب فهو كتاب الإشارة

(١) تجد الرسالة فى كتاب رسائل البلغاء وفى كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى .
(٢) معجم الأدباء ج ٣ ص ٦٦ . (٣) المصدر نفسه ج ٥ ص ١٣٥ .
(٤) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٤٤ . (٥) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٢٨ .

إلى من نال الوزارة . . . فهو كتاب تاريخ من ولى الوزارة فى عهد الدولة الفاطمية ، سجل فيه ابن منجب اسم كل وزير وتاريخ توليته وما لقب به ، وما تم على يديه من أعمال ، فهو من أهم الكتب التى تتحدث عن تاريخ الفاطميين .

ولابن منجب عدة مقطوعات من الشعر ، ولكنه لم يعرف بالشعر كما عرف بالكتابة ، وروى له ياقوت قوله :

لما غدوت مليك الأرض أفضل من   جلت مفاخره عن كل إطراء
تغايرت أدوات النطق فيك على   ما يصنع الناس من نظم وإنشاء

وقوله :

لا يبلغ الغاية القصوى بهمته   إلا أخو الحرب والجرد السلاهيب
يطوى حشاه إذا ما الليل عانقه   على وشيج من الخطى مخضوب

ولكن ابن منجب لم يعد بين الشعراء ، بالرغم من أن شعراء المائة الخامسة كان أكثرهم من كتاب الإنشاء ، ولعل ذلك يرجع إلى أنه كان مقلا فى الشعر مكثرا فى الرسائل ، حتى قيل إن ديوان رسائله يزيد على أربعة مجلدات .

وتوفى ابن منجب فى يوم الأحد لعشر بقين من صفر سنة ٥٤٢ هـ (١) ، ولكن ياقوت يذهب إلى أنه توفى فى أيام الملك الصالح بن رزيك بعد سنة خمسين وخمسمائة (٢) ، وليس بين أيدينا شىء من النصوص التى تجعلنا نرجح إحدى الروايتين .

أبو الفتح بن قادوس :

كان مع ابن الصيرفى فى ديوان الإنشاء كاتبان شاعران من أقدر كتاب مصر الفاطمية وشعرائها ، أما الأول فهو الفاضل المفضل كافى الكفاة أبو الفتح محمود بن القاضى الموفق إسماعيل بن حميد الدمياطى المعروف بابن قادوس . شاهد عصر الأفضل بن بدر الجمالى ، وامتدت به الحياة إلى أن توفى فى عهد الملك الصالح طلائع بن رزيك ، أى أنه عاصر شعراء مصر وكتابها فى النصف الأول من القرن السادس ، وعرف اتجاهاتهم الفنية فى الشعر والكتابة ، فلا غرو أن نرى أمية ابن أبى الصلت يتحدث عنه فى رسالته المصرية ، ونرى العماد يقول عنه : «أشعاره

(١) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٨٧   (٢) معجم الأدباء ج ١٥ ص ٧٩

محكمة النسج ، كالدر فى الدرج (١) » ، ووصفه ابن ميسر بقوله : «كان من أماثل المصريين وكتابهم مقدما عند ملوكهم (٢)» . لم يصلنا شىء عن حياة هذا الكاتب الشاعر ، فقد فقدت ترجمة حياته ، كما فقدت تراجم رجال مصر الفاطمية ، ومع ذلك فقد حفظت فى بعض المراجع قصته مع زميله وصنوه أبى على حسن بن زبيد الأنصارى ، وكيف كان ابن قادوس سببا فى أن يلقى زميله حتفه على نحو ما ذكرنا من قبل (٣) ، فإن هذه القصة تدل على أن ابن قادوس بالرغم مما قاله القدماء عن فضله وكفايته فى صناعتى الشعر والنثر ، فإنه كان ضعيف الخلق ، يحسد زملاءه ويوقع بهم فى المهالك . وهناك قصة أخرى يرويها القدماء عنه ، وهى انتصاره للجليس بن الحباب ، فقد ذكرنا أن ابن الصياد الشاعر كان مولعا بهجاء الجليس ، كثير الدعابة بأنفه ، حتى قيل إن مقطعات ابن الصياد فى ذلك بلغت ألف مقطوعة ، فانبرى له ابن قادوس ينتصر للجليس قائلا :

يا من يعيب أنوفنا الشم   التى ليست تعاب
الأنف خلقة ربنا   وقرونك الشم اكتساب (٤)

فما الذى جعل ابن قادوس ينتصر للجليس ؟ لا أشك فى أن ضعف خلق ابن قادوس جعله يتوهم أن الجليس ربما ساعده فى الوصول إلى مآربه الشخصية فى الديوان أو فى غير الديوان من مناصب الدولة ، بحكم تلك الصلة القوية التى كانت بين الجليس والخليفة الفاطمى من ناحية ، وبين الجليس والملك الصالح طلائع ابن رزيك من ناحية أخرى ، فلذلك انتصر للجليس ، ولولا أطماعه ما كان ينشد هذين البيتين .

مهما يكن من شىء فإن ابن قادوس كان من أماثل الكتاب فى القرن السادس الهجرى ، فالرسائل التى بقيت لنا من إنشائه تدل على مقدرته وعلو كعبه فى الإنشاء ، فمن إنشائه ما كتبه بمناسبة ركوب الخليفة فى عيد النحر ، ومنها :

«أما بعد ، فالحمد لله ماحى دنس الآثام بالحج إلى بيته الحرام ، وموجب الفوز فى المعاد لمن عمل بمراشد أئمة الهدى الكرام ، ومضاعف الثواب لمن اجتهد فيما أمر الله به من التلبية والإحرام ، ومخول الغفران لمن كان بفرائض

(١) الخريدة ورقة ٤٩ .   (٢) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٩٧ .
(٣) راجع ص ١٨٧ من هذا الكتاب   (٤) الخريدة ورقة ٦٨ .

الحج و نوافله شديد الولوع والغرام . وصلى الله على جدنا محمد الذى لبى وأحرم ، وبين ما أحل الله وحرم ، وعلى أخيه أبينا أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى ضرب وكبر ، وحقر من طغى وتجبر ، وعلى الأئمة من ذريتهما أعلام الدين ، وحتوف المعتدين ، وسلم وكرم ، وشرف وعظم ، وإن من الأيام التى كملت محاسنها وتمت ، وكثرت فضائلها وجمت ، ووجب تخليد عز صفاتها ، وتعين تسطير تأثيراتها ، يوم عيد النحر من سنة (كذا) : وكان من قصصه أن الفجر لما سل حسامه ، وأبدى الصباح ابتسامه ، نهض عبيد الدولة فى جموع الأولياء والأنصار ، وأولى العزيمة والاستبصار ، ميممين القصور الزاهرة متبركين بأفنيتها ، ومستملين بسعادتها ، وتألفوا صفوفا تبهر النواظر ، ويخجل تألفها تألف زهر الروض الناضر ، مستصحبين فنونا من الأزياء تروق ، ومستتبعين أصنافا من الأسلحة يغض لمعها من لمع اللهب والبروق ، والأعلام خافقة ، والرياح بألسنة النصر على الإخلاص لإمام العصر متوافقة ، فأقاموا على تشوف لظهوره ، والتطلع للتبرك بلامع نوره ، ولما بزغت شمس سعادته ، وجرت الأمور على إيثاره وإرادته ، وبدت أنوار الإمامة الجلية ، وظهرت طلعتها المعظمة البهية ، خر الأنام سجوداً بالدعاء والتمجيد ، والاعتراف بأنهم العبيد بنو العبيد ، واستقل ركابه أمير المؤمنين ، ووزيره السيد الأجل الذى قام بنصر الله فى إنجاد أوليائه ، وتكفل الإسلام برفع مناره ونشر لوائه ، وناضل عن حوزة الدين وجاهد ، وناصل أحزاب الكفار وناهد ، يقوم بأحكام الوزارة ، وتدبير الدولة تدبير أولى الإخلاص والطهارة ، ويتبع آراء أمير المؤمنين فيما تنفذ به أوامره ، ويعمل بأحكام الصواب فيما تقتضيه موارده ومصادره ، ويحسن السياسة والتدبير ، ويتوخى الإصابة فى كل صغير من أمور الدولة العلوية وكبير ، ويخلص لله جل وعز ولإمامه ، ويكفكف من الأعداء ببذل الجهد فى إعمال لهذمه وحسامه ، وسار أمير المؤمنين والعساكر متتابعة فى إثره ، متوافقة على امتثال أمره ، قد رفعت السنابك من العجاج سحابا ، وخيلت جنن الجند للناظرين فى البر عبابا ، والجياد المسومة تموج فى أعنتها ، وتختال فى مراكبها وأجلتها ، وتسرع فتكسب الرياح نشاطاً ، وتفيد المتعرض لوصفها إفراطا ، وتهدى لمن يحاول مماثلتها غلواً واشتطاطا ، وأصوات مرتفعة بالتهليل ، وأصوات الحديد

تسمع بشائر النصر بترجمة الصليل ، ويكاد يرعب الأرض تزلزل الصهيل ، وترض سنابكها الهضاب وتغدو صلابها كالكثيب المهيل . . . (١)

وكتب ابن قادوس بالبشارة بوفاء النيل :

« النعم وإن كانت شاملة للأمم ، فإنها متفاضلة الأقدار والقيم ، فأولاها بشكر تنشر الآفاق أعلامه ، واعتداد تحكم بادراك الغايات أحكامه ، نعمة يشترك فى النفع بها العباد ، وتبدو بركتها على الناطق والصامت الجماد ، وتلك النعمة النيل المصرى الذى تبرز به الأرض الجرز فى أحسن الملابس ، وتظهر حلل الرياض على القيعان والبسابس ، وترى الكنوز ظاهرة للعيان ، متبرجة بالجواهر واللجين والعقيان ، فسبحان من جعله سببا لإنشار الموات ، وتعالى من ضاعف به ضروب البركات ، ووفر به مواد الأرزاق والأقوات الخ » (٢)

هذان مثلان مما كتبه ابن قادوس من سجلات هى من خصائص مصر ، فلا ينازع مصر بلد آخر فى هذا اللون من السجلات ، ولا سيما فى البشارة بوفاء النيل ، ولكن اللون الآخر ، وهو ركوب الإمام الفاطمى لصلاة عيد النحر ، فهو من ترتيب الدولة الفاطمية ، وقد رأينا تأثير العقائد الفاطمية فى السجل الفاطمى مما لا يدع شكا فى أن العقائد أثرت فى الكتابة كما أثرت فى الشعر ، أضف إلى ذلك كله هذه الصنعة الفنية فى الكتابة التى رأيناها عند جل كتاب الفاطميين . وقد حفظ العماد قطعة من رسالة لابن قادوس كتبها إلى ابن معروف ، وتظهر فى هذه الرسالة صنعته الفنية التى ظهرت فى السجلين السابقين :

« أطال الله بقاء الحضرة لغرائب مجد يبتدعها ، وفرائض جود يشرعها ، وقوادم يذلل صعابها ، ومسايف سعود يطرق جنابها ، وأدام أيامها التى هى للدهر تمائم ، وفى المحل غمائم :

غرر من الأيام توضح نحرها	والدهر من ظلم النوائب عاتم
ملك تملكه الندى وتجمعت	فى راحتيه غمائم وسمائم
فالروض يجدب وهو روض ممرع	والغيث يقلع وهو غيث دائم

(١) صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٢٦

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٨

وشتان ما بينهما ، تلك سحاب قد رعدت بوارقها ، وعدت صواعقها ، وروض يجف نباته ، وتضوع زهراته ، ومكارم الحضرة تزيد جدة على التكرار ، وتماثل فعل الفلك المدار ، فهى تبارى الشمس نهاراً ، وتزور مزار الطيف سراراً :

منن بغير أهلة مستورة ... فطلعن فى فلك العلا أقماراً
ومواهب ومناقب ومناسب ... رفعت له فوق السماك مناراً (١)

وتوفى ابن قادوس سنة ٥٥١ فى سابع المحرم ، وقيل إن الملك الصالح حضر من القاهر إلى مصر للصلاة عليه ومشى فى جنازته إلى تربته عند مسجد الأقدام.(٢) ووافق العماد على تاريخ وفاة ابن قادوس على هذا النحو ، غير أن المقريزى روى قصة طويلة زعم فيها أن أبا الفتح يانس الأرمنى وزير الحافظ لما عظم شأنه سنة ٥٢٦ هـ وثقل على الخليفة أخذ كل منهما فى التدبير على الآخر ، فأعجل يانس وقبض على حاشية الخليفة ومنهم قاضى القضاة وداعى الدعاة أبو الفخر وأبو الفتح ابن قادوس وقتلهما . فاشتد ذلك على الحافظ وعمل على سم وزيره (٣) أى أنه ذهب إلى أن ابن قادوس قتل سنة ٥٢٦هـ ، وقد وهم المقريزى فى هذه الرواية فإن الأدلة تكاد تجمع على أن ابن قادوس شاهد عصر الملك الصالح طلائع بن رزيك ، من ذلك أن قصة ابن قادوس مع أبى على حسن بن زبيد الأنصارى كانت فى الخلاف بين حسن بن الحافظ وأبيه ، وهذا الخلاف نشأ بعد سنة ٥٢٦ هـ ، ونحن نعلم أن ابنى الزبير لم يتقدما فى الديوان إلا بعد قتل الظافر سنة ٥٤٩ هـ بل لم يكن لهما ذكر فى الدولة قبل هذا التاريخ وقد روينا هجاء ابن قادوس لابن الزبير ، فمعنى هذا أن هذا الهجاء كان بعد مقتل الظافر أى بعد سنة ٥٢٦ أيضاً ، ومن ذلك أن العماد يحدثنا أن الملك الصالح طلائع بن رزيك كان يغرى ابن الصياد بأنف الجليس ابن الحباب ، فأنشد ابن الصياد هذه المقطعات التى أشرنا اليها مراراً ولم يسكته إلا ابن قادوس ، فنفهم من ذلك أن ابن قادوس حضر عهد الملك الصالح ، أضف إلى ذلك

(١) الخريدة ورقة ٥١ .
(٢) ابن ميسر ص ٩٧
(٣) خطط المقريزى ج ٣ ص ٢٧ .

ماروواه ابن خلكان أن الخليفة العاضد الفاطمى أشرك ابن قادوس مع الموفق ابن الخلال فى ديوان الإنشاء . وإذن فنحن نؤيد رواية العماد وابن ميسر أنه توفى سنة ٥٥١ هـ .

أما الشاعر الكاتب الثانى فهو أبو على حسن بن زبيد الأنصارى الذى كان ابن قادوس سبب قتله ، وقد تحدثنا عنه شاعراً (١) . أما صفته الكتابية فقد وصفه العماد بأنه كان من المقدمين فى ديوان المكاتبات (٢) وقال مرة أخرى : ومن نثره ما يدل حسنه على رونق فرنده وأثره (٣) ، وحقا ، كان أبو على الأنصارى من الكتاب الذين ملكوا ناصية اللغة والمقدرة على التصرف بالألفاظ ، فكان يضع اللفظ فيما خصص له ، ويختار من الألفاظ ما يناسب المعنى الذى قصده مع التزامه الخصائص الأخرى التى رأيناها عند غيره من الكتاب ، ومن هنا ظهرت مواهب أبى على الانصارى فى النثر كما ظهرت من قبل فى الشعر ، اقرأ هذه الرسالة التى كتبها إلى صديق له يهنئه بالشفاء من مرض :

« إذا قدم الوداد ، وصح الاعتقاد ، وصفت الضمائر ، وخلصت السرائر ، حل الإخاء المكتسب ، محل أخوة النسب ، وصار المتعاقدان على الإيثار والمتحابان على بعد الدار ، متساهمين فيما ساء وسر ، ومتشاركين فيما نفع وضر ، وتلك حالى وحال حضرة مولاى ، فإنى وإياها كنفس قسمت على جسمين ، وروح فرقت بين شخصين ، فما آلمها فقد مضى وأزعجنى ، وأما برؤها فقد سرنى وأبهجنى ، وعرفت خبر إبلالها من ألم كان بها ، فشكرت الله على خلتين معا ، ونفعين اجتمعا ، أحدهما أنى أعلم تألمها فكنت ألاقى ما يكدر الشراب ، ويمنع تلاقى الأهداب ، وأجد على حال الصحة ما يجد المريض ، وأرى الدنيا على إيثارها بعين البغيض ، والآخر علمى ببرئها عند حلوله ومعرفتى به عند تخييمه بساحتها ونزوله » (٤)

وأقرأ له يهنىء صديقه بمولود :

« وردت البشارة السارة بالقادم الأمجد ، المستقبل بالطالع الأسعد . وأخذ المملوك من المسرة بأوفر حظ الأولياء المخلصين فى الولاء ، المغمورين بجزيل

(١) راجع ص ١٨٧
(٢) الخريدة ورقة ١١٠
(٣) المصدر نفسه ورقة ١١٤
(٤) المصدر نفسه ص ١١٥

الآلاء ، وسأل الله سبحانه تخليد الأيام المالكية مديدة الأمد ، وافرة العدد ، نامية الأهل والولد ، حتى يرى هذا المبشر بقدومه ممتطيا صهوات الجياد ، يخوف الشذا يوم الجلاد ، يخفق وراءه اللواء ، وتخاف سطوته الأعداء ، وتخص البلاد بقواضبه ، وتشنف الأسماع بذكر مناقبه ، وترى من أولاده أمجادا عن الإسلام ذادة ، وأملاكا لامتلاك البلاد سادة . لا زالت تبلغ أقصى الأمانى ، وتسمع نغم التهانى ، وتمد ظلها على القاصى والدانى[1] » .

ثم اقرأ له هذه القطعة من رسالة فى العزاء بغريق :

« لعمرى لقد نزهه الله عن سهك الجرباء ، وملاقاة الحصباء ، والمقام تحت أديم الأرض ، وانطباق بعضها على البعض ، ورفعه عن أن يذل فى الحدث جبينه ، ويعفر فى العثير عرنينه ، فجعل ضريحه فى شبيهه جودا وكرما ، وضريبه محاسن وشيما ، فتضمنه الماء ، وتغطمط فوقه الدأماء ، فإذا استسقى السحاب ، واستسمح التراب ، فهو فى البحر الوافر ، واللج الزاخر ، بحيث تتفرع المناهل ، ويرد كل ناهل[2] » .

فهل رأيت كيف كان أبو على الأنصارى فنانا يجيد صناعته ، فينتقى من اللفظ أجوده ، ومن المعانى أسماها وأجملها ؟ فلا عجب أن رأينا ابن قادوس يحسده على مهارته ، ويخشى منافسته . فدبر المكيدة التى أدت به إلى حتفه .

الموفق ابن الخلال :

ولعل آخر من ولى ديوان الإنشاء فى مصر الفاطمية هو يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال ، الملقب بالموفق ، وقد وصفه العماد بقوله : « هو ناظر مصر وإنسان ناظرها ، وجامع مفاخرها ، وكان إليه الإنشاء ، وله قوة على الترسل يكتب كما يشاء[3] » ، ويذهب ابن خلكان إلى أن الموفق كان صاحب ديوان الإنشاء بمصر فى أيام الحافظ ، وأنه استمر فى مرتبته إلى آخر عهد الدولة الفاطمية[4] ، ويعد الموفق ابن الخلال الأستاذ المباشر للقاضى الفاضل ، وقد روينا كيف وفد القاضى الفاضل إلى ديوان الإنشاء ، ومثل بين يدى الموفق ولازمه ، وتدرب

(١) الخريدة ورقة ١١٥ . (٢) المصدر نفسه ورقة ١١٨

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٧ .

(٤) المصدر نفسه ، وهذا ما يفهم أيضا من أقوال القلقشندى فى كتاب صبح الأعشى ج ١ ص ٩٦

بين يديه ، وكيف طلب منه الموفق أن ينثر ديوان الحماسة مرة بعد أخرى ، إلى أن أجاد القاضى الفاضل فن الترسل ، وبلغ هذه الدرجة الرفيعة فى هذا الفن . لذلك يقول ابن خلكان : « ولم يزل ابن الخلال بديوان الإنشاء إلى أن طعن فى السن وعجز عن الحركة فانقطع فى بيته . ويقال إن القاضى الفاضل كان يرعى له حق الصحبة والتعليم ، فكان يجرى عليه كل ما يحتاج إليه[1] » . وابن الخلال أحد الذين ذكرهم عمارة اليمنى فقال : « ووجدت بحضرته (أى بحضرة الصالح بن رزيك) من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالى بن الحباب والموفق بن الخلال صاحب ديوان الإنشاء . وأبا الفتح محمود بن قادوس والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير ، وما من هذه الحلبة أحد إلا ويضرب فى الفضائل النفسانية ، والرياسة الإنسانية بأوفر نصيب ، ويرمى شاكلة الإشكال فيصيب[2] » . إذن تكاد تجمع المصادر التى بين أيدينا والتى حدثتنا عن الموفق ابن الخلال أنه كان على جانب من علو الهمة والفضل ، وعلى براعته فى فن الترسل . وقد حفظ من إنشائه سجل كتبه بولاية شاور الوزارة لثانى مرة ؛ أى بعد انتصاره على ضرغام ، جاء فيه :

« سلام عليك . فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين ، وإمام المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين ، وسلم تسليما (أما بعد) : فالحمد لله مانح الرغائب ومنيلها ، وكاشف المصاعب ومزيلها ، ومذل كل عصبة كلفت بالغدر والشقاق ومذيلها . ناصر من بغى عليه ، وعاكس كيد الكائد إذا فوق سهمه إليه . وراد الحقوق إلى أربابها ، ومرتجع المراتب إلى من هو أجدر برقيها وأواها ، ومسنى الخير بتيسير أسبابه ، ومسهل الرتب بتمهيد طرقه وفتح أبوابه ، ومدنى نائى الحظ بعد نفوره واغترابه ، ومطلع الشمس بعد المغيب ، ومتدارك الخطب إذا أعضل بالفرج القريب . مبدع ما كان ويكون ، ومسبب الحركة والسكون . محسن التدبير ، مسهل التعسير . « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء . بيدك الخير إنك على كل شىء قدير » . والحمد لله الذى اختص أولياء أمير المؤمنين بالاستعلاء والظهور ،

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٩ . (٢) النكت العصرية ص ٣٤ .

وذلل لهم جوامح الخطوب ومصاعب الأمور . وآتاهم من التأييد كل بديع مستغرب ، وأنالهم من كل غريب إذا أورد قصصه أطرب . ومكنهم من نواصى الأعداء ، وشملهم بعناياته فى الإعادة والإبداء وضمن لهم أحمد العواقب ، وأرشدهم إلى الأفعال التى تبنت لهم فى صحائف الأيام أفضل المناقب . وهداهم بأمير المؤمنين إلى ما راق زلاله ، وتم غاية التمام كما أنه كان لرضا الله سبحانه وحسن ثوابه ومآله ويمدهم فى المجاهدة عن دولته بالتأييد والتمكين ، ويحظيهم من أنوار اليقين ، بما يجلو عن أفئدتهم دجى الشك البهيم ، ويظهر لأفهامهم خصائص الإمامة فى حلل التفخيم والتعظيم ، ويريهم أن خلوص الطاعة منجاة فى المعاد بتقدير العزيز العليم .

والحمد لله الذى استثمر من دوحة النبوة الأئمة الهادين ، وأقامهم أعلاما مرشدة فى محجة الدين ، وبين بتبصيرهم الحقائق ، وورث أمير المؤمنين شرف مقاماتهم ، وجعله محرز غاياتهم ، وجامع معجزاتهم وآياتهم ؛ وقضى لمن التحف بظل فنائه واشتمل بسابغ نعمه وآلائه . وتمسك بطاعته ، واعتصم بولائه : بالخلود فى النعيم المقيم ، والحلول فى مقام رضوان كريم « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

ثم يقول : « وراقب الله فيما ألقاه إليك ، فقد فوض إليك مقاليد البسط والقبض ، والرفع والخفض ، والولاية والعزل ، والقطع والوصل ، والتولية والتصريف والصرف ، والإمضاء والوقف ، والغض والتنبيه ، والاخمال والتنويه والاعزاز والاذلال ، والإساءة والاجمال ، والابداء والاعادة ، والنقص والزيادة ، والانعام والارغام ، وكل ماتحدثه تصاريف الأيام ، وتقتضيه مطالب الأنام ، فهو إليك مردود ، وفيما علق بنظرك معدود . وأما العدل ومد رواقه ، وإقامة مواسمه وأسواقه ، والإنصاف واتباع محجته ، والاعتماد على أحكامه وأقضيته . وكف عوادى الجور والمظالم ، وحمل الأمر على قصد التصاحب والتسالم ، وإظهار شعار الدين ، فى إنصاف المتداعين إلى الشرع المتحاكمين ، والدعوة الهادية وفتح أبوابها للمستجيبين ، وإعزاز من يتمسك بها من كافة المؤمنين ، والأموال والنظر فيها ، والأعمال أقاصيها وأدانيها ، فكل ذلك محرر فى تقليد وزارتك الأولى .

وأنت أولى من حافظ على العمل به وأكمل . . . . الخ (١) » .

فمن هذه القطعة نستطيع أن نتبين كيف تبع الموفق بن الخلال ما تبعه غيره من كتاب مصر الفاطمية من الخصال الفنية التى ذكرناها من قبل . ثم نتبين كيف استطاع الموفق أن يستغل مصطلحات بعض العلوم وينظمها فى سلك كتابته ليضيف إليها قوة فى الصناعة .

لم يكن الموفق كاتبا فحسب ، بل كان شاعرا أيضا ، شأنه فى ذلك شأن عدد كبير من الكتاب الفاطميين ويظهر فى شعره هذه الصنعة البديعية التى تظهر فى نثره أيضا ، فهو يقول من قصيدة :

عذبت ليال بالعذيب خوالى ... وحلت مواقف بالوصال حوالى
ومضت لذاذات تقضى ذكرها ... تصبى الحليم وتستهيم السالى
وجلت موردة الخدود فأوثقت ... فى الصبوة الخالى بحسن الخال
قالوا سراة بنى هلال أصلها ... صدقوا كذاك البدر فرع هلال (٢)

كما روى أن بيتا أنشده كان سبب قطع صلة شاعر من شعراء القصر . ذلك أن الشاعر أبا القاسم بن هانئ — وكان من سلالة الشاعر ابن هانئ الأندلسى المعروف — كان يهجو ابن الخلال ، فأضمر هذا له حقدا ، فاتفق فى بعض المواسم أن تقدم الشعراء للنشيد بين يدى الخليفة ، وانتهت النوبة إلى ابن هانئ ، فأنشد وأجاد ، فسأل الخليفة الموفق ابن الخلال رأيه فى قصيدة ابن هانئ ، فلم يسعه إلا أن يثنى عليه ويبالغ فى وصفه ، ثم قال : ولو لم يكن له ما يمت به إلا انتسابه إلى ابن هانئ الأندلسى شاعر هذه الدولة ومظهر مفاخرها وناظم مآثرها لولا بيت أظهر منه الضجر عند دخول جوهر هذه البلاد ، فقال له الخليفة : ماهو؟ فتحرج الموفق من إنشاده ، وأبى الخليفة إلا أن ينشده ، وفى أثناء ذلك صنع ابن الخلال بيتا هاجيا فيه الأئمة الفاطميين .

فعظم ذلك على الخليفة ، وقطع صلة الشاعر ، وكاد يفرط فى عقوبته (٣) .

وتوفى ابن الخلال فى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وستين وخمسمائة من الهجرة (٤) .

---

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٣١٠ . (٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٨ .
(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٠٩ . (٤) المصدر نفسه

عمارة اليمنى الثائر :

بالرغم من أن عمارة اليمنى لم يكن من عمال ديوان الرسائل ، ولم يعرف عنه أنه كان كاتبا لأحد الأمراء ، فإننا نستطيع أن نلمس فى رسائله الإخوانية التى حفظت لنا ، خصائص الكتابة التى عرفت عند كتاب الدواوين ، وكما تأثر عمارة فى شعره بمصر وبشعرائها ، فقد ظهر أثر مصر وأثر كتابها فى نثره ؛ ونختم هذا الفصل من الكتاب برسالة طريفة أرسلها عمارة إلى صديق له ولى على أسوان ، وقد رأينا أن ننقلها بأكملها لما فيها من صنعة فنية وطرائف لا نجدها فى السجلات الرسمية التى أوردنا صورا منها من قبل ، كتب عمارة :

إن جرى بيننا وبينك عتب   أو تناءت منا ومنك الديار
فالوداد الذى عهدت مقيم   والدموع التى شهدت غزار

كان عزمى ، أطال الله بقاء حضرة مولاى ، أن أستفتح هذا الكتاب ، بأليم العتاب ، وأشحنه من الخطاب ، بما لا يستطاب ، وأقيم أعنة القوارص ، وأسدد أسنة الخوارص ، وأجلب بخيل التوبيخ ورجاله ، وأجمع بين رويته وارتجاله ، وأجهز تعنيفا يضيق له البحر بمراكبه ، والبر بمواكبه ، ثم قلت السلام قبل الكلام ، والملاطفة أولى من الملام ، ثم عطفنى حفظى لعهدك ، وحفاظى على ودك ، وشافع أولى ، ووفاء سموألى ، فلا طفانى حتى لزما كفى ، وخزما أنفى ، فعدت من شب نار الوجد عليك ، إلى التشبيب بذكر الشوق إليك . وكتابى هذا صادر عن صدر مملوء بودك ، وقلب مصدوع ببعدك ، وأسف لفقدك ، لا يظعن قاطنه ، ولا يخفى باطنه ، وغرام لو تصور لك لبانت على وجهه جناية الفراق ، ومراسم الاحتراق ، ولعلمت أن صورتك فى القلب مغروسة ، ومكاتبتك منه محروسة ، وأنك شغل خاطرى ومسرحه ، ومرمى ناظرى ومطرحه

يا حبذا سفوان لى من مرتع   ولربما جمع الهوى سفوان

بل حبذا ليالى محاضرتك ومذاكرتك ، ومراوحتك ومباكرتك

وأياما لنا ولكم نعمنا   زمانا فى حواشيها الرقاق
ليالى نحن فى غفلات عيش   كأن الدهر عنا فى وثاق

هذا يا مولاى فصل مقصور على صحيح التشوق ، لا سقيم التسوق ، وخاطرك ،

والكاف ألذ من الضمير فى مخاطبتك ، وأعذب من الماء النمير فى مكاتبتك ، تعلم صدق دخيلتى ، وودق مخيلتى . وأعود إلى ما فى نفسى من عتابك ، بل سبابك ، والتظلم من جفائك ، والتألم من عدم وفائك . يا أعصى من العود ، وأقسى من الجلمود . بل يا قصير العزيمة ، وطويل الهزيمة ، مضت لك شهور هى عندى دهور ، لم تهزك فيها ريح الأريحية ، ولا شيمة النفس المضرحية ، ولا استفزك المنصب الأبى ولا الحسب الغرى ، قطعت من مكاتبتك رسمى ، فلا تلفظ فى كتبك إلى الناس باسمى ، فقد كنت أرضى منك أن أكون تحت الحسبلة لا فوق البسملة ، ولقد رأيت لك كتبا سلطانية وأخرى إخوانية ، فقبلت اسمك من عنوانها ، قبل الوقوف على بيانها . هذا وأنا كنانة سرك ، وخزانة حلوك ومرك ، والمتهم فيك بما سمع من فيك وأظن اسمى لو مر بسمعك لحذفت خمسيه ليكون عمَى الأبصار ولست أعلم لك عذرا أحمل فعلك عليه وأنسب تحاملك إليه ، إلا أن تكون طينة البلد والمنشأ ، غشى فؤادك منها ما غشى ، فإنها الطينة التى تنبت العقارب ، وتعادى بين الأقارب . وأنت تعلم أن آل الزبير والكنز إليهم منتهى رياسة أعلامها وسياسة أقلامها وتحلى سيفها وضيفها ورحلتى شتائها وصيفها من منهم إلا من عداوته أسباطية لأخيه ، أنباطية فى توخيه ، يبدون المودة ويخفون العداوة ، أهل حاضرة وفيهم جفاء البداوة ، وهذا ما ليس لهم فى دفعه حيلة ، ولا فى منعه وسيلة ، لأنه طبع جرى فى مائهم ونسيم سمائهم وامتزج بأهوائهم من أهوائهم ، وإلا نخذ إليك ، واحسب على يديك ، كم هنالك من راسخ أنساب ، وشامخ أحساب ، وصحة أديم ومجد قديم ، ونجر عميم وكرم صميم . أو ليس أسوان بهم مأوى الطريد ومقر الشريد ، وأمان الخائف والذمة من الدهر الحائف ، ثم هم سداد الثغر إذا انفتح ، وسداد الأمر إذا فدح ، وشعلة الزناد إذا قدح ، وعنوان الصدق لمن مدح . العادلون إلا على الوفر ، والفاصلون بين الإسلام والكفر .

وأرجع يا مولاى إلى مخاصمتك ومواصمتك ، ومشاتمتك وملاكمتك ، والعرض من عندك والكف من عبدك ، هذه مكاتبة غير مواتية ، ومخاطبة الحالين والنواتية ومقاشره ، وسوء معاشره ، وكأنى بمولاى إذا انتهى إلى هذا الحد تمثل وأنشد :

لئن ساءنى أن نلتنى بإساءة   لقد سرنى أنى خطرت ببالك

أأمنت أن أغضب فأقول : لا سقانى الله بنوئك ، ولا هدانى بضوئك ، ولا بلانى

بسوئك ، فإنك من أسوان والهمزة إذا حذفت عنها ، فهمت تثنيه السوء منها ، وأنت الذى جلبت إليها التعنيف ، وفتحت عليها الكنيف ، فإن كان هوى البلد أعداك ، فقد هوى بك وأرداك ، وإن كانت الرياسة المحدثة — ولا أكسر دالها — ألهتك عن أصفيائك ، وحسن وفائك ، فما إخالك ، وفلان خالك ، تجفو من ينصفك ، وتنكر من يعرفك . أجدنى يا مولاى قد اشتفى منك قرمى ، وانطفأ عنك ضرمى ، وأخذت الفتنة نارها ، ووضعت الحرب أوزارها ، وسفرت المسألة عن جبينها ، وأخذت صفقة ثمينها .

وهذا أوان تسرعى إلى حسن ذكرك ، وتبرعى إلى حمدك وشكرك ، وإتمام ما أعرضت عنه من ذكر الشوق إلى لقائك ، والدعاء بطول بقائك ، وأما هذا الكلام فهو هذر ساقط ، وهدر ما له لا قط ، وجلالة قدرك ، وطهارة صدرك ، وجميل اعتقادك ، وخالص ودادك وسؤددك ، وشرف قومك ونفسك ، وحسن يومك وأمسك ، يحملنى على علمك بأن مكانتك من قلبى ثابتة المكان ، قوية الأركان . ولو لا ذلك لقلت للنفس سقيت مهلا ، وسلبت علما ولبست جهلا ، ووجدت حزنا وعدمت سهلا ، ما هذه الجرأة على الأعراض المحرمة ، والبيوتات المكرمة ! أتعرفين بخلت يداك بمن تسمحين ؟ وعميت عيناك إلى من تطمحين ؟ إن لم يقك الوجل ، فليهنك الخجل . وإن لم يرعك الريث فلا يستفزك العجل . أما تعلمين أن هذه رتبة الأحكام الشرعية ، ورتبة أهلها واجبة مرعية . بل رتبة النظر والإشراف ، ونفاذ الكلمة فى الأوساط والأطراف .

واتصل بى أن مولاى قبض يده عن أحكام القضاء ، وبسطها فى الأموال والإمضاء ، وإن كان الكسل حد من نشاط نفسك ، وطوى بعض بساط أنسك . وأنا أعيذك أن تغلط فى وهمك ، أو يعترض الشك على فهمك . لا تقل ذهبت أجمل الخدمتين ، وأكمل النعمتين ؛ فإن من زاد فى الكراء ملك الدار ، وهذه الشقراء والمضمار . وأما الخدمتان : فها أنا أجلوهما على مرآة عقلك وهى صافية ، وأعرضهما على بصيرة فضلك وهى شافية ؛ أما الشريعة فهى ملسوعة عدمت الراقى ، ومريضة روحها فى التراقى ، حدودها متروكة ، وحرماتها مهتوكة ، ومعالمها مطموسة ، وأعلامها منكوسة ، وقد نغل أديمها ، ونسى قديمها ، وعفى وردها ، وبلى بردها ، حتى وقعت الزهادة ، فى لفظ الشهادة ، وثقل الأذان على الآذان ، وكان

القضاء لا يتولاه إلا من قرا ودرى ، وشبع من المعارف وتضلع ، وتشوق إلى الكمال وتطلع ، وبسط يده بالعطايا ، وقبض رجله عن الخطايا ، وقد صار القضاء فى وقتنا لما قضى الله به من مقتنا ، مبذولا لمن بذل فرضا ، معروضا على من لا يصون عرضا ، شعارهم طول السبال والقامة ، وعرض اللحية والعمامة . يعرفون أن اشتقاق الرشا من الرشوة ، وينكرون الفرق بين النشا والنشوة . هذه حال الشرع فى الأمصار الواسعة ، والأقطار الشاسعة . فأما أسوان فهى كما قال أبو الفتح البستى :

أكُتّابَ بست كم يحاسدكم على ... كتابة بست وهى سخنة عين

وخفى حنين فوق ما تطلبونه ... فكم بينكم يا قوم حرب حنين

وهل فى أحكام أسوان غريبة لا تعرف ، ونازلة تستطرف ؟ ما من أحد إلا وهو يعرف السلف على الزبيب والتمر ، والوالى يصفع المعربدين على المزر والخمر ، حاكمها مستريح من إقامة الناموس ، وإحضار المصحف لليمين الغموس ، لأن يمين التجار « وإلا يغرق فى شبر من الماء » ويمين الحمال « وإلا عذبت فى صحراء عيذاب بالظما » والعشار يقول : « وإلا فالكلب على عياله ، والحمار على أخت خاله » والسفساف يقول : « وإلا لصفع الوالى قفاه ، ورض فاه » .

هذه الخدمة يا مولاى قد شرحت لك حالها ، وعرضت عليك جمالها ، وهى زبدة كلها زبد ، ومورد صفوه زبد ، وعيبة محشوة بالعيوب ، وذنوب مملوءة بالذنوب ، وأما التصرف فى الأموال ، والبسطة فى الأعمال ، فأنت تعلم أن المال بلغك من المجلس العالى إلى أن أخلاك فى ركابه ، واختصك بخطابه ، وكنت متكسلا فتنشطت ، ومنقبضا فتبسطت ، ونظر إليك وخلع عليك ووعدك من الصيت والتنويه ، فوق ما تأمله وتنويه ، ثم أفرض أنك وحاكم ثغرك وقاضى مصرك قدمتما على الوالى فأدلى القاضى بالدنية ، وأدليت أنت بالهدية ، ومت على الوالى بوقاره ، ومتت بما قدمت إلى داره . هنا لك والله تعرف أن الجمال بخدمة المال ، وإلى اليمين فضل الشمال ، وأن صاحب الإحسان أمكن من صاحب الطيلسان . ثم لو جمعكما مسجد الجامع ، وبرزتما للناظر والسامع ، لامتلأ مجلسك بالعمال والخزان والمؤدين إلى الوزان ، وأطافت بك الأعوان السلطانية ، والنواب الديوانية ، وحفت بك أرباب الرواتب والجوازى ، ولم تجد من قولك من يراجع أو يجازى ، وقلت قدموا هذا

وارفعوه، وأخروا ذلك واصفعوه. وأما القاضي فلم يكن مجلسه يغتص، ومقصورته تختص، إلا باليتامى والأرامل، والمرضعات والحوامل، وقائلة إن زوجها لا يكفيها، لتخرج من عصمته إلى من يشفيها، ويتيم ظلمه عمه، ونيسكت أمه. وأعرج رجله مخلوجة، ويده مفلوجة، ومشايخ عظامهم نخره، وكوادمهم بخره؛ ثم القاضي أيده الله نائب حكم الصعيد، وأنت نائب صاحب العصر والقصر المشيد.

وماضر أرباب الدواوين أنهم ... نصارى وأن لم يؤمنوا بمحمد
وها نحن إن رمنا سلاما عليهم ... دفعنا عن الأكمام فضلا عن اليد

وهذه صورة الحال، من غير انتحال. وكأني بك إذا فهمت أطربت، وشددت يدك على ما فيها وربطت، وعلمت مقدار حظك فاغتبطت، وأريد يامولاي أن أصطادك بهذا الجنب، وأربط مرزأتي في هذا الذنب، وأشوي في نارك سمكتي، وأجلب إلى شوقك رمكتي. فلأمر ما نصبت هذه الراية، وأجريت إلى هذه الغاية، وجازفت وحققت، وعن صبوح رققت، عليك محيط بكثرة ما أتلف، وقلة ما أخلف، وغني نفسي عن سؤال الغمام فضلا عن الأنام، وليس للتوسع لأني مبذر، بل سائل من أهل اليمن والحجاز لا يعذر، قد ركب اللجة الخضراء، والقفرة الغبراء، وقصد بابي، ونزل جنابي، أفأصون صون قرضي، وأبذل عرضي

وإن أحق الناس باللؤم شاعر ... يلوم على البخل الرجال ويبخل

وأما حاشيتي الضافية، وعدتي الوافية، فأنت في كثرتها أصدق مخبر، وأفصح معبر، ولما طالت محنة الغز وعرضت، ورجوناها أن تصح فرضت، رجعت إلى كنانة ذكري، وخزانة فكري، فكنت أكرم خاطر في خاطري، وأحسن وجه يمثل لناظري، وسيرت إليك بعض خروجاتي للجاري الذي جمدت أنهاره، وخمدت ناره، ومبلغه يسير في جنب كرمك، حقير إذا قرن بهممك

فكم في الأرض من حسن ولكن ... عليك من الورى وقع اختياري

ولا تقل كم بين الفسطاط وآخر الصعيد، إن هذا لهو المرمى البعيد. فلو كنت أعلم أني عندك ممن يندى مربه، ويكدر بالأعداء شربه، لقصرت ما أطلته، وبخلت بما بذلته، ولكني قلت هذا أمر قد سهلت مسالكه، إذ أنت مالكه، وغيري تقبل من جودك بعض مجهودك، وقد أقسمت عليك وإبرار القسم إليك للنفس الأمارة: سامحيني في عماره، واترك عنك قصور باعك، وجفاء طباعك، فإن هذا سواد الناظر

بل ضمير الخاطر، وسقف السماء، وعذب الماء، وكأني بالوصول وقد آل إلى الحصول، وبالسؤال في يد الرسول:

ألا إن نفسا بين جنبي محمد ... إذا هم بالمعروف قالت تقدم
ويا طالما قالت له عند فرصة ... من الجود خذها لا تفتك فتندم

يا مولاي قد أجلت الرسول شهرا، وأنا أعده دهرا، وأقف حيث انتهيت وأسأل الجواب عما أنهيت، فإن الحاجة سائق حثيث، والوقت غريم خبيث، ولرأيك الفضل المعروف بالتفضل، والطول المشفوع بالتطول. ولو لا أن هذه الرسالة صادرة عن قائل لا يتقول، وواردة على قابل لا يتأول، لسألت كرمك عن بسط العذر عما فيها من التقصير. وحسبنا الله ونعم النصير[1].

فهذه الرسالة بالرغم من إسرافها في الطول تجمع بين عدة فنون وأغراض كانت من أغراض الشعر، ولكن تقدم النثر منذ القرن الثالث للهجرة في كل الأقطار الإسلامية جعل النثر يعرض للأغراض التي كانت للشعر من قبل، ففيها ذكر الفراق والعتاب، والتهكم الذي هو أقرب الى الهجاء، إلى غير ذلك من الموضوعات.

ثم نرى هذه الرسالة تجمع هذه الخصائص الفنية التي ظهرت عند كل كتاب مصر الفاطمية، فالرسالة تقوم على السجع، ثم على هذه الألوان المختلفة من البديع من تورية واقتباس وتضمين واستشهاد ومراعاة النظير وتشخيص وغير ذلك من هذه الألوان التي نفق سوقها عند كتاب مصر الفاطمية. ولم يشذ عن اتباعها كاتب واحد من كتابهم. فإذا جاء القاضي الفاضل في أواخر العصر الذي نؤرخه والعصر الذي يليه أسرف في استخدام هذه الألوان البديعية، فهو لم يأت بشيء جديد، إنما أخذ عن أساتذته من كتاب مصر الفاطمية طرائقهم في الكتابة وسار على منهجهم وسننهم ولكن اشتهر أمر القاضي الفاضل في التاريخ الإسلامي والتاريخ الأدبي أكثر من شهرة أساتذته كتاب مصر الفاطمية، لأن القاضي الفاضل قرن اسمه باسم صلاح الدين الأيوبي. فكان وزير صلاح الدين ومستشاره، والمؤرخون أشادوا بصلاح الدين، فمن الطبيعي أن يرفعوا شأن القاضي الفاضل،

(١) النكت العصرية ج ٢ ص ٤٣١.

ويثنوا عليه الثناء كله ، حتى بالغ بعض الكتاب فقال : إن القاضى الفاضل ابتدع طريقة جديدة فى الكتابة عرفت بالطريقة الفاضلية ، وكم كنت أود ألا يتسرع بعض المحدثين فى أحكامهم وكتاباتهم التى ساروا فيها على نمط من سبقهم ، فنسبوا إلى القاضى الفاضل هذا المذهب الجديد — فى نظرهم — عن الكتابة فى مصر ، فالقاضى الفاضل لم يكن إلا من تلاميذ كتاب مصر الفاطمية .

وهذه الطريقة التى نسبت إليه ، عرفها كتاب مصر الفاطمية ، بل عرفها كتاب مصر منذ عهد الطولونيين .

خاتمة

لعلك أدركت الآن شيئا عن الحياة فى مصر الفاطمية ، وكيف تطورت هذا التطور الخطير بعد عصر الإخشيديين ، فقد كانت عقائد الفاطميين سببا قويا فى تطور الحياة ، ذلك أن التشيع لم يكن له أثر يذكر فى مصر منذ الفتح الإسلامى حتى دخلها جوهر الصقلى ، فإذا بمصر تصبح بعد ذلك دولة شيعية ، ويتخذها أئمة فرقة من فرق الشيعة مقرا لحكمهم . واجتهد الفاطميون فى أن تكون مصر متميزة عن غيرها من الأقطار التى كانت تخضع للعباسيين أو لأمويي الأندلس ، وأن يبسطوا سلطان مصر على ما جاورها من البلدان ، فاتسعت رقعة أملاك مصر الفاطمية ، كما عمل الدعاة على بث تعاليم الفاطميين فى كل البلاد الإسلامية ، فاتجهت القلوب والأنظار ممن شملتهم هذه الدعوة إلى صاحب مصر ، وأصبحت القاهرة كعبتهم التى إليها يحجون ، وأصبح لمصر مكانة خاصة تختلف تمام الاختلاف عن مكانتها فى عصر الولاة الذى سبق العصر الفاطمى .

ورأينا شيئا عن الحياة الاجتماعية ، وكيف كانت مصر على جانب عظيم من الثراء ، فالأموال والهدايا كانت تترى على الأئمة بمصر ، وهؤلاء بدورهم أسرفوا الإسراف كله ، وأغدقوا نعمهم على المقربين إليهم وعلى الشعب فى كل مناسبة من مناسباتها ، وما كان أكثر هذه المناسبات فى عصر الفاطميين ، فهناك أعياد ابتدعها الفاطميون لم يعرفها المصريون من قبل ، وأعياد أدخلها المسلمون فى مصر منذ الفتح العربى ، ولكنها ازدادت بهجة فى العصر الفاطمى ، وهناك أعياد أخرى ليست إسلامية وإنما هى أعياد مصرية خالصة كان المصريون منذ أقدم عصورهم يحتفلون بها ، فورثها الأحفاد عن الأجداد ، أضف إلى ذلك أعياد المسيحيين التى اشترك فيها المسلمون فى عصر الفاطميين . فكل هذه الأعياد والمواسم طبعت العصر الفاطمى بطابع الترف والبهجة والتأنق فى كل شىء .

والعقائد الفاطمية تقوم على العلم والعمل معا ، لذلك اهتم الفاطميون اهتماما خاصا بألوان العلوم المختلفة ، ولا سيما ما كان منها يمت بصلة قريبة أو بعيدة من عقائدهم مثل علوم الفلسفة ، فازدهرت هذه الدراسات فى مصر الفاطمية ازدهارا

لم نسمع عنه من قبل ، فقد احتضن الفاطميون هذه الدراسات وشجعوا العلماء على المضى فى أبحاثهم، فكان نتيجة ذلك هذه المجلدات الكثيرة التى تضمها خزانة الدعوة باسم كتب الحقيقة ، ولما دالت دولة الفواطم ضعفت هذه الدراسات وقل أن نجد لها أثرا فى مصر ، وإنى زعيم أنه لو لم تكن هناك صلة خاصة بين بعض علوم الفلسفة وبين العقائد الفاطمية ، ما كانت هذه العلوم تزدهر وتقوى فهى أثر من آثار العقائد الفاطمية ، حقيقة اهتم الفاطميون بألوان العلوم المختلفة ، وأسسوا دار العلم ، وجمعوا فيها الكتب الوافرة فى جميع ألوان العلوم والمعرفة ، ولكن هذه العلوم الأخرى كانت تسير فى مصر سيرها الطبيعى وتتطور تطورها الطبيعى ، حتى إنها لم تتوقف بعد عصر الفاطميين ، كما توقفت الدراسات الفلسفية ، وكل ما فى الأمر أن الفاطميين اهتموا بها اهتمامهم بكل عمل علمى ، فشجع الفاطميون علماء النحو واللغة والقراءات والتاريخ بجانب تشجيعهم لغيرهم من علماء الفلك والطب وعلوم الفلسفة الأخرى ، ومن هنا ازدهرت الحركة الفكرية فى مصر الفاطمية ازدهارا عظيما .

وكذلك نقول عن الحياة الأدبية فقد كان الشعراء المقربون إلى الأئمة وهم شعراء القصر أو شعراء الحضرة يجهدون أنفسهم فى أن يلموا بالعقائد الفاطمية فى مدائحهم ، بحيث أصبحنا لا نستطيع أن نفهم مدائح الشعراء أو سجلات الكتاب إلا إذا طبقنا النظرية التى أطلقت عليها « نظرية المثل والممثول » وهى تقوم على فهم دقيق للعقائد الفاطمية ، حتى ندرك ما أراده الشاعر من مدحه ، وإلا كان فهمنا لهذا الشعر قاصرا غير صحيح ، فالعقائد أثرت تأثيرا قويا فى الحياة الأدبية تأثيرها فى جميع نواحى الحياة .

وهنا نقف لنتساءل : هل محيت الدعوة الفاطمية من مصر بعد زوال دولة الفاطميين ؟ والجواب عن ذلك يعيدنا إلى الحديث عن مدى قبول المصريين لدعوة الفاطميين ، ذلك أن أكثر المؤرخين يذهبون إلى القول بأن مصر رفضت مذهب التشيع ، إلى أن هدهم المعز بسيفه وأغراهم بذهبه ، فاعتنقوا عندئذ التشيع ، وبالرغم مما فى هذا القول من مبالغة ، فاننا لا ننكر أن من المصريين من اعتنق الدعوة الفاطمية رغبة أو رهبة ، وأن البعض الآخر استمر على مذهبه السنى ، وذكرنا أن من أسباب انقراض الدولة الفاطمية تهاون القائمين بالأمر

فيها بالإمامة التى هى عماد الدعوة ، فانهارت الدعوة بسبب ذلك ، وسهل على صلاح الدين أن يديل الدولة ، وبالرغم من ذلك فقد حدثنا بعض المؤرخين عن شخصيات كانت تدين بالدعوة الشيعية فى عهد الأيوبيين والمماليك ، ونظرة إلى كتاب الطالع السعيد للأدفوى ، أو كتاب الضوء اللامع للسخاوى ترينا عددا من أماثل المصريين كانوا يتشيعون، من ذلك ما ذكره الأدفوى عن إبراهيم ابن محمد بن على بن مطهر بن نوفل الأدفوى : « ثم عكف على حفظ كتاب الله العزيز، فاستحق به التمييز ، واستمر إلى آخر عمره على إقراء القرآن ملازما للصلاة والتلاوة والعبادة ، وهو كل يوم من الخير فى زيادة، مع صدق لهجة وصيانة، إلا أنه كان من أتباع الشيعة ، أصحاب تلك البدع الشنيعة ، شاهدته لما حضر داود الذى يدعى أنه ابن سليمان بن العاضد إلى ادفو فى سنة سبع وتسعين وستمائة، وهو بين يديه ، وقد أخذ العهد عليه ، وهو ينشده قصيدة نظمها منها : »

ظهر النور عند رفع الحجاب ... فاستنار الوجود من كل باب
وأتانا البشير يخبر عنهم ... ناطقا عنهم بفصل الخطاب[1]

ويروى الأدفوى أيضا قصة قطنبة الأسفونى الشاعر عند ما شكاه بعض أهله إلى الوالى بقوص ، فجاء الوالى ومعه الناظر الشمسى الآمرى وكان شيعيا ، فلما رآه قطنبة قال : يا آل أبى بكر ! ! فاغتاظ الناظر ، فأنشد قطنبة :

حديث جرى يا مالك الرق واشتهر ... بأسفون مأوى كل من ضل أو كفر
لهم منهم داع كتيس معمم ... وحسبك من تيس تولى على بقر
ومن نحسهم لا أكثر الله منهمو ... يسبوا أبا بكر ولم يشتموا عمر
خذ مالهم لا تختشى من مآلهم ... فإن مآل الكافرين إلى سقر[2]

ونذكر أنه عندما تحركت الشيعة حول داود بن شعبان الذى تحدثنا عنه من قبل — فى سنة ٦٩٧ هـ ادعى هذا الدعى لمن استجاب له أنه يتحمل عنهم الصلاة ، فقبل كلامه ، وفى هذا يقول علاء الدين على بن أحمد الأسفونى لبعض أهل بلدته من قصيدة أنشدها :

(١) الطالع السعيد ص ٣١
(٢) المصدر نفسه ص ١١٨ .

ارجع ستلـقى بعدها الأهوالا   لاغشت تبلـغ عنـدنا آمالا
يامن تجمع فيـــه كل نقيصة   فـلأضربن بسيرك الأمثـالا
وزعمــت أنك للتكلف حامل   وكـذا الحمار يحمل الأثقالا[١]

ويقول الأدفوى أيضا عن الشيخ بهاء الدين القفطى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ «وفتح إسنا فإنه كان بها التشيع فاشيا ، فما زال يجتهد فى إخماده . وإقامة الدلائل على بطلانه ، وصنف فى ذلك كتابا سماه « النصائح المفترضة فى فضائح الرفضة » وهموا بقتله فحماه الله منهم »[٢] ويذكر عن عبدالقادر بن مهذب الأدفوى المتوفى سنة ٧٢٥ هـ أنه كان إسماعيلى المذهب مشتغلا بكتاب دعائم الاسلام[٣] . معنى ذلك أن التشيع لم يقتلع من مصر بزوال دولة الفاطميين ووجود حكومات سنيـــة متعصبة لمذهبها ، بل أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن المصريين الآن لايزالون متأثرين ببعض العقائد الفاطمية التى كانت فى مصر منذ ألف عام تقريبا ، فأهل السفه من المصريين إذا أرادوا سب شخص قالوا : ياعمر !!! ، وهذا بقية من بقايا سب السلف الصالح فى العصر الفاطمى ، وأهل مصر إلى الآن إذا زاروا ضريح « السيدة زينب » وضعوا نماذج لسفن على الضريح ، وهذا أثر آخر من تأثير العقائد الفاطمية الآن فى المصريين ، فهم يتبعون الحديث المنسوب إلى النبى صلى الله عليه وسلم : « أهل بيتى فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تركها غرق » ولا يزال المصريون إلى اليوم يلتمسون البركة والشفاعة من أهل البيت ، ويطوفون بأضرحتهم لقضاء الحاجات !! على نحو ما كان يفعل فى أيام الفاطميين ، والمصريون إلى اليوم يذكرون عليا والحسن والحسين وفاطمة أكثر مما يذكرون أبا بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة الأبرار . ومن ناحية أخرى نرى المصريين اليوم يحتفلون برؤية الهلال على نحو ما كان يفعله الفاطميون ، وإن كنا نخالفهم فى أننا الآن نأخذ برؤية البصر ، وكان الفاطميون يأخذون برؤية الاستبصار ، ولانزال إلى اليوم نحتفل بمواسم الفاطميين مثل أيام عاشوراء التى اتخذناها فرحا، وكانت فى أيام الفاطميين أيام حزن ، ونحتفل بليلة نصف شعبان وليلة السابع والعشرين من رجب ، وهى أعياد فاطمية لم يعرفها المصريون قبل العصر الفاطمى ، ونرى

(١) المصدر نفسه ص ١٩٧   (٢) المصدر نفسه ص ٣٩٧
(٣) المصدر نفسه ١٧٥

الخطب المنبرية الآن فى بعضها طابع التشيع الذى كان فى العصر الفاطمى . وإذن فمصر لم تستطع إلى الآن أن تتخلص كل التخلص من آثار التشيع الذى نشره الفاطميون .

وبعد ، فهذا الكتاب الذى نقدمه الآن صورة من صور الحياة الأدبية والعلمية فى مصر الفاطمية ، ولاأدعى أنها صورة كاملة صحيحة ، لأن آثار الفاطميين الأدبية والعلمية فقدت ، ولم يبق منها إلا النزر اليسير ، وهو الذى اعتمدت عليه فى هذا البحث ، ولعلى وفقت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

معجم الاسماء الواردة فى الكتاب

« ب »

« ت »

« ث »

« ج »

« ح »

« خ »

« د »

« ذ »

« غ »

« ف »

« ق »

« ك »

« ن »

« هـ »

« و »

« ى »

المصادر والمراجع

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا للمقريزى : طبع دار الفكر العربى
أخبار الدول المنقطعة للخزرجى : نسخة فتوغرافية بدار الكتب
إخبار العلماء بأخبار الحكماء لابن القفطى : طبع القاهرة ١٣٢٦
أسرار النطقاء لجعفر بن منصور : مخطوط بمكتبتى
الإشارة إلى من نال الوزارة لابن منجب الصيرفى : طبع القاهرة سنة ١٩٢٤ م
إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزى : « « سنة ١٩٤٠ م
افتتاح الدعوة للقاضى النعمان بن محمد المغربى : نسخة خطية بمكتبتى
أنباء الزمن فى أخبار اليمن ليحيى بن الحسين : طبع برلين سنة ١٩٣٦ م
الانتصار لابن الخياط : طبع القاهرة
الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق : طبع بولاق سنة ١٣٠٩ هـ
بحار الأنوار للمجلسى : طبع حجر بتبريز
بدائع الزهور لابن إياس : طبع بولاق سنة ١٣١١ هـ
بغية الوعاة للسيوطى : طبع القاهرة
تاج العروس
تاريخ ابن الأثير
تاريخ ابن خلدون
تاريخ مصر لابن ميسر
تاريخ ابن صالح الأرمنى : طبع أكسفورد سنة ١٨٩٤ م
تاريخ الإسلام للذهبى : نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٤٢ تاريخ
تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام لبندلى جوزى
تجارب الأمم لمسكويه
تأويل دعائم الاسلام للقاضى النعمان بن محمد : نسخة خطية بمكتبتى
التمهيد فى الرد على الملاحدة والشيعة للباقلانى : طبع دار الفكر العربى
تفسير الآلوسى

تفسير الخازن
تفسير الطبرى
تفسير القرطبى
التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع لأبى الحسن الملطى : طبع باستامبول سنة ١٩٣٦ هـ
الجمع بين آراء الحكيمين للفارابى :
حسن المحاضرة للسيوطى :
الحضارة الإسلامية ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده :
خريدة القصر للعماد الأصفهانى : نسخة فوتوغرافية بمكتبة جامعة فؤاد
خزانة الأدب لابن حجه الحموى
دستور المنجمين لمؤلف مجهول : نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٥٩٦٨
دعائم الإسلام للقاضى النعمان بن محمد المغربى : نسخة خطية بمكتبتى
دمية القصر للباخرزى : طبع حلب سنة ١٩٣٠
الدول المنقطعة لابن ظافر : صورة فتوغرافية بدار الكتب رقم ٨٩٠
ديوان الرسائل لابن منجب الصيرفى : طبع القاهرة
ديوان الأمير تميم : نسخة خطية بمكتبتى
ديوان ابن قلاقس تحقيق خليل مطران : طبع بجريدة الأهرام
ديوان ابن هانىء الأندلسى تحقيق زاهد على : طبع القاهرة
ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة (تحقيق محمد كامل حسين) : من سلسلة مخطوطات الفاطميين
ذخيرة الأعلام بتواريخ خلفاء مصر : نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٨٥٠
راحة العقل لأحمد حميد الدين الكرمانى (تحقيق محمد كامل حسين ومحمد مصطفى حلمى) : من مطبوعات الجمعية الإسماعيلية

الرد على الباطنية للغزالى : طبع ليدن سنة ١٩٢٦

رسائل إخوان الصفا : طبع القاهرة

الرسالة المصرية لأمية بن أبى الصلت : نسخة خطية بدار الكتب المصرية

رسالة الرشد والهداية لمنصور اليمن (تحقيق محمد كامل حسين) : من سلسلة مخطوطات الفاطميين

رسائل الكرمانى (ثلاث عشرة رسالة) : نسخة فتوغرافية بمكتبتى

الرسائل المستنصرية : نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن

رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر : نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٠٥

روضة الأدب فى طبقات شعراء العرب للشهاب الحجازى : طبع حجر بومباى

الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة المقدسى : طبع القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ

سرائر النطقاء لجعفر بن منصور : مخطوط بمكتبتى

سفر نامه لناصرى خسرو ترجمة الدكتور يحيى الخشاب : طبع القاهرة

سيرة الأستاذ جوذر : نسخة خطية بمكتبتى

سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة (تحقيق محمد كامل حسين) : من سلسلة مخطوطات الفاطميين

صبح الأعشى للقلقشندى

الطالع السعيد للأدفوى : طبع القاهرة سنة ١٩١٤

عقد الجمان للعينى : نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤

عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة : طبع القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ

عيون المعارف ورياض كل متبصر عارف : طبع بومباى سنة ١٢٩٧ هـ

عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف للقضاعى : نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٧٧٩

الغيث المنسجم للصفدى : طبع القاهرة

الفاطميون فى مصر للأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن

الفترات والقرانات لجعفر بن منصور اليمن : نسخة خطية بمكتبتى

فتوح البلدان للبلاذرى : طبع القاهرة

الفخرى فى الآداب السلطانية لابن طباطبا : طبع القاهرة

فرق الشيعة للنوبختى : طبع استامبول سنة ١٩٣١

الفرق بين الفرق للبغدادى : طبع القاهرة

الفصل لابن حزم : طبع القاهرة

فضائل مصر لابن زولاق : نسخة خطية بمكتبة الأزهر

فضائل مصر للكندى : نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٧٥٣

الفهرست لابن النديم : طبع القاهرة

فهرست كتب الشيعة للطوسى : طبع كلكتا سنة ١٨٥٥

فوات الوفيات لابن شاكر : طبع القاهرة

القاموس المحيط

الكشاف للزمخشرى

كشف أسرار الباطنية لابن مالك الحماوى : طبع القاهرة سنة ١٩٣٩

الكشف لجعفر بن منصور بتحقيق شتروتمان : طبع القاهرة

كنوز الفاطميين للأستاذ الدكتور زكى محمد حسن

لسان العرب

المجالس المؤيدية للمؤيد فى الدين داعى الدعاة (ثمانمائة مجلس) : نسخة خطية بمكتبتى

المجالس والمسايرات للقاضى النعمان بن محمد المغربى : نسخة خطية بمكتبتى

المجالس المستنصرية تحقيق محمد كامل حسين : من سلسلة مخطوطات الفاطميين — طبع دار الفكر العربى

مجموع أشعار الاسماعيلية : نسخة خطية بمكتبتى

مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى : نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٥٥١ تاريخ

المخصص لابن سيده

مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى : نسخة خطية بدار الكتب المصرية
المسالك والممالك لابن حوقل
معرفة أخبار الرجال للكشى : طبع بمباى سنة ١٣١٧
المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد : طبع ليدن سنة ١٨٩٩
مقالات الاسلاميين للأشعرى
المقفى الكبير للمقريزى : نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٢١٤٤
الملل والنحل للشهرستانى : طبع القاهرة
معجم الأدباء لياقوت : طبع فريد رفاعى
معجم البلدان لياقوت
مقولات الهند للبيرونى
المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار للمقريزى : طبع القاهرة
النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى : طبع دار الكتب المصرية
نظرية المثل والممثول للدكتور محمد كامل حسين : طبع القاهرة سنة ١٩٤٨
نقد العلم والعلماء لابن الجوزى : طبع القاهرة
النكت العصرية لعمارة اليمنى : طبع سالون سنة ١٨
نهاية الأرب للنويرى : نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس
الهداية الآمرية تحقيق الأستاذ آصف فيظى : نشر جمعية الدراسات الإسلامية بالهند
الهمة فى آداب اتباع الأئمة تحقيق محمد كامل حسين : من سلسلة مخطوطات الفاطميين طبع دار الفكر العربى
وفيات الأعيان لابن خلكان : طبع القاهرة
الولاة والقضاء للكندى : طبع بيروت سنة ١٩٠٨
يتيمة الدهر للثعالبى : طبع بيروت

المصادر والمراجع الإفرنجية

Asaf A. A. Fyzee :

— A Chronological List of the Imams and Da‘is. (J. B. B. R. A. S. 1934).
— Isma‘ilia Law and Its Founder.
— Materials For an Ismaili. bibliography. (J. B. B. R. A. S. Vol. 11. 1935)
— Qadi un - Nu‘mans - (J. R. A. S. 1934.)

Guyard (M. S.) :

— Fragments relatifs à la doctrine des Ismailis. (Paris)

De Goeje.

— Mémoires sur les Carmathes du Bahrain - et les Fatimide, (1886.)

Hamadany (H.F.) :

— The History of the Isma‘ili da‘wat and its literature during the last Phase of the Fatimid. (J. R. A. S.) 1932.)

Ivanow, (W.)

— A Guide to Ismaili Literature. (London 1933.)
— The Organisation of the Fatimid Propaganda. (J. B. B. R. A. 3. 1939.)
— The Creed of the Fatimids (Bombay 1936.)
— Ismailis and Qarmatians (J. B. B. R. A, S. 1940)
— The Rise of the Fatimids (Bombay 1942)

Lewis, (R.)

— The Origins of Isma‘ilism (1940)

Massignon (L.)

— Salmam Pak (S. E. I.). Paris 193
— Esquisse d'une bibligraphic Qa[illegible] 1922.

O'Leary,

— A short History of the Fatimide Khalifafe 1923.

Quatremere, (N.)

— Mémoire Historiques sur la Dynastic des Khalifs Fatimid J. A. 1836.

استدراكات

وقعت أثناء الطبع عدة أخطاء مطبعية نعتذر عنها أشد الاعتذار . ونذكر أهمها الآن :

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب	صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٤	١٩	الرسولى	الرسول	١٢٦	٣	تبين	تسكن
٨	٧	مرط	شرط	١٢٨	١٨	والعيدين	والعيدان
١٧	٤	الدى	الذى	١٤٠	٥	شعراء	شعر
٢١	٢٠	تعيرف	تعريف	١٤٤	٧	بفرع عن عين	يفرع عن يمين وشمال
٢١	٢٣	الطلق	المطلق	١٥٣	١٠	تحوبلها	تحريمها
٢٧	١٦	العن	العين	١٧٦	٢٢	الدوو	الدولة
٣٨	١	ازيادكم	ازديادكم	١٩٣	٦	أنى	إنى
٤٧	١٩	دامخ	دامغ	١٩٧	٧	اللجاظ	اللحاظ
٥٦	٢٢	فرغايته	فرعايته	٢٠٦	١٧	قد لم	قد ألم
٩٨	١٣	المغرى	المعرى	٢٤٢	٣	مبالانا	مبالاة
١١٦	١١	المؤيدة	المؤيدية	٢٥٠	١	عمل	غمل
١١٧	١٨	إقامته	إمامته	٢٥٦	١٤	وبرجد	ويوجد
١١٨	١٩	طهر	بظهر	٣١٤	٧	اسجع كتاباتهم	السجع فى كتاباتهم
١٢٤	٨	العاض	العاص	٣٢٦	٩	ولا تدرى	ولا ندرى

